

السنة الثالثة
العدد الأول

ربيع الأول ١٣٧٠ هـ
يناير ١٩٥١ م

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
«قرآن كريم»





رسالة الإسلام

مجلّة اسلامية عالمية

تصدرها دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تنشر الطبعة الثانية بإذن خاص من
المهندس القمى نجل المغفور له العلامة القمى، السكرتير العام
لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تصدّى لنشرها
مجمع البحوث الاسلامية للآستانة الرضوية المقدّسة
و
مجمع التقريب بين المذاهب الاسلامية

١٤١١هـ/ ١٩٩١م

الأمور الفنّية والطبع
مؤسسة الطبع والنشر فى الآستانة الرضوية المقدّسة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

نحمدك اللهم حمداً يوافى نعمك ، ويكافىء مزيدك ، ونصلى ونسلم على خاتم أنبيائك ، وصفوة خلقك ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداه .

٭ ٭ ٭

أما بعد : فإن ﴿ رسالة الإسلام ﴾ تفتتح عامها الثالث على بركة الله مغتبطة قريرة العين بما وفقت إليه من سفارة ناجحة بين أهل العلم والدين فى مختلف البلاد الإسلامية ، وما قربت من شقة بين العقول والقلوب ، ناشرة مبادىء الإسلام ، باسطة مناهجه فى الإصلاح ، داعية أهله إلى الوئام ، مروّجة فى الخافقين لدعوة السلام ، رافعة راية القرآن ، تنادى أهله بنداء منه : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » . « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » .

تغتبط بذلك ﴿ رسالة الإسلام ﴾ وتقر به عينا ، وتتحدث بنعمة الله فيه ، وتمضى فى خطتها السديدة الراشدة ـ إن شاء الله ـ هَيْنةً لَيْنةً ، تدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتجادل عن مبادىء الحق بالتى هى أحسن ، واثقة

أن كل يوم يمر عليها فهو بفضل الله يوم لها ، وأن كل قارىء يتصفحها فهو كسب كسبته ، وأن كل فكرة تتردد على أقلام كاتبيها فهى غراس طيب لا يلبث أن تزهوَ ثماره ، وتدنو للناس قطافه « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » .

* * *

لقد كان المسلمون إلى عهد قريب أمة تنازعتها الظنون على نفسها ، وأفسدت الخلافات ذات بينها ، وشغلتها عن المجد الأول ، وعن منازل العزة التى أنزلها الله إياها بالإسلام والقرآن ، شواغل مصنوعة مدخولة أثقلتها حتى جاز المخِفُّون ، وعوَّقتها حتى سبق المخَلَّفون ، وكان أعداؤها يقفون منها موقف من يغرى بين ديكة لتحترب ، أو كباش لتنتطح ، أو آساد ليصول بعضها على بعض ، فتُنشَب أضغان وتسال دماء ، وتُفرَى أُدُم ، وتهاض عظام ، وكان قصارى ما يفعله نابهٌ إذا نبه أن يحوقل للشر دون أن يدفعه ، أو يصد عنه حتى لا يراه أو يسمعه ، فاستشرى الداء ، وتفاقم الخطب ، وعظم الأمر ، وصار المسلمون متقاطعين متدابرين . يتبادلون بينهم من العداوات ما لا يتبادله أهل الديانات ، وجرهم هذا التجافى إلى الجهل بأنفسهم ، والاختلاف على مصادر علمهم ، والاحتكام إلى موازين مختلفة ، كل شعب يمسك بأحدها فيراه ميزان الحق والعدل ، ويرى فى غيره الباطل والجور .

ثم شاءت حكمة الله ورحمته أن يشرق النور من بين جحافل الظلام ، وأن تبدو العافية من خَلَل السقام « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته » فهيأ للمسلمين تلك الجماعة الخالصة المخلصة التى تمثل طوائفهم ، وتجمع مفكريهم وقادتهم ، وتدعو إلى إصلاح ذات بينهم ، ويستوى لديها كل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ما دام لم ينكر من الدين معروفا ، أو يعتنق منكراً ، وها هى ذى « دار التقريب » ترسى أوتادها فى قاهرة المعز ، على ضفة النيل اليسرى ، تجاه الأزهر الشريف الراسخ على ضفته اليمنى ، فتعينه

ويعينها ، ويعملان كلاهما على اصلاح العقول والقلوب ، والتأليف بين الإخوة ، تحقيقاً لقوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

* * *

لقد تولى مشيخة الأزهر الجليلة فى مطلع هذا العام الهجرى المبارك رجل عظيم بإيمانه ، عظيم بعلمه ، عظيم بخلقه ، عظيم بأفكاره الاصلاحية ، وليس من عادتنا أن نعنى بالأشخاص أو نترجم للرجال من الأحياء ، ولكننا نذكر الآن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، ومنزلته من جماعة التقريب هى منزلته ، لأنه فى نظر المسلمين قد أصبح فى هذا الجيل رمزاً لفكرة ، قبل أن يكون شخصاً يُتحدث عنه ، كذلك ينظر إلى فضيلته المسلمون جميعاً ، لا فرق بين سنى وشيعى ، فكلهم يعرفونه ، وكلهم يرجونه .

إن الذين يتابعون شئون الأزهر ، ويعرفون رجاله ، ويرقبون تاريخه الحديث يعلمون أن فضيلة الأستاذ الأكبر رجل مؤمن بالله حق الإيمان ، غيور على العلم والدين غيرة تشبه غيرة السلف الصالح من المؤمنين الأولين ، وكأنما أراد الله أن يتولى فضيلته زعامة المنادين بالإصلاح قبل أن يتولى مكان القيادة العملية ، والتوجيه الرسمى ، فكان بيته قبلة ، وقوله حجة ، ورأيه منهاجا ، لذلك استبشر الناس بمقدمه ، ورَجَوْا للأزهر على عهده تقدما ونجاحا ، واستقامة وصلاحا ، وسيراً إلى غايته السامية بخطى واسعة ، وتالله إنه لأهل لهذه الثقة ، وموطن لذاك الرجاء .

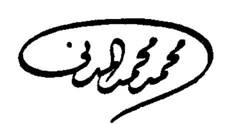
إن أبرز صفة فى الأزهر بين الجامعات والمعاهد التعليمية ، أنه « اسلامى عالمى » ، وقد ثبتت له هذه الصفة من جانبين ، أحدهما أنه يضم بين جوانحه أبناء المسلمين من كل شعب ، فترى فيه التركى والشامى والعراقى والهندى واليوغوسلافى والجاوى وغيرهم ممن يجلسون إلى جانب أخوانهم المصريين فى حلقاته ، ويزاملونهم فى دراساته ، والثانى أنه عريق فى عصور الإسلام كلها ، بدأ شيعياً ثم صار سنياً ،

وتقلبت عليه ألوان من الدراسات والقيادات والحكومات ، فكان موقفه منها موقف الفاحص المتخير ، الذى يعرف ما يعرف ، وينكر ما ينكر ، معتزاً بحريته وسعة أفقه ، ولا توجد جامعة إسلامية أو غير إسلامية لها هذا العمر المديد ، والتاريخ المجيد ، فإذا كان هذا هو مقام الأزهر فى تاريخ المسلمين ، وفى بلادهم وشعوبهم ، فلن تتحقق رسالته إلا إذا أسند أمره إلى رجل « إسلامى عالمى » قد حلب الدهرَ أشطرَه ، وذاق حلوه ومره ، واتسع أفقه الفكرى فبرىء من التعصب لا يبغى إلا الله ، ولا يخضع إلا للحق .

ولذلك رجا الناس خيراً كثيراً حين علموا أن فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم قد صار شيخاً للأزهر : رَجَوْه للعلم والدرس ، ورجوه للاسلام والمسلمين ، وإن أسرة التقريب لأول الراجين ، وما أسرة التقريب بألف أو ألفين أو عدة آلاف ، وإنما هى الملايين ممن يدينون بدين الحق على اختلاف المواطن والشعوب والطوائف الإسلامية . إنهم قد ذاقوا مرارة التفرق ، واكتَوَوْا بنيرانه أجيالا بعد أجيال ، ، وإن تاريخهم ليسجل ألواناً من المآسى التى تقشعر لذكرها الجلود ، وإن ما هم فيه من تخلف وضعف لمن آثار تلك المآسى التى ليس لدينهم ولا لدنياهم حظ فيها ، فإذا نظروا إلى الشيخ الأكبر متطلعين فيه إلى منقذ ، فحق لهم أن يفعلوا فإنه أمل مبعثه جهات ثلاث فى فضيلته : إيمانه ، وأزهريته ، ومكانته من التقريب ، ولهذا تتوارد على « دار التقريب » منذ أسندت إليه المشيخة الجليلة ، رسائل تفيض بالشكر لله على نعمته ، والرجاء فى أن يؤيده بنصره ، ويمنحه القوة ، ويوفقه إلى ما فيه مصلحة العلم والدين ، والإسلام والمسلمين .

اللهم كما وجهت اليه القلوب ، فحقق على يديه الآمال ، ويسر له الصعاب ، إنه لاسهل إلا ما جعلته سهلا ، وأنت إن شئت جعلت الحزن سهلا .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ؟



تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

سورة آل عمران

— ٣ —

قلنا فيما كتبناه عن سورة آل عمران ، إن السورة عنيت بتقرير الحق فى مسألة الألوهية وما يتعلق بها من أمر الدين والوحى والرسالة ، وعنيت بتقرير العلة التى من شأنها أن تصرف الناس عن معرفة الحق ، والعمل بمقتضاه ، وإن هذه العلة ترجع إلى شدة الحرص على التمسك بالسلطان ، والقبض على زخارف هذه الحياة .

وفيما بين الأمرين عرضت لكثير من عناد أهل الكتاب ، وإثارتهم للشبه والشكوك فى نفوس المسلمين ، ومحاولتهم زعزعة الإيمان من قلوبهم ، كفراً وعناداً ، وصداً عن سبيل الله .

وفى جو هذه المواقف كلها وجّهت السورة جملة نداءات للمؤمنين ، ترشدهم فيها إلى ما يحفظون به أنفسهم من التأثر بحيل أعدائهم وخصومهم ، ويركزون به وحدتهم ، ويصونون كتلتهم ، ويبقون به على شخصيتهم كأمة قوية متماسكة ، لا يتسرب اليها شىء من عوامل الضعف والانحلال ، لا من داخلها ، ولا من خارجها .

وقد رأينا أن نتقدم إلى قراء « رسالة الإسلام » بكلمات عن هذه النداءات التى سيجدون فيها القوى التى يحتمها الاجتماع لصيانة كل مجتمع ، وما أجدرنا — معشر المسلمين — وبخاصة فى هذا الوقت الذى انحلت فيه عرى الوحدة الإسلامية وتمكنت من المسلمين عوامل الإفساد داخلية وخارجية ؛ ما أجدرنا أن نستمع إلى هذه النداءات الإلهية ، وأن نتدبرها ، وأن نعقل معناها ، وأن ندرك وحيها ، وأن نجعلها نبراسنا فى الحياة ، لتعود إلينا صولة الأمة القوية ، ومكانة الأخلاق القويمة ، وننزل المنزلة التى أرادها الله لنا ، وأنزل كتابه لأجلها « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

* * *

يتسرب الخلل إلى الجماعات ، ويلحقها الضعف والوهن من نواح متعددة : يلحقها من جانب ضعفها النفسى ، وقبولها التأثر بما يثار بينها من المثيرات ، وما يذاع فيها من الأراجيف والأباطيل ، ويلحقها من جهة انحلال أفرادها ، وعدم تكتلهم حول هدفها وغايتها ، ويلحقها من جانب السكوت عما يرتكب أبناؤها فى داخلها من مخالفات وفسوق وآثام ، فتنتشر حمى ذلك الوباء ، فتعم الأمة ، وتصبح كلها بعيدة عن الخير والفلاح ، ويلحقها من جهة انخداعها بظواهر خصومها واعتقادها فيهم الإخلاص والصدق ، فتمتزج بهم ، وتلقى بحبال المودة إليهم ، وتلحقها من جهة القسوة تملأ قلوب أغنيائها فتحول بينهم وبين الشعور بحاجة فقرائها ، فلا يمد الغنى يده بالمساعدة والمعونة للفقير المحتاج ، فيضطغن ذلك الفقير بما يتقلب فيه من بؤس وشقاء ، على ذلك الغنى بما ينعم به من نعيم ورخاء ، وبعد هذا وذاك يلحقها الضعف والوهن بأخلاق الجزع والهلع لما يصادفها من أحداث وصعاب ، فتفقد قوة المقاومة ، وقوة التوقى ، وتخر صريعة أمام الأحداث والخطوب ، والأعداء والمحاربين .

ولعلنا بالتطبيق لهذه المبادىء على الأمم وأطوارها فى قوتها وضعفها ، سواء

أكانت متدينة أم غير متدينة ؛ ندرك تمـاماً أنه ما من أمة بقيت وقويت واستقر وجودها ، واشتد ساعدها ، واستمر لها الملك والسلطان ، إلا كان الاحتيـاط من هذه الثغرات شأنهـا وديدنهـا ، وما من أمة أكلهـا الدهر ، وأفنتها الحياة ، إلا كانت ناحية أو أكثر من هده النواحى مصدراً لنكبتها وما صارت اليه ، « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ولعلنا ندرك إذا انتهينا من هذا التطبيق ، ووافانا التاريخ الصادق بالمثل عليه فى جانب الإيجاب والسلب : لعلنـا ندرك أن القرآن الكريم بإشارته إلى هـذه المبادىء ، وتحذيره من هـذه الثغرات فى مقام تكوين الأمم والاحتفاظ بعوامل بقائها ؛ لم يفاجىء الناس بمـا ليس من سنن الله فى كونه ، ولم يكلفهم بغير ما تقضى به طبيعة الوجود ، أو بمـا لم تجربه التجارب فى مختلف الأمم والأزمان والآباد .

ولعلنا إذ ندرك هذا ، ندرك أيضا أن ورود هذه المبادىء الاجتماعية الدقيقة ، وهذه الارشادات التى لا يعرفها ولا يدرك آثارها إلا من رسخت فى السياسة والاجتماع والتاريخ أقـدامهم ، وكانوا طول حياتهم فى بحث وتنقيب عن علل الاجتماع ، وما تبرأ به تلك العلل ، وليس من المعقول أن محمداً صلى الله عليه وسلم بنشأته المعروفة ، وفى المده المحدود ، وفى محيطه المعروف ، قد وصل بنفسه إلى ذلك العلم ، وأحاط به هـذه الإحاطة الشاملة الـكاملة التى تناولت علل الظاهر ، وعلل الباطن ، وعلل الداخـل ، وعلل الخارج ، وأبرزه ذلك الإبراز القـوى فى تلك المناسبات التى تلتئم بمواضعها كل الالتئام ، فسبحان من علمه هذا العلم ، وأوحى إليه بهذا البيان « إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى » .

ولنرجع إلى هذه النداءات فنعرض لها بعد هـذه المقدمة بشىء من التفصيل :

كان أول هذه النداءات هو قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعـد إيمـانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيـكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

كثيراً ما كشف القرآن الكريم عن نيات الكفار وأهل الكتاب للمؤمنين ، وأنهم لا يألون جهدهم فى ردهم عن الحق الذى أشرقت أنواره على قلوبهم ، وأنهم كانوا يتخذون لذلك صورا وألواناً من الشُّبه وإثارة الفتن والإيقاع بينهم ، وفى ذلك يقول الله عز وجل فى سورة البقرة : « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، ويقول فيها : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ويقول : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » ويقول فى سورتنا هذه : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » .

وكان من هذا ما رواه المفسرون بصدد آيتنا هذه : « إن تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » : مرّ شاس بن قيس اليهودى ـ وكان عظيم الكفر ، شديد الطعن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ـ على نفر من الأنصار يجمع بين الأوس والخزرج ، بعد أن استل الإسلام ما كان بينهما من أحقاد وضغائن ، فشق عليه أن رآهم وقد طابت نفوسهم ، وجلسوا يتبادلون أحاديث المودة والإيمان والإخاء ، فجلس إليهم ، وأخذ يجرهم شيئاً فشيئاً إلى أحداث الماضى حتى وقع بهم فيما كانوا فيه ، وجرت بينهم ذكريات ذلك الماضى الذى جللهم بسواد العداوة والخصومة ، وأخذ ينشدهم بعض ما قيل فى حروبهم من الشعر ، فحرك من وجدانهم ، وهاج من شعورهم ، وما زال بهم حتى تنادوا فيما بينهم ، وعلى أنفسهم : السلاحَ السلاحَ ، ولكن الله الذى كفلهم برعايته ، وطهرهم من رجس الجاهلية ، وعداواتها الغاشمة ، وملأ بالإيمان قلوبهم ، وأقام على الألفة والأخوة أمرهم ، لم يمهل هذا الشيطان الذى نفث فيما بينهم سمومه ، فأحبط سعيه ، وأبطل كيده « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » فما هى إلا لحظات حتى بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم تحيط به قلوب أخلصت

لله ورسوله من المهاجرين والأنصار وصاح فيهم : أترجعون إلى أحوال الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم ؟ ! فسكنت ثائرتهم وأغمدوا سيوفهم ، ورجعوا إلى الله ورسوله تائبين نادمين مستغفرين، وهكذا التأم الجرح الذى حاول هذا المفسد أن ينكأه ، وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإخوانهم راضين مطمئنين ، وأنزل الله هذه الآية : « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين » .

ولنقف هنا قليلا لنستخلص العبرة من هذا الموقف كله

فنقول أولا : إنه لا يزال هذا الشأن الذى تناوله شاس بن قيس فى جماعة المؤمنين الأولين، يتناوله أعداء المسلمين فى كل عصور التاريخ حتى يومنا هذا، وإن للمسلمين فى كل عصر من هؤلاء الخصوم النافسين عليهم مكانتهم، الحريصين على تمزيق شملهم ، وتفريق كلمتهم ، المنفرين لهم عن اجتماعهم حول كتابهم ، « شاسا » يعمل هذا العمل ، ويدأب عليه جاهداً ، لا وانياً عنه ولا مقصراً ، ولكن هناك فرقا بين شاس اليوم وشاس الأمس ، فقد كان الأول فرداً ضعيفاً ضئيلا ، أو كان أفراداً معدودين ليست لهم قوة ، ولا يستعينون بعلم ولا نظام ولا سلاح ، ولا يملكون من الجاه والمال والسلطان ما يجذبون به عشاق المال والجاه والسلطان ، أما شاس اليوم فيتمثل فى دول مختلفة ذات قوة وعتاد وعلم وسلطان ، وكيد وتدبير ، تتجاذب المسلمين فى كل أقطارهم ، وتتفق جميعاً فى غاية شاس الأول من هدم الإسلام وتمزيق أهله ، وإحياء العداوات التى أطفأ الله نيرانها من قبل ، وإذكاء نار الخصومة والبغضاء فيهم حتى جعلوهم كأرباب الأديان المتفرقة ، ينفس بعضهم على بعض ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويظن بعضهم الظنون ببعض ، وقطعوهم أمما وشيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون .

ونقول ثانياً : إن شاس الأمس لم يستطع أن يصنع بتلك الكتلة المتراصة القوية شيئا مع وجود ذلك القلب القوى الرحيم ، قلب محمد صلى الله عليه وسلم ،

ومن حوله جنود الإيمان والإخلاص ، فأبطل الله بهم كيد الكائدين ، ورد الألفة والمحبة إلى جماعة المؤمنين ، فما أجدر المؤمنين اليوم أن يتنبهوا إلى شاسهم الذى يعمل فى صفوفهم ، وما أحوجهم إلى قائد قوى ذى عزمات يجمع شملهم ، ويذود عنهم أعداءهم ، ويطهر جوهم من فتن المفسدين ، وكيد الكائدين .

وأحب أن ألفت الأنظار إلى ما تضمنته هـذه الآية من عدالة فى الحكم وإنصاف لأهل الكتاب ، وعدم تجاوز للواقع فى شأنهم ، فإن أهل الكتاب ، ككل أمة ، فيهم الخبيث والطيب ، والمحسن والمسىء ، ومحب الخير ومحب الشر ، وظروف الحياة والتعامل والاشتراك فى الوطن ، وبخاصة المصاهرة التى شرعها الله بيننا وبينهم ، كل ذلك يقضى بإباحة تبادل مظاهر الحياة ، ولا تخلو من أمر وإرشاد ونهى وإبداء رغبة وإشفاق وتعاون وشهادة ونحو ذلك مما يقضى به الاجتماع ، وليس من الحكمة أن يُفَوِّت المسلمون على أنفسهم الانتفاع بما قد يجدونه من هؤلاء خاليا عن الإيذاء ، ممحضا للنفع والخير ، لهذا نرى القرآن فى مثل هذا المقام يقصد فى حكمه ، ويعبر التعبير المتزن الذى يفتح للمسلمين باب التعامل مع أهل الكتاب ، ويصدر الحكم فى التحذير منهم جزئياً لا كلياً ، أنظر إلى قوله تعالى : « ودت طائفة من أهل الكتاب » . « وقالت طائفة من أهل الكتاب » « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما » . « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه » . « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب » . « ليسوا سواء » .

وعلى هذه السنة العامة جاء التعبير فى آيتنا هذه : « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » ، وعلى هذه السنة الغالبة يُنزَّل قوله تعالى : « يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ، يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وأنتم تعلمون ، يأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » .

ثم يذكر الله للمؤمنين الذين يتعرضون لمثل هذه المواقف أن لديهم إذا رجعوا إلى نفوسهم وقلوبهم مايعصمهم من التردى فى هذه الحفرة التى يحفرها لهم أعداؤهم ، لديهم آيات الله ، وفيهم رسواه ، آيات الله كتابه الناطق ودلائله الصامتة ، وحِكم تشريعه البينة الواضحة ، ومثله الماضية والحاضرة ، أما رسوله فقد كان بشخصه فى الأولين ، وهو بسنته وسيرته وأخلاقه فى الآخرين .

وإذا كان شخص الرسول قد غاب عن أعين الآخرين ، فهو حاضر فى قلوبهم ، ماثل فى أنفسهم ، ولم تنقطع أسوتهم به ، ولا متابعتهم له ، فهم يذكرونه فى الصباح والمساء ، ويسمعون النداء باسمه فى كل صلاة مفروضة ، ويجرون اسمه على ألسنتهم فى كل توحيد وتشهد ، فمنزلة وجوده فيهم بعد مماته هى منزلة وجود الكتاب فيهم ، كلاهما متواتر يتلقاه جيل من المؤمنين عن جيل .

وقد صح فى الخبر أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، قال : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدى ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى » (١) والتمسك بهما هو الاعتصام بالله الذى جعله الله وقاية من الضلال والهلاك ، وسبيلا إلى النجاة والهدى « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

* * *

ثم جاءت الآية الثانية تشرح لنا سبيل هذا الاعتصام ، وفى هـذا السبيل أوصت بأمور :

(١) تقوى الله حق تقاته .

(٢) الاعتصام بحبل الله .

(٣) ذكر نعمة الله فى تأليف قلوبهم بعد العداوة .

(٤) الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

(٥) الحذر من الوقوع فيما وقع فيه السابقون من التفرق والاختلاف بعد مجىء البينات .

---

(١) تعددت طرق هذا الحديث ، وجاء فى بعضها : « كتاب الله وعترتى » ولا شك أن سنته هى التى كان عليها هو وعترته الطاهرة .

هذا هو ما تضمنه النداء الثانى ، وهو قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

أما تقوى الله حق تقاته ، فللمتقدمين فى معناها عبارات : منها أن يطاع الله فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، ومنها أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، وأن يقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم .

وقد أخذ بعضهم من بعض هذه العبارات : أن العباد قد كلفوا فى هذه الآية بما لا طاقة لهم به ، ويروون فى ذلك عن ابن عباس ، أنه لما نزلت هذه الآية شق الأمر على المسلمين ، فأنزل الله بعدها « فاتقوا الله ما استطعتم » ونسخ ذلك قوله « اتقوا الله حق تقاته » وبقى عجز الآية « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » وهذا لون ما كان لنا أن نراه فى كتب التفسير ، وما كان لأحد أن ينقله عن أحد فى بيان معنى كلام الله ، فإن تقوى الله حق تقاته ، هى تقوى الله ما استطاع الإنسان . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وهى ترجع إلى حفظ النفس من كل ما يدنسها خوفا من غضب الله وطمعاً فى مرضاته ، وعملا على إقرار الحق والصلاح فى العالم ، وأن يكون ذلك كله بقدر ما تحتمل قوى الانسان من فعل الخير والمعروف مع الإخلاص فيهما دون تفريط فى مقدور ، وظاهر أنه لا تعارض بين الآيتين حتى يقال إن إحداهما ناسخة للأخرى .

وهذا الأمر يرسم للمؤمنين سبيل صلاحهم ، واستقرار مجتمعهم ، ويربطهم فى هذا الشأن برابطة وثيقة لا تنفصم عروتها ، فإن كل إنسان إذا اتقى الله وراقبه وامتلأت نفسه بعظمته ، فخاف غضبه ، ورجا رضاه ، طهرت نفسه ، وأشرق عليها

نور الحق واليقين، واتجهت إلى الخير فى خلوتهـا وجلوتهـا، وسرائهـا وضرائها، وسائر أحوالها ، فأفادت واستفادت ، وهـذا هو أساس الاصلاح الاجتماعى الحق ، الذى يكون منبعه القلب ، ومبعثه الإيمـان ، لا ذلك الذى يسوق اليه القانون ، وتدفع إليه الرهبة والخوف من السلطان ، ولعـل الفساد الذى نراه متفشياً فى العالم، ضارباً أطنابه فى ربوعه ، إنمـا نشأ من إهمال هـذا الجانب ، وتركيز الحياة على أسس لا تتصل بالقلب، ولا تمت إلى الروح .

ومرة أخرى نلفت الأنظار إلى أن تحديد هذا المعنى أساساً للصلاح ، والمناداة به فى غير ما آية من كتاب الله ، وفى غير ما حديث عن رسول الله ، لمن آيات الله على صدق محمد ، وعلى أنه يتلقى عن الله العليم بخفيات النفوس ، الخبير بطبائعها وما تصلح عليه .

وقد جاء قوله تعالى « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » من مقتضيات تقوى الله حق تقاته، ومعناه لتستمروا على الإيمان، ولتجتنبوا عوامل الخسران والكفران، ولتَسُدوا دون قلوبكم وأعمالكم منافذ الضـلال والبهتان، فلا تتأثرون بشبهة ، ولا تركنون إلى خديعة، ولا تغترون بظاهرة، فإنكم إذا كان ذلك منهجكم وسنتكم لم يفارقكم إسلامكم لحظة، ولم يأتكم الموت إلا وأنتم مسلمون .

هذا وقد كثر فى القرآن أمر الناس بتقوى الله، وجاء ذلك على أساليب مختلفة وتنبيهات متعددة، مذكراً حيناً بنعمة الخلق، وحيناً بنعمـة الرزق، وحيناً بهول الساعة ويوم الجزاء ، « يأيهـا الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء» «يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم» «يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا» . «واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون» إلى غير ذلك .

وقد كان الأمر بالتقوى شأنا عاما على ألسنة جميع الرسل ، كما أن موجبات

تقواه والخوف منه عامة فى جميع الأمم ، وبذلك التقت الرسل أولهم مع آخرهم على هذه الكلمة : « أفلا تتقون » . « فاتقوا الله وأطيعون » .

إذا وجدت التقوى فى النفوس دفعت إلى التمسك بكتاب الله ، والاعتصام بحبله ، وذلك يكون بتعرف أحكام الله أوامره ونواهيه ، والعمل بها ، والخضوع لها ، ونبذ ما سواها والعمل على نشرها .

وحبل الله كما روى مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم هو القرآن الكريم ، الذى يهدى للتى هى أقوم ، وهو هدى الله الذى بعث به الأنبياء ، وختم به الرسالات ، وعُبر عنه بالحبل ـ والحبل أداة الربط والحفظ ـ للإشارة إلى أن الكتاب بتعاليمه وأحكامه يربط العاملين به بعضهم ببعض ، ويربطهم جميعاً بربهم ، ويكون عصمة لهم من التردى فى مهاوى الأهواء والشهوات .

وبعد أن تأمر الآية المؤمنين بالتمسك والاعتصام بحبل الله ، المقتضى لجمع الكلمة ، تصرح بالنهى عن التفرق « ولا تفرقوا » وقد أطلق النهى عن التفرق إطلاقا ، فشمل التفرق الناشىء عن الاعتداد بالعصبيات والجنسيات ، كما كانت سنة أهل الجاهلية التى أبطلها الإسلام ، والتى لأجلها نزلت هذه الآيات ، والتى جاء فيها قوله صلى الله عليه وسلم : (ليس منا من دعا إلى عصبية) وشمل التفرق الناشىء عن الآراء المبتدعة التى سحر بها فريق من الناس ، وآثروها على كتاب الله فنبذوه وراءهم ظهرياً ، واتبعوا ما تملى عليهم الشهوات والأهواء ، وصاروا بها شيعا يضرب بعضهم رقاب بعض « إن الذين فرقوا دينهم وكانو شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

وليس من التفرق المنهى عنه أن تختلف الآراء والأفهام فيما جعله الله محلا للآراء والأفهام ، ووكل أمره إلى اجتهاد المجتهدين عن طريق النظر فى الأدلة والمصالح ومراعاة ما ينفع الناس ، وإنما التفرق المنهى عنه هو التفرق عن سبيل الله الواضحة البينة ، والإعراض عما نص الله عليه ، وتحكيم الهوى فى الدين والمصلحة ، وعدم الرجوع فى معرفة الحق والصالح إلى قواعد التشريع العامة التى تضمنها كتاب الله

وهديه « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »
« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله
ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » .

فالاختلاف فى التوحيد وصور العبادات وعقيدة البعث والجزاء ، تفرق فى الدين ، والاختلاف فى جعل أساس التشريع هو كتاب الله ، تفرق فى الدين ، واتخاذ الاختلاف فى الرأى فيما جعله الله محلا للرأى سبيلا للتقاطع والتدابر تلبيةً لروح العصبية المذهبية ، تفرق فى الدين .

وقد اختلف الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون هذا الاختلاف المذهبى ، ولم ينكر منهم أحد على أحد ، ولم يقاطع منهم أحد أحدا ، بل اقتدى الشافعى بالحنفى والحنبلى بالمالكى ، وبجل عبدُ الله بن عمر ، عبدَ الله بن مسعود ، وكانوا جميعاً فى كل عصورهم مع اختلافهم فى الفهم والرأى إخواناً فى الله ، معتصمين بحبل الله ، وما كان أجمل صورة المسلمين وقد اجتمعت وفودهم فى المؤتمر الإسلامى الأول بفلسطين فى المسجد الأقصى ، فصلى بهم أحد كبار مجتهدى الشيعة الإمامية فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، لافرق بين من يدعى بسنى ، ولا من يدعى بشيعى ، وكانوا جميعاً صفوفا متراصة خلف إمام واحد ، يدعون رباً واحداً ، متجهين إلى قبلة واحدة « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

وما أجمل أن ترى جماعة التقريب وقد التف أعضاؤها حول منضدة واحدة يبحثون فى شئون الإسلام ويستعرضون أحواله ويرسمون خطط الدعوة إلى الله ، وفيهم الزيدى والإمامى والحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى ، وفيهم رجال الدين ورجال الدولة وغاية الجميع واحدة هى العمل على ضم صفوف المسلمين وتنقيتها من أشواك التفرق .

وهذا هو الوضع الدينى الصحيح ، ولكن نفراً من المسلمين فى الماضى والحاضر لَذَّ لهم ـ لأمر ما ـ أن يتخذوا من الاختلاف فى الآراء والمذاهب سبيلا للتشنيع الذى ولد البغضاء بين المسلمين وفرق كلمتهم ، وفى اعتقادى ان هذا النفر

لا يصدر فى موقفه هـذا عن رأى يدين به ، ولكن عن مصلحة يحاول الحصول عليها أو استبقاءها ، ومصداق ذلك قوله تعالى فى الخلف الطالح : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » .

وفى سبيل النهى عن التفرق يذكر الله المؤمنين الأولين ، وقد حل بينهم بفضل التمسك بكتاب الله والاعتصام به الودّ والصفاء محل البغض والجفاء - يذكرهم بتلك الأخوة التى أفرغها عليهم الإيمان بالله ، والتى أنعم الله بها عليهم فقضت على ما كان بينهم من حروب طاحنة ، وتباغض مستمر ، وعداء مستحكم ، ووحّدت فى نفوسهم الإحساس والشعور والرغبة فى تحقيق الأغراض السامية ، وأصبحوا بفضل هـذا الصفاء وتلك الأخوة أسرة واحدة على قلب رجل واحـد متحابين متعاونين شعارهم تقوى الله وصالح الناس ، وفى هـذا إيحاء جلى واضح لمؤمنى العصور من بعدهم بأن هذه النعمة - نعمة الأخوة - تدوم بينهم وتثمر ثمراتها ، بما وجدت به فى أولهم من التمسك بالكتاب والاعتصام بحبل الله .

وبعد أن تأمرهم بتقوى الله والاعتصام بحبله ، وتنهاهم عن التفرق ، تأمرهم بما يحفظ عليهم الأخوة والاعتصام ، ويقيهم شر التدهور والانحلال ، ويبعث فيهم الشعور بالتضامن فى مسئولية بعضهم عن بعض ، وفى مسئوليتهم عن الناس جميعا ، فتطلب منهم دعوة الناس إلى الحق ، وتطلب منهم الائتمار فيما بينهم بالمعروف والتناهى عن المنكر ، وقد جعل الإسلام ذلك فرضا من فروض الدين ، وعنصراً من عناصر الحياة الطيبة ، وأقسم الله سبحانه وتعالى بالعصر ، ان الانسان لا يسلم من خسران فى هذه الحياة إلا إذا ضم إلى إيمانه وعمله الصالح ، التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، وهما عمادا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقص علينا مصير الأولين ، الذين انحطت فيما بينهم الفضيلة وتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى تركز البغى فيما بينهم ، واستشرى الفساد فى جميع شئونهم « فلولا

كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

وقد تلقى المسلمون الأولون هذا المبدأ العظيم ، وعرفوا به مسئوليتهم عن الناس ، ومسئولية بعضهم عن بعض ، فدعوا غيرهم إلى الحق ، وقاموا فيما بينهم بالنصح والإرشاد ، وتقبل المنصوحون من الناصحين شاكرة ألسنتهم ، مطمئنة قلوبهم ، فاستقامت لهم الشئون ، وتقدمت بهم الحياة ، وكانوا أقوياء أعزاء يملون ولا يملى عليهم ، ويقولون ويفعلون ما يقولون ، وظلوا كذلك حتى نبتت فيهم جراثيم الهوى والشهوة ، فأفسدت عليهم تصورهم للحياة ، وظنوها مادة عليها يتنافسون ، وأموالا وجاها وملكا بها يتفاخرون ، فانحلت من بينهم الروابط ، واندفعوا فى طريق الجاهلية الأولى ، يرون المنكر فيسكتون عنه ، بل يدافع كل منهم عن سفهائه ، ويتعصب لأوليائه ، ونسوا بذلك حبل الله فأنساهم الله أنفسهم ، وسلط عليهم شرارهم وأعداءهم ، وكاد يحل بهم ما حل بالأمم قبلهم ، وتعرضوا للعذاب العظيم ، وكتاب الله قائم بينهم ، وناطق بالحجة عليهم ، يحذرهم وينهاهم أن يسلكوا سبيل المفسدين ، وأن يفعلوا كما فعل الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات .

* * *

أما النداء الثالث فهو قوله تعالى .

« يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » .

إن كتاب الله يضع للمؤمنين الحد الفاصل بين من يصح مخالطتهم والتعاون معهم من المخالفين فى الدين، ومن لا يصح معه ذلك، كما يبين مدى هذا التعاون وحدوده، فإنه لم يجعل مجرد المخالفة فى الدين سببا من أسباب الحرب والخصام، أو من أسباب التقاطع وعدم التعاون، وإنما جعل السبب فى ذلك العداء الذى يدفع المخالفين إلى إيذاء المسلمين، وفتنتهم عن دينهم، وإخراجهم من ديارهم وأوطانهم، وسلب حقوقهم، وخنق حرياتهم، والاعتداء عليهم، ولذلك يقرر حسن معاملة المخالفين الذين لم يكن لهم من عداوة المؤمنين، ما يدفعهم إلى البغى والعدوان، وفى هذا يقول الله تعالى.

« لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوْهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون».

فهذا الصنف الأخيرمن المخالفين الذين يبارزون المسلمين بالعداء، أو بالمظاهرة للأعداء، هم الأعداء الذين يجب على المؤمنين أن يَحذروهم، وأن يبتعدوا عن موالاتهم، حذراً من الوقوع فى شرهم، وقد كثرت آيات التحذير فى القرآن الكريم عن موالاة هؤلاء، وجعل القرآن مودتهم مظهراً من مظاهر عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وخروجاً على جماعة المؤمنين، وهدما لشخصيتهم التى بها يعتزون « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أوأبناءهم أوإخوانهم أو عشيرتهم » « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين. أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا » « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء

ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ، لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير » .

جاءت هذه الآية مقررة للمبدأ الذى قررته سائر الآيات الواردة فى الموضوع وتبين أوصاف هذا الصنف من المخالفين فى الدين . الذى ينهانا الله عن مخالطته : ينهانا أن نتخذ خلصاء نعتمد عليهم فيما يعظم من شئوننا فنفضى إليهم بأسرارنا ، ونستشيرهم فى أمورنا ، من قوم غيرنا لا يدخرون جهدا فى إلحاق الضرر بنا ، ومن أحب أمانيهم أن نقع فى الشر والمكروه ونلاقى العنت والمشقة ، قد انطوت قلوبهم على البغضاء وامتلأت بالحقد حتى فاضت على ألسنتهم ، لايبادلوننا حباً بحب ولا يوافقوننا فيما نؤمن به من الكتاب ، فنحن نؤمن به كله ، وهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، وهم ينافقوننا ، فاذا التقوا بنا ظهروا لنا بمظهر المودة ، وقالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض ظهرت عليهم أمارات الحقد والغيظ ، ثم هم بعد هذا وذاك يفرحون بالشر يحيط بنا ويحزنون للخير يمسنا .

تلك أوصافهم ، فيجب أن نتعرفهم بها ، وأن نتدرع فى مكافحتهم بالصبر والتقوى ، فلا نأذن للوساوس أن تدفع بنا إلى موالاتهم ، ولا نركن إلى الظواهر التى ترغبنا فيهم ، وتخدعنا عن حقيقتهم ، وتزين صحبتهم والانتفاع بهم ، فإن الحزم أن يترك الخير المتوهم للشر المحقق ، وقد ضمن الله لنا بالصبر والتقوى ، السلامة من كيدهم والنجاة من شرهم .

* * *

هذه هى الآيات الثلاث التى اتسع المقام اليوم للتحدث فيها ، ولنا عودة إلى التحدث عن بقية النداءات الواردة فى هذه السورة .

فإلى العدد المقبل إن شاء الله تعالى ؟

من فضيلة الأستاذ الأكبر
شيخ الجامع الأزهر

رغبت « رسالة الإسلام » إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر أن يوجه إلى العالم الإسلامى حديثاً على صفحات هذا العدد الذى هو أول عدد من عامها الثالث ، وأول عدد يصدر بعد تقلد فضيلته منصبه السامى .

وإن « رسالة الإسلام » لزهوة — فى غير تفاخر — بما لها من صلة خاصة بفضيلة الأستاذ الأكبر بعد صلة الإسلام والعلم ، وإنها لواثقة أن روحه الطيب الذى يبثه فى كل أمر يتولاه ، سيكون خيراً وبركة على التقريب وأهدافه إن شاء الله . فإذا كان لها أن تطمع فى بر من فضيلته يخصها به ، فذلك أن يعم المسلمين بعنايته ، وأن يجعل الناطقين بكلمة التوحيد فى مشارق الأرض ومغاربها سواء فى بره وعطفه ، وإنه لفاعل إن شاء الله .

وهذا حديث فضيلته — بارك الله للمسلمين فى عهده — :

أرجو أن تنقل عنى « رسالة الإسلام » لجميع المسلمين أنى أشعر شعوراً صادقاً بآلامهم وآمالهم ، وأننى ، وقد توليت منصبي هذا ، أعد نفسى قد حُمِّلت أمانة غالية دقيقة ، لا شك أنى مسئول عنها أمام ربى ، وأسأله تعالى أن يهبنى من لدنه عونا ييسر صعابها ، ويذلل عقابها ، إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم .

لقد عشت طول حياتى معنياً بأمر المسلمين ، مفكراً فيما يصلحهم ، وينقذهم مما تورطوا فيه من الضعف والتخاذل والانحراف عن الصراط السوى فى العلم والعمل ، فوجدت ألا سبيل إلى ذلك إلا بأمرين :

أولها : أن يؤمنوا إيماناً عن بينة وبصيرة ، بأنه لاصلاح لهم إلا بهذا الدين الذى صلح به أولهم ، وأنهم على حسب ما ينحرفون عن تعاليمه ومبادئه يصابون فى بلادهم وأنفسهم وسائر أحوالهم بالضراء وألوان الشقاء .

وثانيهما : أن ينسوا أحقادهم وميراث عداوتهم الذى أورثتهم إياه عوامل الضعف ، وعهود الذلة والخوف وتسلط الأعداء ، فيعودوا كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة واحدة عزيزة كريمة تشعر بعزتها وكرامتها ، ولا غرض لها إلا إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه ، والدفاع عن الحق حيثما وجدت لذلك سبيلا .

* * *

إن المسلمين إذا آمنوا حق الإيمان بالأمر الأول ، استقر فى قلوبهم حب دينهم وحرصوا على أن يسلكوا سبيله فى حياتهم ، وأن يسيروا على خطته ومنهاجه السديد فى كل شئونهم ، فإن الإيمان بشىء ما ، هو أساس حبه وتوجه الرغبة إليه ، والحب الصادق يملك على صاحبه جوارحه وأعماله كما يملك قلبه وعواطفه ، وعلى هذا الأساس انتصر الإسلام فى أوله ، فقد شرى المؤمنون أنفسهم وأموالهم لله ، وكان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما من المال والولد والنعمة والمتاع ، ولولا ذلك ما استقام لهم أمر ، ولا تمكنوا ـ وهم القلة الضئيلة الهزيلة المستضعفة ـ من السيطرة على أكبر الأمم فى أقصر زمن عرفه التاريخ لأمة ناشئة ناهضة .

وقد سجل الله تعالى هذه الحقيقة فى قوله جل شأنه : « قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأبناؤكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

فبين بهذا القول الصريح أن أساس الإيمان هو إيثار الله ورسوله على كل ما سواهما بالمحبة الخالصة الصادقة ، وأن إيثار شىء عليهما فسق وخروج على أمر الله ، لايهدى الله أصحابه ، بل يجعلهم فى موضع المتربص المتوقع للبلاء حتى ينزل به ، ويأتى عليه .

والمسلمون ـ مع الأسف الشديد ـ فى هذا الموضع منذ زمن طويل ، فقلما نجد منهم من يؤثر الله ورسوله على شيء من متاعه الفانى ولو كان زهيداً ، ولذلك كانت حالهم هى تلك الحال التى تسر العدو ، وتسوء الصديق .

والسبيل إلى إصلاح هذه الحال أن يتعاون أهل العلم والرأى فى كل شعب على تعليم المسلمين دينهم تعليما نافعاً ، وأن يظهروهم على ما فى هذا الدين من محاسن ويقنعوهم بما يكفله لأهله من سعادة وقوة ، وينفوا عنهم ما أدخل عليهم من خرافات وأوهام كان الركون إليها سبب ضعفهم واستكانتهم .

ولا شك أن على الأزهر فى ذلك أكبر قسط ، فإنه الجامعة الدينية التى تهوى اليها أفئدة المسلمين من كل صوب ، والتى تضم طلابا من مختلف أجناسهم نفروا إليها ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، وقد أخذتُ على عاتق ، وشرعت ـ والله المستعان ـ فى توجيه هذه الجامعة الكبرى إلى ذلك توجيهاً عملياً صالحاً ، أرجو أن يكون مبارك الثمرات على الإسلام والمسلمين إن شاء الله .

وسوف لا أدخر وسعاً فى مد المسلمين داخل الأزهر وخارجه بعلماء صالحين مصلحين يكونون رسل الثقافة الإسلامية الصحيحة حيثما حلوا ، وأساة الأرواح والقلوب أينما سلكوا ، حتى نربى أمة جديدة شبيهة بالأمة الأولى التى فتح الله بها مشارق الأرض ومغاربها .

وإذا كنت أعلن ما اعتزمته وبدأته فى ذلك ، وأدعو اليه أبنائى الأزهريين أن يأخذوه بقوة ، فإنى أدعو كذلك سائر أهل العلم فى مختلف الشعوب والطوائف الإسلامية أن يقوموا بما عليهم فى ذلك ، وأن يبثوا الدعوة للدين والعلم به فى أقطارهم ، ويحثوا على الأخذ بها أبناء وطنهم ، حتى يكون الإصلاح عاما ، والتوجيه كاملا .

* * *

أما الأمر الثانى ، وهو أمر الاتحاد وائتلاف القلوب ، والغض عن كل مايثير الأحقاد ، وينكأ الجروح ، فذلك أمر له فائدته الكبرى فى التعجيل بالقضاء على الضعف ، والتفرغ لما ينفع المسلمين ويصلح شأنهم .

إن مثل المسلمين إذا احتفظوا بخلافاتهم، وأنصتوا لداعى الفرقة والقطيعة، كمثل شعب قامت فيه حرب أهلية طاحنة، فهى تشغل أبناءه، وتستنفد قواهم، وتضيع جهودهم، وتلهيهم عن إصلاح أحوالهم، وتقويم معوجهم، وتعين عليهم أعداءهم، وتكون سبباً دائماً فى إثقال كواهلهم بما لا يحتملون من الأعباء، وفى إلباسهم لباس الذل والخوف والشقاء.

لقد ألحت هذه الحرب الأهلية الضروس على الأمة الإسلامية منذ قرون، فقطعت ذات بينها، وأفسدت كثيرا من خطط الاصلاح على واضعيها، والداعين اليها، وما علمت حرباً كهذه نيرانها حامية، وأسبابها واهية.

فليتدبر المسلمون موقفهم، ولا سيما فى هذا الوقت العصيب، الذى فغرت فيه المطامع أفواهها لابتلاعهم، والذى أصبحت القوة فيه والتكتل هى لغة التخاطب السائدة، وأسلوب التفاهم المفيد، ولينسوا ما بينهم من الخلافات التى أوهنتهم، وثبطت من عزائمهم، وليقفوا صفاً واحداً لإنقاذ أنفسهم ودينهم، بل لإنقاذ العالم من المطامع الفاسدة، والمبادىء الخطرة، فإنهم أهل فكرة، ووراث رسالة، وإن الله سائلهم عما أورثهم.

إنى لأعلم أن أحسن ما تطفأ به هذه الحرب الأهلية التى ظلت مستعرة بين المسلمين قروناً طويلة، هو التفاهم، وأن يدرك كل شعب ما عند الآخر، ويومئذ يظهر للجميع أن أمة الإسلام متفاهمة على كل ما يكون به المسلم مسلما، وأن ما وراء ذلك لا يضر بالدين، ولا ينبغى أن يكون سببا فى قطع حبل الأخوة والائتلاف، وسأنظر إن شاء الله تعالى فى كل ما يعين المسلمين على إدراك هذه الحقيقة، والعمل بمقتضاها، وإن رسالة جماعة التقريب فى ذلك لتلتقى مع رسالة الأزهر، الذى يرى حقاً عليه أن يبصر الأمة الإسلامية بأمرها، ويرشدها إلى ما يجب أن يقوم عليه شأنها من المودة والتراحم والألفة، وتبادل العلم والمعرفة.

أسأل الله أن يهيىء للمسلمين من أمرهم رشداً، وأن يوفق قادتهم وزعماءهم إلى النجاة بهم من العواصف والأنواء، إنه سميع مجيب؟

الجامعة الإسلامية

لحضرة صاحب العزة الـكاتب الـكبير

الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك

يعنون بها الرابطة التى تربط بين المسلمين فى مختلف الأقطار من فرس وترك وعرب ، وقد كانت كلمة مفزعة لأوربا فى القرن المـاضى ، وليس صحيحاً ما قاله المرحوم سعد باشا زغلول « إن صفراً وصفراً يساوى صفراً » بل الصحيح أن « ناقص خمسة فى ناقص خمسة يساوى زائد خمسة وعشرين » فكل دولة وحدها قد لا تساوى شيئا ، ولـكنها جميعها تستطيع الوقوف أمام الاستعمار الأوربى ، وإذا كان الأوربيون يتـكتلون على الباطل لمحق المسلمين ، فأولى أن يتـكتل المسلمون على الحق لدفع كارثة الاستعمار ، وقد كان أول من نادى بها فى العصر الحديث السيد جمال الدين الأفغانى ، وخلفه الشيخ محمد عبده ، والسيد عبد الرحمن الـكواكبى ، غير أن طريقة السيد جمال الدين كانت قوية عنيفة ، إذ كان يريد الثورة على الملوك والأمراء فى الداخل ، وإشعال نار الشعوب ضد الخارج ، أما الشيخ محمد عبده فـكان فى ذلك هيناً ليناً يريد الجامعة الإسلامية من طريق التربية والتعليم ، والسيد عبد الرحمن الـكواكبى كان أقرب إلى السيد جمال الدين ، وكان أشد فى محاربة الأمراء ، وألف فى ذلك العهد كتاب « طبائع الاستبداد » ضد السلطان عبد الحميد ، كما ألف أم القرى لرسم خطة الجامعة الإسلامية ، ولم تطق أوربا صبرا على جريدة العروة الوثقى التى كان يصدرها السيد جمال الدين فى باريس ، فأغلقتها بعد صدور العدد الثامن عشر ، وكان السلطان عبد الحميد يحارب هذه النزعة أولا ، ثم أراد أن

يحتضنها وأهلها أخيرا، لما تبين له هو نفسه من نفعها ، وكان الشيخ على يوسف يبشر بهذه الدعوة فى جريدة المؤيد ، إذ كان ينشر فيها أخبار العالم الإسلامى ، والآراء فى تكتله ، وكذلك مجلة المنار إذ كانت تعبر عن آراء الشيخ محمد عبده ، والسيد رضا ، ثم خفتت الدعوة بوفاة السلطان عبد الحميد الذى كان يحميها .

وأيا ما كان فقد أحس الأوربيون بخطر هذه الدعوة ، وحاربوها بكل قوتهم : بصحفهم ومؤتمراتهم وكل قوة لديهم ، لما تبين لهم من قوتها وخطرها إذا تحققت ، واستنجد بعض الأوربيين الشعوب المسيحية طالبين إعانة سنوية ، والنهضة بالمبشرين ، وتعيين المبشرين الكبار فى الجهات التى يوجد فيها مسلمون ، ونشر الرسائل ، وإنشاء مجلة لمقاومة فكرة الجامعة الإسلامية ، ونشر جريدة لبيان الأفكار التى تطبع مؤيدة للجامعة الإسلامية ، وهكذا ، وكان من نتيجة ذلك أن اجتهد رئيس المبشرين وهو المستر « زويمر » فى عقد مؤتمر للنظر فى هذه الحالة ، فانعقد المؤتمر فى سبتمبر سنة ١٩١١ م ، وكان هذا الموضوع ـ موضوع الجامعة الإسلامية ، وكيفية مقاومتها ـ من أهم موضوعاته ، وخصص لجنتان منه لهذا الغرض وقد افتتح الرئيس « زويمر » المؤتمر بأن بدأ يدعوه للبحث فى الوسائل التى يمكن بها مقاومة الإسلام ، وكان يتبع المؤتمر غرفتان عرضت فيهما الغرائب المتعلقة بالاسلام مع مطبوعات جمعية التوراة التبشيرية ، واشترك فى هذا المؤتمر ١٦٨ مندوباً و ١١٣ مدعواً عن أربع وخمسين جمعية تبشيرية ، وعلى رأس المؤتمرين القسيس زويمر الذى تصفه جريدة فرنسية بأنه لا يهزم ، وبأنه درس الإسلام فى شعوبه ، ومُنع الصحفيون الانجليز والأمريكان من شهود هذا المؤتمر ، ولم توزع عليهم النشرات إلا بعد تنقيحها ، وقد قال الرئيس فى مجلة العالم الإسلامى : إن الاسلام تمخض فى السنوات الخمس الأخيرة التى أعقبت مؤتمر مصر عن حوادث خارقة لم يسبق لها نظير ، ففيها حدث الانقلاب الفارسى ، والانقلاب العثمانى ، وفيها انتبهت مصر لحركتها الحاضرة ، وعنى المسلمون بمد السكة الحديدية ، وتأسست فى الهند مجالس شورية ، ودخلت الأمور الإسلامية فى قالب يلائم العصر ، ازداد

به التمسك بمبادىء الإسلام ، وانتشر الإسلام فى أفريقيا والهند الغربية والجزائر الجنوبية .

وكل هذه الحوادث تحتم على الكنيسة أن تعمل بحزم وجد ، وتنظر فى أمر التبشير والمبشرين بكل عناية ، وعلى ذلك فسيوضع برنامج للأمور الآتية :

درس الحالة الحاضرة . إنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين والتعليم النسائى . إعداد القوات اللازمة ورفع شأنها . وقد حز فى نفس الرئيس ما صارت إليه حالة المسلمين وارتقاؤهم ، وكان مما قاله : إن لفظة العالم الإسلامى ليست شيئاً اخترعه المبشرون ، وإنما هو حقيقة موجودة ، كلمة دقيقة تدل على موقف حقيقى ، وقال : إن عدد المسلمين يزيد قليلا على مائتى مليون ، والتبشير فيهم يحتاج إلى نفقات طائلة ، خصوصاً وأن الإسلام ينتشر بسرعة ، والمبشرون المنتشرون على ضفتى النيل وشرقى أفريقيا وبلاد النيجر والكونغو ، يشكون مر الشكوى من انتشار الإسلام بسرعة فى هذه الأنحاء ، ومع أن انتشار الإسلام فى الهند قد لقى موانع من مجهودات جمعيات التبشير الهولاندية والألمانية ، فهو يتوطد هناك لأن المسلمين أخذوا يستبدلون بالتقاليد القديمة عقائد ثابتة قوية ، وانتقل الرئيس إلى وصف الانقلابات التى حدثت فى البلاد الإسلامية ، وحمد الله عليها ، وأثنى على احتلال الجيش الفرنسى لمقاطعة واداى فى أفريقيا ، وقال : إنه لم يبق الآن إلا ٣٧ مليون و١٢٨ ألف و٨٠٠ ـ آحاد ، تحت سلطة حكومة إسلامية ، وقال : إن الإسلام بدأ يتنبه لحقيقة موقفه ويشعر بحاجته إلى تلافى الخطر ، وهو يتمخض الآن عن ثلاث حركات إصلاحية ، الأولى : إصلاح الطرق الصوفية ، والثانية : تقريب الأفكار من الجامعة الإسلامية ، والثالثة : إفراغ العقائد والتقاليد القديمة فى قالب معقول . وأشار إلى قول الدكتور « و . شيد » : إن الإسلام يتحكك فى كل قطر بالمدنية العصرية ومبادئها ، وقال : إنه ليس فى الامكان التقدم الاجتماعى والعقلى إذا خلوا من كل صبغة دينية ، وانتقل « زويمر » بعد ذلك إلى استنهاض الكنائس لمقاومة المسلمين ، ونشر التبشير بينهم ، وختم القسيس كلامه بقوله : « إذا نظرنا

إلى البلاد التى يحكمها هذا الدين الكبير المخاصم لنا، وإلى البلاد التى يتهددها بحكمه، يظهر لنا أن كل واحدة من هذه البلاد هى رمز لعنصر من المعضلة الكبرى فمراكش فى الإسلام مثال للانحطاط، وفارس مثال للانحلال، وجزيرة العرب مثال للركود، ومصر مثال لمجهودات الاصلاح، والصين مثال للإهمال، وجاوه مثال للتغير والانقلاب، والهند مركز للتحكك بالاسلام، وأفريقيا الوسطى مكان للخطر الاسلامى، وهذه كلها مشاكل يحتاج الاسلام معها قبل كل شىء إلى المسيح .

* * *

ومن المؤسف أن حاجة المسلمين إلى الجامعة الاسلامية هى اليوم كما كانت ولم تتقدم كثيراً، ولم تكف أوربا عن مناهضتها، وكل حادثة من الحوادث الكبار تؤيد الرأى القائل بأن المسلمين لا تقوم لهم قائمة إلا بهذه الجامعة، وآخر حادثة كانت هى حرب فلسطين، فإن العالم العربى لم يتحد على مقاومة اليهود، كما اتحدت انجلترا وأمريكا على مناصرتهم، فضلا عن عدم اتحاد العالم الاسلامى، ولو ظل الأمر على هذا النحو فلم يتعظوا بهذا ولم يلموا شملهم، فستضيع كل يوم بلاد إسلامية جديدة، فهل يتعلم المسلمون اليوم هذا الدرس، بما أصابهم من فشل ؟ أو سيبقون كما هم حتى يلدغوا من جحر واحد مرتين وثلاثاً لا قدر الله .

إن الجواب عن هذا السؤال ملفوف بحجاب المستقبل ؟

النَّفسيَّة المحمَّديَّة
تحت ضوء العلم والفلسفة

الرق في الإسلام

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير
الأستاذ محمد فريد وجدى بك
مدير مجلة الأزهر

لم يُحل الإسلام الرق إلا فى حق من يؤسر فى حرب شرعية ، أى مستوفاة لما تقره الشريعة من بواعثها وغاياتها ؛ أما ما يكون منها مثاره اختطاف الولدان والبنات بشن الغارات على القبائل السودانية أو غيرها ، مما اعتيد اتخاذ العبيد والجوارى منها ، فعمل جاهلى لا يجوز لأمة مسلمة أن تقدم عليه ، وإن فعلت كان عليها وزره ، وتحمل تبعاته ، ما أبقت عليه أو تغاضت عنه ، يروى أن واحدا من أهل العلم المسلمين أراد أن يشترى عبداً يستعين به ، فلم يهتد إلى واحد تنطبق شروط الشرع الإسلامى على وسائل أسره ، فأقلع عن شرائه متورعا عن التورط فى أمر إثمه أكبر من نفعه .

ومن يتأمل فى الوسائل التى كان يتذرع بها الذين كانوا يقومون باختطاف الغلمان والبنات من بلاد السودان ، وتكديسهم فى الحجرات الضيقة جياعا وعطشى ليحملوهم منها إلى السفن التى توزعهم على البلاد التى تروج بها تجارتهم ، يخيل إليه أن هؤلاء من الأنعام التى أعدت للذبح ، لا أنهم من البشر الذين لهم حق فى الحياة وفى التمتع بمزاياها كسائر إخوانهم من ذرية آدم وحواء .

ولما اكتشف الأوربيون أمريكا كانوا يرسلون بسفنهم إلى شواطىء أفريقا فيختطفون من السود ألوفا ويقذفون بهم فيها حتى تضيق بهم ، فكان يموت منهم وهم فيها عدد كبير ، فيقذفون بهم في اليم ، ويسخرون من بقى فى تمهيد الأراضى للزراعة ، مثلهم فيها كمثل الأنعام ، غير متكلفين فى مأكلهم وملبسهم ماهو ضرورى للحياة ، فتجتاحهم الأمراض والأوبئة ، مع أنه لولاهم لشق على الأوربيين تمهيد تلك الأراضى واستغلالها ، فكان هؤلاء الأسرى يعيشون محرومين من الحقوق الاجتماعية ، بل والبشرية أيضاً ، فلا حق لهم يطالبون به ، ولا حامى لهم يلجأون إليه ، ولا يزال فى أمريكا عشرات الألوف من ذراريهم عاشوا فيها منبوذين إلى عهد غير بعيد ، فلما أهلّ لديهم عهد الدستور ، منح السود بعض الحقوق ، ولكن النفوس لم تر رأى الدستور ، فبقى السود منحطين فى نظر البيض ، حتى كانوا يمنعونهم من غشيان المحلات العامة ، ولم تخف وطأة هذا الاضطهاد إلا فى السنوات الخمسين الماضية من القرن الذى نحن فيه ، ولم تزل منه بقية هنا لك .

أين هذا مما شرعه الاسلام فى الاسترقاق منذ أربعة عشر قرنا ، إذ حصره فى أسرى الحروب الشرعية ، لا فى السود ولا فى أى جنس بعينه ، فليس لمسلم حق فى أن يشترى إنسانا لم يكن أسير حرب شرعية ، فأين هذا مما كانت عليه الأمم بل أين هم مما شرعه فى حق من يحل أسره من حسن المعاملة ، والرفق والمرحمة ، مما حلى الله به خاتم رسله من فهم معنى الحياة البشرية ، وفقه أصولها القيمة ، والوعى الصحيح للعدالة المثالية التى عجز عن وعيها إلى عهده أئمة العلم ، وأراكين الفلسفة .

وقبل أن نلم بالوصايا التى جاءت فى الاسلام فى موضوع الرق والأرقاء نعطى القراء فذلكة عن تاريخ الاسترقاق عند الأوروبيين الذين أكثروا من التشنيع علينا بسببه كأننا الذين ابتدعوه أو اسرفوا فيه :

وجد الاسترقاق منذ وجد الانسان ، فإن القوى يغلب الضعيف ويأسره ويسخره لخدمته .

وكان المصريون القدامى والبابليون والبراهمة الهنديون والفرس يتخذون الأرقاء ويعاملونهم بقسوة وحشية .

وكان اليونانيون الأولون يتخذونه أيضاً ، وأقره كبار فلاسفتهم ، ومنهم أفلاطون وأرسطو ، بل زعم الأخير أن أرواحهم كأرواح الحيوانات غير مخلدة .

أما الرومانيون فقد توسعوا فى الاسترقاق إلى حد بعيد ؛ واتفقت الأمم القديمة على استعمال القسوة ضد الأرقاء .

وقد أقر الاسرائيليون الاسترقاق ولم يتناولوه بأقل تغيير .

ولما جاءت الديانة المسيحية اعتبرت الاسترقاق شرعيا ، وقد ذكر العلامة « دريبر » الأستاذ بجامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة الأمريكية : أن آباء الكنيسة كانوا يكاثرون الكونتات فى اقتناء الأرقاء .

أول قانون صدر فى أوروبا لتخفيف ويلات الاسترقاق كان قانون الامبراطور « بترونيا » الرومانى ، وهو يحرم على السادة إلزام أرقائهم بمقاتلة الوحوش إلا بإذن القاضى ! .

وفى عهد الإمبراطور أنتونان الرومانى صدر أمر يقضى بأن من يقتل عبده يعاقب بغرامة !

نعم صدر قانون فى عهد الإمبراطور (كاوبوس) الرومانى يقضى بأن من يقتل عبده يعتبر مرتكباً لجناية القتل ، ، ولكن بطل العمل بهذا القانون بموت واضعه .

وأول قانون صدر فى شأنهم بعد القرون الوسطى كان سنة (١٦٨٥) وقد جاء فيه : انه إذا اعتدى أحد الزنوج أقل اعتداء على سيده ، أو على أحد الأحرار ، أو ارتكب أخف السرقات ، فان جزاءه القتل .

وصدر فى عهد لويز الرابع عشر الفرنسى أى فى القرن الثامن عشر هذه الفقرة :

« إن من توفية حق النظام أن لا نتنازل عن احتقار الجنس الأسود مهما

كانت منزلته ، وقد حصل التصميم على إبقاء الحكم الاعتبارى الذى يحرم ذوى الألوان وذريتهم من امتيازات الجنس الأبيض إلى أبد الأبيد ».

أين هذا مما رفع به الإسلام قدر الانسانية من المساواة بين جميع أبنائها ، بصرف النظر عن الأجناس والألوان ، فقال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم : « ليس لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ، فهدم بهذا الأصل الخطير حوائل الألوان التى كانت تحول دون إقرار العدل فى نصابه فى جميع البلدان ، ثم قرر للأرقاء الحقوق نفسها التى للأحرار ، بل جعل للأرقاء ، وهو أرفع علم يمكن نصبه للعدالة المثالية ، مزايا ليست للأحرار ، وذلك بإعفاء الأرقاء من أنصاف العقوبات التى يحكم بها على الأحرار فى الجرائم المختلفة ....

وهنا يحسن بنا أن نعرض على القراء طائفة من الأحاديث فى هذا الشأن ، تبين سمو النفسية المحمدية ، ومبلغ ما وصلت اليه من الكمال . قال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل ما لايطيقون . فما أحببتم فأمسكوا ، وما كرهتم فبيعوا ، فان الله ملككم أياهم ولو شاء لملكهم اياكم » .

وسأله رجل فقال : يا رسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة » .

قال ابن المنكدر : إن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبداً له فجعل العبد يقول : أسألك بالله ، أسألك بوجه الله ، فلم يعفه . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد ، فانطلق اليه . فلما رأى الصحابى رسول الله أمسك يده . فقال له رسول الله : سألك بوجه الله فلم تعفه ، فلما رأيتنى أمسكت يدك . قال الرجل فانه حر لوجه الله يارسول الله . فقال له النبى : لو لم تفعل لسفعت وجهك النار » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أرقاؤكم أخوانكم (تأمل) استعينوهم على ماغلبكم ، وأعينوهم على ما عليهم » .

وقد اقتدى أصحاب رسول الله به ، وأنزلوا أرقاءهم المنزلة التى أرادها لهم ، على اعتبار أنهم إخوانهم لا عبيدهم . ومن ذلك ما يروى : « أن أبا هريرة رأى رجلا على دابته وغلامه يسعى خلفه . فقال له يا عبد الله احمله خلفك فانما هو أخوك روحه مثل روحك ، فحمله ، ثم قال أبو هريرة : لا يزال العبد يزداد من الله بُعداً ما مُشى خلفه » .

وقال الإمام الزهرى : « متى قلت للمملوك أخزاك الله ، فهو حر » .

وقد جرى المسلمون فى جميع العصور على مبادى الرحمة لهم ، وكان من أظهر ثمراتها : أن كثيراً من الأرقاء وصلوا تحت سلطانهم إلى أعلى المراتب ، وأرفع المناصب ؛ ومنهم من تولى الملك أيضا . وهذا أغرب مانرويه عند ذكر الاسترقاق .

والفضل فى هذا كله لخاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم فانه لسمو روحه ورجاحة عقله ، أدرك أن الاسترقاق عرض زائل لا يمنع أصحاب الكفايات العقلية والنفسية من بلوغ أقصى ما يبلغه أى إنسان من المراتب الأدبية والمادية . وكان النبى صلى الله عليه وسلم أول من طبق هذا على العمل فولى بلالا المدينة ، وكان فيها أبو بكر وعمر وكثير من كبراء الصحابة ، ولم يمنعه من توليته أنه كان عبداً حبشياً لأبى بكر وهو الذى أعتقه .

فهذه الروح العَلوية ، ولا أقول العبقرية ، هى التى جعلت محمداً محمدا ؟

جولة بين الآراء

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الكبير الشيخ محمد تقى القمى

السكرتير العام لجماعة التقريب

تختلف الآراء فى أمر رسالة التقريب : فمن قائل إنها أمر ليس يصعب تحقيقه فقط ، بل يكاد يكون مستحيلا ، أليست الخلافات قد استحكمت منذ قرون ؟ أليست كتب كل طائفة مشحونة بالطعن فى غيرها ؟ أليست الخلافات موجودة فى الأحكام الفقهية وأدلتها ، وإلى جانبها خلافات فى الأصول الكلامية مشهور أمرها ؟ أمن المعقول أن يتشيع السنى أو يتسنن الشيعى ؟

ومن قائل إن التقريب حقيقة واقعة ، فالأفكار تهذبت ، والعقول تبصرت ، والأجناس المختلفة تتجمع ، والأديان تتكتل ، وروح التسامح تسود المسلمين وغير المسلمين ، فكيف بأبناء دين واحد ! هل نرى اليوم حرباً بين السنة والشيعة ؟ هل نسمع عن معارك بينهم ؟ هل يخاصم الشيعى السنى ، أو يجافى السنى الشيعى ؟ هل يختلف هؤلاء وأولئك فى هذا العصر — عصر الذرة — فى أمور لا ترتبط بالحياة فى شىء ، أو فى مسائل انقضى زمانها ؟ هل هناك مشكلة لنعالجها ؟

هذا ما يقول به الفريقان المتناقضان ؛ فريق يحسب أن الجهود التى تبذل للتقريب سعى وراء المحال ، وآخر يراها تحصيل حاصل .

والفريق الأول يتكون فى الغالب ممن لا يعرف مهمة التقريب على حقيقتها ولم يدرس برامجها ، بل غاب عنه مدلول الاسم ، فحسب التقريب توحيداً ؛ أو مَن

ضاق تفكيره وانحصرت ثروته الفكرية والدينية فى محيط مذهب خاص، لاينظر فى غيره، أو تأثر بعالم أو كاتب لا يستمع أو يقرأ لسواه، وما دام لا يرى الحق إلا ماهوعليه، فهويعرض عن كل المذاهب بل يهاجمها ان اختلفت مع ما حصله أدنى اختلاف ؛ وليس بغريب على أمثال هؤلاء أن يؤمنوا باستحالة التقريب، حتى لو علموا أن التقريب لا يطلب إليهم أن يعتنقوا مذهب غيرهم ، أو يتنازلوا عما ثبت عندهم، لأن المحذور لا ينحصر فى ذلك فقط ، بل المحذور عندهم التقرب إلى غيرهم، والنظر فيما عندهم، والاطلاع على كتبهم وأقوالهم، وهل رساله التقريب إلا الدعوة إلى هذا ليحصل التعارف بين الطوائف، وتقف كل طائفة على ما عند الأخرى ؟ وما فائدة تعارف - هم فى غنى عنه - مع من هم عن الطريق مبعدون، وعن الحق معرضون ؟

وأما الفريق الثانى، فهم الذين لا يختلطون بالحياة الدينية، ولا يعرفون حقيقة أحوال البلاد الإسلامية، ويظنون أن الفكرة التى تسيطرعليهم، هى نفسها التى تسيطر على غيرهم، ولا يسمعون من هذا وذاك، ويحسبون أنه لم يبق ثمة خلاف، أو يغفلون دور الدين فى الحياة، وبالتالى خلافاتنا المذهبية، ورجال السياسة والاقتصاد - مع الأسف - أكثرهم من هذا الفريق .

وفى الناس فريق ثالث، يتمسك بمذهبه ويتشبث به، ولكنه يحترم المذاهب التى تتفق فى الأصول معه، بل ينظرفيهابروح الإنصاف ويتعمق فى تفهمها، ويقتبس منها ما يصح، ولا مانع من أن يرد على بعض ما يرد فيها فى أدب واتزان رغبة فى إظهار ماهو أفضل، لاحرصاً على تسفيه آراء الغير . ومن هذا الفريق تكونت جماعة التقريب فى القاهره وأنصارفكرتها فى العالم الإسلامى، وعلى هذه الأسس تقوم، وبهذه الروح تسير فى الناس، وكلما فُهمت الفكرة ازداد الالتفاف حولها، والدعوة إليها، حتى أننا لنعتقد أنه سيأتى يوم تشمل كافة المسلمين .

* * *

لسنا نرى ما يراه الفريق الأول، ولسنا ننكر الخلاف، ولسنا نرى للخلافات آثاراً تستحيل معها مهمة التقريب .

لا ننكر أن الخلاف وقع بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولو زعمنا أن الأوائل لم يكن بينهم أى خلاف لجانبنا الحق ، ومن له أقل إلمام بالتاريخ لا يمكنه أن يزعم ذلك . بيد أنهم حصروا الخلاف فى دائرته المعقولة ، ولم يجعلوا له أثراً يضر بالوحدة الإسلامية ، ولا أعطوا به فرصة لأعداء الاسلام . كان خلافا فى الرأى لا تشاجرا ، والخلاف فى الرأى من طبيعة الانسان ، وتحتمه البيئات وتطور الزمن ، وليس لأية قوة أن تمنعه ، ولا ضرر منه ، بوصفه خلافا ، إنما الضرر فى أن يتطور إلى تشاتم وتخاصم . ولنأخذ دليل ذلك من التاريخ ، تاريخ الاسلام نفسه ، فى قصة حدوث الخلاف بين السنة والشيعة بالذات . إن اختلاف الرأى لم يخلق بين المسلمين معركة الخصام ، حتى إذا استباح بعضهم الإسفاف والمسبة ظهرت المقاومة العنيفة ، واضطرب الأمر ، ولم يستقر بعد ذلك بل انتهى إلى خصومة مريرة ، فقامت الحروب ، واشتدت المعارك بين أبناء دين واحد ، وسلت على المسلمين الآمنين سيوف كان أولى بها أن تسل على الأعداء .

ليست جماعة التقريب تريد القضاء على كل خلاف ، ولا تفكر فى ذلك ، ولا تبتغى أن يتشيع السنى ، أو يتسنن الشيعى ، حتى توصف رسالتها بأنها مستحيلة ، إنها مع النظر إلى الخلافات تسعى للتقريب وتنادى بلزوم التعارف .

نعم إن الجماعة ترى أن كثيراً من الخلافات تحل فى ظل التعارف ، إما لأنها نشأت عن اعتقاد إحدى الطائفتين خطأ أن الأخرى تعتقد أموراً يتضح بعد التعارف خطأ نسبتها إليها ، أو لأنها جاءت نتيجة دليل معقول أو أصل مقبول ، فتقبلها الأولى ، أو لأنها تستند إلى أساس وأدلة إن لم يكن مقبولة عند الأولى ، فقد ثبت عندها اعتبارها ، وعندئذ تلتمس عذرا لمن يعمل بها ، فاذا أضفنا إلى هذا أن الطوائف المشتركة فى الجماعة متفقة على الأصول التى يجب على المسلم أن يدين بها ليكون مسلماً ، ظهرت سخافة الاعتقاد باستحالة التقريب بين تلك الطوائف .

وأما الفريق الثانى فلو أنعم النظر لأدرك أن الخلاف واقع فعلا ، وأنه

لا يقوم بين الشيعة والسنة فحسب ، بل لا يزال رجال من أهل السنة أنفسهم يفضلون مذهبهم ، وينتقصون غيره من مذاهب أهل السنة المعروفة ، ويسجلون ذلك فى كتبهم ، بل إن أندونيسيا ـ البلد الإسلامى العظيم الذى يسود فيه المذهب الشافعى وحده ـ يقوم فيها الخلاف بين الشافعية أنفسهم ، فبعضهم يتبع أفكار القدماء ، وبعضهم يأخذ بالجديد من الآراء ، وكل يعتمد فى آرائه على المذهب ذاته ، وقد أخذ الخلاف بينهما يستفحل وتتسع شقته ، بل إنا لنعرف بلاداً ليس للدين فيها وزن ، ولكن التعصب المذهبي يتحكم فى أهلها ، ومع أنهم لم يهاجموا من صادر حريتهم الدينية ، وعبث بمعتقداتهم ، فهم يثورون على إخوانهم لخلافات طائفية . ولا يتركون مناسبة تمر دون أن يطعنوا فيهم .

لنا أن نعترف مع الأسف بأن القطيعة موجودة بين أبناء الدين الواحد أكثر مما هى بينهم وبين من ليسوا على دينهم ، ومع هذا فنحن نتفق مع الفريق القائل إن تهذب الأفكار ، وتبصر العقول لها أحسن الأثر فى تسهيل مهمة التقريب .

بقى لنا أن نتكلم عن فريق ثالث يتخذ سبيلا وسطا ، ويرى ما تراه جماعة التقريب ، وإنى لواثق أن التقريب ـ كما وضعوا منهاجه ـ سيحصل إن شاء الله أقول هذا ، لا استناداً إلى كثرة عدد هذا الفريق ، وهو الغالبية العظمى ، ولا اعتماداً على منهاج الجماعة المستقيم ، وقوة إيمانها وصبرها ـ وكل هذا له أهميته ـ بل أقوله ذلك لأن الفكرة قائمة على إيجاد التعارف والدعوة إلى التثبت قبل الحكم ، وهذا منطق جبار يشق طريقه ويسحق كل من يقف فى سبيله ؛ وهذا التعارف سيكون أساسه التحكم فى العواطف ، وعدم إثارة الشعور بالطعن والتجريح ، فإن هذا سبَّب فى الماضى اتساع شقة الخلاف والتنافر والتباغض التى انتهت بالمسلمين إلى التقاطع والتدابر ، وبمراعاة ذلك تتمكن كل طائفة أن تسمع الآخرين صوتها ، ولو قصدت طائفة إثبات مذهبها أو الرد على غيرها ، فإن التزام الحسنى أشد تأثيرا . والنقد النزيه أقوى نفوذا .

ولعل الوعى الذى وجد عند أصحاب الفكر فى كل طائفة ، يجعل كل كاتب يسلك فى تآليفه مستقبلا ، طريقة لا تحصر تداول مؤلفاته فى محيط طائفته ، وتصرف عنها بقية الطوائف لما تشتمل عليه من طعون واقتراءات .

إن مشكلة الحكم والحكام التى كانت علة العلل فى إثارة العواطف والصراع الطائفى ، ليست ولله الحمد مشكلة اليوم ، لو استثنينا بقعة من البقاع الإسلامية لا يزال حكامها يهتمون بدعايات من شأنها بث روح الفرقة ، نسأل الله أن يكلل بالنجاح جهودنا معهم .

وإن حب الاستطلاع ، وتثقيف الشعوب يخدمان جماعة التقريب فى مهمتها ، وإن تردد كثير من الكتاب والأساتذة على مكتبة دار التقريب للاطلاع على ما فيها من كتب الطوائف المختلفة ، وتلهف المسلمين لتلقى فكرة التقريب واهتمامهم بنشراتها . كل ذلك يبشر بالخير ويدل على الاتجاه القوى نحو التقريب .

وإن الجماعة فى تحقيق رسالتها لا تقرب بين الشيعة والسنة فحسب ، بل تقدم خدمة علمية جليلة ، إذ تكشف عن ثقافة إسلامية مستمدة من أفكار موزعة وكتب محجوبة ، وشخصيات محتكرة على طوائف معينة ، فتظهر للعالم الإسلامى ، بل للإنسانية كلها أعظم ثقافة فكرية ناضجة تأملها البشرية ، والله المستعان ؟

أربعة رجال

لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة
رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

— ٢ —

اتسع القسم الأول من هذا المقال لرجلين اثنين من أولئك الرجال ، وهذان الاثنان هما : السلطان الكامل محمد الأيوبي ، والقديس فرنسيس الأسيسى ، أما الاثنان الباقيان ، فهما فردريك الثانى هو هنشتاوفن إمبراطور الدولة الغربية الشاملة لألمانيا وإيطاليا وتوابعهما فى العصور الوسطى ، والفيلسوف أبو الحق ابن سبعين الأشبيلى صاحب الآراء الجدلية الجريئة التى أساءت إلى الكثيرين من أهل التقوى فى تلك العصور .

وفردريك الثانى ابن للإمبراطور الداهى الكدود هنرى السادس ، وهو الإمبراطور الذى تراءى للمعاصرين كأنه من زمرة المنصرفين عن الدنيا ومتاعها إلى العلم ولذائذه الروحية ، وهو فى طويته من أمهر الأباطرة الدنيويين . أما أم فردريك فهى كونستانس النورمانية الصقلية سليلة الشماليين المغامرين الذين عبروا عتبة التاريخ أول عبورهم حين هبطوا جنوباً من بلادهم القطبية الداكنة ، وأغاروا على شواطىء غرب أوربا حتى أسپانيا الإسلامية ، ثم أسسوا لفروعهم دولا عاتية عظيمة الشأن فى الشمال الغربى من فرنسا ، ثم فى إنجلترا ، ثم فى صقلية التى انتزعوها من المسلمين ، بل حاولوا الاستيلاء على القسطنطينية والحلول محل البيزنطيين . ونشأ فردريك يتيما فى صقلية بلد أمه ، بعد أن توفى عنه أبواه سنة ١١٩٨م ، ولما يبلغ من العمر سوى أربع سنوات ، فكفلته تيارات

سياسية عنيفة ، صيرته إمبراطوراً سنة ١٢١٢ م ، بمساعدة وصيّه البابا إنونسنت الثالث . وبدا فردريك طوال عهده الإمبراطورى شخصية ملؤها الحيلة والتحدى والتقلب ، فى صورة تبهر العقول والأبصار ، واتصف بصفات قلّ أن تجتمع فى رجل واحد ، إذ أجاد الكتابة والكلام فى ست لغات ، ونظم الشعر العاطفى فى نغم دافئ دفء أنغام الصقليين الذين نشأ بينهم ، وأغدق من ماله وعنايته لتشجيع العمارة والنحت والتعليم ، وهو إلى ذلك جندى بارع ، وسياسى لبق إلى أقصى درجات اللباقة ، مع الجسارة التى لا تخشى خاشية ، والنزعة الفكرية الجانحة إلى ميادين الفلسفة والفلك والهندسة والجبر والتاريخ الطبيعى . وألف فردريك فى البيزرة — أى علم تربية الطيور الجوارح — كتاباً هو أصل من أصول العلوم التجريبية فى غرب أوربا ، واصطحب فى أسفاره مجموعة من الفيلة والهجائن وعجائب المناطق الاستوائية الحارة من أنواع الحيوان ، ولم تكن الكوابت والتقاليد المسيحية فى ذلك العصر مما يأبه له فردريك الذى نشأ فى صقلية ، حيث ملتقى الأجناس والأديان ، بل اصطنع المسيحى والمسلم واليهودى ، وعرف لكل منهم قدره ومقامه .

ودهش المعاصرون لإمبراطور مسيحى يتكلم العربية إلى رعاياه من المسلمين بصقلية ، ويقتنى الجوارى المنشآت فى القصور ، وينأى عن التعصب الذى طفح به اعتقاد ذلك العصر . الواقع أن ثمة صفات خارقة اجتمعت فى هذا الإمبراطور الذى عالج شئونه السياسية فى نشاط هائل وواقعية بصيرة ، واشتهر بدقة الذوق الفنى ، وبدا كالشرقى فى عاداته وحياته الخاصة ، كما اشتهر بالتصوف والتشكك فى آن فى احد ، مع الجرأة والثورة على القديم فى جميع مناهجه وآرائه . وإذن فلا غرو أن ينعت المعاصرون الأوربيون فردريك الثانى بأنه أعجوبة العالم ، وأن يظلّ ذلك الإمبراطور كذلك على مرّ القرون ، وأن يشهد المعاصرون الشرقيون والغربيون منه بفلسطين ما عقد ألسنتهم عجباً وإعجاباً .

افتتح فردريك الثانى عهده الإمبراطورى ، وفى عنقه نذر الذهاب إلى الشرق

فى حملة صليبية ، وأقسم فى حماسة الشباب أن يقوم على رأس حملته المرجوة إرضاء للبابوية التى ساعدته على الوصول إلى العرش الإمبراطورى . وفى هذه الأثناء تكونت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة ، ولم يسهم الإمبراطور فى تكوينها بنصيب كبير أو صغير ، واستولت تلك الحملة على دمياط سنة ١٢١٩ م ، وأقامت بها مدة سنتين تقريبا ، استعداداً لما بيتته من الزحف جنوباً نحو القاهرة ، وانتظاراً لما عسى يمدّها به فردريك من نجدة يكون هو على رأسها . وزحفت هذه الحملة أخيراً نحو الجنوب تريد القاهرة ، فانهزمت عند دمياط ، وسلّمت للسلطان الكامل محمد سنة ١٢٢١ م ، دون قيد أو شرط ، ما عدا الأمان العام والجلاء التام عن البلاد والشواطىء المصرية . كل ذلك والإمبراطور فى شغل بإمبراطوريته ، عاكف على تأجيل الوفاء بنذره مرة بعد مرة ، إلا فرقة ألمانية صغيرة وصلت إلى الشواطىء المصرية والحملة الصليبية المتقدمة على وشك الجلاء ، فعادت هذه الفرقة دون أن تؤثر فى الموقف أى تأثير .

والعقل الحديث لا يستطيع إلا أن يرى شيئاً من الغرابة فى موقف البابوية التى توسّمت فى إمبراطور حديث السن أن يقوم على رأس حملة صليبية كثيرة التكاليف عبر البحار ، غداة اعتلائه عرش إمبراطورية مزقتها الفوضى أثناء وصاية طويلة ، وتراءت تلك الغرابة كذلك لفردريك ، فلم يفكر تفكيراً جدياً فى مغادرة الشواطىء الأوربية إلا بعد أن نظم حكومته فى صقلية ، حيث أخضع المسلمين والنبلاء الصقليين المسيحيين ، والمدن الصقلية ، وبعد أن أنشأ جامعة نابلى بإيطاليا ، فضلا عن أنه لم يرد أن يقود حملة صليبية على غرار الحملة الفاشلة الخائبة التى فضلت الاستمساك بمدينة هى دمياط نزولا على رغبة البندقية وأطماعها التجارية ، عن أن تستعيد مملكة هى بيت المقدس إحتراماً للفكرة الصليبية وأهدافها المسيحية . ثم إن فردريك أراد أن يفيد من غلطات تلك الحملة ، وأن يستغل السلطان الكامل محمداً وسياسته ، وأن يسوى ما بين المسلمين والصليبيين ، لا بالسيف والنار والحديد

والدمار ، والتعصب الدينى ، بل باللسان الحلو ، والحسنى والملاينــة ، والاتفاق والتسامح .

وبينما تظل البابوية على إلحاحها ومطالبتها فردريك بضرورة الوفاء بنذره القديم بدأ الأمبراطور مبادلة السلطان الكامل رسائل ودية ، تمهيداً لتفاهم صليبي إسلامى . ورحب السلطان بذلك ، لتفاقم العلاقات بينه وبين بعض أقاربه ملوك البيت الأيوبى بالشام . ثم تزوج فردريك سنة ١٢٢٥ م من وريثة مملكة بيت المقدس الرمزية ، والمقصود بالرمزية هنا أن هذه المملكة فقدت عاصمتها ومعظم مدنها لصلاح الدين ، ولم يبق لها إلا اسمها ورمزها وذكراها . فأضحى لفردريك منفعة مباشرة فى إحيائها وإعادتها بعض سيرتها الأولى . ورأى فردريك وقتذاك تهدئة لإلحاح البابوية وإلحافها أن يجهز حملة صليبية أبحر هو على رأسها من جنوب إيطاليا سنة ١٢٢٧م ، ولم تك إلا بضعة أيام حتى عاد بسفنه إلى الشواطىء الإيطالية ، بسبب مرضه بالحمى . لكن البابوية اعتبرت المرض تمارضاً ، وأعلنت سخطها على الإمبراطور ، وصبت جام غضبها على رأسه بأن قطعته من رحمة الكنيسة . ثم توفيت زوج فردريك سنة ١٢٢٨ م ، وأخذ هو فى المطالبة بإرثها - أى عرش مملكة بيت المقدس الرمزية - وأبوها على قيد الحياة . . ويبدو أن المراسلات الفردريكية الكاملية وصلت وقتذاك إلى مرحلة الاتفاق على معاهدة سلمية رضى الطرفان عنها ، ولم يبق إلا أن يذهب فرديك إلى الشرق ، لتوقيع هذه المعاهدة وتنفيذ ما يمكن تنفيذه من شروطها ؛ فغادر إيطاليا فى أسطول صغير ، وحملة أصغر عدتها ستمائة فارس . عند ذلك أصدرت البابوية قراراً ثانيا بقطع فردريك من رحمة الكنيسة ، ووصفته وحملته أشنع الأوصاف المعهودة فى العصور الوسطى ، بل دعت إلى حملة صليبية لمحاربته فى إمبراطوريته وهو غائب عنها بفلسطين .

وفى فلسطين أرسى الإمبراطور عند مدينة عكا ، وهى إحدى البقايا الباقية للصليبيين من مملكة بيت المقدس ، واستقبل رسل السلطان الكامل ، وهم الأمير فخر الدين بن حمويه وأخوه كمال الدين ، والشريف شمس الدين الأرموى قاضى نابلس .

وتمت المعاهدة على أن يتسلم فردريك مدينة بيت المقدس ، وأن يكون للصليبيين ممر من الأرض يصل بين عكا وبيت المقدس ، على أن يبقى المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وسائر قرى بيت المقدس للمسلمين ، وأن يمنع فردريك أية حملة صليبية أوربية عن الشواطىء الأيوبية بمصر والشام . وأعقب فردريك هذه المعاهدة بزيارة المسجد الأقصى ، بإذن السلطان الكامل صحبة شمس الدين قاضى نابلس ، وطاف بمزاراته مستفسراً عنها فى لسان عربى واضح . ولم يكن ذلك غريباً سماعه على الحاضرين من المسلمين ، فإن كثيراً من الصليبيين الأوربيين المقيمين بالشام كانوا يتكلمون العربية منذ استقر مقامهم بمختلف الإمارات الصليبية ، وبات فردريك ليلته بدار القاضى شمس الدين ببيت المقدس ، ثم رحل إلى عكا ، بعد أن توّج نفسه ملكاً على مملكة بيت المقدس بحق زوجه المتوفاة .

وعاد فردريك إلى أوربا دون قتال أو جرحى أو خسائر ، بل بمكاسب لم تستطع الحملات الصليبية الضخمة أن تعود بها منذ أيام صلاح الدين . غير أنه وجد البابوية حانقة على جميع ما حدث أشد حنق ، لأن الصليبيين لا ينبغى لهم مصالحة المسلمين ، بل عليهم مقاتلتهم ما ثقفوهم خدمة للمسيحية . ثم اقتنعت البابوية بفضل فردريك ، ورضيت عن المعاهدة ، كما أعلنت عودة الإمبراطور إلى رحمة الكنيسة .

أما السلطان الكامل محمد ، فلم يقتنع أحد بأنه أدى بهذه المعاهدة خدمة ما للإسلام أو المسلمين ، وامتلأت مساجد القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها بالشانئين الناقمين على السلطان الذى ضحى المصلحة الإسلامية العامة من أجل مصلحته الخاصة ، وهى التهاون مع فردريك فى سبيل المحافظة على دولته من عادية أقاربه الأيوبيين . ولم يشفع للسلطان الكامل أنه أرسل البعوث إلى مختلف العواصم الإسلامية ليشرح فوائد المعاهدة للطرفين الإسلامى والمسيحى سواء ، وأهمها تجنيب مصر والشام ويلات الحروب الصليبية مدة ربع قرن من الزمان . ولعل فى عبارة الفقيه ابن الأهدل مايدل دلالة واضحة على مبلغ ما أحس به المسلمون وقتذاك نحو السلطان ،

رغم الدعاية الواسعة التي قامت عليها هذه البعوث ، ونصها : « وللكامل هفوة جرت منه عفا الله عنه ، وذلك أنه سلم مرة بيت المقدس إلى الفرنج اختيارا ، نعوذ بالله من سخط الله وموالاة أعداء الله » .

وصفوة القول أن معاهدة من طراز المعاهدة الكاملية الفردريكية لم تكن مما ينبت من شيم العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، بل لم يكن من المقبول أو المعقول عند أهلها ، ولذا فكل من الكامل وفردريك ليس من أبناء تلك العصور . وكيفما يكن فالمعروف أن حسن العلاقات بين فردريك والبابوية لم يظل طويلا ، لأن مسألة النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية ، وهى المسألة التى ملأت غرب أوربا بالحروب منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، ثارت من جديد بسبب إصرار فردريك أن تكون إيطاليا والبابوية طوع بنانه وسلطانه وحكومته الامبراطورية المستنيرة ، وإصرار البابوية أن تكون هى صاحبة السمو والجلالة فى شئون الدنيا والدين ، باعتبار الجالس على كرسيها خليفة المسيح فى الأرض . ورأى فردريك أن حرب البابوية يتطلب سلاحا مذهبياً مضاداً لمذهب البابوية ، لا جيوشاً وأسلحة فحسب ، واستوحى فى سبيل ذلك ما عمر به رأسه من أحلام المتنبىء وتنبؤات المنجم ، بالإضافة إلى القانون الرومانى الذى أضحى بعد إحيائه فى الجامعات الأوربية وقتذاك مرجع الدعاة لمختلف النظم وأساليب الحكم . ثم ما لبث فردريك أن دلته سجيته السياسية النافذة على أنه ليس أمضى سلاحا من مذهب التقشف عند الإخوان الفرنسسكانيين ، لمحاربة الدعاوى الدنيوية التى أصبحت ديدن البابوية ، فسلط من طلاوته وعمقه فى الجدل ما شاء أن يسلط ، وأعلن فى عبارات تهديدية غامضة عن قرب إقامة كنيسة إمبراطورية جديدة تحل فضائلها محل مفاسد البابوية ، على قوله .

وبعد . فلا حاجة لباحث فى هذا الموقف الذى اتخذه فردريك الثانى من البابوية للتدليل منه على مبلغ ما امتلأت به شخصيته من جسارة ، وهو الإمبراطور المسيحى فى العصور الوسطى المسيحية ، فإن فى حياة فردريك وتفكيره وسياسته منذ

شبابه الإمبراطورى ما يدل على هذه الجسارة أوضح دليل . غير أن هذا الموقف الذى سبقته إليه سلسلة الأباطرة حيال البابوية قبل فردريك ، دون جدوى أو نتيجة قريبة ، برهن على شيء من القصور فى بصيرة فردريك بالذات ، لأنه آخر هذه السلسلة من الأباطرة ، وكان ينبغى له ـ وهو الإمبراطور الذكى اللبيق ـ أن يدرك أن البابوية تستند فى العصور الوسطى إلى قوة ليس فى استطاعة الباحث الحديث أن يقيسها على وجه الدقة ، كما أنه ليس من السهل على السياسى أن ينفذ إليها أو يستميلها إليه فى سرعة . وربما كان منشأ ذلك الخطأ الذى دفع فردريك ثمنه غاليا ، أنه برغم ما اتصف به من صفات عقلية توجب الالتفات فى كل عصر ـ مثل البعد عن التعصب للون أو جنس ، وهو التعصب الذى يشين الكثيرين من المحدثين أبناء العصر الحاضر ، ومثل حب الاستطلاع الدائم فى أسرار الطبيعة ، وقوة الإيمان بالحق والمعرفة ـ ، فإنه جمع فى نفسه بين هذه الصفات النادرة والخرافات المألوفة فى عصره ـ مثل الاعتقاد فى المنجمين ، والإذعان الأحمق لمشورات العرافين والكهان ، والعجز عن التميز بين الأسئلة التى تؤدى والتى لا تؤدى إلى إجابات علمية دقيقة . ذلك أنه على حين أدت بعض أسئلة فردريك إلى كشف شيء من الحقيقة ، لم يكن فى استطاعة أحد أن يجيب على بعض آخر منها مهما أوتى من العلم والايمان ، إلا أن يكون شاعراً خلا متدينا ذا خيال واسع ، ومثال ذلك : كم عدد الجهنمات ؟ وما الأرواح التى تسكنها ؟ وما أسماؤها ؟ وأين جهنم ؟ وأين الجنة ؟ هل تعرف روح الانسان روحا ثانية فى الحياة الآخرة ؟ وهل يمكن أن تعود الروح إلى الحياة الدنيا ، وتظهر لأحد من الناس ؟ وهذه الأسئلة وأشباهها فى الدين والفلسفة هى التى أدت إلى سلسلة من المراسلات بين الإمبراطور فردريك الثانى هو هنشتاوفن والفيلسوف أبى الحق ابن سبعين الإشبيلى ؟

[للمقال بقية]

الثنائية في الوجود

أساس الكفاح إلى الوحدة والخير

لحضرة الدكتور محمد البهى

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« التعدد سبيل الوحدة »

« الشر مصدر الخير »

لو نطق إنسان بهاتين الجملتين ربما يوصف بأنه يغمض فى القول ، إن لم يوصف بأنه يقول ضد المتعارف . إذ « الواحد » فى علم الحساب أساس التعدد ، وليس العكس : فإضافة واحد إلى واحد تساوى اثنين ، وإضافة واحد وواحد إلى واحد تساوى ثلاثة ... وهلم جرا ، وفيما بعد الواحد من اثنين أو ثلاثة يكون التعدد . والوحدة أيضاً أساس الكثرة ، إذ باجتماع وحدات بعضها مع بعض تتكون الكثرة .

والأولى كذلك أن يكون الخير أساس الشر ، لأن الشر انحراف عن طبيعة الخير وجهته . ونظرة كثير من علماء الأخلاق إلى طبيعة الإنسان توحى بأنهم يرون أن الخير أصل فيها ، وأن الشر طارىء عليها .

* * *

لكن ربما نصل بالتفكير إلى أن التعدد أساس الوحدة ، والشر أساس الخير ، وإن كان طرف كل جملة من هاتين الجملتين فى ظاهره يضاد أو يعارض الطرف الآخر على العموم :

فالإنسان فى نظر القدامى مزدوج أو ذو اثنينية ؛ هو مركب من روح وجسم . واعتباره متعدداً هو الذى برّر فرض الكفاح عليه ، وبالتالى أوجب مسئوليته .

ولو كان ذا روح فقط أو جسم فقط لما طلب منه الكفاح . لكن طلب منه أن يكافح من أجل روحه ، وذلك بأن يكبت رغباته الجسمية أو المادية ليساعد روحه على أن تصفى وتخلص ، بعد صُوِّر له أن جسمه ظلمة وأن روحه نور ، وأن النور أشرف من الظلمة ، ولذا وجب عليه أن يكون بجانب الأشرف منهما . ووسيلته كما ذكرنا أن يكافح ما فيه من ظلمة ، وباستمرار كفاحه لهذه الظلمة يصير فى النهاية نوراً خالصاً . إذن طلب منه أن يستبدل بالتعدد وحدة ، وأن يصل عن طريق ثنائيته إلى واحد .

والناحية الجسمية فى الإنسان جزؤه الأخس إذن ، والناحية النورية أو الروحية فيه هى جزؤه الأشرف . وليس الشر إلا ذلك الأخس فيه ، كما أن الخير ليس إلا ذلك الأشرف من جزأيه . وقد طلب من الإنسان أو فرض عليه أن يكون مكافحاً ، وطلب منه أن يكون كفاحه موجهاً ضد جزئه الأخس لصالح الأشرف فيه ، وبالتالى طلب منه أن يكون عاملا على محو الشر فيه ليخلص كله إلى الخير .

فلولا التعدد فى الانسان لما كان له كفاح ، ولكن فرض عليه الكفاح فكفاحه من أجل الوحدة . فالتعدد فيه إذن أساس للوحدة . ولولا اعتبار أنه ذو شر وذو خير معاً لما كان له كفاح أيضاً ، وحيث وجب عليه الكفاح فكفاحه للخير . فالشر كذلك إذن أساس للخير .

والقدامى يشتركون جميعاً فى نظرتهم الازدواجية للإنسان على هذا النحو ويختلفون فيما بينهم كذلك فى تحديد الوسيلة التى يكافح بها الانسان التعدد أو الشر فيه . فإن هم نصحوا جميعاً بالصوم مثلا يختلفون بعد ذلك فى مدته . وإن رضوا بالزهد وأمروا به كطريق لاضعاف الجسمية أو الشر يختلفون وراء ذلك فيما يجب أن يتناوله الزهد فى حياة الانسان من جوانب .

* * *

والأسرة قائمة على الازدواج أيضاً : أساسها ذكر وأنثى ، وهدفها إضعاف ما فى أصل تكوينها من إزدواج أو تعدد عن طريق التقارب النفسى بين الاثنين ، أو عن

طريق ما يسمى بالانسجام بينهما . هدفها إضعاف الفوارق الفردية بين الطرفين إضعافاً يقترب بهما من أن يكونا نفساً واحدة وذاتاً واحدة. فإن لم يصل الزوجان إلى تقارب نفسى أو انسجام ، وبقيت الفوارق الفردية على قوتها انهدم معنى الأسرة وكيانها ، أو بعبارة أخرى بقى الزوجان اثنين أو متعددين . وفى إنسجام الأسرة سعادتها أو خيرها ، وفى عدم انسجامها شقاؤها أو شرها .

فالتعدد فى الأسرة يهدف إلى الوحدة إذن ، أو هو أساسها ، كما يصح بالتالى أن يكون أساس السعادة أوالخير ، وإن كان فى طبيعته يحمل معنى الشقاء أوالشر .

* * *

والقوم جماعة إنسانية متعددة الأفراد كذلك. وهدف أى قوم تماسك أفراده ، أو صيرورة عدده الكثير إلى وحدة منسجمة . هدف أى قوم أن يكون قويا بحكم ما يمليه عليه حفظ بقائه بين الأقوام الأخرى . وقوته فى تضامنه بحيث إذا اشتكى من أفراده فرد تداعى له جميع الأفراد بالحمى والسهر ، ومنتهى قوته فى وحدته . وفى وحدته اطمئنانه إذن لما يقع عليه من أحداث خارجية ، إذ يستطيع عندئذ ردها . فى وحدته الخير كله له . وفى بقائه متفرق الأفراد ، متفرق الكلمة والتوجيه عدم اطمئنانه واستقراره . وليس عدم الاطمئنان لأى قوم على كيانه ـ كقوم وجماعة ـ إلا ما يوصف باسم « الشر » فى الجماعة .

فطبيعة تعدد الأفراد فى أى قوم توحى بالسعى إلى الوحدة بينهم . وفى الوحدة يرى كل قوم معنى الخير له ، كما يرى الشر فى بقائه منثوراً غير موحد على أمل وغاية . وإذن التعدد فى القوم أساس الوحدة ، والشر فيه أساس الخير له .

* * *

والعالم كله ـ وهو متعدد كثير ـ يسعى للوحدة . لأن أى كائن فيه يسعى إلى الوحدة بحكم ما فيه من ازدواج واثنينية . وفى صيرورة العالم إلى الوحدة ينتهى به الأمر إلى الخير ، لأن الخير ليس أكثر من إضعاف معنى التعدد فى الكائن وبالتالى فى العالم . والوجود كله ينتهى حتما إلى وحدة ، وفيها خيره أو هى والخير سواء .

الوحدة إذن منشودة للانسان بطبعه ، وللأسرة بطبعها وللقوم بطبيعته ، وللعالم بطبعه . ولولا أن التعدد هو طبيعة كل أمر من ذلك لما هدف كل واحد منها للوحدة . فالتعدد إذن أمارة ودليل على الوحدة ، أو منه يكون الكفاح والسعى للوحدة . وفى الوحدة الخير لأنها نهاية الكفاح والسعى . وما دام هناك تعدد فهناك كفاح ، وما دام هناك كفاح فالأمر لم يتمحض للخير ، وما دام الأمر لم يتمحض للخير فهناك شر . والشر إذن أمارة ودليل على الخير ، أو منه يكون الكفاح والسعى إلى الخير .

* * *

العالم إذن صائر إلى وحدة وبالتالى إلى الخير . أو هو مفروض فيه أن يصير إلى ذلك بحكم طبعه . والوحدة أو الخير أمل العالم وهدفه بحكم طبيعته أيضا . ويستحيل إذن أن يكون هدفه التعدد أو الانقسام - وبالتالى الشر - بحكم طبيعته كذلك .

هذه الوحدة - أو الخير - التى يسعى إليها العالم هى خلاصته ، أو ما يتمخض عنه كفاحه . هى الباقى بعد استنفاد الكفاح موضوعه . الوحدة - أوالخير - إذن العنصر الباقى فى الوجود ، وما عداه سيفنى ، وصائر للفناء حتما ، بحكم طبيعة الوجود .

الوحدة - أو الخير - قمة الوجود أو مطلوب كل كائن فيه . ولأنها العنصر الباقى فيه كانت أسمى كائناته : إن اتجه اليها الانسان يتجه إليها بطبيعته ، وان ميزها فى الوجود ميزها لا عن رغبة وهوى ، بل عن ضرورة من واقع الوجود نفسه . وليس تقديسه لها سوى الاعتراف بميزتها ، وليست عبادته للواحد سوى إيمانه بانفراده بالبقاء .

والدين عبادة . وإذن هو من ضرورات الحياة أو الوجود . وأسمى الأديان ما كان معبوده الواحد الباقى ، وخير المذاهب والاتجاهات ما دعا إلى الوحدة .

الكسب المشروع في الإسلام

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

تمهيد :

إن الذين يتصلون بالشريعة الإسلامية ويعرفون فقهها وأحكامها ، يعلمون أن هذا الفقه ينقسم إلى قسمين عظيمين : العبادات والمعاملات :

فأحكام الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج وما إليها ، هى من مباحث القسم الأول .

وأحكام البيع والشراء والإجارة والإعارة والتجارة والرهن والمزارعة والوصايا والمواريث وما إليها ، هى من مباحث القسم الثانى .

ومن هذا التقسيم يتبين لأول وهلة أن الإسلام ينظر إلى « المعاملات » على أنها شطر الشريعة ، ويراها أحد العنصرين الأساسيين فى تكوين السعادة التى يبتغيها للناس ، ويهدى إلى سبيلها .

وإنها لنظرة سديدة تعطى للمعاملات حقها وقداستها ، وتربطها بالمعانى الخلقية وتجعلها ديناً يحاسب المرء عليه نفسه ، كما يحاسبها على الصلاة والصوم وسائر حقوق الله .

والمعاملات على هذا الوضع أثبت فى المجتمع مكانا ، وأوطد بنيانا ، وأيسر على الناس قبولا ، وأقرب إلى أن يركنوا إليها وينزلوا على أحكامها ، ويسلموا بمبادئها .

وهذا هو الفرق بين المعاملات المستندة إلى القوانين الوضعية ، والمعاملات المستندة إلى الشريعة .

فالأولى ليس لها فى نظر الإنسان تلك القداسة التى تتمتع بها الثانية .

والأولى عرضة للتعديل والتغيير والتخفف من أثقالها ، والاحتيال على الخروج من قيودها ، على حين أن الثانية ثابتة مكينة لها حارس من الضمائر ووازع من القلوب .

والأولى عرضة للشك فى قيمتها وحكمتها وصلاحيتها ، على حين أن الثانية بمنجاة من الشكوك والأوهام .

وقد نشط الفقهاء فى شتى المذاهب الفقهية الاسلامية إلى دراسة أبواب المعاملات ، وتتبع مسائلها ، واستنباط أحكامها من الكتاب والسنة ، والاعتبارات المصلحية المستندة إليهما ، نشطوا إلى ذلك فى صبر عجيب ، ومثابرة كانت ولم تزل مضرب الأمثال ، حتى أوفوا بالفقه الإسلامى العملى على الغاية ، وأعجزوا من سواهم من أهل الفكر والنظر عن ملاحقتهم ، فضلا عن مسابقتهم ، وأثبتوا لأرباب العقول وأصحاب المناهج والنظم أن الإسلام هو دين الخلود ، وأن شريعته هى نظام الحياة .

وليس للشريعة الإسلامية من هدف تهدف إليه فى تنظيمها لشئون المعاملات إلا أن تسعد المجتمع ، وتوطد فى ربوعه دعائم السلم والأمن والاستقرار ، وهى لذلك لا تجافى الطبيعة ، ولا تناهض الفطرة ، ولا تنكر الحقائق ، ولا تحاول الخروج على السنن ، ولا تضيق صدرا بالإصلاح ، ولا تكلف الناس ما ليس فى استطاعتهم .

وفى هذا المعنى يقول ابن القيم : « إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، وكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة ، وإن أدخلت فيها بالتأويل » .

ولقد جنى على الشريعة الإسلامية ، أو تجنى عليها قوم جانبهم الانصاف والتوفيق

فأظهروها للناس بمظهر الشريعة القاصرة ، التى لا تخرج عن دائرة العبادات والمسائل الروحية أو الخلقية ، ومنهم من زعم أنها شريعة جامدة فى أحكامها ، يضيق صدرها بما يحدث للناس من نظم ، أو يرون الأخذ به من أسباب ، والله يعلم إنها لشريعة الصلاح والخير ، ولكنهم قوم يجهلون .

* * *

بعد هذا التمهيد الذى أردنا به لفت أنظار المسلمين على وجه الإجمال إلى شريعتهم ، حتى يعتزوا بها ، ويشرئبوا إلى آفاقها ، ويبنوا صرح مدنيتهم على أساسها ، ندلف إلى موضوع من موضوعات الفقه الإسلامى ، هو : « الكسب المشروع فى الإسلام » لنرى فيه مثلا واضحاً على متانة هذه الشريعة ، وملاءمتها للحكمة والمصلحة ، وتحقيقها لما ينبغى أن يسود المجتمع من صلاح وسلام .

إن الكسب فى نظر الشريعة الإسلامية ، لا يكون سائغاً ولا مقبولا إلا إذا كان « طيبا » ، فإن الله لا يقبل إلا الطيب .

ولن يكون الكسب طيباً إلا إذا كان من طريق مشروع .

والطرق المشروعة للكسب كثيرة ، وكلها تقوم فى التشريع الإسلامى على أسس ثلاثة .

ا — التعاون بين أفراد المجتمع .

ب — قطع أسباب الخلاف والمنازعات .

ج — رعاية الجانب الخلقى .

ولنعرض لهذه الأسس الثلاثة بشىء من البيان والتفصيل :

(ا) التعاون بين أفراد المجتمع :

الإنسان مدنى بالطبع ، ولا بد له من أن يعيش فى مجتمع ، وقد جعله الله خليفة فى الأرض ، وأودعها جميع ما يصلح به أمره ، ويستقيم عليه شأنه من مادة ظاهرة وباطنة ، فعليه أن يستغل ذلك استغلالا صالحا ، وأن يوزع جهود أفراده

فى سبيل تحقيق هذه الغاية توزيعاً يعين على الوصول إليها ، وييسر صعابها ، ويذلل عقابها ، فإذا اختل الميزان فى هذا التوزيع ، فإن الحياة فى المجتمع تتعقد بمقدار اختلاله ، ويشعر أفراده بالهبوط فى مستوى سعادتهم واطمئنانهم .

ومثل ذلك ، كمثل جماعة من العمال فى مصنع من المصانع ، لكل منهم عمل مقسوم ، عليه أن يقوم به ، فإذا أدى كل منهم عمله على الوجه الأكمل ، سارت أمورهم على ما يحبون من الاستقامة والهدوء ، وإذا فرط أحد فيما وكل اليه ، تعرض الجميع للخطر على قدر هذا التفريط قوة وضعفا ، قلة وكثرة .

فالمجتمع ما هو إلا مصنع كبير والناس عماله ، والتعاون بينهم روحه ، وملاك أمره ، وقوام صلاحه وبقائه .

ولذلك انبنى التشريع الإسلامى للمجتمع على أساس طبيعى ، هو وجوب أن يبذل الفرد من ذات نفسه لمجتمعه ، فى سبيل أن يعيش عضواً من أعضائه ، فلابد لكل فرد من أن يكون عاملا ، إما صانعاً ، أو زارعاً ، أو تاجراً ، أو معلماً ، أو موجهاً يبذل للناس بذلا فى مقابل انتفاعه بما يبذلون له .

ولهذا حرم الربا فى الشريعة الإسلامية ، لأنه اكتساب للمال لا يقابله عمل ، فهو تعطيل لصاحب المال ، وتحويل له إلى عضو أشل ، لا فائدة للمجتمع منه .

ولهذا أيضاً حرم القمار ، لأنه استلاب للمال دون مقابل من العمل واحتمال للأعباء ، كما حرم التسول والغصب والاختلاس ... الخ .

ولهذا أيضاً حرم الاكتساب من الأعمال التى لم يعترف الشرع بها ، وذلك كالاكتساب من التجارة فى الخمر أو الخنزير ، أو إدارة محال الفجور ، أو الرقص أو صناعة الأصنام او نحو ذلك من كل ما حرمه الله ، فإن ذلك ليس نفعاً للأمة ، ولا إفادة للمجتمع ، بل هو ضرر وفساد ، وهو أشد على الأمة من تعطل المتعطل ، وكسل الكسلان .

وخلاصة القول فى هذا أن نرجعه إلى المبادىء الآتية :

١ — الإنسان خليفة الله فى الأرض .

٢ — ولا حياة له إلا بالاجتماع .

٣ — وفى الأرض كل ما يحتاج إليه .

٤ — والأرض والمال لله ، خولهما عباده بمقتضى الخلافة .

٥ — ولكل من الناس حظ فى هذه الثروة المملوكة عن الله ، ولكن بشرط أن يؤدى للمجتمع مقابل هذا الحظ من ذات نفسه ، حتى لا يكون كَلاًّ عليه .

٦ — ولا حق فى هذه الثروة الالهية إلا عن الطريق الذى شرعه واهبها ومستخلف الإنسان فيها .

وبهذا يتبين أن الاسلام لا يريد مجتمعاً ضعيفا يعيش فيه الكسالى والمتبطلون ، أو عناصر الترويج للفساد والضرر ، وإنما يريد مجتمعا عاملا ناصبا متعاونا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

وقد يسأل سائل عن نظام الاتجار بالمال دون أداء عمل ، وذلك كما فى الشركات التى تسمى فى بعض المذاهب الفقهية « بالمضاربة » والتى أساسها أن يبذل أحد الشريكين مالا والآخر عملا ، ويأخذ كل منهما نصيبا معينا مقابل ما بذل ، وهذا النظام شبيه بنظام « الشركات المساهمة فى بعض نواحيه ، وقد أباحت الشريعة الاسلامية هذا النوع من الكسب مع أن بعض الشريكين فيه لا عمل له كما فى الربا والقمار .

والجواب : أن هناك فرقا بين الأمرين ، فإن صاحب المال هنا يتجر به فيساهم فى الترفيه عن المجتمع ، ولا يحبس عنه ماله ، ويأخذ ما يأخذ من الكسب عن تجارة يروجها وينفع الناس بها ، أما آكل الربا أو الميسر ، فإنه لا يفيد المجتمع بشىء ، ولا يقدم له بعض ما هو فى حاجة إليه .

(ب) قطع أسباب الخلاف والمنازعات :

لكل معاملة من المعاملات أركان طبيعية هى :

١ — العاقدان .

٢ — والشىء المعقود عليه .

٣ — والصيغة التى يكون بها العقد .

ونرى الشريعة الإسلامية تشترط فى كل ركن من هذه الأركان الطبيعية ما يقطع النزاع ، ويسد أبواب الخصومة والضغائن .

فالعاقدان لابد أن يكونا راشدين عاقلين عالمين لما يتعاقدان عليه ، ولا يجوز التعامل مع السفيه ولا مع الصغير الذى لا يميز ، ولا مع المجنون ، ولا مع الغافل ؛ وذلك لأن التعاقد ما لم يكن على بصيرة وفهم وقدرة على الموازنة بين البذل والأخذ فإنه كثيراً ما يكون مثاراً للخلاف المؤدى إلى النزاع والخصام ، أو الحقد والاضطغان ، وكلاهما يكدر صفو المجتمع ، ويزلزل أمنه واستقراره .

والشيء المعقود عليه يجب أن يكون مملوكا لصاحبه ، وإلا كان تصرفه فيه باطلا ، لأنه تصرف فى ملك غيره .

ويجب أن يكون ذا فائدة معتد بها شرعا ، وإلا كان التصرف فيه ترويجاً للفساد أو عبثا .

وبهذا وذاك يصان المجتمع مما يؤدى إلى الخلاف أو يثير النزاع أو يروج للفساد .

والصيغة التى يكون بها التعاقد لا بد أن تكون واضحة فى إفادة معنى الرضا والقبول عادة دون تأثير أو ضغط بإرهاب أو تخجيل أو استغلال للفظ على سبيل التلاعب ؛ أو نحو ذلك .

وقد اعتد الشارع بكل أمارة يتبين بها أن التعاقد صورى أو مشوب بنوع من أنواع الإكراه ، ورتب على ذلك فساد التعاقد ، وعدم استتباعه لآثاره .

تلك هى الشروط التى تشترط فى أركان العقد ، ولهذا نهى الشارع عن كل معاملة تثير نزاعا من أية ناحية ، فلا مزابنة ولا محاقلة ولا ملامسة ولا منابذة مما كان يفعله أهل الجاهلية (١) .

(١) المزابنة : بيع التمر فى رءوس الشجر بتمر مكيل معلوم .
والمحاقلة : بيع الزرع بحنطة مقدرة معلومة .
والملامسة : أن يكون لمس الرجل ثوب الآخر بيده بيعاً .
والمنابذة : أن يكون نبذ الثوب بيعاً .

ونهى عن بيع الخمر والنجس والأصنام وسائر ما حرم، ونهى عن بيع ما فى بيعه غرر: كالمجهول والآبق، ونهى عن الغش والغبن الفاحش.

وقد كان للناس معاملات قبل الاسلام، فأقر منها ما لا يؤدى إلى ضرر، أو يجر إلى محرم، وأبطل منها أو عدّل ما يؤدى إلى ذلك.

وهذا هو أحد الأصول القاطعة فى تحليل ما أحل، وتحريم ما حرم.

(ج) رعاية الجانب الخلقى:

بعد أن يتحقق فى الكسب ما ذكرناه من التعاون ووقوعه على صفة من شأنها أن تقطع أسباب الخلاف والنزاع، نرى الشريعة الإسلامية تسمو فوق هذا المستوى فتنحو بالأمر نحواً خلقياً كريماً، وترسم للمتعاملين سبيلا مهذباً من شأنه أن يجعل مجتمعهم راقياً فاضلا، وأن يديم بينهم مع التعاون معنى الحب والمودة والاحترام.

هذا السبيل هو رعاية الجانب الخلق، والنظر إلى ما تقضى به الفضيلة حتى لا يكون التعامل جافاً غليظاً، أو يكون غرض كل من المتعاملين استعمال مواهبه فى استلاب ما يمكنه استلابه من صاحبه.

ويظهر ذلك من الأحكام الآتية:

١ — تستحب الإقالة إذا طلبها أحد المتبايعين، وذلك أن يندم أحد المتعاقدين على ما التزم، ويتبين له أن التزامه ليس من مصلحته، فيطلب من صاحبه أن يقيله وقد ورد فى بعض المأثور: «من أقال نادما أقاله الله يوم القيامة».

٢ — يكره أن ينفلت الرجل من مجلس البيع متخفيا قصداً إلى تفويت حق صاحبه فى خيار المجلس.

ومعنى ذلك أن المتبايعين بالخيار ما لم يتفرقا، فقد يشعر أحدهما بأنه الفائز فإذا استمر فى المجلس تبين صاحبه الأمر فرجع فى العقد، فهو لذلك يغافله، ويهرب من المجلس ليثبّت العقد تثبيتاً نهائياً بالتفرق، فالشارع ينهى عن ذلك، وهو معنى خلق كريم يلتفت إليه الاسلام هذا الالتفات العجيب.

٣ — نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلق الركبان، وذلك أن

يخرج طالب السلعة إلى طريق جالبيها ، فيلقاهم قبل أن يصلوا بها إلى السوق العامة فيستأثر بها دون الناس .

ولا شك أن من يفعل ذلك أنانى يحب نفسه ، وفى النهى عن ذلك تأديب وتهذيب .

(٤) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يبيع حاضر لباد ، وقال : « دعوا الناس فى غفلاتهم يرزق الله بعضهم من بعض » .

ولا شك أن أهل البادية إذا اعتمدوا فى بيعهم على أهل الحاضرة غلا السعر ، وبطل جانب من المساهلة والمسامحة .

٥ — يستحب السماحة فى البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وفى الحديث : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى » .

٦ — يحرم الاكتساب وابتغاء عرض الدنيا بما هو محرم أو بما ينافى الخلق والفضيلة ، كالربا ، والقمار ، واتخاذ النساء وسيلة ، واحتكار الطعام وما يضر احتكاره من الضروريات .

٧ — يحرم البيع ساعة النداء للجمعة ، لأن فيه إيثاراً لعرض الدنيا على الآخرة وفيه إلى جانب ذلك ظهور بمظهر الجشع والتلهف ، وهو مظهر ينافى الخلق الكريم

٨ — نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحلف على السلعة لترويجها ، لأنه نزول باسم الله العظيم إلى موطن المساومة والتغرير .

* * *

هذه هى الأسس الثلاثة التى ينبنى عليها الأمر فى « الكسب المشروع » ولم نقصد بما أوردناه من الأمثلة استيعابا ولا إفاضة فى البيان ، وإنما أردنا لفت الأنظار إلى أنواعها بقدر المستطاع .

إن الفقه الاسلامى هو فكرتنا ومنهاجنا فى الحياة ، ولكل أمة نظام ونهج وفكرة تدعو إليها ، وتحاول جمع الناس عليها .

فليجمع المسلمون أمرهم على هذا التراث المجيد ، وليجعلوه منهاجهم الذى عليه يسيرون ، وإليه يدعون ، والله المستعان ، والحمد لله رب العالمين ؟

التقريب بين المذاهب الإسلامية ودراسة علم التوحيد

لفضيلة الأستاذ الجليل

الشيخ عبد المتعال الصعيــــدى

المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

التقريب بين المذاهب الإسلامية غاية من أسمى الغايات، وهى السبيل إلى عودة المسلمين إلى سابق مجدهم ، لأن التقريب بين مذاهبهم يوحد بينهم ، ويعيد عهد الإخاء الذى مكن لهم فى الأرض ، بما كان لهم فيه من طهارة وقداسة ، جذبت الناس إلى دينهم ، ونشرته بسرعة فائقة فى سائر أنحاء الأرض .

ولكن هذه الغاية لا يمكن أن نصل إليها ما دامت دراسة علم التوحيد باقية على حالها القديم ، بل لابد أن نعيد تدوينه من جديد ، لندرس فيه الفرق الإسلامية دراسة جديدة تقرب بينها ، وتجعل منها فرقاً متصافية متحابة ، لا يفرق بينها الخلاف فى الرأى ، ولا يجعل فرقة منها تنظر بعين العداء إلى الفرقة الأخرى ، لأنها ضالة أو فاسقة فى نظرها ، إلى غير هذا من الأوصاف التى تكيلها كل فرقة للأخرى فى ذلك العلم ، ولا يمكن أن يكون التقريب بين المذاهب معها خالصا ظاهراً وباطناً .

لقد نشأ علم التوحيد بين الخصام والعداء ثم شب وشاخ بينهما ، حتى تأصلت

فيه جذورها ، فكانت أول مسألة أثيرت فيه مسألة مرتكب الكبيرة ، أثارها الخوارج والسيوف تلمع فى أيديهم ، والخصام بينهم وبين جمهور المسلمين قد بلغ غايته ، حتى كانوا يرعون دم الذمى ، ولا يرعون دم أخيهم المسلم ، لأنهم كانوا يرون أن مرتكب الكبيرة كافر مستباح الدم ، مع أن كفره لو سلم لا يبلغ فى القبح مبلغ غيره من الكفر .

ثم ثارت هذه المسألة بين الحسن البصرى وتلميذه واصل بن عطاء ، ففرقت بينهما ، وجعلت التلميذ ينابذ أستاذه ويخاصمه ، ويعتزل مجلسه إلى مجلس آخر يكون له فيه أشياع ينابذون ويخاصمون أشياع أستاذه ، وقد كان واصل يرى فى مرتكب الكبيرة أنه ليس بمؤمن ولا كافر ، وإنما هو منزلة بين المنزلتين ، يعنى أنه فاسق ، ولكنه كان يرى أنه مخلد فى النار كما كان يرى الخوارج ، فيكاد الخلاف بينه وبينهم يكون لفظياً ، وقد قيل إن الحسن البصرى كان يعد مرتكب الكبيرة منافقا ، فإن صح هذا عنه عد منهم ، لأنه لم يكن يوافقهم فى جعل علىٍّ ومعاوية ونحوهما من مرتكبي الكبائر ، فكان يحفظ للصحابة صحبتهم ، ولا يتنكر لهم كما تنكر الخوارج ونحوهم .

ثم جاءت مسألة الكلام وخلق القرآن فى علم التوحيد بعد مرتكب الكبيرة ، فزادت فيه النار اشتعالا ، وكانت وقوداً صالحا لنار الخصومة بين المعتزلة ومن يخالفهم فيها من أهل السنة وغيرهم ، ولا سيما فى عهد المأمون ومن أتى بعده من ملوك بنى العباس إلى المتوكل ، إذ تعصبوا للمعتزله على غيرهم من الفرق ، وكالوا بكيلين للرعية التى قاموا بالحكم فيها ليكيلوا لها كيلا واحدا ، فكان كل من يقول بخلق القرآن له حظوتهم ، وكل من لا يقول به يعزل من وظيفته فى القضاء وغيرها وينال ما ينال من العذاب والسجن ، حتى انقسمت الرعية على نفسها انقساماً شنيعا ، ونال أهل السنة من الأذى ما لم ينله المخالفون للعباسيين فى دينهم .

فلما جاء المتوكل بعد أولئك الملوك قلب للمعتزلة ظهر المجن ، وظاهر أهل السنة عليهم ، فكال للمعتزلة بمثل ما كانوا يكيلون به لغيرهم ، ويقال إنه كان يظاهر فريقاً

مخصوصاً من أهل السنة ، وهم فريق الحشوية الذين كانوا يحسبون من أهل السنة فى ذلك العهد .

وقد مكث ذلك الخصام قائماً بين أهل السنة والمعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية إلى أن ظهر أبو الحسن الأشعرى ، وكان تلميذاً لأبى على الجبائى من المعتزلة ، وقد مكث أربعين سنة يأخذ علم التوحيد عليه وعلى غيره من علماء هذه الفرقة ، ثم انقلب عليهم مرة واحدة ، فكان شديداً فى انقلابه عليهم ، إذ انقطع عن الناس فى بيته خمسة عشر يوما ، ثم خرج بعدها إلى المسجد الجامع بالبصرة ، فصعد المنبر وقال : معاشر الناس ، إنما تغيبت عنكم هذه المدة ، لأنى نظرت فتكافأت عندى الأدلة ، ولم يترجح عندى حق على باطل ، ولا باطل على حق ، فاستهديت الله تبارك وتعالى ، فهدانى إلى ما أودعته فى كتبى هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده ، كما انخلعت من ثوبى هذا ـ وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ، ودفع الكتب للناس ، فمنها كتاب اللمع ، وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه : كشف الأسرار وهتك الأستار ـ وغيرها من كتبه .

وفى رواية أنه رقى كرسيا فى الجامع ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرّفه بنفسى ، أنا فلان ابن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لاتراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعايبهم .

فزادت الخصومة اشتعالا فى علم التوحيد ، ولا سيما أن أبا الحسن الأشعرى لم يمكنه التخلص من كل آثار المعتزلة ، بل بقى فى مذهبه قليل من آثارهم ، ولم يتجاف التأويل فى بعض الآيات المتشابهة ، كما كان يتجافاه القدامى من أهل السنة ، فوقع بهذا بين نارين ، وقامت خصومة شديدة بينه وبين المعتزلة والقدامى من أهل السنة وغيرهم ، وانتصر الملك طغرلبك السلجوقى للكرامية فى خراسان وغيرها من مملكته الواسعة على أتباع الأشعرى ، فعذبهم وشردهم ونفاهم من مملكته ،

ففروا منها إلى غيرها من البلاد ، كما فر إمام الحرمين إلى بلاد الحجاز ، وكذلك غيره من أئمة الأشعرية .

فلما ظهر أمر الأشعرية فى عهد الوزير نظام الملك أخذوا يكيلون لغيرهم الصاع صاعين ، حتى ظهر مذهبهم وطغى على غيره من المذاهب ، ولا سيما مذهب المعتزلة الذى تربى إمام الأشعرية على أساتذته ، فقد كان الأشعرية أقسى عليه من غيره من المذاهب ، حتى امحى أثره بينهم ، ولم يمكن أحداً أن يأخذ بشىء منه عندهم ، ولا يزال أمره على هذا الحال إلى عصرنا الحاضر ، لأن كتب الأشعرية هى التى تدرس الآن فى علم التوحيد ، ولا تزال على حالتها من يوم أن وضعت فيه ، فلا مجال فيها لغير مذهب الأشعرية ، ولا يلتى فيها غيره شيئا من الإنصاف ، لتهدأ نار تلك الخصومة ، وتضعف حدة ذلك الخلاف ، ويكون هناك مجال للصلح والوفاق ؟

« يتبع »

حول تفسير مجمع البيان :

من السبل العملية للتقريب

لفضيلة الدكتور محمد يوسف موسى

الأستاذ بكلية أصول الدين

---

١ — لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، ولجعل الأمة الواحدة لا تختلف فيما بينها من مذهب أو رأى ، ولكنهم ـ كما أراد الله جلت حكمته ـ يتفقون حيناً ، ويختلفون حيناً آخر ، أو يتفقون فى هذا ويختلفون فى ذاك ، ولعل هذا خير للناس جميعا ، ذلك بأن الاختلاف فى الرأى من طبائع الأمور ، بل لعل العالم لا يمكن أن يستقيم دون هذا الاختلاف فى الرأى الذى يتناسب واختلاف عقليات الناس وطبائعهم ، وطرق تفكيرهم ، ووسائلهم إلى الغرض الواحد ، وإن كان هذا الغرض موضع الاتفاق من الجميع .

وإذا كان الخلاف فى الرأى من طبائع الأمور كما نقول ، فإنه ليس من هذه الطبائع أن يتجاوز الخلاف حدّ الخصومة العاقلة فى العلم ، فينتهى بنا الأمر إلى أن يتباغض رجال المذاهب المختلفة فى الدين أو السياسة ، أو غير الدين والسياسة ، مما هو عادة مثار الخلاف والنزاع .

وقد يتساءل كثير من الناس عن علة تباغض رجال المذاهب وأرباب المقالات فى الدين أو الوطنية مثلا ، مع أن ما يتصدون له من خدمة الوطن أو الدين كان جديراً بالتوفيق بينهم وجمع الكلمة على ما فيه خير الوطن ومجد الدين .

ونعتقد أن مرجع هذا الداء الوبيل ، الذى مُنى به الشرق المنكوب بكثير من

رجاله ، هو أننا لا نصدر فى خصوماتنا عن بينة أو قاعدة صحيحة ، إننا نرى رجال هذا المذهب أو تلك المقالة مثلا يعتقدون أن الحق كل الحق فيما هم عليه وحده . وأن معتقد الآخرين كله باطل ، ولا يكلفون أنفسهم بحث ما عليه هؤلاء الأغيار ليتعرفوا صحيحه من فاسده ، وحقه من باطله ، بل يحرمون ذلك تحريماً باتاً . ولو فعلوا لتبينوا أن كثيراً من المسائل يجب أن تكون موضع اتفاق فيما بينهم . لأن الحق جذاب لا تعمى عنه الأفئدة ، وإن تعامت عنه الأبصار ، ولو فعلوا ، لعلموا أنهم كانوا من المسرفين فى عداوتهم ، المتجنين على الحق فى خصوماتهم ، ولأمكنهم أن يضيقوا شقة الخلاف يوما بعد يوم ، وفى ذلك الخير الكثير .

هذا ، وإن بعض من اتصلوا بالدين ودراساته ، ولا نقول من سواد الشعب أوعامة المتعلمين ، يعادون هذا المذهب أو ذاك من مذاهب الفقه أو علم الكلام استجابة لعقيدة جاءتهم بالبيئة والوراثة ، لا لرأى نتيجة التفكير المتزن السليم ، ولو أردتَ الواحد من هؤلاء من أنصارهذا المذهب الذى يتعصب له كل التعصب على أن يذكر أسباب ما يرى ، لعجز أيما عجز ، أو لرأيته جاهلا بمذهب مخالفه وبأسانيده جهلا غير معذور ! .

ومثال آخر : أن كثيراً من العامة وأشباه العامة فى العلم يرون كفر بعض فلاسفة الإسلام ، مع أنهم لا يكادون يعرفون شيئا من آراء هؤلاء المفكرين ومذاهبهم الفلسفية ! غاية الأمر أنهم لقنوا أنه كان لهؤلاء الفلاسفة آراء خارجة عن الدين ، واستناموا لذلك واستمرأوا الراحة ، ولم يعنوا ببحث هـــذه الآراء والكشف عما يكون فيها من حق وما يكون فيها من باطل لا يتفق وما جاء به الوحى ! ولو أنصفوا الحق وكرامة العلماء لرجعوا إلى القاعدة التى فرضها على نفسه حجة الاسلام الإمام الغزالى ، حين أقام نفسه حاميا للدين ومدافعا عن الاسلام ضد ما تسرب إليه من الفلسفة الإغريقية بصنيع فلاسفة الاسلام مما لا يتفق فى رأيه والدين الحنيف ، هذه القاعدة هى ما صدر بها كتابه « مقاصد الفلاسفة » إذ يقول :

أما بعد : فإنك التمست كلاما شافيا فى الكشف عن تهافت الفلاسفة وتناقض آرائهم ، ومكان تلبيسهم وإغوائهم . ولا مطمع فى إسعافك إلا بعد تعريفك مذهبهم ؛ وإعلامك معتقدهم ؛ فإن الوقوف على فساد المذاهب قبل الاحاطة بمداركها محال ، بل رمىٌ فى العماية والضلال ، فرأيت أن أقدّم على بيان تهافتهم كلاما وجيزاً مشتملا على حكاية مقاصدهم من علومهم المنطقية والطبيعية والإلهية من غير تمييز بين الحق منها والباطل ؛ بل لا أقصد إلا تفهيم غاية كلامهم من غير تطويل .

ولقد أخذ حجة الاسلام نفسه بوعده ، والتزمه التزام الأمين لكلمته ، فشرح مقاصد الفلاسفة بأمانة ودقة بالغتين ، حتى نقده بعض المتدينين الوَجلين بأنه رضوان الله عليه قد مكّن لهذه الآراء بما لم تبلغه قدرة أصحابها والقائلين بها ، ثم أخذ ينقض ما وجده مستحقا للنقض من هذه الآراء ؛ ويهدم الجدير بالهدم منها ، وذلك فى كتابه « تهافت الفلاسفة » .

أما نحن ، فواحرّ قلباه ! نحب ولا ندرى أحياناً كثيراً لماذا نحب ، ونبغض ولا ندرى فيم البغض ، وهذا مصدر البلاء ، والله المستعان !

٢ — ذلك . وكان من هذا أن دامت الفرقة ، وظل الخلاف مستحكما بين رجال الفرق الإسلامية فى أصول الإسلام وفروعه ، مع توحيد الاسلام بينها ، ومع أن جميع المتخالفين من المسلمين لدى الله وإن فرق بينهم إلى حد ما ، ما هم عليه من مذاهب وآراء .

ونعتقد أن من الخطوات العملية التى يجب أن تتخذها جماعة التقريب ، بعد أن سلخت طوال عامين من عمرها المبارك إن شاء الله تعالى فى التمهيد والاعداد للتقريب الحق المرجوّ بين المذاهب الاسلامية ، أن تعمل على إذاعة ما كان من هذه المذاهب غير معروف على وجهه فى مصر ، كمذهب الشيعة مثلا ، حتى يعرف من يتعصب بحق أو بغير حق لمذهبه المخالف أن هذا المذهب فيه من الحق شىء كثير يصلح أن يكون أساسا للتفاهم الصادق بين الشيعة وأهل السنة ؛ وإذاً فلا

يجمل بنا ، باعتبارنا مسلمين وطلاب حق أينما كان ، أن نتعصب على مذهب من مذاهب المسلمين له من أصوله ومن أسانيده ما يجب أن يكون محل قبول واتفاق منا ومنهم على السواء .

وهناك حقيقة تاريخية يجب أن لا نغفل عنها . هى أن للتاريخ بأحداثه التى مرّت بنا أكبر الأثر فى جعل بعضنا من أهل السنة ، وبعضنا من الشيعة ، بل ربما كان هذا التاريخ بأحداثه تلك هو العامل الوحيد الحاسم فى جعلنا على ما نحن عليه الآن . ويكفى أن نشير إلى أنه لولا تسلّط السلطان صلاح الدين الأيوبى على مصر فترة من الزمن ، وإحلاله فى الأزهر — منارةِ العرفان الوحيدة فى ذلك الزمن — المذهب السنى ، محل المذهب الشيعى ، لكان من المحتمل جداً أن نكون معشر المصريين الآن من الشيعة لا من السنة ؛ فكيف يصح ، مع هذا ، أن يزعم كل منا أنه اختار لنفسه هذا المذهب على ذاك عن تفكير وتدليل وموازنة !

٣ — بعد هذا الذى نقرره ، ونعتقد أنه صحيح تاريخياً وموضوعيا ، نذكر أنه لا أكثر إذاعة لمذهب ما ، من نشر بعض المؤلفات الأصيلة لرجالات هذا المذهب وعلمائه ، وبخاصة ما كان منها فى علم التفسير أو علم التوحيد ، وبخاصة ما كان منها لكتاب وعلماء عرفوا بالاتزان والدقة والعرض الصحيح للآراء التى يصدرون عنها .

وفى مقدمة هذه الكتب القيمة فى ذاتها وفى ناحية الموضوع التى تعالجه ، ومن ناحية الآراء التى تصدر عنها ، كتاب « مجمع البيان فى تفسير القرآن » للطبرسى هذا الكتاب الجليل التى تعنى هذه الأيام جماعة الازهر للنشر والتأليف » ، التى أشرف برياستها ، بالعمل على نشره نشراً علمياً محققا بكل معنى الكلمة ، ونرى من الخير أن نأتى بكلمة موجزة عن المؤلف ، ثم عن الكتاب ومنهجه فى التفسير وقيمته بين المؤلفات الأخرى فى هذا العلم ، ليتبين أنه حقيق بالنشر ، وأنه حين ينشر يكون خطوة عملية ناجحة بإذن الله فى سبيل التقريب بين أهل السنة والشيعة .

أما المؤلف فهو الشيخ أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى ، نسبة إلى طبرستان

بفتح الطاء والباء وكسر الراء كما فى معجم البلدان ، من أكابر علماء الشيعة الامامية ومن أعيان القرن السادس (١) ، وقد أجمع من كتب عنه من العلماء على أنه « ثقة فاضل دين عين ومن أجلاء هذه الطائفة » . كما وصف بأنه « فخر العلماء الأعلام ، وأمين الملة والاسلام ، المفسر الفقيه الجليل الكامل النبيل » ، ويذكر رئيس المحققين الشيخ أسد الله التسترى ، عند ذكر ألقاب العلماء ، بأن من هذه الألقاب « أمين الاسلام » للشيخ الأجل الأوحد الأكمل ، قدوة المفسرين ، وعمدة الفضلاء المتبحرين ، أمين الدين ، أبى على الفضل بن الحسن الطبرسى .

ولعل من أدل الأدلة على جلالة الطبرسى فى العلم وإمامته فى التفسير ، كتابه مجمع البيان الذى نحن الآن بصدده ، فضلا عن مؤلفاته الجليلة الأخرى فى التفسير وغير التفسير ، ومن هذه المؤلفات فى التفسير كتاب الوسيط ، وكتاب الوجيز ، وكتاب الوافى ، وكلها كتب قيمة ، مشهود لها بعلو المرتبة فى العلم والتحقيق .

ونعتقد أننا لن نصف كتاب مجمع البيان ، بصفة خاصة ، ولن نبين الخطة التى رآها المؤلف فى التفسير ، والمنهج الذى سلكه فى عمله ، بأفضل من أن نأتى بما ذكره عن ذلك كله صاحبه نفسه ، حين يقول فى المقدمة التى وضعها للكتاب : « وابتدأت بتأليف كتاب فى غاية التلخيص والتهذيب ، وحسن النظم والترتيب ، يجمع أنواع هذا العلم وفنونه ، ويحوى نصوصه وعيونه ؛ من علم قراءته وإعرابه ولغاته ، وغوامضه ومشكلاته ، ومعانيه وجهاته ، ونزوله وإخباره ، وقصصه وآثاره ، وحدوده وأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والكلام على مطاعن المبطلين فيه ، وذكر ما ينفرد به أصحابنا رضى الله عنهم من الاستدلالات بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع والمعقول والمسموع . [وذلك] على وجه الاعتدال والاختصار ، فوق الإيجاز ودون الإكثار ؛ فإن الخواطر فى هذا الزمان لا تحتمل أعباء العلوم الكثيرة ، وتضعف عن الاجراء فى الحلبات الخطيرة . وقدمت فى مطلع كل سورة ذكر مكيّها ومدنيّها ، ثم ذكر الاختلافات

(١) توفى بسبزوار من بلاد خراسان بإيران سنة ٥٤٨ هـ .

فى عدد آياتها، ثم ذكر فضل تلاوتها ، ثم أقدم فى كل آية الاختلافات فى القراءات ، ثم ذكر العلل والاحتجاجات ، ثم ذكر العربية واللغات ، ثم ذكر الاعراب والمشكلات ، ثم ذكر الأسباب والنزولات ، ثم ذكر المعانى والأحكام والتأويلات والقصص والجهات ، ثم ذكر انتظام الآيات . على أنى قد جمعت فى عربيته كل غرة لائحة ، وفى إعرابه كل حجة واضحة ، وفى معانيه كل قول متين ، وفى مشكلاته كل برهان مبين ، وهو بحمد الله للأديب عمدة ، وللنحوى عُدة ، وللمقرىء بصيرة ، وللناسك ذخيرة ، وللمتكلم حجة ، وللمحدث محجة ، وللفقيه دلالة ، وللواعظ آلة ، وسميته : « مجمع البيان لعلوم القرآن » .

٤ — والقارىء لهذا الكتاب ، والباحث الذى يلجأ إليه فيما يعانى من تفسير كتاب الله العظيم ومعضلاته ، والمتتبع لتطور علم التفسير وما كُتب فيه على مر القرون — كل من أولئك ، يتبين كيف وُفّق المؤلف رضوان الله عليه للوفاء بكل ما قال فى المقدمة من علوم القرآن المتعددة ، وإلى أى مدى عال مرموق بلغ من ذلك كله ، وبأى أسلوب بليغ عالى المنزلة عالج النواحى التى عالجها ، وبأى أمانة وصدر رحب نقل ما نقل من آراء مخالفيه فى الرأى أو المذهب ، على ندرة هذه الخطة الأخيرة بين غير قليل من العلماء الذين يتصدّون للتأليف فى العلوم والفنون التى يكثر فيها الاختلاف ويشتد ، كما ترى بوضوح فى كثير من المؤلفات فى علم الكلام ، وعلم الفقه .

ومن ثم ، نجد صحيحاً كل الصحة ما جاء فى ترجمة المؤلف التى صدرت بها طبعة العرفان بصيدا ، التى نفدت نسخها منذ بعيد ، فقد أشير فيها إلى ماخص به المؤلف رحمه الله تعالى ، من « التأدب وحفظ اللسان مع من يخالفه فى الرأى ، بحيث لا يوجد فى كلامه شىء ينفّر الخصم أو يشتمل على التهجين والتقبيح ، وقل ما يوجد فى المصنفين من يسلم كلامه من ذلك ، وانظر إلى كلامه فى مقدمة « جامع الجوامع » فى حق صاحب الكشاف [الزمخشرى] وما فيه من التعظيم له

والثناء البليغ على علمه وفضله ، لتعلم أنه من الفضل والانصاف وطهارة النفس في مرتبة عالية » .

وفى الحق ، إن المصنف العالم الثقة الكبير جرى على أن يذكر أولا الأقوال والآراء المعروفة عن أهل السنة ، ثم يذكر أخيراً - إن رأى ضرورة لذلك - آراء أهل مذهبه فى غير إلحاح على نصرتها أو بيان أنها وحدها الحق ، وذلك لعمرى منهج مقبول كل القبول ، وتلك أمانة فى رواية الآراء والمذاهب مشكورة كل الشكر .

٥ — وأخيراً ، إن نشر هذا الكتاب أصبح ضرورة علمية ، وذلك مع شدة الحاجة له ، حتى لا يستغنى عند الرجوع إليه والإفادة منه كل من يتصدى للتفسير فى المجالس العالية من كبار الشيوخ والعلماء .

ونشر هذا الكتاب القيم يعتبر - فى رأينا - ضرورة أيضا من ناحية أخرى ، هى ناحية التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وهذا ما لا يكون إلا بعد معرفة كل مذهب من هذه المذاهب - التى يراد التقريب بينها - معرفة حقيقية من ناحية أصحابه لاخصومه ، وحينئذ نعرف إلى أى مدى يشتمل هذا المذهب وذاك من الحق فى النواحى المختلفة ، وإلى أى مدى يكون التقريب ممكنا بل واجبا بين أصحاب هذه المذاهب ما داموا جميعاً من أصحاب القبلة المسلمين حقا .

و « جماعة الأزهر للنشر والتأليف » حين اعتزمت نشر هذا الكتاب ، وحين أعدّت العدة لذلك بجمع مخطوطاته من هنا وهناك ، قدرت ذلك كله ، وقدرت أن القارىء سيعرف منه مذهب الشيعة الإمامية فى « الأصول والفروع والمعقول والمسموع » كما يقول المؤلف نفسه ، وإنه لا يمنع هذه « الجماعة » من المضى سريعاً فيما اعتزمت وقررت إلا بعض الصعاب التى نرجو أن تتغلب عليها إن شاء الله ، بمعونة من يُرجى منهم العون من كبار العلماء المعنيين بإحياء التراث الإسلامى المجيد ، والله هو الموفق لكل خير ، الهادى إلى سواء السبيل ؟



لحضرة صاحب الفضيلة السيد حسن الحيدرى

من علماء الكاظمية بالعراق

إن من أهم المشاكل الفلسفية التى شغلت بال فلاسفة الأمم من قديم الزمان وحتى الآن : معرفة حكمة هذا الخلق ، وما هى العلة الغائية لإيجاده ، وقد اختلفت آراء الحكماء فى هذه المسألة شأنهم فى كل مسألة تكون مجالا لتفكيرهم . فأما من مال إلى مذهب أهل التصوف من الفلاسفة ، وسلك طريقتهم فى تفكيره فإن هذه المشكلة عنده تنحل من أساسها بل لا يبقى لها معنى ، وذلك بواسطة نظرية وحدة الوجود ، لأنها تئول إلى نفى ما سوى الله ، ويقولون ليس فى الوجود إلا الله ، ويزعمون أن هذا أعلى مراتب التوحيد .

فكما أنا معاشر المسلمين نوحد الله فى الخلق والعبادة ، ونقول : لا إله إلا الله (هل من خالق غير الله) فإنهم يوحدون الله حتى فى الوجود ، ويقولون : لا موجود إلا الله ، فتراهم أفرطوا فى التوحيد حتى أنكروا المخلوق ، كما فرّط آخرون فأنكروا الخالق ، وأما مايتراءى من الأشياء والكائنات بأسرها فما هى فى نظرهؤلاء المتصوفة إلا ظل للحقيقة الأزلية ، وليس لها حقائق مستقلة بذواتها ، وقائمة بنفسها ، بل هى بمثابة صفات أو تجليات أو أجزاء للوجود الأزلى والكائن الأول .

ولعمرى إن هذه العقيدة لا تقل خطراً على الأديان والأخلاق عن القول بإنكار الخالق ، إذ على هذا تزول مسئولية الانسان عن جرائمه ، ولا يبقى معنى للديونة والعقاب والثواب .

ومن الفلاسفة من قال : إن نسبة العالم إلى الله كنسبة النور إلى الكوكب ، والعطر إلى الأزهار ، وهؤلاء حلوا المشكلة من ناحيتين لأنهم :

أولا : جردوا الله عن القصد والإرادة ، فكما لا إرادة ولا اختيار للكواكب في إرسال النور ، ولا للزهرة الفوّاحة فى نشر عطرها وأريجها ، فكذلك لا إرادة لله سبحانه وتعالى عن ذلك فى خلق هذا العالم ، وإذا لم يكن للفاعل إرادة فيما صدر عنه ، فلا معنى للبحث عن الغاية التى يستهدفها .

ثانياً : يلزمهم على هذا القول أن يكون العالم أزلياً فينتفى أيضاً موضوع هذا البحث ، وهو علة خلق العالم ، لأن الأزلى غير مخلوق ، ولكن يترتب على هذا الرأى من التوالى الفاسدة ، والمحالات العقلية ما لا يحصى كثرة ، ولسنا بصدد الخوض فى غمرات هذه اللجج ، فان لها مقاماً آخر .

ومنهم من قال : إن الله أفاض الوجود على هذه الممكنات لمحض الجود والكرم ، لا لغاية أخرى ، لأنه لا غاية لكرمه ، ولا حد لجوده « وما كان عطاء ربك محظورا » ، بل هو عطاء غير مجذوذ ، لذلك أوجد هذه الكائنات التى لا حصر لها ، ولا نهاية لعددها ، وهذا التعليل عليه شىء من نور الحقيقة ، وله نصيب منها . ولكن الأحسن فى هذا المقام أن يقال : إن الله سبحانه وتعالى ما خلق السموات والأرض باطلا ، وما كان فى خلق هذا العالم لاعباً ولا لاهياً ، كما قال جل وعلا : « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين » ولم يخلق الانسان عبثا ، ولم يتركه سدى « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » بل خلقه لغايات سامية .

فأول غاية اقتضتها الحكمة هى : معرفة جلال الله وكماله المطلق ، وذلك أن الحقيقة الأزلية قبل وجود المخلوقات المتصفة بالإدراك والشعور كانت بما انطوت عليه من جلال لا حد له ، وكمال مطلق ، وجمال لا يوصف ، كنزاً مخفياً محجوبا فى ظلمات العدم ، والشىء إذا لم يدرك كأنه معدوم ، مع أنا لو فرضنا أن متحفا فيه من آيات الفن والتحف الثمينة الشىء الكثير ، وقد حجبه أهله عن كل عين ، ولا يصل إليه كل أحد إلا تسفه رأيهم ؟ مع أنه فىء زائل ، وظل حائل لا قيمة له إزاء الحقيقة الأزلية .

وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أَوَ لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد» فإن الآية الشريفة تدل على أن الغرض من خلق هذه الآيات المنبثة فى آفاق السماوات والأرض ، والعجائب المودعة فى خلق الإنسان هو معرفة الله المدبر لكل شيء والخالق لهذا الكون العظيم ، حتى نعرف بواسطة عظمة هذا الكون أنّ خالقه أعظم ، وأنه أكبر من أن يوصف أو يحد بمكان أو زمان أو فكر ، وحتى يتبين لنا أنه الحق ، وأن مايدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

الغاية الثانية : تعظيم الله ، وتقديسه ، وتسبيحه ، وتنزيهه عن كل نقص ، وحمده وعبادته ، لأنه أهل للعبادة . قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام : (ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً فى جنتك ، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك) . ويدل على أن ذلك من جملة غايات الخلق ، قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

الغاية الثالثة : هى الرحمة من الله لخلقه ، وإليها الاشارة بقوله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » والمشار إليه هو الرحمة فى الآية الشريفة .

وأنت ترى أن الغايات الثلاث المذكورة مترتب بعضها على بعض ، وذلك : أن الخلق إذا عرفوا خالقهم ومعبودهم معرفة تامة ، عبدوه وقدسوه ، فإذا عبدوه وأطاعوه وشكروه على نعمه التى لا تحصى ، صاروا محلا قابلا ، وموضعاً حسنا للرحمة ، فتفضى بهم العبادة إلى السعادة الخالدة ، والكرامة الدائمة ، والنعيم المقيم الذى لا زوال له ولا اضمحلال ، بجوار الملك المتعال « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » قد فازوا برضوانه ، ورافقوا ملائكته ، ونزع ما فى قلوبهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ، فى دار لا يمسهم فيها نصب ، ولا يمسهم فيها لغوب .

فأى غاية أشرف من هذه الغاية ؟ وأى هدف أسمى من هذا الهدف ؟ ..

منهج القيادة الرشيدة

لحضرة صاحب الفضيلة الدكتور محمود فياض
أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

كل أمة حية لابد لها من موجه يوجهها إلى حياة حرة شريفة، تحفظ كيانها، وتضمن سعادة بنيها، وإنا لنجد هذا الموجه فى كل أمة من الكائنات غير الآدمية، نجده فى النمل والنحل وغيرهما من خلق الله، فلأن يكون ذلك فى الأمة الإنسانية أولى وأجدر .

وأول ما عرفت البشرية التوجيه والقيادة، عرفتهما عن طريق السماء، فقد اقتضت حكمة الله الحكيم الخبير، أن يبعث إلى البشر معلمين يوجهونهم إلى الخير والجمال، ويرشدونهم إلى أمثل سبل السعادة، ويقودونهم إلى تحقيق أهدافهم وفق ما رسم الله لهم .

ثم عرفت الإنسانية معلمين وقواداً غير الرسل والأنبياء، من العلماء والزعماء المصلحين من رجال الدين، أو ذوى الفكر، أو رجال السياسة، حاولوا السير بالإنسانية وفق نواميس العدالة التى قررتها رسالات الرسل، أو وفق ما اهتدوا إليه مما يسمى «قوانين العدالة الطبيعية» وإلى جانب هؤلاء القادة من العلماء والزعماء المصلحين، عرفت الإنسانية أيضاً قواداً مستبدين بها، متجبرين عليها، ليست لهم صفة الإرشاد والتوجيه والتعليم، فكانت قيادتهم قيادة غير رشيدة .

والقيادة الرشيدة : هى التى تحتفظ بصفة الخير ، وقصد صالح الأمة فى توجيهها وتعدد بين الأفراد فى توزيع الحقوق والواجبات ، عدلا يقوم على قواعد ثابتة لاتتغيرحسب الهوى ، أوتتبدل تبعاً للملابسات ، ولابد حينئذ أن يكون المشرفون على هذه القيادة من ذوى الرسالات أو المبادىء الصالحة ، رسلا كانوا أو زعماء ، لأن هؤلاء القادة تحملهم مبادئهم على تحقيق العدل والحرية والمساواة بين رعاياهم ابتغاء وجه الله والصالح العام ، وهم يحملون الناس على اتباع الطريق المستقيم ، بسلوكهم فى الحياة ، وتصرفاتهم العامة ، ويجعلون من أنفسهم قدوة عملية لأتباعهم ، ولهذا لا تجد الرعية مناصاً من السمع لهم والاقتداء بهم فى كل شىء جميل ، ويسود التوافق والانسجام بين القادة والأتباع ما دامت القيادة تسير وفق منهجها القويم ، فإذا انحرفت القيادة عن منهجها ، فقدت الرعية قدوتها العملية ، وسادت الأثرة ، واضطرب أمن المجتمع ، ولابد حينئذ أن يكون القادة من غير ذوى الرسالات والمبادىء السامية ، فينعدم التجاوب والتفاعل الوجدانى بين القادة والأتباع ، وتتوزع الميول ، وتتباين المقاصد ، ولهذا كله ولغيره ، أوجب القرآن الكريم التأسى بالرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فى سلوكه ، ومعاملاته ، وسياسته ، وحسن قيادته « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » ومما لاشك فيه أن القيادة الرشيدة هى محور النجاح والعزة للمجتمع الذى تقوده ، وأن القائد الرشيد يحمل أتباعه على التأسى به فى رشده وخيره . وبذلك تتألف أمة قوية عزيزة ، من مجموعة كل فرد فيها أهل للقيادة الرشيده .

وقد قضت حكمة الله أن يكون الرسل والأنبياء من الأمم التى بعثهم الله اليها ، يصطفيهم من أممهم ليكونوا أقرب إلى قلوبها ، وأبصر بأحوالها وأدوائها ، ليصلوا بأممهم إلى الغرض السامى الذى يريده الله للإنسانية ، وهذا إرشاد ربانى إلى أن القيادة يجب أن تكون من صميم المجتمع الذى تقوده ، لأنها حينئذ تكون أعرف بمواطن العلل ، وما يصلح للأدواء من أدوية ، وتكون أحرص على خير مجتمعها من قيادة غريبة عن المجتمع ، لا تعرف علله ، ولا تحرص على خيره

إلا بقدر ما يعود عليها من نفع خاص ، فهى تسخر المجتمع وتستغله لصوالحها ولو حرمته من كل وسائل الحياة الإنسانية الشريفة ، ومن هذا الصنف قيادة المستعمرين فى كل أمة تفقد حريتها واستقلالها .

والقائد سواء أكان رسولا أو مصلحاً غير رسول . يجب أن يكون مؤمناً بمبادئه إيماناً قوياً ثابتاً ، لا تزعزعه الأحداث ، بل يجب أن يكون مؤمناً بأن مبادئه هى أصلح المبادىء التى تحقق لمجتمعه العزة والسعادة ، وتضمن له الخير والأمن والسلام ، فإذا تطرق إلى القائد شك فى صلاحية مبادئه ، أو ضعف فى إيمانه بخيريتها ، فهو قائد لا بد أن تفشل قيادته ، أو تنبذه أمته ، كذلك يجب أن يتوسل القائد إلى إقناع المجتمع بصلاحية منهجه . وخيرية مبادئه ، متدرعا بالصبر والمثابرة ، فى مواجهة ما لابد أن يصادفه من صعاب وعناد وإيذاء ، وليعلم أن رواد الإصلاح منذ القدم أصابهم ما يصيبه ، ووجدوا ما وجد . لأن طريق الإصلاح حف بالأخطار ، ونثرت على جنبانه أشواك وأشواك ، وليعلم أن نجاح قيادته ، واستقرار دعوته ، مرهونان بقوة احتماله وصبره ومثابرته « ولقد كُذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » . « واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » فليسر على الشوك صابراً راضياً ، حتى يحصل من أتباعه على إيمان كإيمانه ، وصبر كصبره ، ومثابرة كمثابرته ، لأنه قدوة حسنة ، وخادم لأتباعه غير معوج السلوك ، ولا بخيل عند البذل ، ومن إيمان القائد المصلح بصلاحية مبادئه ، وصبره ومثابرته على الدعوة ، ومن إيمان أتباعه بصدقه وإخلاصه ، وخيرية مبادئه ، ومن روح التوافق والانسجام التى تظل القائد وأتباعه ، ومن رغبة الجميع فى تحقيق الخير للجميع ، تتكون عوامل النصر والنجاح للقيادة الرشيدة .

بهذا الإيمان تغلب الرسل والمصلحون على كل ما واجههم من عقبات وعنت وإيذاء ، وبه حطموا أغلال الشرك والاستعباد ، وخلصوا شعوبهم من إرهاق المتجبرين ، وأخرجوهم من الظلمات إلى النور .

وما دام الأتباع قد أرضوا قائدهم ، أو اختاروه هم لقيادتهم ، فليكونوا مثله فى صدق الإيمان والاخلاص فى العمل ، وعليهم أن يسمعوا ويطيعوا ، ولو كلفتهم الطاعة بذل المهج ، ولن يكون هذا البذل فى سبيل شخص القائد - كما يزعم المعوقون - ولكنه بذل فى سبيل فكرة آمن الجميع بحقيتها وسموها ، وفى سبيل سعادة الجميع ، فمن واجبهم أن يستقيموا له ما استقام لهم وللفكرة التى آمنوا بها ، فإذا اعوج أو تنكر لمبادئه نبذوه ، واستبدلوا به غيره ، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وليعلم الأتباع أن واجبهم عظيم ، وتبعاتهم ثقيلة ، فهم أجنحة النصر وسيوفه ، ولهم مفاخره وعليهم تكاليفه ، فليكونوا لقائدهم ودعوتهم أجنحة قوية ، وسيوفا باترة ، ليحلقوا بمجتمعهم إلى أرفع مكان فى ساحة العزة والكرامة ، وليكونوا ألسنة فصيحة للدعوة ، تنطق بمجدها ، وتعلن عن سموها ، وعنوانا على نبل الدعوة وصلاحية مبادئها .

فإذا كانت القيادة وأتباعها من هذا الطراز الخالص فى إيمانه ، الملتزم للمبادىء التى آمن الجميع بها ، وصلت الأمة بها إلى أهدافها المرجوة ، وتحققت سعادتها ، وساد فيها الخير والكرامة .

وقد كانت للأمة الاسلامية قيادة رشيدة خيرة ، سارت فى جميع تصرفاتها وفق مارسم الله للرعاة من مبادىء ، وما حدّ لهم من حدود ، ووصلت الأمة الاسلامية عن طريق هذه القيادة الرشيدة إلى أمنع قمة من قمم المجد والعز المكين ، تمثلت هذه القيادة ، فى قيادة الرسول محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، وفى قيادة أصحابه الهداة من بعده ، ثم جاءت من بعدهم خلوف مالت ، ثم اعوجت ، ثم اضطربت ، ثم فسدت القيادة نتيجة لمبلغ قربهم أو بعدهم عن تعاليم القيادة الرشيدة . حتى أسلموا الأمة إلى الذل والعبودية ، ومزقوا مجدها كل ممزق ، ولم يسمعوا لناصح ، ولم يهتدوا إلى الخير سبيلا ، أو لم ينصحهم أو يهدهم إلى الرشد بقية أهل القيادة وهم العلماء .

وقيادة العلماء فى هذا الزمان من الخطر بمكان عظيم ، فإنهم بعد تمزق الأمة الاسلامية وتوزعها بين القوميات المختلفة التى تخضع لقيادات سياسية مختلفة ، أصبحوا هم خلفاء قائد الهداية الأول صلوات الله وسلامه عليه ، وأصبحوا يحملون مشاق الدعوة والنصح لله وللرسول ولأئمة المسلمين وعامتهم ، والمسلمون اليوم ينشدون منهم قدوة حسنة يأمرون الناس بالبر ولا ينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ، ولا يكتمون ما أنزل الله وأمر ببيانه للناس . رغبته أو رهبته ، وليعرفوا سِيَر أسلافهم الذين أصروا على التوجيه إلى الخير فى محيط بالشر عجاج ، لم يثنهم عن قولة الحق سيف قاطع ولا ذهب وهاج .

فيأيها الهداة الأخيار ، استعدوا وأعدوا ، فقد جاءتكم النذر ، حولكم من كل جانب ، مذاهب فكرية ، سياسية واقتصادية واجتماعية ، إذا لم تتجه كلها إلى القضاء على الدين ، فإنها على أيسر التقديرات إلحاد فيه ، والمسلمون اليوم كما عبرت السيدة عائشة عنهم يوم مات النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « كغنم فقدت راعيها فى ليلة شاتية ممطرة مظلمة » فكونوا سراجهم الهادى ، واعلموا أنه إن أفلت الزمام من أيديكم فلن تفلحوا بعدها إذن أبدا ، وإن تصبروا وتتقوا يمددكم ربكم برعايته ورحمته ، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » و « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ؟

المرأة والحياة العلمية
فى العصور الوسطى

لحضرة الأستاذ أحمد محمـــد عيسى

أمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

مضى على المرأة حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا ، فلما جاء الإسلام أعطاها ما لم تعرفه لها أو تعترف لها به الشرائع السابقة ، سماوية أو بشرية ، ونشر بين الناس كتاب الله ، وحفظه الرجال والنساء ، وأدركت المرأة ما فيه من خير كثير لها ، واعترف الرجال بما أعطاه الدين الجديد لهن من حقوق عن رضى وطيب خاطر . ووجد الفريقان فى الحديث النبوى ما يفسر ما أجمله القرآن من تقرير للعلاقات بين الرجل والمرأة ، ومن حق لها قبله ، ومن واجب عليه نحوها ، زوجة كانت أم أما أم أختا أم ابنة أم إنسانة عادية ، ووضّح الدين الجديد تلك الحقوق النسوية فى شتى أشكالها : فى الأمومة ، والزواج ، والطلاق ، والوصاية ، والبنوة ، وغيرها .

وسرعان ما ساهمت المرأة فى الحركات الاسلامية الأولى بنصيب مشكور ، ولم تقعد حتى عن المشاركة فى الحرب بين المسلمين والكفار ، بل استأذنت النبى فى الخروج للقتال لتؤدى من أعمال الميدان ما يلائم تكوينها .

والنتيجة الطبيعية لهذا ، بلوغ المرأة الشرقية درجة اجتماعية دونها مراتب النساء جميعا فى أنحاء العالم المعروف حينذاك ، ولم ير علماء المسلمين فى عصر صدر الاسلام

أى حرج فى السعى نحو امرأة ما ، لعلمهم أنها تروى حديثا نبويا بذاته ، على أنه من الصعب هنا أن نحصى من اشتهرن برواية الحديث عن النبى أو عن أحد الصحابة ، أو التابعين أو تابعى التابعين ، فهن كثيرات ازدحمت بأخبارهن كتب الحديث ، وأفاضت فى ذكرهن كتب التراجم والطبقات .

ثم انتقلت الدولة الإسلامية بعد محمد عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين من بعده إلى الأمويين ثم العباسيين ، وهنا نلمح تلون ثقافة المرأة بلون مغاير لما كان قبلا بسبب دخول عنصرجديد على الحياة الاجتماعية الاسلامية وهو الموالى ، وتتميز تلك الفترة بازدياد الاهتمام بالأدب ورواية الشعر وفنى الغناء والموسيقا ، حقا لقد وجد الشعر والغناء وغيرهما فى العصور السابقة للعباسيين الذين اعتمد حكمهم على الموالى ، والذين امتلأت قصورهم بالإماء والجوارى من كل صاحبة صوت ، أو ناظمة شعر أو قارعة دف ، أو ضاربة بوتر .

وبلغت الدولة الإسلامية فى ذلك العهد من الاستقرار السياسى ما كفل لها الأمن والاطمئنان ، وازدحمت بغداد بالرجال والأموال والقصور ، وما تستلزمه حياة القصور من ألوان الترف والنعيم والرفاهية ، فارتفع قدر الآداب والفنون ، واهتمت به راغبات الشهرة من النساء ، وصادف ذلك هوى ورغبة فى نفوس السادة والأمراء ، فأجزلوا العطاء لكل من أحسنت غناء ، أو أجادت لحنا ، أو أبدعت نظما . ونتيجة ذلك تغلب الجانب الفنى على حياة المرأة ، حتى لقد أسهم فى الانتاج الفنى لذلك العصر ، نساء من بيت الخلافة نفسه .

على أن تلك الحياة لا تعدم أن توصف بأنها حياة علمية ، إذ استلزم ذلك الجانب الفنى الإحاطة الشاملة الدقيقة بأخبار الشعراء والرواة والكتاب والعلماء والفقهاء والقواد والأمراء والخلفاء منذ صدر الدولة الاسلامية ، ومعرفة ما كان فى حياة هؤلاء من نوادر وطرائف وملح ، وصار الالمام بذلك أو بشىء منه وسيلة الحظوة عند السادة الأكابر .

ثم أصاب الدولة العباسية ما أصابها من تفكك وإنحلال ، بعد حياة الدعة

والنعيم ، وازدحم تاريخها المتأخر بأخبار المؤامرات والدسائس ، وأسهمت المرأة في ذلك بنصيب ، لأن أحداث السياسة جرت تحت سمعها وبصرها ، ثم انتهى الأمر بزوال الخلافة العباسية ، وانتقال حكم المسلمين إلى سلطان غير عربي ، وتعرضت بغداد لأنواع من الحكم والحكام لم تكن معهودة من قبل ، وخضع العالم الاسلامى لسلطان المؤثرات الطارئة ، وانتقلت الشائعات إلى أهل الشرق عما أصاب أهل الغرب من حملات الصليبيين ، وإلى أهل الغرب عما أصاب أهل الشرق من غارات التتار ، واضطربت الأحوال السياسية فترة من الزمن ، ثم عادت فانتظمت بعد ما أمكن للجيوش المصرية البطش بالمغول فى عين جالوت ، والبطش بالصليبيين فى مصر والشام .

عندئذ اتجه الاهتمام إلى العلوم الدينية ، وكان للحديث والفقه أكبر نصيب من ذلك الاهتمام . ويمكن القول بأن هذه العناية ترجع إلى أمرين :

الأول : أن السلاجقة والأتراك جاءوا فى أعقاب البويهيين بالعراق ، كما جاء الأيوبيون والمماليك فى أعقاب الفاطميين بمصر ، وقد بذل الحكام الجدد هنا وهناك من العناية ببعض العلوم ما ظنوا أنه يقضى على ما بقى من نفوذ السابقين .

الثانى : أن انتقال شئون العالم الاسلامى إلى حكام مسلمين من غير العرب ، متحمسين للعقيدة الإسلامية أدى إلى الإكثار من المدارس ودور القرآن والحديث ، وتيسير سبل العلم لمن أراد تحصيله من الرجال والنساء على السواء سعياً لاكتساب رضا المحكومين ، وظهوراً بالتحمس للدين .

والجدير بالملاحظة ، إقبال المرأة الشديد على العلم فى ذلك العصر ، واهتمامها بدراسة العلوم الشرعية ، وهو ما لم يكن مشهوراً فى عهد الخلافتين ، العباسية والفاطمية أو ما قبلهما ، حقا لقد اشتهرت كثيرات منهن بالشعر والغناء والموسيقا ولكن هذا اللون من الثقافة ليس فى تعقيد وصعوبة التثقف بعلوم القرآن والحديث والأصول واللغة .

والسؤال الذى يدور فى الأذهان هو : كيف أتيح للمرأة أن تخرج من قوقعتها المغلقة إلى دنيا العلم الواسعة ، وأن تتحرر من قيود الحجاب التى فرضها عليها الفقهاء ، فتبرز من خدرها إلى مجالس العلم مع الرجال دون اعتراض أو ثورة ؟ والواقع أن أحداث العالم الإسلامى وقتها ساعدت على ذلك . ولا شك أن خروج نساء من أوروبا لمرافقة الحملات الصليبيه بالشرق والعمل فى خدمتها مع الرجال ، كان له أثره فى المخالطين من المسلمين ، هـذا بالإضافة إلى اتساع نطاق الهجرات نتيجة للحركات الحربية بالشرق الأدنى ، وانتقال إمرة المسلمين إلى حكام من غير العرب ، مما عجل تطور أحوال المجتمع الإسلامى وقتذاك ، وعندئذ لم يكن غريباً فى نظر المعاصرين جلوس نساء على رأس حلقات الدرس فى المدارس المنشأة ، أو المساجد المعمورة ، ولم يعجب أحد للكثيرات المرتحلات فى سبيل العلم أو لمن قصد مجالسهن من الرجال المشتغلين بالفقه والحديث وعلوم القرآن ، للاستماع إليهن أو الأخذ عنهن أو طلب الإجازة منهن . وهـــذا هو السخاوى يذكر عن واحدة من أولئك هى سارة بنت عمر بن عبد العزيز بن محمد المعروفة ببنت ابن جماعة والمتوفاة سنة ٨٥٥ هـ ، أنها كانت صالحة محبة للطلبة ذات صبر على الاسماع وصحة السماع ، وأن أهل مصر نزلوا بموتها درجة فى الرواية .

ومما يدعو إلى الإعجاب بحركة التحرر المبكرة هذه ، أن المرأة لم تقتصر على تعلم العلم أو تعليمه فى صورة سهلة أو لعقليات مبتدئة ، بل زحفت إلى مركز الأستاذية ، وجلس أمامها أشياخ كبار يلتمسون الاستماع إليها أو القراءة عليها أو الإجازة منها . وتذكر مراجع ذلك الموضوع أن زينب بنت محمد بن عثمان ابن عبد الرحمن الدمشقية أنها كانت أعلم أهل زمانها بالفقه والحديث ، وأنها حدثت بالإجازة العامة عن فخر الدين بن الحجار ، ومن تلاميذها : الحافظ بن حجر ، وله منها إجازة ، وأن حلقة درسها كانت لا تقل عن خمسين طالبا فى الحديث ، ويقال مثل ذلك عن فاطمة بنت سعد الخير التى عاصرت البوصيرى ، وعن عائشة بنت على بن محمد الدمشقية ، وعن فاطمة بنت جمال الدين سليمان بن عبد الكريم

الأنصارى التى أجازها كثير من علماء القرن السابع الهجرى فى الشام والعراق والحجاز وفارس ، وعن نشوان بنت الجمال عبد الله بن محمد الكنانى التى حمد الطلبة محبتها لهم وصبرها عليهم .

وتبدو لنا مدى رغبة المرأة فى تحصيل العلم إذ استعرضنا ـ على سبيل المثال ـ أخبار هاجر بنت محمد بن محمد بن أبى بكر القاهرية المتوفاة سنة ٨٧٤هـ ، التى أخذت العلم عن واحد وأربعين شيخا منهم ثلاث سيدات ، والتى أجازها أربعة عشر شيخا من أعلام عصرها ، وقد حدث أن شغل التحصيل بعضهن فانقطعن للعلم ، ولم يتزوجن طوال حياتهن .

والذى يستعرض كتب التراجم والطبقات التى تناولت أخبار نساء ذلك العصر ، يلاحظ رغبة المتعلمات وميلهن إلى اتقان الخط ، وحفظ القرآن ، والحديث ، والقراءات ، والفقه ، والتأليف فى كل ذلك أو بعضه ، غير أنى لم أستطع الظفر ـ بمناسبة هذا المقال ـ بكتاب محفوظ باسم واحدة من فضليات ذلك العصر ، على الرغم من ورود أسماء كثيرة لمؤلفات لهن فيما قرأته من مراجع .

ومما يدعو إلى الدهشة حقاً كثرة عدد النساء المشتغلات بالعلم ، والعاكفات عليه منذ آلَ أمر العالم الإسلامى إلى السلاجقة والمماليك ، وأعجب من هذا أن أشياخ العلم فى ذلك الزمان ، أمثال : الحافظ بن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ) - إمام أهل عصره فى الحديث ـ قد أخذ بعض علمه عن نساء زمانه ، وأن شيوخه منهن بلغن نيفاً وثمانين ، وأن ابن حجر ـ وهو من هو فى عالم التدريس والفتيا وصاحب المؤلفات القيمة فى التاريخ ـ لم يجد غضاضة فى أن يأخذ بعض علمه عن امرأة ، أو أن يطلب إليها أن تجيزه ، بل يعدها وغيرها ضمن أشياخه بكل افتخار واحترام ، وإن مانقرؤه فى كتب التراجم ، من سعى طالبى العلم فى ذلك العصر إلى تلقيه عن المشهورات به فى مصر والشام والعراق وغيرها ، والجلوس فى حلقات دروسهن للاستماع ، يعطينا فكرة واضحة قوية عن مركز المرأة العلمى وعما نالته من تقدير معاصريها واحترامهم .

ونظرة سريعة إلى الجزء الذى ترجم فيه السخاوى لشهيرات القرن التاسع الهجرى من كتابه « الضوء اللامع » يتجلى منها للباحث ازدحام الكتاب بأخبار ربات العلم ، ويعجب للعدد الكبير الذى تتلمذ عليه السخاوى استماعاً أو قراءة ؛ ويمكن القول أن أشياخ السخاوى من النساء ، قد زدن على الخمسين ، اجازه منهن قرابة خمسة وعشرون شيخة .

ويلاحظ أن اشتغال المرأة بالعلوم التجريبية كان فى حكم العدم ، فلم أعثر فى مراجع هذا المقال على كثير أو قليل من المشتغلات بهذه العلوم ، وكل ما هنالك محاولات للاشتغال بالطب تنحصر فى مزاولة الكحالة ، على أن محترفات هذه الصنعة قليلات جداً ، لا يتجاوزون عدد الأصابع . وإذن فلم يكن هناك منفذ للرغبة فى التعلّم إلا فى العلوم الشرعية .

واستمرت حال المرأة على هذا النحو من الانتظام والسعى فى تحصيل العلوم ، إلى أن حل بالشرق الأدنى ما عكر صفوه ، وقلب أوضاعه من جديد ، حين بدأ النزاع بين الأتراك العثمانيين بآسيا الصغرى والصفويين ببلاد فارس والمماليك بمصر والشام على السيادة على ذلك الشرق ، ثم انتهى الأمر بغلبة العثمانيين ، ولكن هؤلاء كانوا أكثر ميلا إلى الحياة العسكرية منهم إلى الحياة المدنية الرفيهة ، ولذلك اختفى على أيديهم ما نما وترعرع على أيدى سابقيهم ، إلى أن ظهر عامل جديد فى الميدان تأثر الشرق به ، وهو النهضة الأوروبية الحديثة ؟

تصويب : فى صحيفة ٢٣ سطر ١٧ من هذا العدد وقع تحريف فى الآية الكريمة وصحتها : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم . . . » الآية ، فنرجو من حضرات القراء ملاحظة ذلك .

من بحوث مجمع فؤاد الأول للغة العربية (١)

معجم ألفاظ القرآن الكريم

— ٢ —

ج و د

جاد الشيء يجود ـ من باب نصر ـ جُودة وجَوْدة : صار جيدا ، والجيد نقيض الرديء .

وجاد الفرس : أي صار رائعاً بيّن الجودة ، فهو جواد للذكر والأنثى ، والجمع جياد ، وقد جاء هذا الجمع في قوله تعالى :

« إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد » ٣١ / ص

والجوديّ : هو الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، وقد جاء ذكره في قوله تعالى :

« واستوت على الجودي » ٤٤ / هود

ج و ر

١ ـ الجار لفظ يطلق على معان منها المقارب في السكن ، ومنها الحليف والنصير.
وقد جاء بالمعنى الأول قوله تعالى :

« وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب » ٣٦ / النساء .

وبالمعنى الثاني قوله تعالى :

« وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم » ٤٨ / الأنفال .

---

(١) بإذن خاص من حضرة صاحب المعالي أحمد لطفي السيد باشا رئيس المجمع .

٢ ــ (ا) ولمّا تصور فى الجار معنى القرب قيل لمن تقرب من غيره : جاوره، وهما متجاوران ، ومنه قوله تعالى :

« لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا » ٦٠ / الأحزاب .

« وفى الأرض قطع متجاورات » ٤ / الرعد .

(ب) ولما تصور فيه معنى الحلف والنصرة ، قيل استجار فلان بفلان فأجاره أى طلب حمايته فحماه ومنعه ، وحقيقته طلب جواره ، ليكون فى كنفه ، ويستوجب رعايته فيأمن ، وأجاره قبل جواره وحمايته ، ومنه قوله تعالى :

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » ٦ / التوبة

« قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون » ٨٨ / المؤمنون

« يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم » ٣١ / الأحقاف .

٣ ــ ويقال : جار فلان عن الطريق أى حاد فهو جائر ، كأنه تركها ، وصار إلى جوارها ، وقد جعل ذلك أصلا فى العدول عن كل حق فبنى منه الجور .

وفى التنزيل العزيز :

« وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » ٩ / النحل .

أى مائل عن الحق ، منحرف عنه ، لا يوصل سالكه إليه .

ج و ز

جاز الطريق يجوزه جوزا ـ بوزن قال ـ : سلكه وسار فيه .

وجاوزه : تعداه ، ومن هذا الأخير قوله تعالى :

فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » ٢٤٩ / البقرة

« فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا » ٦٢ / الكهف .

وتجاوزت عن المسىء : صفحت عنه ، وفى الحديث : (إن الله تجاوز عن أمتى ما حدثت به نفسها) أى عفا عنها ، ومنه قوله تعالى :

«أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم» ١٦/الأحقاف

ج و س

جاس الجند خلال الديار : تخللوها وترددوا فيها للقتل والغارة والإفساد ومنه قوله تعالى :

« بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار » ٥ / الإسراء .

ج و ع

الجوع : ضد الشبع ، وهو اسم من جاع يجوع جَوْعا ـ من باب قال :
وفى التنزيل العزيز :

« إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى » ١١٨ / طه .

«فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ٤/قريش.

ج و ف

جوف الإنسان بطنه ، وفى التنزيل العزيز :

« ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » ٤ / الأحزاب .

وهو مثل ضربه الله تمهيداً لما يعقبه من قوله :

« وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ».

أى لا تجتمع زوجية وأمومة فى امرأة ، ولا دعوة وبنوة فى شخص ، كما لا يجتمع قلبان فى جوف رجل واحد .

ج و و

الجوّ : الهواء ، وجو السماء : الهواء الذى بين السماء والأرض ، قال تعالى :

« ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جوّ السماء ما يمسكهن إلا الله » ٧٩ / النحل

ج ى أ

جاء يجيء جَيْئا ـ من باب ضرب ـ ومجيئا : فِعل يأتى لازما ومتعديا بنفسه ، وبحرف الجر ، وبهمزة التعدية ، ويستعمل فى الأعيان وغيرها ، لمعان متقاربة .

(ا) فيقال :

١ ــ جاء فلان ، أو جاء كذا بمعنى أتى ، ومنه قوله تعالى :

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه » ٥٨ / يوسف .

« وقل جاء الحق وزهق الباطل » ٨١ / الإسراء .

٢ ــ وجاء الأمن أو الخوف ، أى حصل وحدث ، ومنه قوله تعالى :

« فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك » ١٩ / الأحزاب .

٣ ــ وجاء الوعد أى تحقق وتنجز ، ومنه قوله تعالى :

« فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء » ٩٨ / الكهف .

أى فلما تحقق وعد ربى ، وتحققه حصول الموعود به .

٤ ــ وجاء أجل فلان : أى حل موعد موته ، ومنه قوله تعالى :

« فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ٣٤ / الأعراف .

(ب) ويقال :

١ ــ جاء فلانا ، أى أتى اليه ، ومنه قوله تعالى :

« فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » ٤٢ / المائدة

« وجاء السحرة فرعون » . ١١٣ / الأعراف

« بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها » ٥٩ / الزمر

وليس فى القرآن الكريم جاء إليه .

٢ ــ وجاء فلان الإثمَ أو الذنب أى أقدم عليه وارتكبه ، ومنه قوله تعالى :

« قالوا يا مريم لقد جئتِ شيئاً فريا » ٢٧ / مريم .

« لقد جئتم شيئاً إدّا » ٨٩ مريم .

« فقد جاءوا ظلما وزورا » ٤ / الفرقان .

(ج) وتأتى الباء فى فعل المجىء على ضربين :

أحدهما : إفادة معنى إحضار الشىء والإتيان به ، ومنه :

« لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء » ١٣ / النور .

« فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » ٢٦ / الذاريات .

« قال أوَلو جئتك بشىء مبين » ٣٠ / الشعراء .

« وجىء بالنبيين والشهداء » ٦٩ / الزمر .

والثـــانى : إفادة معنى المصاحبة ، ومن قوله :

« من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » ٣٣ / ق .

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » ١٦٠ / الأنعام .

(د) ويقال : أجأته إلى كذا ، أى ألجأته واضطررته إليه ، وفى المثل :
« شرٌّ ما أجاءك إلى مخة العرقوب » وذلك أن العرقوب لامخ فيه ، وإنمـا يُحوَج إليه من لا يقدر على شىء .

ومن ذلك قوله تعالى :

« فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة » ٢٣ / مريم .

ج ى ب

جيب القميص : ما ينفتح على النحر ، يقال : جُبتُ القميص : قورت جيبه ، وجَيَّبته أى جعلت له جيبا .

وفى التنزيل العزيز :

« اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » ٣٢ / القصص .

« وليضربن بخمرهن على جيوبهن » ٣١ النور .

كانت النساء فى الجاهلية يسدلن خمرهن من خلفهن فتبدو نحورهن وقلائدهن من جيوبهن فأمرهن بأرسال الخُمُر إلى الجيوب ستراً لما يبدو منها .

ج ى د

الجيد : العنق ، وجمعه أجياد .

وفى التنزيل العزيز

« وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد » ٥ / المسد .

باب الحاء

ح ر س

حرسه يحرسه حراسة - من باب كتب : حفظه .

والحارس : اسم فاعل منه ، وهو حافظ المكان ، ويجمع على حَرَس وحراس .

وقد جاء الجمع الأول فى قوله تعالى :

« وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا » ٨ / الجن .

ح ر ص

الحرص : شدة الرغبة فى المطلوب .

١ — يقال : حرص على الشىء يحرص حرصا .

ومنه قوله تعالى :

« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » ١٠٣ / يوسف .

أى ولو رغبت فى إيمانهم رغبة شديدة .

٢ — ويقال : فلان حريص على كذا ، قال الأزهرى : وقول العرب : حريص عليك ، معناه حريص على نفعك .

ومنه قوله تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم » ١٢٨/التوبة .

٣ — ويقال فلان أحرص الناس على كذا ، أى أكثرهم فيه رغبة ، وأشدهم به تمسكا .

ومنه قوله تعالى :

« ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » ٩٦ / البقرة .

ح ر ض

الحَرَض : مَن أَذابَه الهم أو المرض حتى اعتل وفسد ، وهو فى الأصل مصدر حَرِض يحرَض من باب تعب ، ولا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع .

وفى التنزيل العزيز من كلام إخوة يوسف لأبيهم :

« قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حَرَضا أوتكون من الهالكين » ٨٥ / يوسف .

وقرىء : حرِضا - بكسر الراء - على أنه وصف كدنف ، وقرىء أيضا حُرُضا كجنب .

والتحريض على القتال ونحوه : الحث والإحماء عليه . قال تعالى :

« يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال » ٦٥ / الأنفال .

ح ر ف

١ — حَرْف الشىء : طرفُه وحدُّه .

وقوله تعالى :

« ومن الناس من يعبد الله على حرف » ١١ / الحج .

معناه على طرف ووجه واحد هو السراء ، وقد فسره تعالى بقوله بعد « فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » أو على غير

طمأنينة كأنه على حرف من الدين لم يدخل فيه دخول متمكن ، فهو يرتد لأدنى ما يصيبه من شر .

٢ — وتحريف الكلام عن مواضعه : تغييره وإمالته ، وذلك أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على وجهين .

ومنه قوله تعالى :

« يحرفون الكلم عن مواضعه » ١٣ / المائدة .

٣ — ويقال : تحرَّف عن الشيء ، أى مال وعدل .

ومنه قوله تعالى :

« ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله » ١٦ / الأنفال .

أى إلا مائلا لأجل القتال ، لامائلا هزيمة وفرارا .

ح ر ق

١ — حَرَقه بالنار يحرُقه حرقا - من باب نصر - : أصابه بها ، وجعلها تؤثر فيه أثرها المعهود ، فاحترق . ومثله حرَّقه - بصيغة التكثير - وأحرقه .

٢ — وحرَقه بالمبرد - من بابى نصر وضرب - : برده .

وفى التنزيل العزيز عن العجل الجسد الذى اتخذه السامرى :

« لنحرّقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا » ٩٧/ طه .

القراءة المشهورة ضم النون وكسر الراء مشددة لإفادة الكثرة والمبالغة .

وقرىء لنُحرِقنه ، بضم النون وكسر الراء ، وكلتا القراءتين بمعنى الإحراق بالنار .

وقرىء : لنَحرُقنه - بفتح النون وكسر الراء وضمها ، قراءتان أخريان ، كلتاهما بمعنى لنبردنه ، والقراءة الأخيرة عن علىّ .

وفى التنزيل أيضاً :

« قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم » ٦٨ / الأنبياء .

« فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » ٢٦٦ / البقرة .

٣ — والحريق : النار ، قال تعالى :

« له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » ٩ / الحج .

ح ر ك

الحركة : ضد السكون .

وفى التنزيل العزيز :

« لا تحرك به لسانك لتعجل به » ١٦ / القيامة .

وكان صلى الله عليه وسلم ينازع جبريل القراءة وهو يقرئه ، مسارعة إلى الحفظ وخوفا من أن ينفلت منه .

ح ر م

هذه المادة فى كل ما تصرف منها تفيد معنى « المنع » على اختلاف المانع ، من شرع أو غيره .

حرم

(ا) يأتى لفظ « حرَّم » لمعان ثلاثة :

أحدها : تحريم الشىء أى المنع منه بحكم شرعى أو نحوه ، ومنه قوله تعالى :

« وأحل الله البيع وحرم الربا » ٢٧٥ / البقرة .

« قل آلذكرين حرّم أم الأنثيين » ١٤٣ / الأنعام .

« قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا » ١٥٠ / الأنعام .

والثانى : تحريم الشىء على معين بمعنى صرفه عن ملابسته بصارف كأنه إلهام وتسخير ، ومنه قوله تعالى فى موسى :

« وحرمنا عليه المراضع من قبل » ١٢ / القصص .

والثالث : تحريم الشىء على معين أيضا ، ولكن بمعنى الحيلولة قهراً بين المحرَّم والمحرم عليه ، وهو خلاف الوجه الثانى ، فذاك صرف كأنه خِلق ، وهذا منع وحيلولة مع رغبة الممنوع فى إتيان الفعل ، ومن ذلك قوله تعالى :

« إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة » ٧٢ / المائدة .

أى منعه منها فلن يصل إليها .

« ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » ٥٠ / الأعراف .

فالتحريم هنا أيضاً تحريم منع وحيلولة بالقهر .

* * *

(ب) وجاء فى الكتاب الكريم لفظ « حرام » مفرداً بالمعنيين الأولين اللذين ذكرناهما فى لفظ « حرم » .

فالأول : الحرام بمعنى ما اتصل به المنع عن حكم مشروع أو مزعوم .

١ — فمن ذلك قوله تعالى :

« قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون » ٥٩ / يونس .

٢ — ومنه « الشهر الحرام » و « المسجد الحرام » و « البيت الحرام » لأن الله حرم فيها كثيراً مما ليس محرما فى غيرها .

وذلك فى مثل قوله تعالى :

« فول وجهك شطر المسجد الحرام » ١٤٤ / البقرة .

والثانى : الحرام بمعنى كون الشىء ممتنعاً فى ذاته .

ومنه قوله تعالى :

« وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون » ٩٥ / الأنبياء .

أى ممتنع على أهلها عدم رجوعهم الينا للجزاء ، غير متصور منهم ، لأن البعث للجزاء سنتنا التى لا مناص منها .

* * *

(ح) وجاء فى الكتاب الكريم لفظ « حُرُم » بضمتين جمعاً لحرام :

١ ـ تارة بمعنى الرجل المحْرم. يقال أحرم الحاج فهو محرم وحرام، وإنما وصف بذلك لأنه يحرم عليه ما كان له حلالا من قبل كالصيد والنساء، أو لأنه دخل بذلك فى عهد وحرمة من أن يعتدى عليه، كما كانت عادة العرب .

ومن هذا ما جاء فى مثل قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » ٩٥ / المائدة .

٢ ـ وتارة بمعنى الشهر الحرام كما فى قوله تعالى :

« إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم » ٣٦ / التوبة .

* * *

(د) وجاء لفظ « حرمات » جمعاً لحُرْمة ، وهى ما لا يحل انتهاكه .

ومن ذلك قوله تعالى :

« والحرمات قصاص » ١٩٤ / البقرة .

* * *

(هـ) والمحروم : على معنيين :

١ ـ الذى لم يوسع عليه فى الرزق .

ومنه قوله تعالى :

« والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ٢٥ / المعارج .

٢ ـ والممنوع من جهة الحظ أى التعس الشقى .

ومنه قوله تعالى :

« بل نحن محرمون » ٦٧ / الواقعة .

* * *

(و) وجاءت كلمة « محرَّم » بمعنى الممنوع عن تشريع ، كما فى قوله تعالى :

« قل لا أجد فيما أوحى الىّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة .. » ١٤٥ / الأنعام .

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم »
٣٧ / ابراهيم .

أما ما جاء فى قوله تعالى عن الأرض المقدسة وقوم موسى :

« قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة » ٢٦ / المائدة .

فيصح أن يكون تعبيراً عن ضعف هممهم وعزائمهم وقبولهم للذل ، واستكانتهم كما هو شأن الأمم إبان ضعفها ، فهو امتناع عن عجز .

ويصح أن يكون التحريم عن قهر لهم ، وعقوبة عاقبهم الله بها ، فحال بينهم وبين دخولها هذه المدة مع نزوعهم إليها ، ورغبتهم فيها .

ح ر ى

يقال : هو حرىٌّ أن يفعل كذا ، أى جدير وخليق ، وقد اشتق منه « التحرى» فى الأشياء ، أى طلب ما هو أحرى بالاستعمال فى غالب الظن ، فيقال : فلان يتحرى كذا ، أى يتوخاه ويقصده ، ومنه قوله تعالى :

« فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » ١٤ / الجن

أى توخَّوْه وعمدوا إليه

ح ز ب

حِزْبَ الرجل : أصحابه وطائفته الذين على رأيه ، وكلّ قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم حزب وطائفة والجمع أحزاب وطوائف .

وفى التنزيل العزيز :

« ومن يتول الله ورسوله فإن حزب الله هم الغالبون » ٥٦ / المائدة .

« استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » ١٩ / المجادلة

« كل حزب بما لديهم فرحون » ٣٢ / الروم

أى كل طائفة هَوَاهم واحد .

« وثمودُ وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب » ١٣ / ص .

ح ز ن

١ ـ حزِن يحزَن حزَنا من باب طرب ـ وحُزْنا أيضاً : اغتم، والفعل لازم ومنه قوله تعالى :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ١٢٩ / آل عمران .

« وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » ٨٤ / يوسف .

« الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » ٣٤ / فاطر .

٢ ـ وحَزَنه غيرُه وأحزنه : أوقعه فى الحزن والغم ، ومنه قوله تعالى :

« قد نعلم إنه ليحزُنك الذى يقولون » ٣٣ / الأنعام .

قرىء : ليَحزنك وليُحزنك .

ح س ب

حسب ١ ـ حسِبت الشىء صالحا ـ بكسر السين ـ أحسِبه محسِبة ، بالكسر والفتح فى المضارع والمصدر : أى ظننته ، ومنه قوله تعالى :

« أَحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » ٢ / العنكبوت .

« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون » ٤٤ / الفرقان .

وهو كثير فى القرآن الكريم .

حسب ٢ ـ وحَسَب الشىء يحسُبه حَسْباً وحسابة من باب نصر وكتب ، وحسابا وحُسبانا : أى عده .

ولم يجىء فى الكتاب الكريم «حسب» بمعنى عد ، ولكن جاء فيه «حاسَبَ» من المحاسبة ، يقال حاسبه محاسبة وحسابا : أى أقام عليه الحساب ، وناقشه فيه ، وسأله ، ومنه محاسبة الله للعباد وسؤالهم عما عملوا ليجازوا عليه ، قال تعالى :

« فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً » ٨ / الانشقاق .

٣ — واحتسب الشيء : يصح أن يكون من حسِبه بمعنى ظنه ، وأن يكون من حسَبه ، أى عده ، وفى التنزيل العزيز :

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » ٣ / الطلاق .

أى من حيث لا يظن ، أو من حيث لم يعد ولم يقدر .

« فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » ٢ / الحشر .

أى من حيث لم يظنوا أو لم يقدروا .

٤ — ويقال : حسبك فلان ، أى كافيك ، ومنه قوله تعالى :

« يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » ٦٤ / الأنفال .

أى كافيك الله وكافى من اتبعك .

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ٣ / الطلاق .

٥ — والحاسب العاد والمحصى ، قال الله تعالى :

« ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » ٦٢ / الأنعام .

« وكفى بنا حاسبين » ٤٧ / الأنبياء .

٦ — وقد جاء « الحساب » فى القرآن الكريم :

(ا) تارة بمعنى العد والإحصاء ، ومنه قوله تعالى :

« وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » ٥ / يونس .

(ب) وتارة مصدراً « لحاسب » الذى تقدم ، ومنه قوله تعالى :

« فحاسبناها حساباً شديداً » ٨ / الطلاق

« إن الله سريع الحساب » ١٧ / غافر

أى محاسبة الناس وإحصاء أعمالهم عليهم .

(جـ) وقد سمى يوم القيامة (بيوم الحساب) لأنه يوم المحاسبة على الأعمال ، ومنه قوله تعالى :

« إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ٢٦/ص

(د) وفلان ينفق بغير حساب كناية عن سماحته وتوسعه، ومنه قوله تعالى:

« والله يرزق من يشاء بغير حساب » ٢١٢ / البقرة .

أي بغير تضييق ولا تقتير، ولا خوف نقص، ومثله قوله تعالى:

« إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ١٠ / الزمر .

٧ — والحسيب : الكافى، من أحسبنى الشيء أى كفانى ، أو المحاسب .

وفى التنزيل العزيز :

« وكفى بالله حسيبا » ٦ / النساء .

أي كافياً أو محاسبا ، يعطى كل شيء من العلم والحفظ والجزاء مقدار ما يُحْسبه أى يكفيه .

« اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » ٤ / الإسراء .

أى محاسبا ، أو هى كافية لك ، كفيلة بمحاسبتك .

حسبان

٨ — وجاء « الحسبان » فى القرآن الكريم :

(ا) تارة بمعنى العد ، ومنه قوله تعالى :

« فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » ٩٦ / الأنعام .

أى وسيلة للحساب ومعرفة الزمن .

« الشمس والقمر بحسبان » ٥ / الرحمن .

أى يجريان بحساب معلوم مقدر .

(ب) وتارة بمعنى العذاب والبلاء ، لأنه عن حساب من الله وتقدير ، وذلك كالنار والسهم والصاعقة أو جراد أو نحو ذلك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هبت الريح يقول : اللهم لا تجعلها حسبانا ، أى عذابا ، وفى التنزيل العزيز :

« ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا » ٤٠ / الكهف .

والمعنى أن الله يرسل على جنة الكافر مرامى من العذاب المحسوب المقدر ، إما برداً وإما حجارة ، أو غيرهما مما يشاء فيهلكها ويبطل نخلتها وأصلها .

أنباء وآراء

الأزهر والباكستان والتقريب :

كان يزور مصر أخيراً حضرة صاحب المعالى السيد فضل الرحمن وزير المعارف فى شقيقتنا الباكستان ، وتمت بينه وبين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر زيارة فى إدارة المعاهد الدينية ، تبادلا فيها حديثاً طويلا عن أحوال المسلمين فى مختلف نواحى العالم ، وما يجب من اتصال علمائهم ومفكريهم بعضهم ببعض ، لتبادل الأفكار الصالحة ، والثقافات النافعة ، وطلب معالى الوزير من فضيلته أن يأمر بإيجاد رابطة علمية بين كبار العلماء فى الأزهر وكبار العلماء فى الباكستان ، فأجابه فضيلته مرحباً بذلك ، وقال له : إننى أقبل هذه الفكرة بصفتين :

إحداهما بأنى شيخ الجامع الأزهر الذى يعمل فى مقدمة ما يعمل على ربط المسلمين فى مختلف بلادهم برباط وثيق من التعاون والتآلف ، فيتلقى أبناءهم ، ويسهل لهم المقام فى ربوع مصر ، ويعلمهم دينهم وكتابهم ويزكيهم ليعودوا إلى بلادهم وأهليهم مثلا صالحة لعلوم الإسلام ، وأخلاق الإسلام ، وليكونوا رسل محبة وتآلف بين مصر وشعوبهم .

والأخرى بأنى وكيل جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية التى تبذل أقصى همتها فى جمع كلمة المسلمين ، ونبذ ما بينهم من خلافات عوقتهم وفرّقت بين شعوبهم وعطلت مواهبهم ، ومكنت لخصومهم من رقابهم .

وسأرسل إلى حكومة الباكستان بالصفة الأولى بجموعة من القوانين والمطبوعات التى أصدرها الأزهر ، لعل شقيقتنا الباكستان تفيد منها . وتتعرف اتجاهنا التفكيرى ، وتعمل على التعاون معنا فى النهوض بالأمة الإسلامية من الناحية العلمية والتعليمية ، فإن ذلك من التعاون على البر والتقوى الذى أمر الله به عباده المؤمنين ، كما أنى سأرسل إلى حكومتكم أيضاً بالصفة الثانية بجموعة من مجلة « رسالة الإسلام » التى تصدرها جماعة التقريب ، لتروا بنفسكم جهود هذه الجماعة ، وتلمسوا عنايتها الفائقة ببث روح المعرفة الصحيحة والسماحة الإسلامية الخالصة بين قرائها من مختلف شعوب العالم الإسلامى وغيره .

وهنا كلف فضيلته مدير مكتبه الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى - الذى هو فى نفس الوقت السكرتير العام المساعد لجماعة التقريب ، ورئيس تحرير مجلتها « رسالة الإسلام » - بأن يبادر بإرسال المجموعتين إلى الحكومة الباكستانية .

وقد أعرب معالى الوزير الزائر عن شكره العظيم لفضيلة الأستاذ الأكبر ، واغتباطه بهذا الروح الإسلامى العالمى ، وبهذه السماحة التى سيفيد منها الإسلام والمسلمون أعظم الفائدة إن شاء الله .

رسالة الإسلام

ونحن نشارك معالى الوزير الجليل فى الاغتباط بهذا الروح الكريم ، ونعرب أيضاً عن شكرنا لفضيلة الأستاذ الأكبر على هذه اللفتات الكريمة التى تنبىء عن اهتمامه البالغ بالتقريب ورسالته .

ولا شك أن من حسن الحظ أن تتلاقى الأفكار على أحياء الروابط بين الشعوب الإسلامية ، وإماتة الأحقاد والنزعات ، وأن تتردد أصداء هذه الدعوة المباركة فى كل مناسبة ، وتجرى بها الأحاديث فى كل ناد أو مسامرة ، ولا شك أن من حسن الحظ أيضاً أن يكون الرجال الممثلون لشعوبهم من هذا الطراز الذى يعرف ما تصلح عليه شئون الأمة الإسلامية ، ويعمل على إبرازه حقيقة ماثلة بعد أن كان أملا يعتلج فى النفوس ، ويساور أصحاب القلوب الحية .

ونحن على ثقة من أن معالى وزير المعارف الباكستانية سيكون فى بلاده رسول دعوة إلى ما دعا إليه فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأن دعوة التقريب ستلق منه ما تستحق من اهتمام .

وفق الله رجالنا وقادتنا إلى ما فيه مجد الإسلام وعزة المسلمين ، آمين .

* * *

العيد الألفى للأزهر

تجدد النشاط فى هذه الأيام للاحتفال بالعيد الألفى للجامع الأزهر ، وتوالت أنباء الاستعداد لهذا العيد الذى لا شك أنه سيكون عظيما ، وأنه سيجمع فى رحاب القاهرة زعماء الثقافة الإسلامية من كل شعب ، بل زعماء العلم فى أية أمة من الأمم شرقيها وغربيها .

ذلك بأن الأزهر يتمتع بشهرة عظيمة استمدها من تاريخه الطويل ، وجهاده المتواصل فى خدمة الدين واللغة العربيـــة من لدن أنشأه المعز لدين الله الفاطمى فى القرن الرابع الهجرى إلى الآن ، ولا تقف شهرته على المسلمين ، بل يعرفه المستشرقون وغيرهم من الأوربيين والأمريكيين المعنيين بالشئون الإسلامية والمتابعين للنهضات الفكرية العالمية .

ولعل أروع ما سيقدمه الأزهر فى عيده الألفى للناس ، هو الدليل المادى على أنه أمات العصبية المذهبية التى كانت تحكم العقول والأفكار فى العهود القريبة الماضية ، والتى كان المسلمون يعانون من جرائها كثيراً من الصعاب بين الأفراد والأفراد ، وبين الطوائف والطوائف ، ثم بين الشعوب والشعوب .

لقد كانت هذه العصبيات مسيطرة فيما مضى على كل شىء وكان الأزهر ـ وهو سنى كله ـ يحمل من أثقالها عبأ كثيراً ، حتى كانت حلقاته وأروقته تنقلب فى كثير من الأحيان إلى ساحات حرب وضرب ، لأن شافعياً يرى كذا وحنفياً يخالفه ، وقد أذهب الله عنه هذه النخوة والتعاظم بالمذاهب والآراء ، كما أذهب عن المسلمين

الأولين نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، فأصبحنا نرى فيه أرباب المذاهب المختلفة إخواناً متصافين لا يضرب بعضهم بعضا ، ولا يكيد بعضهم لبعض ، وخطا الأزهر خطوة أخرى ، فقرر فى كبرى كلياته دراسة الفقه المقارن الذى لا يتقيد بمذهب ولا بطائفة ، ولا يعتمد إلا على الدليل والمأخذ الأصولى الإسلامى ، فصار الطلاب يتركون مذاهبهم على أبواب فصولهم قبل أن يدخلوها ، ويتعاونون هم وأساتذتهم على تبين الحق مجرداً عن الأهواء ، متحرراً من الأقوال والآراء ، وبين يدى الآن كتاب « مقارنة المذاهب فى الفقه » الذى يدرس رسمياً فى كلية الشريعة ، وفى أوله يقول مؤلفاه الفاضلان :

« هذا نوع جديد من دراسة الفقه ، أساسه أن توضع المسألة ، ويذكر حكمها فى كل مذهب من المذاهب ، ثم تعرض أدلة المذاهب وجهات النظر التى كانت منشأ اختلاف الأئمة فى الحكم ، ثم تناقش الأدلة من جميع الجوانب المتصلة بأخذ الحكم منها ، ثم يتخذ المدرس من نفسه حكما عدلا ، جرد نفسه من المذهبية التى ألفها ، لا يبتغى غير الوصول إلى الحق ، فيخلص من تلك المناقشات ، بالرأى الذى يستقيم لديه دليله ، وتتضح وجهته ، فإذا كان المدرس ممن يسايرون العاطفة المذهبية ، ويخضعون لها ؛ فإنه لا يستطيع أن يقف موقف الحكم العدل من هذه المذاهب ، وجدير به ألا يمد عينيه إلى هذا النوع من الدراسة ، فقد أجمع العلماء على أن القاضى لا يقضى لمن يبادله عاطفة صداقة أو قرابة ، ولا على من بينه وبينه عاطفة بغض أو عداء » (١)

وهناك مظهر آخر من مظاهر التطور الفكرى الأزهرى ، وذلك هو اشتراك طائفة من علمائه الأجلاء فى « جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية بالقاهرة » فقد عده أهل العلم فى مختلف بلاد المسلمين علامة صحيحة على هدوء روح العصبية المذهبية ، وتفاءلوا به خيراً ؛ ولو أن هذا العمل العظيم عرض على علماء الأزهر

(١) ص ٢ من كتاب « مقارنة المذاهب فى الفقه » لمؤلفيه الفاضلين الشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد السايس طبع مصر سنة ١٣٥٥ هـ .

فى أواخر القرن الماضى ، أو أوائل هذا القرن للقى منهم مقاومة شديدة ، بل لرمى القائمون به بالخروج والمروق ، وكذا وكذا من أمثال هذين الوصفين ، ولعطل تعطيلا ، وأقيمت فى طريقه العقاب والصعاب ، أما الآن فيشترك فى تأسيس هذه الجماعة أربعة من أعضاء جماعة كبار العلماء فى الأزهر ، على رأسهم فضيلة الأستاذ الأكبر ، وبينهم اثنان شيخان لمذهبين معرقين فى السنية ، كما يشترك فى تأسيسها أيضاً فضيلة مدير الجامع الأزهر ، واثنان من مفتشى العلوم الدينية والعربية ، وقد جاء فى هذا العدد من مجلة « رسالة الإسلام » ضمن مقال التفسير لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت قوله : « وما أجمل أن نرى جماعة التقريب ، وقد التف أعضاؤها حول منضدة واحدة يبحثون فى شئون الإسلام ، ويستعرضون أحواله ، ويرسمون خطط الدعوة إلى الله ، وفيهم الزيدى والإمامى والحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى ، وفيهم رجال الدين ورجال الدولة ، وغاية الجميع واحدة هى العمل على ضم صفوف المسلمين وتنقيتها من أشواك التفرق » [راجع ص ١٧ من هذا العدد]

نعم ما أجمل هذا — كما يقول فضيلة أستاذنا الجليل — وإنا لنرجو بعد ذلك مظهراً إن شاء الله تعالى .

* * *

جامعة النجف :

كتب إلينا فضيلة الأستاذ محمد كاظم الكفائى ، عضو الهيئة الإدارية لجمعية التحرير الثقافى بالنجف الأشرف يقول :

« لو أردنا أن نذكر « جامعة النجف » بما هى عليه اليوم لما وسعنا المجال ، ولاحتجنا إلى عشرات من المجلدات ، لذكر من تحفل بهم النجف من علماء فى الفقه والأصول والفلسفة والمنطق والكلام والتفسير والعربية والتاريخ ، وما فيها من أدباء وشعراء .

ولكن لا بد لنا من إعطاء صورة مجملة عنها ؛

١ — تضم جامعة النجف أكثر من ثمانية آلاف طالب مختلفى البزة ، بينهم نحو ثلاثة آلاف يرتدون البزة الروحية (العمامة) كما أنهم مختلفو العنصر والجنسية ، هاجروا إليها من مختلف أقطار الإسلام ، وليست حياة هؤلاء جميعاً من الناحية المادية عن طريق الحكومة والدولة ، وليس لهم أية مخصصات ، وإنما يعيشون من طريق الحقوق الشرعية التى تدفعها الأمة الإسلامية ، وبعضهم من طريق خطابة المنبر الحسينى والوعظ والإرشاد .

٢ — أسلوب الدراسة فى جامعة النجف على الطريقة القديمة : يجتمع الطلبة حلقات فى الجوامع والمدارس والصحن الحيدرى الشريف ، فإذا انتهى الطالب من المقدمات الدراسية التحق بالبحث العام تحت منبر العالم المجتهد المقلَّد ، ويسمى « بالبحث الخارجى » .

وهناك شىء لا مناص من التنبيه إليه ، وهو أن السبب الباعث لهؤلاء الطلاب ، والدافع لهم على أن يثابروا على طلب العلم بلا كلل أو ملل ، ودون انتفاع مادى ، هو رغبتهم فى الحصول على منزلة « الاجتهاد » بعد الدرس الطويل، والبحث العميق ، والتزود من العلوم الشرعية والعربية بزاد يخرجهم فى مختلف نواحيها ، ويربى فيهم ملكة البحث الحر ، والنظر المستقل .

وهذه هى النقطة الجوهرية الحساسة التى تستهوى الطلاب ، وتدفعهم إلى الإقبال الشديد ، والمثابرة الذاتية على تلقى العلم فى تلك الجامعة .

٣ — العلماء فى جامعة النجف كثير ، ولهم نشاط محمود ، ومنهم يستمد كثير من أفراد الأمة الفتاوى والأحكام الشرعية ، وهم يحتلون منزلة رفيعة فى قلوب الناس ، ويتمتعون بثقة عظمى .

٤ — بالنجف مدارس دينية تضم قسما من الطلاب المهاجرين وغيرهم ، وتحتوى غرفا كثيرة ، فهى معاهد دينية داخلية .

٥ — وبالنجف كثير من المكتبات ، وهى مدارس دينية ثقافية عامة ، لها أثرها فى تكوين العقول والأفكار من طريق المطالعة والمراجعة ، ونذكر

من هذه المكتبات ، المكتبة الحسينية الشوشترية ، ومكتبة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، ومكتبة السيد ، ومكتبة الشيخ محمد السماوى ، ومكتبة الشيخ على كاشف الغطاء ، ومكتبة الشيخ أغا بزدك صاحب كتاب (الذريعة فى تصانيف الشيعة) ومكتبة الشيخ عبد الحسين الأمينى صاحب كتاب (الغدير) ومكتبة جمعية الرابطة .

٦ — وبالنجف كثير من الجمعيات ذات الأثر الفعال فى خدمة الدين والثقافة والأدب ، نذكر منها جمعية منتدى النشر ، والرابطة العلمية ، وفى ضمن جمعية منتدى النشر مدرسة دينية تجمع بين القديم والحديث فى منهاجها التعليمى ، فهى كهمزة وصل بين الماضى والحاضر .

٧ — وبالنجف غير هذا من أسباب العلم والتثقيف المدرسة السيارة « الصحافة » التى لها أثرها البعيد فى خدمة العلم والأدب .

أما حركة التأليف والنشر فهى ناشطة بالنجف نشاطا حسنا ، فلا يكاد يمضى أسبوع حتى ينشر كتاب جديد على اختلاف الموضوعات فى العلم والدين والتاريخ والأدب ، عدا الكتب الفقهية التى تطبع كل شهر ، وتضم فتاوى العلماء .

هذه صورة مصغرة عن جامعة النجف ومكانتها العلمية والأدبية نذكرها ليقف عليها من جهلها أو تجاهلها ، وفى وسعنا أن نقول : إنه لولا هذه الجامعة والجامع الأزهر فى مصر ، لم نر أثراً للأمة الإسلامية والدين الحنيف واللغة العربية » .

* * *

من معالى السيد رضا الشبيبى

وقد انتهزنا فرصة وجود حضرة صاحب المعالى السيد محمد رضا الشبيبى بالقاهرة ، فسألناه عن حالة الدراسات الإسلامية والمدارس الدينية فى العراق ، فأجابنا بقوله :

« اجتاز العراق منذ قرون عدة مراحل عصيبة ، عم فيها الدمار والخراب ، وتناولا كثيراً من شئونه الروحية والمادية ، ومن هذه الناحية تأثرت الدراسات

الدينية فى البلاد كما تأثر غيرها ، فالدراسات المشار إليها ليست على الحالة التى ينبغى بل يجب أن تكون عليها ، والعناية بالمعاهد العلمية الدينية ضعيفة بالنسبة إلى ما كانت عليه فى الماضى ، وعدد الطلاب ليس بالكثير ، وفى الفترة الزمنية الواقعة بين الحربين الكونيتين الماضيتين قل إقبال الشباب على الدراسات الدينية الإسلامية فى كثير من بلاد الشرق ومنها العراق ، ومرد ذلك إلى عوامل وأسباب لا نظنها خفية على الألبَّاء .

هـذا ولابد لنا من القول بأن روح الأمة العراقية على الإجمال روح سليمة قوية لا يخشى عليها ، وما دامت كذلك فلا يجوز أن يخامرنا اليأس من النهوض بالشرق والعراق من ناحية التربية الروحية والخلقية ، والله ولى التوفيق » .

٭ ٭ ٭

وزير المعارف الإيرانية .. وحديثه عن التقريب والتعليم

صرح معالى الدكتور جزائرى وزير المعارف الإيرانية الذى زار مصر أخيراً للاشتراك فى الاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاما على إنشاء جامعة فؤاد الأول فى صدد الكلام عن اهتمامه بفكرة التقريب ، بأنه قد تقرر فى إيران إنشاء كرسيين لفقه الشافعية والحنفية بكلية المعقول والمنقول ـ وهى كلية دينية من كليات الجامعة بطهران ـ بعدما كان يدرس فيها فقه الإمامية فقط . وقد وقع الاختيار على اثنين من علماء المذهبين للقيام بمهمة التدريس فى الكلية .

وأما من ناحية التعليم المدنى ، فقد عرفنا من تصريحات معاليه أن هناك اتجاهاً قوياً نحو الدين فى كل شئون التعليم ومراحله ، واهتماما بالتربيـة الخلقية للطلبة وجعلهم محتفظين بالدين ، وأن ذلك مما جعلته وزارة المعارف العمومية فى مقدمة برامجها التى تطبقها عملياً ليرسخ حب الدين فى نفوس الطلبة .

التقريب فى سوريا ولبنان :

كتب إلينا حضرة الفاضل الأستاذ محمد أحمد الجمار المدرس بكلية فاروق الأول الشرعية ببيروت يقول :

كنت حدثت فضيلتكم فى تكوين لجنة فرعية لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية فى سوريا ولبنان ، وذكرت لكم أننى اتصلت بكثير من أفاضل علماء الشيعة وذوى الرأى فيهم ، فرأيت منهم تحمساً لهذه الفكرة ، وقد ضمنت كل ذلك تقريراً رفعته إلى مشيخة الأزهر ، واقترحت فيه تكوين لجنتين : إحداهما فى العراق ، والأخرى فى سوريا ولبنان ، تتكون كل منهما من حضرات الأساتذة مبعوثى الأزهر وعلماء السنة فى هذه البلاد ، ومن علماء الشيعة وأعيانهم .

أما والحاجة ماسة فى هذه البلاد - التى فيها هذه المذاهب المختلفة فعلا - إلى هذا التقريب ، والأفكار مهيأة لقبوله ، فإننا سنخطو الخطوات العملية فى تكوين هذه اللجنة فى سوريا ولبنان .

ولكى تكون أعمالنا متسقة مع أعمال الجماعة فى القاهرة ، تكون لجنتنا تابعة لها وفرعاً من فروعها ، نرجو أن تتخذوا ما ترونه من السبل المحققة لذلك ، وأن تتفضلوا بإرسال قانون الجماعة ونشراتها ، وما ترون أنه مفيد لنا فى هذا الشأن .

وإننا نسأل الله جل وعلا ، أن يهيىء للمسلمين من أمرهم رشدا ، وأن يوفقنا وإياكم إلى خدمة ملتنا الحنيفية السمحة ، خدمة تكتب فى أعمالنا ، وترجح بها يوم القيامة صفحات برنا ، إنه سميع مجيب » .

« * »

ورسالة الإسلام تحيى هذا الروح الطيب الذى تقابل به دعوة التقريب ، وإن للجماعة فى سوريا ولبنان من أعضائها المراسلين ، وأصدقائها المفكرين ، الذين لم ينقطع اتصالهم بها من لدن انشئت ؛ لحافزاً يدعو إلى النظر فى هذه الفكرة بعين

الاهتمام ، وقد حول كتاب الأستاذ الفاضل إلى اللجنة التحضيرية لدار التقريب تمهيداً لعرضه على مجلس الجماعة فى أول فرصة إن شاء الله تعالى .

أما ما طلبه من القانون والنشرات فسنبعث به إليه شاكرين .

« * »

اقتراح لا نرى قبوله :

يطلب منا كثير من القراء أن نجعل فى ﴿ رسالة الإسلام ﴾ باباً لأسئلتهم وما يبعثون به إلينا من استفتاءات دينية أو فقهية أو كلامية ، ويقولون إن المجلات العلمية ـ ورسالة الإسلام فى مقدمتها ـ يجب أن تعنى بهذه الناحية ، فإن كثيراً من من الناس تعترضهم مسائل يودون توضيحها وحل مشكلاتها ، وقد كثرت فى هذا العصر عناية الناظرين فى العلوم العقلية والدينية باستقصاء بعض المسائل ، وإزالة بعض الشكوك ، وما إلى ذلك مما يرون أن الفائدة فى بيانه وتجليته كبيرة ، وأنه يجذب القراء إلى المجلات الدينية ، ويحببهم فى بحوثها .

ونقول لحضراتهم : إن هذا الموضوع قد فكر فيه من قبل ، وعنيت هيئة التحرير بتتبع ما يرد إلى المجلة من الأسئلة والاستفتاءات حتى تقدر أمرها ، وتعرف الطابع الذى يغلب عليها ، فوجدت أن عدداً كبيراً منها يرجع إلى مسائل جدلية ، أو بحوث ليس فى موضوعها أدلة قاطعة تستريح إليها النفس ، وإنما هى مستندة إلى أقوال أو روايات ضعيفة أو لا أساس لها ، وأحياناً تستند إلى روايات تقول بصحتها طائفة دون طائفة ، كما وجدت أن عدداً منها إنما هو استفتاء عن مسائل فقهية من السهل الوصول إلى أحكامها من الكتب .

ولما كان من أهم ما تحرص عليه جماعة التقريب ألا تثير خلافيات ، أو تشغل الناس بجدليات ، بل أن تعمل على إسدال ثوب النسيان على كثير من الخلافات والجدليات الموروثة ، فإنها لا يسعها أن تشغل قراءها بالنوع الأول من هذه الأسئلة ، وترى من حقهم عليها أن تنصحهم بالإغضاء عنها ، والاشتغال بما يفيد من العلم والعمل .

ولمـا كانت ﴿ رسالة الإسلام ﴾ مجلة للخاصة ، وهى وقراؤها أحرص على مستواها العلمى الرفيع من أن تشتغل بالفروع الفقهية المـذهبية ، وبالفتاوى فى أحوال المواريث والنـكاح والوقف ، وما إلى ذلك ممـا تعودكثير من المجلات أن يشتغل به ، فإننا نعتذر أيضاً عن عدم قبولنا لهذا النوع الثانى .

وحسبنا أن نمد قراءنا بمـا نراه موجهاً لقلوبهم وأفـكارهم ، مبرزاً مزايا الإسلام وما يكفله للناس من سعادة وقرار ، وبالله التوفيق .

* * *

تقرير عن العلويين فى جبال اللاذقية(١)

فى قلب البقعة الإسلامية طائفة كبيرة العدد ، انكمشت على نفسها ، وانقطع اتصالها بغيرها ، وانعدم تداول مؤلفات عنها فى العالم الإسلامى ، فهيأت السبل لـكثير من الأقاويل ، فهناك من يشك فى إسلامها ، ومن يدعى سلامة عقيدتهـا ، ومن يقول أنهـا فئة من الغلاة ، ومن الباحثين من يثبت أنهـا تتبع فى الأحكام أحد المذاهب الإسلامية المعروفة ، ومن يفرق بين عقائد خاصتهم ومثقفيهم وعقائد عامتهم ، ومن يرى البون شاسعاً بين ما كانوا عليه فى المـاضى وما هم عليه الآن .

---

(١) أحصاهم صاحب كتاب : (العلويون من هم وأين هم) الأستاذ منير الشريف الدمشق بمحافظة اللاذقية بـ (٤٦٧٦٢٤) ولا يقل عدد المقيمين منهم فى بعض المحافظات السوريه وفى لبنان وقالى قلاكيليـكيا التابعة لتركيا عن مائة ألف أو يزيدون .

ويقول الأستاذ عبد اللطيف يؤنس من أدباء العلويين فى كتابه (تاريخ الثورة العلوية) : ومعظم العلويين يحتشدون فى سلسلة الجبـال الممتدة من عكار جنوباً إلى طوروس شمـالا ، ويتوزع بعضهم فى محافظات حمص وحماة ودمشق وحلب وحوران وكليكيا ولواء الأسكندرون ويوجد فى المهاجر الأمريكية أكثر من ربع مليون علوى ، فضلا عن الموجود منهم فى لبنان والعراق وفلسطين ، ويبلغ عدد العلويين نحو مليون وأكثر من بين مقيم ومغترب ، وموزع هنا وهناك .   [عن نفس التقرير]

وهكذا تختلف الآراء فى شأنها اختلافاً بيّناً يصعب معه الحكم فى أمرها ، ولا شض أن السياسة لعبت دورها فى هذه المأساة ، ولا يبعد أن تعاود الكرة ما دامت القطيعة موجودة ، وبذور الفتنة صالحة للاستنبات .

شُغلنا كثيراً عن هذه الطائفة ، فكاتبنا من لهم بها صلة ، وكان أوفى تقرير تسلمناه عن ماضيها وحاضرها هو تقرير فضيلة العلامة الشيخ سليمان ظاهر عضو جماعة التقريب بالمراسلة بلبنان ، وهو رجل له قدره ومكانته العلمية .

وقد تضمن هذا التقرير بحوثاً مفيدة عن أصل هذه الطائفة ونشأتها ، وما كتبه العلماء الأقدمون والمستشرقون فى ذلك ، وعن مساكنها قديماً وحديثاً ، وأنسابها ونفوس أبنائها ودرجة ثقافتهم ، وعن عشائرها وما كتب عنها ، ومؤلفاتها وصلاتها بغيرها ، وجهادها مع المستعمرين ، وغير ذلك مما ينبغى العلم به ، والإفادة منه .

وقد حولت ﴿ دار التقريب ﴾ هذا التقرير الجامع إلى « اللجنة الثقافية » للدار ، كى تدرسه وتتبع ما جاء فيه من المعلومات القيمة ، والفوائد العظيمة ، تمهيداً لعرضه على الجماعة ، والنظر فى الأسلوب الذى تراه كفيلا بالانتفاع به ، والإفادة مما جاء فيه .

واننا لنعجل بشكرنا إلى فضيلة الأستاذ الجليل كاتب التقرير ، ونسأل الله أن يحفظه ويديم توفيقه إلى خدمة الإسلام والمسلمين .

وبهذه المناسبة ندعو جميع إخواننا من علماء الطوائف المختلفة أن يعنوا بهذا الجانب الذى عنى به فضيلته ، فيكتبوا عن طوائفهم وشعوبهم وأفكارهم التى تفيد دعوة التقريب ، فلعلنا إذا اجتمع لدينا من ذلك قدر صالح أن ننشره عدداً كاملا من « رسالة الإسلام » خاصاً بهذا الشأن ككتاب يحفظ ويرجع إليه علماء كل طائفة حين يريدون معرفة شىء عن إخوانهم ، بل لعلنا ننشر من ذلك عدة أعداد إن شاء الله تعالى . والله المستعان وهو ولينا ونعم النصير ؟

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى :ـــ

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج ـ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية
تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

صاحب الامتياز : محمد تقى القمى

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشا مصريا
وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٢١٩٢



السنة الثالثة — جمادى الآخرة ١٣٧٠ هـ

العدد الثانى — ابريل ١٩٥١ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
" قرآن كريم "

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

شُغِل العالم الإسلامى أخيراً بحالة الحرم النبوى الشريف ، إذ جاءت الأنباء بأن خللاً خطيراً أصاب أعمدته منذ سنوات ، وأن قبته الخضراء المشهورة التى هى أول ما يراه القادمون إلى المدينة المنورة فتخفق له قلوبهم ، وتدمع من الفرح عيونهم ؛ توشك أن تنهار ، فاضطربت لذلك قلوب المؤمنين ، واهتزت عواطفهم ، وشملتهم جميعاً فى مختلف شعوبهم وطوائفهم مَوْجة من الأسف ، بل من الحزن العميق ، على أن صار الأمر بالحرم الذى يضم أكرم جدث إلى هذه الحال وهم عنه غافلون ، وهبُّوا يعربون بما استطاعوا من الوسائل عن بالغ استيائهم ، وعميق حزنهم ، وكان التنافس فى ذلك عظيما بين الشعوب والحكومات والملوك والأمراء والعلماء ، كلٌّ يريد أن يكون من السابقين فى هذا المضمار .

ولا شك أن هذه الحركة المباركة قد كشفت عن روح طيب يعمر نفوس أهل الإسلام ، ويدل على أنهم ـ مهما حاولت السياسة والنظم والحدود أن تظهرهم بمظهر التفرق أو التعدد ـ أمةٌ واحدة مؤتلفة القلوب يشعر قاصيها بما يشعر به دانيها ، وتربط بينها روابط من صنع الله لا انفصام لها .

بَيْد أنها كشفت أيضاً ـــ ويجب أن نكون صرحاء ـــ عن أمر عَجب فى تصرف إخواننا النجديين يحتاج إلى تفسير : ذلك أن حكومتهم بالحجاز ظلّت ساكنة صامتة عن هذا الأمر كأنها غائبة عنه ، أو كأنه لا يعنيها ، حتى إذا حمى الوطيس ، وبلغت حماسة الأمة الإسلامية أوجها ، مابين عاتب وغاضب وصاخب ؛ ظهرت فشكرت واعتذرت وأعلنت أنها ستصلح ما فسد ، وأن « الجيب السعودى » العامر سيتكفل بنفقات هذا الإصلاح بالغة ما بلغت ، وأن الأمر لا يتطلب بعد ذلك إلا معونة أهل الذكر من الفنيين .

وتساءل الناس : أين كانت هذه الحكومة إذن ؟ ولم سكتت والخطر يتهدد الحرم منذ سنين ؟ وهل لهذا السكوت صلة بما يتناقله الناس عن الوهابيين فى شأن القبور والقباب ؟ وهل هذه العزْمة الأخيرة على الإصلاح عزمة صادقة ؟

وحقٌّ للناس أن يتساءلوا ، فإن الموقف السلبي الذى تقفه حكومة إخواننا النجديين من سائر مرافق الإصلاح فى البلاد الحجازية ، من شأنه أن يثير التساؤل ، ويبعث على القلق ، والأمر ليس أمر الحرم النبوى فقط ، وإنما هو أمر الحرم المكى أيضا ، بل أمر المناسك جميعاً وما يتصل بها من المرافق والسبل .

أترى لو كانت هذه المقدسات الدينية لأمة مسيحية أو يهودية ، أكانت تبقى هذه الصور التى تدل على الإهمال الشنيع ؟ أكنا نرى المسجد الحرام ومن حوله الأقذار والأبوال لأن الحكومة لم تهيء للناس أماكن لقضاء الحاجات ، والاستعداد للصلوات ؟ أكنا نرى الناس يؤدون الصلوات وقد افترشوا أرضه فى حمارَّة القيظ لا يظلهم إلا السماء ، وهم معرضون للموت احتراقاً بأشعة الشمس ، أكنا نرى شوارع مكة والمدينة وقد تراكمت فيها الأتربة والفضلات على صورة مؤذية تثير الاشمئزاز فى النفوس ، وتفتح للشيطان مداخل إفساد القلوب ؟

لم لا يعالج هذا كله والمسلمون يدفعون ضرائب على الحج والزيارة وقد فاض الذهب النُّضار من منابع الزيت حتى طارت به الطائرات إلى الدنيا القديمة والدنيا الجديدة ؟

فليكن لإخواننا النجديين ما يرون فى القبور والقباب ، وليتوسعوا نظرياً فى هذا الرأى ما شاء لهم التوسع حتى يجعلوه شاملا للقبر الزكى والقبة الخضراء ، ولتشغلهم رحلاتهم وما يشهدون فيها من منافع لهم ، عن إصلاح سبل الرحلة الإسلامية المقدسة ، ولكن ليعلموا أن العالم الإسلامى لا يسكت طويلا على هذه الحال ولا يرضى بأن يتصرف أهل نجد فى الحرمين والبقعة المباركة التى ضمت جسد محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه كما لو كانوا يتصرفون فى مسجد من مساجد « الغُطْغُط » ، أو مقبرة من مقابر عُنيزة ؟

محمد محمد المدنى



لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

سورة آل عمران

— ٤ —

تقدم الحديث - فى العدد السابق - عن بعض النداءات الإلهية للمؤمنين التى جاءت فى سورة « آل عمران » ترشدهم إلى ما يحفظون به أنفسهم ، ويركزون به وحدتهم ، ويصونون كتلتهم ، ويبقون على شخصيتهم كأمة قوية متماسكة لا يتسرب إليها شىء من عوامل الضعف والانحلال ، لا من داخلها ، ولا من خارجها .

ونتابع الحديث عن بقية هذه النداءات فنقول :

النداء الرابع قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التى أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » .

وهذه أول آية نزلت فى تحريم الربا ، وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم - على ما جاءت به الروايات - أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذى عليه المال : أخر عنى دينك وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك .

وكان كما يدخل النقد على هذا النحو يدخل الدَّين فى الأنعام : يكون للرجل على الآخر دين من الإبل مثلا ، فإذا حل الأجل وكان عنده قضاؤه قضاه ، وإلا حوّله إلى السن التى فوق ذلك : إن كانت ابنة مخاض « أى فى السنة الثانية من عمرها » يجعلها ابنة لبون « وهى ما كانت فى السنة الثالثة من سنها » ثم حقة ثم جذعة .. الخ .

فالمقصود فى الآية هو هـذا النوع من الربا الذى كان معروفاً فى الجاهليـة ، وهو ربا النسيئة ، وقد أجمع المسلمون على تحريمه ، أما ربا الفضل ففى دخوله فيما حرمه القرآن أو عدم دخوله كلام بين العلماء .

وللإسلام فى تحريم الربا نظرة ترجع إلى الجانب الخلقى ، ونظرة ترجع إلى الجانب الاقتصادى العملى :

فأما نظرته إلى الجانب الخلقى فإنه يريد أن يكوِّن مجتمعاً متراحماً متعاوناً لا تكون قاعدة التعامل فيه أن يستلب القوى ما فى يد الضعيف ، وأن تُستغل حاجات المحتاجين استغلالا دنيئاً لإرباء ثروة الأغنياء ، وتحويل الأموال إلى خزائنهم ، وذلك أن الربا يكون بين دائن قوى فى يده من المال ماهو فوق حاجته ومدين ضعيف محتاج إلى هذا المال ، فيستغل القوى ضعف الضعيف وحاجته الملحة ، ويجعل ما يقدمه له من المال شبكة يصطاد بها ما لديه ، وليس للأول فضل إلا أنه غنى مالك ، وليس للثانى ذنب إلا أنه فقير محتاج ، ولا شك أن المجتمع الذى يقوم على تمكين القوى القادر من أسباب الحياة السعيدة وتيسير وسائلها له ، وحرمان الضعيف المحتاج من المعاونة والرحمة ومن حقه الإنسانى فى أن ينقذ وينتشل من وهدة الفقر والحاجة ؛ لا شك أن المجتمع الذى يقوم على هذا مجتمع فاسد شبيه بمجتمعات الوحوش فى الغاب .

وقد وازن القرآن الكريم بين هذه المعاملة القاسية وبين الصدقة والإحسان والتعاون ليبرز لنا صورتين متضادتين : صورة الغنى الذى يأخذ بيد الفقير ، رحمة به وإشفاقا عليه ، فيعطيه بعض ماله ابتغاء وجه الله ، وصورة الغنى الذى امتلأ قلبه بالقسوة ، فلم يعد له همٌّ إلا أن يمتص دماء المحتاجين ، ويجمع دراهمه ودنانيره من أفواه الجائعين المحرومين .

وضع القرآن الكريم هاتين الصورتين وجهاً إلى وجه ، فجاء فى آيتنا هذه بعد تحريم الربا قوله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

ولاشك أن الإنفاق فى السراء والضراء إنما يصدر عن ذوى النفوس السمحة التى لم يفسدها الشح ، ولم يصدها الطمع والجشع عن إنقاذ البائسين ، والإشفاق على الفقراء والمحتاجين ، فإن الذى ينفق فى حالة السراء يدل بذلك على أن النعمة لم تطغه ولم تفسد عليه إنسانيته ، ولم تمنعه من الإحساس ببؤس غيره ، ومعاونته على التخلص من هذا البؤس ، والذى ينفق فى حالة الضراء يدل بذلك على أنه أمرؤ فى طبعه الإيثار ، وفى قلبه من الرحمة ما يدفعه إلى أن ينسى نفسه ليذكر غيره ، وإلى أن يحتمل المشاق ليرفه عن غيره ولو بعض الترفيه ، والله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين بقوله « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وهكذا يربى الإسلام النفوس على البذل والإيثار والبر ، ويعلم الغنى أنه لم يخرج بغناه عن دائرة بنى جنسه ، ولم يصر بالمال نوعاً آخر حتى ينكر الناس ويتنكر لحاجاتهم ، وإنما هو منهم وهم منه ، وهو بهم ، وهم به ، وعليه أن يعاونهم وأن يبادلهم العطف والرحمة والبذل ، كما يعلّم الفقير أنه لم يخسر نفسه إذ خسر المال ، ولم يفقد كرامته وقيمته الإنسانية ، فعليه أن يبذل من ماله ولو كان قليلا ، ولو كان فى حاجة إليه ، ليشعر من يعيش معهم بأنه إنسان ذو قلب .

فهو يريد أن يحفظ على الفقير كرامته كالغنى ، فإنه إذا ساهم ولو بالقليل فى تفريج كربة غيره ذاق لذة الأحسان ، وشعر بكرامته كإنسان ، وإذا رآه من هم أكثر منه مالا ، كانت لهم فيه أسوة حسنة ، وأحبوه واحترموه ، ولهذا أباح الله للفقير أن يأخذ صدقة الفطر ، وطالبه فى نفس الوقت أن يُخرج عن نفسه وعمن تلزمه نفقته ، ومن عرف وسائل التربية الصحيحة تبين له أن هذا الأسلوب من أعظم الأساليب فى انتشال نفوس الفقراء من مواطن الذلة والشعور بالخسة ،

وتعويدهم البر والإحسان ، وإصلاح نفوسهم وتكريمها بإشعارها أنها ليست نفوساً آخذة منتفعة دائماً ، وإنما هي أيضا نفوس معطية باذلة نافعة .

وكما جاءت الموازنة في هذه الآيات بين الربا الذي هو استغلال حاجة المحتاج لزيادة المال والثراء ، والإنفاق في حالتي الرخاء والضيق الذي هو دليل صلاح النفوس ، وتمكن التقوى والإيمان منها ؛ جاءت الموازنة بين الربا والصدقات في سورة البقرة في عدة آيات ، إذ يقول الله تعالى في بيان فضل الصدقة ، وحث الناس عليها :

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » .

« وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه » .

« إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون بصير » .

« وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وإذ يقول في وخامة عاقبة الربا وتنفير الناس منه :

« الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » .

« يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » .

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون

ولا تُظلمون ، وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وهكذا يبين الله للناس أن من أراد التضعيف والتنمية لما له حقاً فعليه بالصدقة ، فإن الله يضاعفها ويبارك لصاحبها فى الدنيا والآخرة ، أما الربا فإنه وإن كان تضعيفاً للمال وتنمية له فى الظاهر فإنه محق وإزالة فى الحقيقة ، والمحق كما يكون بإزالة المال وإضاعته بآفة تصيبه أو خسران يحل بصاحبه فى تجارة أو كارثة أو نحو ذلك ؛ يكون أيضاً بضياع بركته ، وذهاب فائدته ، وحرمان صاحبه من لذائذه والتمتع به .

وفى هذا المعنى يقول الله عز وجل فى موضع آخر : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب — ولا يقبل الله إلا الطيب — فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل » .

بهذا كله يتبين أن الإسلام نظر أولا إلى مسألة الربا والصدقات نظرة إنسانية . وشرع الأمر فيهما على أساس تربية المجتمع تربية خلقية أساسها التراحم والمودة والتعاون وتعليم الإنسان أنه ليس كالحيوان المعتمد على القوة والغلبة ، الذى لا تعرف الرحمة سبيلا إلى قلبه ، وإنما هو خَلق كريم ذو قلب وعاطفة وخُلق لا يستقيم أمره فى الحياة إلا بها ، ولا يصلح شأنه إلا عليها .

وقد دلت التجارب على أن المجتمع الذى يتركز فيه التعاون والتراحم بين الناس بعضهم وبعض ، ويكون شعاره إحساس كل فرد بآلام الآخرين ، وتموت من بين أفراده نزعة عبادة المال وتقديمه على كل معنى شريف من المعانى الإنسانية الكريمة ؛ دلت التجارب على أن المجتمع الذى يكون شأنه ذلك ، يكون مجتمعاً سعيدا هانئا ينظر أغنياؤه إلى فقرائه ، وفقراؤه إلى أغنيائه نظرة الحب المتبادل ، والتعاون

المشترك ، أما المجتمع الذى تتسلط فيه النزعة المادية على الخلق ، فإنه يكون أشبه بمجتمعات الذئاب : كلٌّ يريد أن يستلب لنفسه ما يستطيع ولو مات غيره ، وكلٌّ يتربص بغيره دائرة السَّوْء ، وما هذه الرَّجَّات التى تصيب الدول من قيام الفقراء على الأغنياء ، وتهديدهم المستمر لأصحاب الثروات ورءوس الأموال ، إلا أثراً من اختلال الأمر بعد اختلال هذا الجانب الخلقى ، وهذا هو السر فى أن الله سبحانه وتعالى ربط النهى عن الربا بالإيمان فى ابتداء الآية حيث قال : « يأيها الذين آمنوا » وبالتقوى والفلاح فى آخرها حيث قال : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » ثم بالرحمة حيث قال : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » وما الفلاح والرحمة إلا استقامة أمور الناس على الصراط المستقيم ، وما يسودهم من روح الإخاء والسعادة المشتركة التى تجمع بين قويهم وضعيفهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وتربطهم جميعاً برباط من التآلف والمحبة .

أما نظرة الإسلام فى تحريم الربا إلى الجانب الاقتصادى العملى بعد هذا الجانب الخلقى ، فمرجعها إلى أن المجتمع الصالح المبنى على أسس قوية هو المجتمع الذى يكون كل فرد من أفراده عضواً عاملا فيه ، أما إذا كان بعض أفراده عاملين ، وبعضهم كسالى يعيشون عالة على غيرهم ، ويعتمدون فى بقائهم ومتاعهم على ما يقدمه الآخرون لهم ، فإن هذا المجتمع يختل توازنه ، ويدركه الضعف والشقاء والتخاذل بقدر ذلك ، وفى هذا يقول الإمام الرازى : « إنما حرم الربا من حيث إنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب ، وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقدا كان أو نسيئة خف عليه اكتساب وجه المعيشة ، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة ، وذلك يفضى إلى انقطاع منافع الخلق ، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات » .

وللإمام الغزالى رضى الله عنه بحث ممتع فى كتاب الشكر من الإحياء تعرض فيه لما يعد أساساً فى هذا الجانب الاقتصادى ، وخلاصته أن المال ليس مقصوداً

لذاته ، وأن الدراهم والدنانير فى نفسيهما ليسا إلا حجرين كسائر الأحجار ، وإنما خلقهما الله ليكونا وسيلة للتعامل بين الناس وقضاء المصالح ، ويُتخذا ميزانا لتقدير قيم الأشياء التى يحتاج إليها الناس فى معاشهم ، فقد يكون عندك ثياب أو إبل أو نحو ذلك ، وأنت محتاج إلى دقيق ، وليس صاحب الدقيق محتاجا إلى شىء من ثيابك أو إبلك حتى تبيعه بعضها ببعض ما لديه من الدقيق ، وإنما هو محتاج إلى حديد أو آجر مثلا ، فاحتيج إلى النقد ليتوسط بين الناس ، فيكون أداة التبادل ، والحكَمَ العدل فيه ، فمن خرج به عن هذا الوضع الذى وضعه الله له فقد كفر بنعمة الله فيه ، فإذا كنزت المال فكأنك حبست الحاكم ومنعته من أن يتصرف ويقوم بما عليه ، وإذا استعملت الذهب والفضة فى آنيتك فكأنك سخَّرت الحاكم فيما تفعله العامة والدهماء من الخدمة ، لأن النقد لم يجعل لذلك ، وإنما جعل لذلك الحديد والنحاس وأمثالها من المعادن المعدة للخدمة لا للحكم وتعديل التعامل ، وعلى هذا يكون النظر إلى النقدين على أنهما ليسا ميزانا للتقدير ، والخروج بهما إلى أن يكونا مقصودين بالتعامل ، واستغلال المال بالمال ، مما لا يقره الشرع ولا يرضاه الله لعباده ، لأنه يؤدى إلى انحياز المال للأغنياء ، وتكدسه فى خزائنهم وصناديقهم ، ووقوف حركة الأعمال والتثمير بين الناس ، وانهيار قيمتها ، وشيوع البطالة والكساد فى الأمة .

هذه نظرة الإسلام إلى الربا من الجانب الخلقى الإنسانى ، ومن الجانب الاقتصادى العملى ، ولذلك حرمه الله تحريما قاطعاً ، وتوعد آكليه بأشد العقوبة ، فقال فى سورة آل عمران بعد النهى عنه : « واتقوا النار التى أعدت للكافرين » إيذاناً بسوء عاقبة آكليه يوم القيامة ، وقال فى سورة البقرة : « ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . « والله لا يحب كل كفار أثيم » . « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » . « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

* * *

يرى بعض الناس أن الربا أصبح فى عصرنا الحاضر معاملة عامة ، وأساساً من

أسس الاقتصاد ، فإن المصارف المالية والشركات المختلفة التى لا غنى للأمة عنها تعتمد عليه فى سائر معاملاتها ، وليس من الرأى ولا من مصلحة الأمة أن نشير عليها بهدم ذلك كله ، وأن ننفرد من بين الأمم بمعاملة خالية من الربا ، وأن نترك البيوت المالية الأجنبية تفيد من ثمرات هذا التعامل العالمى دوننا ، وقد ارتبطت الدول والأمم بعضها ببعض فلم يعد من الممكن أن تستقل أمة بنوع من المعاملة لا تعرفه غيرها ، وإن أساليب الإصلاح والعمران لتستدعى رصد الأموال وتجميعها من الأفراد لتستغل فيما ينفع الأمة ، وتستدعى فى كثير من الأحيان أن تقترض الحكومات من غيرها أو من الشعوب أموالا تضمنها بسندات ذات ربح مقدر ، فتمتص بذلك الأموال المدخرة المعطلة ، وتحولها إلى منافع ومصالح ترقى بها الأمة وتسعد .

يقولون هذا ويرون أن تحريم الإسلام للربا عائق عن بلوغ الأمة شأو أهل المدنية الحديثة ، مفض بها إلى الضعف المادى ، فالضعف الأدبى ، فالاستعمار .

ومن الناس من يقول : إن اقتراض المحتاج قدرا من المال بفائدة ربوية « قانونية » يمكنه من سد حاجته ويدرأ عنه الإفلاس والضياع ، فلا يعقل أن يكون هذا ضرراً أو فساداً ، وإنما هو نفع وصلاح ، ونحن نجد من المعاملات التى أباحتها الشريعة الإسلامية ما يعتمد على دفع الأقل عاجلا للحصول على الأكثر آجلا كالسلم ، فحيث أجاز الشرع معاملة السلم فليجز معاملة الربا ، فإن المعنى واحد .

وهذا موضوع قد أثير كثيراً ، وشغل الأفكار منذ أنشبت المدنية الحديثة أظفارها فى أعناق المسلمين ، وعمل أهل التشكيك فى صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان عملهم المثابر المتواصل فى الفتنة وزلزلة القلوب عن دين الله ، والقضية فى الحقيقة ليست قضية الربا أو غيره من المعاملات المالية ، وإنما هى قضية الشريعة الإسلامية كلها ، وقد انصرف عنها أهلها ، وتعلقوا بأهداب غيرها من قوانين الأمم الغالبة المسيطرة عليهم ، ومن شأن المغلوب أن يولع بتقليد الغالب ،

ويرى أكثر ما يفعله خيراً وصلاحا ، ويزين له الشيطان أن نجاحه إنما يرجع إلى عدم تمسكه بما يتمسك به هو من القواعد والأصول ، والآداب والتقاليد .

لو كان للإسلام اليوم دولة وقوة لكان تشريعه هو المتبع ، ولكان للأمم والشعوب من الوسائل الاقتصادية العملية مايغنيهم عن الربا وغير الربا مما حرمه الاسلام ، وإن للكسب لموارد طبيعية هى الأساس والفطرة ، كالزراعة والصناعة والتجارة والشركات المساهمة والتعاونية ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن الشعوب لا تستطيع أن تقيم مدنيتها على أساس التعاون والتراحم ومساعدة الفقير والمحتاج بإقراضه قرضاً حسناً على نظام يكفل لأصحاب الحقوق حقوقهم ، ولا يؤدى إلى إثقال كواهل المدينين ، واستلاب أموالهم بالباطل .

إن هذه النظم الاقتصادية التى يتشدقون بها ، ويأخذون على الإسلام عدم مجاراته لها ، فقد صارت الآن فى موضع الشك والتزلزل عند أهلها والمتعاملين بها ، وأصبح العالم يميل إلى نظام اشتراكى يحول بين أن يوجد فى الشعب طائفة قليلة العدد مستحوذة على المال ، منتفعة بما يدره عليها من الربح والجاه والنفوذ ، وطائفة هى الكثرة العاملة الناصبة لا هم لها إلا أن تكدح لهؤلاء وتجد فى تنمية ثرواتهم ، ثم لا ينالها من هذا الكدح والنصب إلا أدنى القوت ، وأحط المساكن والملابس ، وما الربا إلا اعتراف بحق أصحاب الأموال فى الامتياز على العاملين فهو مناقض لروح التيقظ مصادم لها ، فإذا كان أهل هذه النظم قد بدأوا يفقدون إيمانهم بها ، بل فقدوا هذا الإيمان فعلا ، وأخذوا يلتمسون سبيلا آخر تستقيم به الحياة السعيدة للأمم ؛ أفلا يجدر بنا معشر المسلمين أن نتخفف من حماستنا لها ، ومن ثقتنا بها ؟ .

أترى لو كانت مصر مثلا قادرة على أن تعمل بالتشريع الإسلامى فتلزم جميع ساكنيها بمنع الربا ، وتضع لهم أسلوباً من التعامل يتفق ودينها ، أكان ذلك يضرها أو يعطل مرافق إصلاحها ؟ .

إننا لا نتردد فى الإجابة عن هذا السؤال بالنفى ، ولسنا فى ذلك متجاهلين

للحقائق ، ولا جاهلين بسنن الاجتماع ، فإن الأمم تألف ما يوضع لها من النظم ، وتطمئن إليه ، وإذا عرف أفرادها أنه لا سبيل إلى نوع من التعامل لتحريمه ، التمسوا غيره ، ووطنوا أنفسهم على الاكتفاء بما أبيح لهم .

بهذا يتبين أن ما يزعمه الزاعمون من عدم إمكان التخلص من الربا ، ووجوب مجاراة الأمم فى التعامل به ، ليس صحيحا . وأنه يمكن تدبير الأمر على نحو يتفق مع ما تبيحه الشريعة لو أراد الناس ذلك مخلصين .

أما ما اعترضوا به من إباحة السلم فإن السلم بيع فيه ثمن ومثمن ، وليس النقد هو كل شىء فيه ، وليس المشترى فيه دائماً كاسبا ، فقد ترخص السلعة عند حلول الأجل وقد تغلو ، فالمخاطرة التى تكون فى التجارة موجودة فيه ، على أن الربح فى السلم ليس من شأنه أن يكون أضعافا مضاعفة كالربح فى ربا النسيئة ، وإذا فرضنا أن المشترى غبن صاحبه فى صفقة السلم استغلالا لحاجته ، فان الشريعة تحرم هذا ، وبعض المذاهب يجعل الغبن الظاهر من مفسدات العقد أيا كان .

* * *

بقى علينا أن ننبه فى هذا الشأن لأمر خطير ، هو أن بعض الباحثين المولعين بتصحيح التصرفات الحديثة ، وتخريجها على أساس فقهى إسلامى ، ليعرفوا بالتجديد وعمق التفكير يحاولون أن يجدوا تخريجاً للمعاملات الربوية التى يقع التعامل بها فى المصارف أو صناديق التوفير أو السندات الحكومية أو نحوها ، ويلتمسون السبيل إلى ذلك ، فمنهم من يزعم أن القرآن إنما حرم الربا الفاحش بدليل قوله : « أضعافاً مضاعفة » فهذا قيد فى التحريم لابد أن يكون له فائدة وإلا كان الإتيان به عبثاً ، تعالى الله عن ذلك ، وما فائدته فى زعمهم إلا أن يؤخذ بمفهومه وهو إباحة ما لم يكن أضعافاً مضاعفة من الربا .

وهذا قول باطل ، فإن الله سبحانه وتعالى أتى بقوله « أضعافاً مضاعفة » توبيخاً لهم على ما كانوا يفعلون ، وإبرازاً لفعلهم السيء ، وتشهيراً به ، وقد جاء مثل هذا الأسلوب فى قوله تعالى « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا

لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » فليس الغرض أن يحرم عليهم إكراه الفتيات على البغاء فى حالة إرادتهن التحصن ، وأن يبيحه لهم إذا لم يردن التحصن ، ولكنه يبشع ما يفعلونه ويشهر به ويقول لهم : لقد بلغ بكم الأمر أنكم تكرهون فتياتكم على البغاء وهن يردن التحصن ، وهذا أفظع ما يصل اليه مولى مع مولاته ، فكذلك الأمر فى آية الربا ، يقول الله لهم : لقد بلغ بكم الأمر فى استحلال أكل الربا أنكم تأكلونه أضعافا مضاعفة فلا تفعلوا ذلك ، وقد جاء النهى فى غير هذه المواضع مطلقا صريحا ، ووعد الله بمحق الربا قل أو كثر ، ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه ، كما جاء فى الآثار ، وآذن من لم يدعه بحرب الله وحرب رسوله واعتبره من الظلم الممقوت ، وكل ذلك ذكر فيه الربا على الإطلاق دون تقييد بقليل أو كثير .

ومنهم من يميل إلى اعتباره ضرورة من الضرورات بالنسبة للأمة ، ويقول : ما دام صلاح الأمة فى الناحية الاقتصادية متوقفاً على أن تتعامل بالربا ، وإلا اضطربت أحوالها بين الأمم ، فقد دخلت بذلك فى قاعدة « الضرورات تبيح المحظورات »

وهذا أيضا مغالطة ، فقد بينا أن صلاح الأمة لا يتوقف على هذا التعامل ، وأن الأمر فيه إنما هو وهم من الأوهام ، وضعف أمام النظم التى يسير عليها الغالبون الأقوياء .

وخلاصة القول ، أن كل محاولة يراد بها إباحة ماحرم الله ، أو تبرير ارتكابه بأى نوع من أنواع التبرير، بدافع المجاراة للأوضاع الحديثة أو الغربية ، والانخلاع عن الشخصية الإسلامية ، إنما هى جرأة على الله ، وقول عليه بغير علم ، وضعف فى الدين ، وتزلزل فى اليقين ، وقد سمعنا من يدعو إلى البغاء العلنى ويجيزه ، ويطالب بالعودة إليه ، ويرى أنه إنقاذ من شر أعظم يصيب الأمة من انتشار البغاء السرى ، وبمثل هذا يتحلل المسلمون من أحكام دينهم حكما بعد حكم ، حتى لا يبقى لديهم ما يحفظ شخصيتهم الإسلامية ، نعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله العصمة من الفتن .

النداء الخامس قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين » .

يقول المفسرون : إن هذه الآيات نزلت فى سياق الكلام عن غزوة أحد ، وكان المشركون وعلى رأسهم أبو سفيان ، والمنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبى وأتباعه ، قد جعلوا يبثون فتنتهم فى ضعفة المؤمنين ، ويقولون لهم : لو كان محمد رسول الله ما وقعت له هذه الواقعة ، وإنما هو رجل كسائر الناس يوما له ويوما عليه ، فارجعوا إلى دينكم الذى كنتم فيه .

والكلام شامل لجميع المؤمنين ولجميع الكفار ، وقد تضمنت الآيات أموراً ثلاثة :

الأمر الأول : نهى الله المؤمنين عن أن يطيعوا الكافرين ، حيث بين لهم أن فى إطاعتهم الانقلاب على الأعقاب وخسران الدنيا والآخرة .

وهذه حقيقة يجب أن تكون ماثلة أمام أعين المؤمنين فى كل زمان ومكان ، فإن الكفر عدو الإيمان ، ولا يزال العدو يحارب عدوه ، ويتربص به الدوائر حتى يوقعه ويهزمه لو استطاع ، وأهل الكفر لا يفتأون يحاربون المسلمين ليردوهم عن دينهم ، ويعيدوهم فى ملتهم ، ولهم فى ذلك أساليب ليست الحروب أشدها ، ولا أفظعها ، منها غزو أفكارهم بمبادئهم الفاسدة التى يصورونها لهم فى صورة الصلاح والتقدم والمدنية ، ومنها إغراء العداوة بينهم ، وتقطيع الأواصر بين شعوبهم وطوائفهم ، فهم يخيلون لكل فريق من المسلمين أنه هو المحق وهو الجدير بالزعامة ، وعلماؤه هم خير العلماء ، وقادته هم أعظم القادة ، وبلاده هى خير البلاد ، لا يريدون بذلك إلا أن يحولوا بينهم وبين التفاهم والتقارب ، لأنهم إذا تقاربوا وتفاهموا كانوا قوة ، وكانت لهم العزة ، وبطل من بينهم سحر الاستعمار ، ولم يعد لأهل الكفر سلطان عليهم ، ولا تأثير فيهم .

وإن تاريخ الاستعمار على ذلك لشهيد ، فما من شعب كان للمستعمرين سلطان عليه ، أو نفوذ فيه ، إلا أحيوا فيـه العصبية ، وأوقدوا فى قلوب أهله نـيران الخصومة لإخوانهم ، فهم يقطعون فى داخل البلاد أواصر الأخوة والقربى باسم الخلافات الحزبية ، ويقطعون فى خارجها صلات المحبة والتعارف باسم الخلافات الطائفية ، ولا يزالون يغذون هذه النيران بمـا استطاعوا حتى تأتى على كل شىء ، وقد حفظ التاريخ فى هذه الناحية صوراً كريهة احترب فيها المسلمون بعضهم مع بعض فى الشعب الواحد ، فكان منهم قاتلون ومقتولون تحت راية الغاصب المحتل وأى شىء أفظع من أن يقتل الأخ أخاه بتغرير عدوهما المشترك ؟ .

ولو أننا معشر المسلمين عملنا بإرشاد الله لنـا ، وبما تضمنه كتابه الحـكيم من هداية وتعليم ، لمـا كان هذا شأننا معهم ، ولمـا كنا أطعناهم فمكناهم بهذه الطاعة من أعناقنا ، وأعناهم على أنفسنا .

الأمر الثانى : تقرير ولاية الله للمؤمنين ، وكفالته إياهم بالنصر ، وهو خير الناصرين .

ولا شك أن المؤمن القوى الإيمـان لا يعتمد إلا على ربه ، ولا يطلب النصر إلا منه « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحـكيم » .

والله سبحانه وتعالى لا يخذل المؤمنين أبدا ، لأنه وعد ووعده الحق لينصرن من ينصره ، وليثبتن أقدام المؤمنين ، فإذا وجدنا أنفسنا فى وقت ما مخذولين ، ووجدنا أعداءنا علينا متسلطين ، فليس لنا أن نشك فى وعد الله ، ولـكن علينا أن نسائل أنفسنا أين نحن من الإيمـان ؟ وأين نحن من نصر الله ؟ وأين نحن من التضحية فى سبيله بالمـال والولد والمتاع ؟ .

الأمر الثـالث : وعـد الله جل شأنه بإلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا بسبب إشراكهم .

وهذه سنة من سنن الله فى الخلق فى كل معاند للحق وهو يعلمه ، تراه متظاهراً

بالقوة والجلد مع أنه ممتلىء القلب بالرعب والخوف ، ولو أنه وجد أمامه ثباتا فى المقاومة ، وثقة فى المغالبة ، لخر صريعاً .

ولقد كان المؤمنون الأولون أقوياء بإيمانهم ، لا تزلزلهم عنه فتنة ، ولا يصرفهم عن نصرته متاع ، كانوا واثقين بالله ورسوله ثقة لا يخالجها شك ، ولا يفسدها تردد ، كان يستوى لديهم إذا خرجوا مجاهدين فى سبيل الله أن يموتوا مستشهدين ، أو يعودوا منتصرين « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » . ولذلك كانت هيبتهم عظيمة ، فكان الكافر يرى نفسه أمام قوم باعوا أنفسهم بيع السماح ، يبسمون للموت ، ويقبلون عليه كأنهم يقبلون على رغبة من رغباتهم ، أو شهوة من شهواتهم ، ويحس منهم بالعزيمة الصادقة ، والإرادة القوية ، بينما يعلم فى نفسه أنه يحارب عناداً وتكذيبا والتماساً لبقاء مجده وعزه الدنيوى ، فلا تلبث قواه أن تخور ، ولا تلبث عزيمته أن تنحل ، ولا يشعر بنفسه إلا وقد استولى عليه الرعب ، وأخذه الجبن .

وقد ظل أمر المؤمنين على ذلك ينصرهم الله بالرعب الذى يلقيه فى قلوب أعدائهم ، حتى كانت تفتح لهم أبواب البلاد ، وتفر أمامهم الجيوش التى تربو على جيوشهم فى العدد والعُدد ، وتسبقهم شهرتهم بالعدل والإنصاف ومحبة الحق حتى تتكسر أصنام الحكم والسلطان ، وتخر عروش الجبروت والطغيان ، قبل أن يتحركوا من بلادهم . ظلوا على ذلك حتى غيروا ما بأنفسهم فغير الله عليهم ، فأصبحوا غثاء كغثاء السيل نزع الله هيبتهم من قلوب أعدائهم ، وصاروا كقصعة يتداعى إليها الآكلون .

فينبغى أن نعلم أن سنة الله فى إلقاء الرعب فى قلوب الكافرين مرتبطة باستقامة المؤمنين على صراط الإيمان ، وهذا هو السر فى أن الكفار لا يهابوننا الآن ، ولا يعبأون بنا مثقال ذرة ، وقد جعل الله تعالى علة إلقاء الرعب فى قلوبهم هى إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وهى علة تؤثر فيهم الضعف وتزلزلهم عن مواقف الثبات والشجاعة ، فإن الكافر يكون دائماً موزع القلب بين ما سوى الله

خالياً من الثقة به ، فاقداً للروح المعنوية التى لا ثبات إلا بها ، ولا نصر إلا على أساسها ، فالإشراك بالله علة مؤثرة لتخاذله وتراخيه ورعبه واضطرابه ، ويفهم من هذا أن الإيمان بالله ، والثقة بوعده ، علة مؤثرة للقوة المعنوية ، والشجاعة الحسية ، والثبات على الشدائد ، ومقارعة الأهوال ، وانظر فى ذلك قوله تعالى :

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ، إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

* * *

النداء السادس قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

وقد ختمت السورة بهذا النداء الجامع القوى ، الذى يدخل فيه كل ما سبقه من النداءات ، والذى يعد برأسه مع هذا الاختصار دستورا للفلاح والنجاح لا يعادله دستور .

تضمن هذا النداء أربعة أوامر إلهية :

أولها قوله تعالى « اصبروا » ، والصبر عدة فى الحياة فإن الحياة كدح وجهاد ، وأكثر ما فيها صعاب ومشاق ، فإذا لم يكن المرء مسلحا فيها بسلاح الصبر ، اهتزت أعصابه وتحطمت ، وصار ضعيفا عاجزاً عن مواصلة السير فيها ، وقد علمتنا الأحداث والأزمات التى مرت بالعالم أخيرا أن الأمم التى اعتصمت بالصبر ، وقويت أعصابها على احتمال الصدمات دون أن تضطرب أو يفلت منها الزمام ، هى التى كسبت ، وهى التى نجحت ، وكذلك الشأن فى الأفراد ، وهذا هو السر فى أن القرآن الكريم عنى بالصبر ، وأكثر من حث المؤمنين عليه ، وسلك كل سبيل للترغيب فيه ، وأمر ذلك معروف مشهور .

ثانيها قوله تعالى : « وصابروا » والمصابرة هي المغالبة فى الصبر ، فهو لا يطلب منهم أن يصبروا فى أنفسهم فقط ، ولكن أن يغالبوا أعداءهم فى الصبر ، فالصبر يكون فى كل ما يصيب المرء من أزمات تقع عليه خاصة . والمصابرة تكون فيما يصيب المرء ويصيب أعداءه من شدائد فى مثل الحرب والجهاد ، وقد جاء الأمر بالمصابرة فى قوله تعالى : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » أى فلا يغلبوكم بالصبر على قرحهم ، أكثر من صبركم على قرحكم ، وفى قوله تعالى « إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » أى فعندكم سبب للتفوق والغلب ليس عندهم مع استوائكم وإياهم فى تحمل الأذى والألم .

ثالثها قوله تعالى « ورابطوا » والرباط هو اللزوم والثبات ، وأصله من الربط بمعنى الشد ، وهو عزيمة يعزمها المؤمن بالشيء فيربط الله بها على قلبه فلا يتحول ولا يتزلزل .

وكل أمر حرص الإنسان على لزومه أو التزامه فقد رابط عليه وارتبط به ، ومنه الرباط الذى يكون فى الثغور ، ورباط الخيل أى ربطها للحرب والجهاد وتخصيصها بذلك ، والرباط الذى هو انتظار الصلاة بعد الصلاة ، وغير ذلك .

والله سبحانه وتعالى يوصى المؤمنين بأن يكونوا ذوى عزائم ثابتة فى كل شيء ، وأن يكونوا مرابطين فى كل ما يصلح نفوسهم وأحوالهم وشئون أمتهم ، حذرين من أن يتسرب إلى أية ناحية من هذه النواحى خلل أو فساد أو وهن ، كما يقف المرابط فى الثغر يحرسه من أن يدلف إليه عدو ، أو يتطلع إلى أسراره جاسوس .

رابعها قوله تعالى : « واتقوا الله » والتقوى هى الوصية العامة التى يكثر القرآن من إيصاء المؤمنين بها ، وقد تقدم الكلام عليها فى أول هذه النداءات .

وقد ختمت هذه الأوامر الإلهية الأربعة بقوله تعالى « لعلكم تفلحون » إشارة إلى أن الفلاح مرجو لمن استجاب لها ، وقام بها ، وهو يشمل فلاح الدنيا وفلاح الآخرة .

ونحن إذا تذكرنا ما عرضت له هذه السورة من مواقف المؤمنين مع أهل الكتاب يهوديهم ونصرانيهم ، ومواقف الحرب بين المؤمنين والمشركين فى حالة النصر مع قلة العدد والعُدد بسبب الصبر وحسن الطاعة والاعتماد على الله ، وحالة الهزيمة مع الكثرة بسبب المخالفة والعصيان ، ومواقف المؤمنين مع المنافقين الذين كانوا يرجفون عليهم بأساليب التغرير والتخذيل والكيد ، ومن إرشادات الله فى كل هذه المواقف إلى ما يحفظ على الأمة كيانها ، ويثبت أقدامها ، ويحقق لها نصر الله الذى وعدها ، سواء فيما يقع بينهم وبين أعدائهم ، أو فيما يقع بين بعضهم وبعض - إذا تذكرنا هذا كله ، واستحضرناه أمام أعيننا ، واستحضرنا أن القيام به ليس بالشىء الهين اليسير عرفنا كيف قضت الحكمة بأن تختم هذه السورة بالإرشاد إلى العلاج فيما حدث ، والوقاية مما عسى أن يحدث ، ولا يكون هذا العلاج إلا بالصبر والمصابرة ، ولا تكون هذه الوقاية إلا بالرباط والوقوف أمام منافذ الشر بما يدرؤه ويرده من حيث أتى ، والتقوى ملاك العلاج والوقاية كليهما ، وسبيل الحصول على الكمال المقدر للإنسان فى هذه الحياة باجتناب ما يضر ، واجتلاب ما ينفع ، وذلك عين الفلاح الذى وعد الله به المؤمنين .

* * *

هذه هى النداءات الإلهية التى تضمنتها سورة آل عمران إرشاداً للمؤمنين ، وتعليما لهم ، وبياناً لكل ما تصلح عليه شئونهم ، وتستقيم به دولتهم وأمتهم ، ويدرءون به عن أنفسهم مخاطر الفشل ، ومكايد الأعداء ، ووساوس الشيطان ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ؟

الى المؤتمر الاسلامى العالمى :

من فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

الحمد لله الذى أمر المؤمنين بالاعتصام بحبله ، ونهاهم عن التفرق فى الدين ، وأنزل على رسوله فى محكم كتابه قوله جل شأنه « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، وإماما للمتقين وألف به بين قلوب المؤمنين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

« ٭ »

من عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر إلى إخوانه المؤمنين فى المؤتمر الإسلامى العالمى بكراتشى :

أيها الإخوة الأعزاء :

سلام الله عليكم ورحمته ، ونضّر الله هذه الوجوه الكريمة التى اجتمعت للتشاور فى أمر المسلمين ، والنظر فيما يصلحهم ويجعل لهم فى العالم مقاما محمودا ، كما كان أسلافهم من قبل ، ويمكنهم من نشر تعاليم دينهم ، وبيان شرعتهم ومنهاجهم ودعوة العالم إلى صراط الله العزيز الحميد ، وإنقاذه مما يعانى من الأهوال والصعاب بسبب الجهالات والعصبيات والمطامع المهلكة .

حيا الله هذه الوجوه التى اجتمعت بجامعة الإيمان ، وارتبطت برابطة الأخوة فى الله ، لم تجمعها نزعات سياسية ، ولا مطامع إقليمية ، ولا رغبات استعمارية ،

وإنما جمعها التآلف وابتغاء الخير والسلم والإصلاح بين الناس ، تحقيقاً لأمر الله عز وجل إذ يقول : « يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلاتتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون » وإذ يقول « لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

« * »

انى لأبعث إليكم بهذه الكلمة راجياً لكم — باسم الجامعة الأزهرية العتيقة ذات التاريخ المجيد فى خدمة العلم والدين — كل توفيق ونجاح ، فإن غايتكم من أشرف الغايات ، وإن فى نجاح دعوتكم لنجاحاً لدعوة السلام والتفاهم ، وبرهانا ساطعاً على أن القلوب إذا تكاشفت تعارفت ، وإذا تعارفت تآلفت .

أسأل الله أن يهىء لكم من أمركم رشدا ، وأن يهديكم سبيل الحق والصلاح ، وأن يحقق فيكم آمال إخوانكم المؤمنين الذين تهوى إليكم أفئدتهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، إنه سميع الدعاء لطيف لما يشاء .

* * *

لقد بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وجعل رسالته عامة خالدة موجهة إلى الناس أجمعين فى كل زمان ومكان ، فليست خاصة بشعب دون شعب ، ولا بعصر دون عصر ، وفى ذلك يقول الله عز وجل : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وقد ورث المسلمون هذه الدعوة عن رسولهم الكريم ، لا ليحتفظوا بها لأنفسهم ، ويضنوا بهديها ونورها على من سواهم ، ولكن ليكونوا خلفاء عليها ، وأمناء على بثها وإظهار نورها ، وإصلاح شأن العالم بها ، وفى ذلك يقول الله عز وجل : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف

وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » . « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

فإذا أوفوا بعهد الله إليهم ، فصانوا الأمانة ، وبلغوا الدعوة ؛ كانوا جديرين بنصر الله وتأييده « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

وإذا ضيعوا الأمانة وآثروا الدنيا ومتاعها على الله ورسوله وجهاد فى سبيله فليتربصوا « حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

* * *

ولقد قام المسلمون الأولون بأعباء هذه الأمانة قياماً حسناً ، وشروا أنفسهم وأموالهم لله فى سبيلها ، ففتح الله عليهم مشارق الأرض ومغاربها ، وأراهم آيته الكبرى فى نصرهم على قلتهم ، ودخول الناس أفواجا فى ملتهم ، وتساقط الدول والحضارات أمام دولتهم وحضارتهم ، وما كان ذلك إلا لأنهم كانوا صادقين فى إيمانهم ، نازلين على أمر ربهم ، فكانوا بذلك صالحين ، وكانوا بصلاحهم ومظاهر عدلهم واستقامتهم ونجاحهم دعاة عمليين لدينهم ، تسبقهم شهرتهم ، وتتقدمهم فى الأمم هيبتهم ، وتتفتح القلوب لدعوتهم قبل أن تتفتح الحصون والبلاد أمام قوتهم وبسالتهم ، وظلوا كذلك يحالفهم النصر أينما توجهوا ، وترفرف عليهم العزة والسلطان والقوة ، حتى غيروا ما بأنفسهم فغير الله عليهم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

فرطوا فى أمانة الله فكان ذلك تفريطا فى أنفسهم « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » وتنازلوا عن أسباب سيادتهم وعزتهم فاستحقوا الضياع والسقوط كما تقضى بذلك سنة الله فى خلقه ، حيث لا يحابى احدا ، وإنما يورث الأرض عباده الصالحين ، ولا يمكن منها إلا الذين يقيمون القسط فيها .

وقد وقفت منذ ذلك دعوة الخير والإيمان ، وأصبحنا لا نسمع بمعتنق لهذا الدين إلا أن يكون فرداً أو عدداً قليلا ، وكثيراً مايتبين أن لبعضهم مآرب يبتغيها ويلتمس باعتناق الاسلام تحقيقها ، أما دخول أمة بأسرها فى الإسلام ، واعتناقها دعوة الحق ، كما كان يحدث من قبل ، فلم نعد نراه أو نسمع به ، بل لقد شهد التاريخ أمة بأسرها من المسلمين - هم أهل الأندلس - يسامون الخسف وسوء العذاب ويفتنون عن دينهم ، والمسلمون ينظرون إليهم فلا يستطيعون لهم نصرا ، ولا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً ، وها نحن أولاء فى عصرنا الحاضر نرى بأعيننا كيف تجمع الأموال وتحشد الجهود وتذلل الصعاب فى سبيل تمكين المبشرين المسيحيين من زلزلة إيمان أهل الفطرة من المسلمين الذين وقعوا تحت نفوذهم ، بل فى سبيل زلزلة المثقفين من أبنائنا ، وتشكيكهم فى دينهم ، وتهوين شأنه فى قلوبهم ، كيلا يكون لهم حصناً يدرأ عنهم غوائل الاستعمار ، ويصد جيوشه المتنوعة من مادية ومعنوية .

فالمسلمون الآن — كما وصفهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه — كثرة كغثاء السيل، قد وضع الله فى قلوبهم الوهن، ونزع هيبتهم من قلوب أعدائهم ، ولا شك أنهم فى وضعهم هذا غير صالحين للدعوة إلى الله ، لا بمظهرهم وأحوالهم فإنه مظهر غير كريم ، ولا بحرارة إيمانهم وقوة يقينهم ، فقد انطفأت هذه الحرارة من قلوبهم ، وضعفت هذه القوة فيهم ، وقد جبل الناس على أن ينظروا إلى أرباب الدعوات قبل أن يستمعوا إليهم ، فإذا وجدوهم صالحين أقوياء مؤمنين بما يدعون إليه ، عاملين به ، كان ذلك من أسباب قبول دعوتهم ، والاستجابة لهم ، وإن كانت الأخرى سخروا منهم ، واشمأزوا من الانتساب إليهم ، وإنى لأعتقد أن أكبر صارف لأهل المدنيات الحاضرة عن اعتناق الإسلام هو حالة أهله التى تثير الاشمئزاز منهم ، وتصد عن دينهم ، ولا شك أنهم بذلك يظلمون الإسلام ، ولكن أهل الإسلام له أظلم لو كانوا يعلمون .

أيها الإخوان :

علينا أن نتساءل بعد أن تبينا هذه الحقيقة المؤلمة وذقنا مرارتها : ما السبيل إلى استعادة المسلمين مجدهم ، وقيامهم بواجبهم الذى كلفهم الله به ؟ .

ليس الجواب على ذلك بعسير ، وإنما العسير الذى يجب أن تتضافر عليه الجهود ، وتحشد له القوى هو تطبيق هذا الجواب بصورة عملية .

إنه لا نهوض لهذه الأمة من كبوتها ، ولا قيام لها برسالتها إلا إذا صلحت أولا فى نفسها ، وصلاحها يتوقف على أمرين :

أولهما : أن يؤمن أبناؤها عن بينة وبصيرة بأن هذا الدين هو سر عظمتهم ، ومبدأ سيادتهم وعزتهم وأنهم على حسب ما ينحرفون عن تعاليمه ومبادئه يصابون فى بلادهم وأنفسهم وسائر أحوالهم بالضراء وألوان الشقاء .

وثانيهما : أن ينسوا أحقادهم وميراث عداوتهم الذى أورثتهم أياه عوامل الضعف ، وعهود الذلة والخوف وتسلط الأعداء ، فيعودوا كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة واحدة عزيزة كريمة تشعر بعزتها وكرامتها ، ولا غرض لها إلا إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه والدفاع عن الحق حيثما وجدت لذلك سبيلا .

* * *

إن المسلمين إذا آمنوا حق الإيمان بالأمر الأول استقر فى قلوبهم حب دينهم ، وحرصوا على أن يسلكوا سبيله فى حياتهم ، وأن يسيروا على خطته ومنهاجه السديد فى كل شئونهم فان الإيمان بشىء ما ، هو أساس حبه وتوجه الرغبة إليه ، والحب الصادق يملك على صاحبه جوارحه وأعماله كما يملك قلبه وعواطفه .

والسبيل إلى غرس هذا الإيمان فى قلوب المسلمين هو أن يتعاون أهل العلم والرأى فى كل شعب على تعليم المسلمين دينهم تعليما صحيحا ، وأن يظهروهم على ما فى هذا الدين من محاسن ، ويقنعوهم بما يكفله لأهله من سعادة وقوة ، وينفوا عنه ما أدخل عليه من خرافات وأوهام كان الركون إليها سبب ضعفهم واستكانتهم .

ولا شك أن على الأزهر فى ذلك أكبر قسط — كما قلت فى حديث لى من قبل — فإنه الجامعة الدينية التى تهوى إليها أفئدة المسلمين من كل صوب ، والتى تضم طلابا من مختلف أجناسهم نفروا إليها ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، وإذا كان من واجبى أن أوجه علماء هذه الجامعة ومتعلميها تلك الوجهة الصالحة ، فإن من واجبى أيضا أن أدعو سائر أهل العلم فى مختلف الشعوب والطوائف الإسلامية كى يقوموا بما عليهم من ذلك ويبثوا الدعوة للدين والعلم به فى أقطارهم ويحثوا على الأخذ بها أبناء وطنهم ، حتى يكون الإصلاح عاما ، والتوجيه كاملا .

* * *

أما الأمر الثانى وهو أمر الاتحاد وائتلاف القلوب والغض عن كل ما يثير الأحقاد ، فذلك أمر له فائدته الكبرى فى التعجيل بالقضاء على الضعف والتفرغ لما ينفع المسلمين ، ويصلح شأنهم ، وإظهار الأمة الإسلامية بمظهر الأمة الواحدة التى تعرف ما لها ، وتدعو إلى منهاج واضح مسلم به بين أبنائها .

إن المسلمين جميعاً متفقون على أصول الإيمان الصحيح لا ترى فيهم من ينازع فى شأنها أو يختلف عليها ، وإنما يختلفون فيما وراء ذلك من المعارف التى خاض الناس فيها قديماً وحديثا والتى لم يكلف الله أحداً منهم باعتقاد شىء معين فيها ، ولست أجد فارقا بين اختلاف الناس فى قضية من تلك القضايا الكلامية التى لا تمت إلى عقيدة من العقائد الواجبة واختلافهم فى قضية من قضايا النحو مثلا ، فلكل وجهة هو موليها ، ولا ينبغى أن ينسينا هذا الخلاف أخوتنا ، ولا أن يحل الرابطة التى اعتصمنا جميعاً بها بمقتضى إيماننا .

والسبيل إلى تحقيق ذلك هو العلم أيضا ، فإن التعمق فى البحث سيبين لنا أن الخلاف الذى فرق بين الأمة الواحدة وجعلها طوائف وشيعا هو أقل وأضعف من أن يؤدى إلى ذلك ، وإنما ضخمته السياسة الجائرة ، والأعداء الذين يفيدون من تفرق الأمة واختلاف أهوائها وتعدد مشاربها ، ولو أنهم لم يجدوه لخلقوه .

وبالعلم أيضا نستطيع القضاء على كثير من أنواع الخلاف ، ما دام الحق رائدنا ، والإنصاف قائدنا .

* * *

ولقد قامت فى مصر جماعة من كبار علماء المسلمين ومفكريهم ترمى إلى التقريب بين المسلمين وإظهار كل طائفة على ما عند الأخرى من علوم ومعارف ، وتهوين شأن الخلاف على ما وراء العقائد الواجبة .

والأزهر الشريف باعتباره المرجع الأول لعلماء السنه قد رحب بهذه الجماعة وآزرها واشترك فيها بطائفة من كبار علمائه ، وهو يساهم فى تحرير مجلتها مساهمة فعلية ، ولا شك أن قيام هذه الجماعة من شأنه أن يفتح عيون المسلمين فى كل طائفة على الحقائق العلمية والتاريخية التى كانت محجوبة عن كثير منهم ، فتتقارب بذلك قلوبهم ، ويتحرروا من أسر الأوهام فى كثير من خلافاتهم ، ويصبحوا كما كانوا بنعمة الله إخوانا صادقين متعاونين ، وإنى بوصفى وكيلا لهذه الجماعة « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » لأدعو سائر إخوانى من المسلمين إلى تأييدها ، ومؤازرة فكرتها الصالحة بإنشاء فروع لها ، والمساهمة فى بيان الحقائق العلمية والتاريخية التى تفيدها ، فإن ذلك من التعاون على البر والتقوى الذى أمر الله به المؤمنين .

* * *

هذا رأيى فيما يصلح به شأن المسلمين ، ويمكنهم من القيام بما أوجبه الله عليهم من الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ليعودوا كما كانوا خير أمة أخرجت للناس ، والله أسأل أن يهب العالم من لدنه رحمة تهديه إلى الحق ، وتشرح صدور أهله إلى الإسلام دين السلام ؟

٢٦ من ربيع الثانى سنة ١٣٧٠ هـ

٣ من فبراير سنة ١٩٥١ م

بين الإسلام والنصرانية :



لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الجامع الأزهر والمعاهد الدينية

ترادفت الحروب الصليبية على الإسلام والمسلمين من أهل أوربا منذ سنة ١٠٩٥ إلى سنة ١٢٧٠ ميلادية ، وكان باعثها الأول هو ما أحسه كبار القساوسة ورجال الكهنوت ، وفى مقدمتهم البابا أوربان الثانى من قوة الإسلام ومتانة مبادئه ، وسرعة انتشاره ، مع ضآلة الجهود التى تبذل فى الدعوة له ، وقوة الجهود التى تبذل فى التبشير بالمسيحية .

وقد عقد هذا البابا مجمعين عظيمين ، حضرهما سفراء الملوك المسيحيين ، وازدحما بالوافدين إليهما من كل صوب ، وبذل فى كل منهما جهداً عظيما فى إقناع الحاضرين بخطر الإسلام على المسيحية ، وأفتَنَّ فى إثارة حماستهم الدينية ، وكان داهية من دواهى السياسة فضلا عن مركزه الكهنوتى الكبير ، فتأثروا به تأثراً شديداً ، وخرجوا من لدنه هائجين ، تغلى دماؤهم ، وتصطك من الغيظ أسنانهم ، وتكاد عيونهم ترمى بالشرر ، وزاد حماستهم وغيظهم ماقصه عليهم الراهب بطرس الذى كان قد عاد ذلك العام من حجه إلى بيت المقدس ، إذ وصف لهم فى صورة مثيرة للعواطف ما يلاقيه حجاج المسيحيين من الكروب والأهوال والإهانات

البالغة من المسلمين المتسلطين على هـذا البيت المقدس الذى هو قبلة المسيحيين ، ومركز عواطفهم الدينية ، فكانوا يسيرون فى الطرقات لهم عواء كما تعوى الذئاب الجائعة ، وقد علقوا الصلبان الحمراء على صدورهم ، ويقولون « كذا أراد الله » .

عزموا من لدن ذلك الحين على النضال فى سبيل هدم الإسلام ، وزلزلته عن مكانة العزة والقوة التى اكتسبها بتاريخه الناصع ، ووطد دعائمها ، وهدد بها كيان العالم المسيحى ، واستولى على مقدساته ، فاجتمعت جماهير العامة تحت قيادة بطرس الراهب ، ثم اجتمعت بعد ذلك جيوش أربعة كثيفة ، مؤلفة من أشرافهم ، واشتعلت نيران هـذه الحروب الظالمة بينهم وبين المسلمين ينفخ فيها شيطان الحقد والحسد ، وظلت رحاها تدور سجالا بين الفريقين قرابة قرنين من الزمان تجلى فى أثنائهما أهل أوربا بالعداوة الصريحة ، والتعصب الذميم ، والوحشية الكاسرة التى لا تعرف الرحمة ، ولا تذعن لقواعد الشرف ، ولا تبتغى إلا البطش والإهلاك والتدمير ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ثم أراد الله جلت حكمته أن تهن عزائم الموقدين لهـذه النار ، وأن يصابوا بالهزائم تلو الهزائم ، وبالنكبات تلو النكبات ، فكفوا عن حروبهم الظالمة ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وعادت السيوف إلى أغمادها ، ولكن لتثار حروب أخرى يعرفها أهل أوربا جيدا ، ويتقنون أساليبها ، وهى حروب الفتن والدسائس وإغراء العداوة بين المسلمين ، وتحريض بعضهم على بعض ، حتى إذا اشتغلوا بأنفسهم ولهوا عن أعدائهم ، وزاغت منهم القلوب والأبصار ، جاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، فلم يستطيعوا لهم دفعا ، ولم يملكوا لأنفسهم ضرا ولا نفعا .

على هذا الأساس وضعوا خطتهم ، وأعلنوا هُدنتهم أو خدعتهم ، فلم يكن سكوتهم عن الحروب الصليبية إلا سكوت السيف والمدفع ، لينطلق شيطان الإفساد والفتنة والنفث فى العُقَد ، ضِرارًا وكفرا وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وأفلحوا فى خطتهم هذه ما لم يفلحوا فى عزْمتهم تلك ، فدبَّ إلى المسلمين داؤهم ، وسرت فيهم سمومهم ، وشغلتهم حروب الطائفية ،

والخلافات المذهبية عن دينهم وسلطانهم واتخاذ الحيطة لأعدائهم ، حتى رأى أهل أوربا أن الفرصة قد سنحت ، فأعادوا حروبهم الصليبية فى ثوب جديد أرادوا به سترها ، ولكنه شفَّ عنها ، حتى قال السلطان عبد الحميد كلمته المشهورة التى يخيل إلىّ دائماً لشدة وقعها فى نفسى كأنى أسمعها من فمه : « إن أوربا تحاربنا حرباً صليبية فى صورة سياسية » .

* * *

لقد كان عبد الحميد على حق ، وعلى علم عظيم حين قال هذه الكلمة ، فقد بلغ تكتل الأوربيين فى عهده لمحق المسلمين مبلغاً عظيما ، وكان بحكم مركزه السامى ، وطبيعة عمله المتصل بالسياسة الدولية ، بصيراً بما يدبر من المؤامرات لهدم الإسلام وتحطيم نفوذه كدولة ذات جاه وسلطان وملك كبير ، بل كان كثير من زعماء المسلمين الذين ليس لهم من وسائل العلم بذلك ماله ، يعرفون من أمر هذا التكتل الشىء الكثير ، فنبه إليه جمال الدين الأفغانى وإخوانه وتلاميذه ، وصاحوا فى العالم الإسلامى صيحة الخطر ، وأنشأوا المجلات والجرائد ، ونشروا المقالات ، وألفوا الكتب ، وعقدوا الاجتماعات ، وخطبوا ، وسافروا ، وحلوا وارتحلوا ، ولم يتركوا وسيلة من وسائل التنبيه إلا توسلوا بها ، وكان السلطان يؤيدهم فى قرارة نفسه لما يعلم من علمهم وصدق دعوتهم ، ولكنه لم يظهر بهذا التأييد إلا أخيرا بعد أن رأى المسيحيين يحاربون هذه الدعوة ، ويعملون على كبحها وإطفاء جذوتها ، ويؤلفون الجمعيات التبشيرية والدراسية من سرية وعلنية لمقاومتها ، بيد أنه لم يلبث حتى عزل ثم مات .

وأحسب أن القرن الحالى هو أشد القرون على الإسلام والمسلمين ، وأن الحروب الصليبية قد عادت فيه سافرة ، ولم يعد مصدرها أهل أوربا فحسب بل انضم اليهم فيها أهل أمريكا .

وإذا أردنا أن نسوق على ذلك دليلا ، فإننا نلفت النظر إلى أمور ، أحدها : أن أفريقيا غُلبت على أمرها ، فامتدت إليها أيدى المستعمرين فاقتسموها فيما بينهم

غنيمة ، بعضها لإنجلترا ، وبعضها لفرنسا ، وبعضها لإيطاليا ، وبعضها لغيرهم ، إلا أمة واحدة هي الحبشة ، فقد احترمت هذه الدول كلها استقلالها ، ولم تمسها باحتلال ولا استعمار ، وما كان ذلك إلا لأنها أمة مسيحية ، ولما أراد موسوليني أن يحتلها ، قامت في وجهه الدول كلها ، وقررت عصبة الأمم قرار العقوبات المشهور ضد إيطاليا ، ثم لما هزمت إيطاليا حُرِّرت الحبشة ، وطرد منها الفاتحون ، وأعيد إمبراطورها المخلوع الذي ظل ضيفاً مكرما على إحدى الدول المسيحية الكبرى طول محنته .

وهذه مصر قد بلغت من الرقي والحضارة مبلغاً عظيما ، جعلها في مصاف كثير من الدول الأوربية ، والإنجليز مع هذا رابضون في بلادها لا يريدون لها براحا ، ولهم في تبرير ذلك والتعلل له أباطيل تدرجت مع السبعين عاما التي قضوها ، كان أولها ما زعموه من أن الغرض من بقائهم هو حماية العرش ، وآخرها ما يزعمونه الآن من مركز مصر كقاعدة « استراتيجية » هامة عليها مدار التوازن العالمي ، ولا سيما في الشرق الأوسط ، ومن عجب أنهم يقولون ذلك في منظماتهم الدولية التي أنشأوها لغرض الاستعمار ولكن باسم الحرية والدفاع عن حقوق الضعفاء ، فيجدون من يصدقهم فيه ، ويؤازرهم عليه .

ولو وازنا بين موقف الأوربيين من مصر ، وموقفهم من بلاد البلقان ، وكلها كانت تابعة للدولة العلية ، لكفانا في هذه الموازنة أن بلاد البلقان كلها قد نالت استقلالها حتى الصرب والجبل الأسود ؛ على حين ظلت مصر تعاني من مرارة النضال مع بريطانيا وغير بريطانيا ما تعاني إلى اليوم .

أليس ذلك من آثار الروح الصليبية ؟

ثم ها هي ذي مراكش الجريحة المضطهدة ، يتركها المنادون بالحريات ، المتشدقون بحقوق الإنسان ، ضحية لفرنسا تنكل بها ، وتشرد أبناءها ، وتسجن أبطالها ، وتطوق قصر سلطانها بخيلها ورجلها ، وتنتزع خاتمه لتمهر به ما تشاء

من مراسيم الجور والظلم ، وقوانين الاستعمار وإذلال الأحرار ، فهل كان مجلس الأمن يسكت ليلة واحدة لو فعل ذلك بولاية كولاية « لكسمبورج » مثلا ؟

والأمر الآخر أمر اليهود ، فقد لفظتهم أوربا ، وحاربهم هتلر فى ألمانيا وغيرها من البلاد التى خضعت له حرباً لا هوادة فيها ، وكان المسيحيون يبكون عليهم أو يتباكون ، ولا يحركون فى أمرهم ساكنا ، ولا يجدون أمة مسيحية تتقبلهم ، ولا منطقة من مناطق الدول المسيحية تتفتح لهم ، فظلوا مشردين ، حتى سنحت الفرصة للأوربيين والأمريكيين فرموا بهم بلاد فلسطين ، قلب الوطن الإسلامى ، رجاء أن يستريحوا من شرهم ، ويتعبوا المسلمين بهم ، وكم كانت الحيلة متقنة موزعة الجوانب على المشتركين فيها ، حيث أعلنت انجلترا أنها ستجلو عن فلسطين فى يوم معين ، فأذاعت عصابات الصهيونية أنها ستعلن فى هذا اليوم نفسه إنشاء دولة إسرائيل ، فلما جاء اليوم الموعود إذا أمريكا صاحبة الدعوة إلى حريات الشعوب تعترف بإسرائيل بعد دقيقة واحدة من إعلانها ، فيالها من مهزلة تاريخية مُثلت على ملأ من أهل الدنيا وهم يشهدون !!

* * *

على المسلمين أن يواجهوا هذا الحقيقة شجعاناً غير محاولين منها فراراً : إنها الحروب الصليبية ما فى ذلك شك ، وإذا كان أهل أوربا وأمريكا يعلنون الحرية الدينية فى كل مجتمع وعهد ، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، وآية ذلك أن الاسلام لايجد مُتَنَفَّساً فى أى مكان من الأرض ، فأهله معذَّبون مضيَّعون وبلادهم مُثْقلة بالاستعمار أو متخبطة فى أحابيله التى نصبت لها من بعيد ، ولو خُلِّىَ الاسلام وشأنه ، ولم تحل فتنُ السياسة والاستعمار من دونه ، لدخل الناس فيه أفواجا ، ولنسخ بإذن الله كل ما سواه .

فإذا أدرك المسلمون هذه الحقيقة وواجهوها صرحاء ، فأولى لهم أن يدفعوا الحرب عن الدين ، بالتمسك بالدين ، وإلا كانوا عوناً على أنفسهم ، وجنداً لأعدائهم من حيث لا يشعرون ؟

الاجتهاد في نظر الإسلام

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير
الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك

كنت أتجادل فى الشهر الماضى مع معالى الأستاذ على عبد الرازق باشا ، وكنا نستعرض حال المسلمين وما وصلوا إليه من جمود ، فقال : إن دواء ذلك أن نرجع إلى مانشرتُـه قديماً من أن رسالة الإسلام روحانية فقط ، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل ، فقلت : إن رأيى أن رسالة الإسلام أوسع من ذلك وهى روحانية ومادية معا ، بدليل ماورد فى القرآن من نظام البيع والشراء والإجارة والمعاملات المالية ، ومسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ونحو ذلك .

والذى يحل مشاكلنا ، هو فتح باب الاجتهاد بعد أن أغلقه العلماء ، ولم يكن إغلاق باب الاجتهاد باجتماع بعض العلماء وإصدار قرار منهم ، إنما كان مجرد حالة نفسية واجتماعية ، ذلك أنهم رأوا غزو التتار لبغداد ، وعسفهم بالمسلمين ، فخافوا على الإسلام منهم ، ورأوا أن أقصى ما يصبون إليه ، هو أن يصلوا إلى الاحتفاظ بتراث الأئمة مما وضعوه واستنبطوه وأنهم لايؤملون أكثر من ذلك نظراً لحالتهم النفسية المتدهورة ، فسموا هذا إقفال باب الاجتهاد ، ونحن نريد أن نفتحه .

ونظريتنا فى الحقيقة تؤدى إلى نفس النتيجة التى يراها الأستاذ على عبد الرازق باشا ، فالاجتهاد الذى نريده ، هو الاجتهاد المطلق لا الاجتهاد فى المذهب ، فهو يشمل كل شىء حتى فى تقييد النص ووقف العمل به متى استوفى المجتهد شروط الاجتهاد المبينة فى كتب أصول الفقه ، من علم بالكتاب والسنة ، وعلم باللغة العربية ، وعلم بالعرف والتقاليد ، وعلم بمقاصد الشريعة ، وغير ذلك .

وإمامنا فى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فإنه مثلا لم يرد أن يعطى المؤلفة قلوبهم من الزكاة ، لأنه أدار الحكم على العلة وجوداً وعدما ، فلما لم يكن الإسلام فى حاجة إلى تأليف القلوب لكثرة من دخل فى الإسلام ، وقف إعطاءهم الزكاة ، ولما رأى الناس أكثروا من الحلف بالطلاق الثلاث بلفظ واحد أدبهم بإيقاعه ثلاثاً ، مع أن القرآن الكريم يقول « الطلاق مرتان » والطلاق الثلاث هو مرة من المرتين . ولما حد المسلم حدَّ الشُّرْب ورآه بعد ذلك قد تنصر والتحق بالقسطنطينية ، آلى على نفسه أن لا يحد مسلما بعد ذلك أيام الحرب . وسرق مسلم من مُزَينة فى أيام المجاعة ، فأمر بحده ثم أمر برده ، وألزم قبيلته أن تدفع ثمن الناقة ، وقال : إنكم أجعتموهم فسرقوا . إلى كثير له من أمثال ذلك . فكان كما قلت ، يدير الحكم على حسب العلة ، فإذا لم تتحقق العلة لم يُحقِّق المعلول .

ومجلس الشورى كان يفعل مثل ذلك فى الأندلس ، فقد واقع عبد الرحمن الناصر زوجته فى رمضان ، فأفتاه بعض العلماء بتحرير رقبة كما هو الترتيب فى الكفارة فأبى يحي بن يحي الليثى رئيس جماعة الشورى عليه ذلك نظراً لأنه أمير وغنى ومن السهل عليه أن يحرر رقبة ، فلابد من عقوبة رادعة ، وهى أن يصوم ستين يوما بدل اليوم الذى أفطره تحقيقاً لمقصد الشريعة . فالاجتهاد الذى نريده من هذا القبيل ، فإذا جَدَّ للمسلمين موقفٌ دُرِسَ موقفُهم بعينين :

إحداهما مقاصد الشريعة الكلية . والأخرى موقف المسلمين الحاضر . وفى كل عصر تجد مسائل تحتاج إلى هذا الاجتهاد بدليل ما كان يرد على المرحوم الشيخ محمد عبده من مسائل جديدة يطلب أصحابها الفتوى الإسلامية فيها ، مثل : ذبيحة أهل الكتاب ولبس القبعة إذا اضطر الناس إليها ، وإيداع المال فى صناديق التوفير ، والاشتراك فى شركات التأمين على الحياة ، ونحو ذلك من المسائل والأقضية التى تجد فى العالم الذى هو فى تطور مستمر . فكل يوم تظهر أحداث تتطلب أحكاما شرعية ، فما لم تُقابَلْ بالاجتهاد العاجل ومجابهة الموقف أصيب المسلمون بالحرج ، وكان علماء الفرس (١) أوسع

(١) يقصد علماء الشيعة الإمامية .

صدراً فى هذا ، وأكثر قبولا لنظرية الاجتهاد ، لولا أنهم أكثروا من شروط هذا بمـا يساوى الاجتهاد المقيد ، ونحن نريد الاجتهاد المطلق .

والاجتهاد الذى نريده لايصح أن يُعْطَى لكل شخص ، وإلا كانت الفوضى والاضطراب ، إنما نريده لأهل الحل والعقد الذين تتوافر فيهم شروطه كبعض أعضاء مجلسى النواب والشيوخ وبعض رجال العلم ونحو ذلك ، والإسلام مَرِن بطبعه يتحمل مثل ذلك ، فقد جعل الاجتهاد مصدرا من مصادر الشريعة ، وأباح النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل أن يجتهد برأيه ، وأباح للصحابة أن يجتهدوا بآرائهم مع رأيه فى شئون الدنيا ، فقد أمرهم مرة ألا يؤبّروا النخل ، فلما فعلوا ذلك لم يُثمر ، فقال صلى الله عليه وسلم : أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وقد فعل صلى الله عليه وسلم أشياء كثيرة لا تتصل بالدين ، وإنما فعلها لمزاجه كحبه للدُّبَّاء ، أو نزولا على عادة قومه كطريقة لبسه ونوعه والالتحاء وصبغ اللحية ونحو ذلك ، فهذه كلها أمور ليست من الشريعة فى شىء ، ولكل زمن عُرْفُه وتقاليده ، ولكل شخص مزاجه ، فخلط هذه الأمور بعضها ببعض خلط غير صحيح ، وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه امتنع عن أكل البطيخ لأنه لم يعلم الموضع الذى قطعه منه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذه مسألة عاطفية لا صلة لها بالدين ، ولكن حبه للنبى صلى الله عليه وسلم وحبه للاقتداء به فى كل شىء ، سواء أكان من العبادات أم من غيرها دعاه إلى فعل ذلك فهو أمر دعاه إليه الحب لا الدين .

ونحن فى زمن تتوالى فيه المخترعات والصناعات ، وتغمرنا فيه المدنية الحديثة بألوان كثيرة من المسائل ، وكلها تحتاج إلى اجتهاد ، فإذا ظهر الراديو مثلا تساءلنا هل يصح أن نسمع منه القرآن أو لا يصح ؟ والعالم نفسه يواجه هذه المشاكل ، فلما اخترعت الطائرات احتاج السياسيون أن يضعوا مواد خاصة فى القانون الدولى لمرور الطائرات فى جو الممالك الأخرى ، وكذلك شأنهم فى النظم البريدية الحديثة والسفن والقطارات وغير ذلك ، فإذا نحن جمدنا لعدم وجود النص ، ولم نقابل هذه الأمور وأمثالها بالاجتهاد ، وتخلف المسلمون ، كانوا أمام أحد أمرين :

إما اتباعهم للمبادىء الأوروبية من غير نظر إلى مقاصد الشريعة كما فعل مصطفى كمال فى تركيا . وإما الوقوف من غير إعطاء حكم ، وفى كليهما ضرر بليغ .

إن كل نظام تشريعى يلزم لبقائه شيئان : قواعد ثابتة كقول الشريعة « لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ » تركِّزُه وتثبته ، وقواعد متموجة مرنة ، يستطيع بها أن يواجه الأحداث الجديدة ، وفى الإسلام هذان النوعان ، ففيه القواعد الثابتة التى نسميها مقاصد الشريعة كحفظ النوع والجنس والمال ، وفيه القواعد المرنة ، كرعاية المصالح المرسلة عن طريق النظر والاجتهاد ، وبدونهما أو أحدهما لا تستطيع شريعة أن تبقى .

وقد قرأنا أن أبا حنيفة رحمه الله كان يقول : إذا غصب رجل ثوباً وصبغه بالسواد فقد أدخل نَقْصاً على قيمة المغصوب ، فلما جاء تلميذه أبو يوسف ، وكانت الحالة قد تغيرت واتخذ العباسيون السواد شعاراً رسمياً ، أفتى بأن الصبغ بالسواد يزيد قيمة المغصوب وليس الأمر تغير الحكم ولكن الأمر تغير الظروف ، وكان الفقهاء الأقدمون يفتون بأن من رأى حجرة فى بيت دون سائر حجراته سقط عنه خيار الرؤية ، لأن الحجرات فى البيوت كانت تبنى بشكل واحد ، فلما جاءت المدنية الحديثة واختلفت هندسة الحجَر كان من مقتضى ذلك أن من رأى حجرة فى بيت لا يسقط عنه خيار الرؤية وهكذا .

وبالأمس كنت أقرأ فى كتاب الهوامل والشوامل ، فرأيت فيه أن أبا حيان التوحيدى سأل مسكويه عن السبب فى أن المسألة الواحدة يفتى فيها مُفْت بتحليلها ، وآخر بتحريمها ، فأجاب مسكويه : بأن العبرة باختلاف الزمان أو المكان ، وأن الاجتهاد يواجه ذلك ، قال : على أن الاجتها فى نفسه تمرين للعقل بدليل أن ملكا من الملوك لو أراد أن يلعب بالكرة والصولجان ما أهمنا نجح فى اللعب أو لم ينجح ما دام قد مرّن أعضاءه ، والحكيم إذا خبأ الشيء وطلب من الناس أن يبحثوا عنه ، فسواء وجدوه أو لم يجدوه فقد حقق الغرض ، والمشتغلون بالنظريات الهندسية والرياضية يكفيهم ما بذلوا من جهد فى حلها سواء أصابوا أم أخطأوا .

وعلى الجملة لا ينقذ المسلمين إلا فتح باب الاجتهاد الذى أغلقوه ، فضيقوا على أنفسهم واسعا ؟

خطر العامة على الخاصة

لحضرة الأستاذ عبد الوهاب حموده
أستاذ الأدب الحديث بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الناس من ناحية الثقافة العقلية ينقسمون ثلاثة أقسام : علماء راسخون ، وأوساط متعلمون ، وعامة مقلدون .

وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث تتطلب غذاء عقلياً يناسبها ، وإقناعا روحيا يوائمها ، فإن ما يكفى الطبقة الدنيا من أبواب المعرفة ، لا يقنع الطبقة العليا من الراسخين .

لذلك جاء القرآن الكريم ، وقد اشتمل على أنواع من الأدلة تتناسب مع العقول على اختلاف درجاتها ، وضروب من البراهين تكفى لإقناع الأفهام مع تباين أنواعها ، ثم طلب إلى كل نوع أن يقف عند حده لا يتجاوزه ، فلم يطالب العامة بما طالب به الخاصة من التأمل والتفكير ، والأخذ فى أسباب البحث والتأويل .

يقول الغزالى فى كتابه « الاقتصاد فى الاعتقاد » :

« اعلم أن الأدلة التى نحررها فى هذا العلم ـ علم الكلام ـ تجرى مجرى الأدوية التى يعالج بها مرض القلوب ، والطبيب المستعمل لها إن لم يكن حاذقا ، ثاقب العقل ، رصين الرأى ، كان ما يفسده بدوائه أكثر مما يصلحه — فلا ينبغى أن نشوش على العامة عقائدهم ، فإنه إذا تليت عليهم هذه الإشكالات وحلها ، لم يؤمن أن تعلق بأفهامهم مشكلة من المشكلات ، وتستولى عليها ، ولا تمحى عنها بما يذكر من طرق الحل » .

والإسلام لم يجعل قبول دعوته منوطا بأناس مخصوصين ، وعمال متوظفين ، بل دعا إليه كل ذى عقل ، ونادى إلى اعتناقه كل مدرك ، فليس هناك وسيط بين

الإنسان وربه ، ولا حاجب يستأذن له فى الدخول إلى درجات قدسه ، ولا شفيع يشفع فى التقرب إليه ونيل رضاه . فإن القرآن الكريم لم يذر وسيلة موصلة إلى إنعاش العقل وتحرير الفكر إلا تذرع بها ، فهو إذا تحاكم فإلى العقل ، وإذا حاجّ ، فبحكم العقل ، وإذا سخط فعلى معطلى العقل ، وإذا رضى ، فعن أولى العقل .

يقول الإمام الشيخ محمد عبده فى كتابه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنيه » :

« إن أول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلى ، واتفق أهل الملة الإسلامية ، إلا قليلا ممن لا ينظر إليه ، على انه إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه . والطريق الثانية : تأويل النقل مع مراعاة أساليب اللغة وقوانينها ، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العمل . وبهذا الأصل الذى قام عليه النظر فى الكتاب وصحيح السنة ، مُهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيلت من طريقه جميع العقبات » .

غير أنه مما لا شك فيه ، أن العقول متفاوتة فى استعدادها ، متباينة فى طاقة إدراكها ، وأن الأفهام مختلفة فى قدرتها ، والأذهان متنوعة فى سعتها وضيقها . وهذا ماتشير إليه الآية الكريمة إشارة بيانية ، وتدل عليه دلالة رمزية ، قال تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » .

قال ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » :

« شبه الله الوحى لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، فقلب كبير يسع علما عظيما ، كواد كبير يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير ، إنما يسع بحسبه كالوادى الصغير ، فسالت أودية بقدرها ، واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها » .

فنزل القرآن الكريم منه آيات محكمات واضحة الدلالة ، مشرقة المعنى ، وهى أصل الكتاب وغالبيته . ومنه آيات متشابهات غامضة فى معناها ، غير نص فى دلالتها لايصل إلى عمقها إلا من منحوا العقل الراجح ، والفهم الثاقب ، والموهبة الممتازة ، قال تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب

وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ».

ذلك لأنه كتاب جاء لدعوة الخواص والعوام ، وطبائع العوام تنبو فى أكثر الأمر عن إدراك الحقائق الدقيقة ، والمرامى السامية ، والحكم العالية . فمن ثم خاطبهم بالحق الصريح ، وبما يستطيعون إدراكه من سهل العبارات ، وواضح الأدلة ، وشائع البراهين ، حتى لا يثقل كاهلهم ، ويكلفهم بما هو فوق طاقتهم ، وهو يقول جل ثناؤه « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ».

أما الخواص ، فقد خاطبهم بالدقيق من المعانى ، والعميق من الأسرار ، والعالى من الحكم ، مما يجدون فيه مجالا للتدريب العقلى ، والمرانة الذهنية ، ولذلك قال تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ، ولم يقل والراسخون فى الدين ، لأن العلم أعم وأشمل ، ومن رحمة الله أنه جعل فى الدين مجالا لبحث العقول ، وميداناً لجولان الأفهام ، حتى لا تعتاد الخمول والكسل ، والركود والجمود . فان هذا يستلزم البحث فى الأدلة الكونية ، والبراهين العقلية ، والكشف عن طرق الخطاب ووجوه الدلالة ، فتسمو إلى أسرار الكون ، وتسبح فى عجائب الآيات ، حيث الإيمان الصحيح ، واليقين الثابت ، والاطمئنان القلبى ، والسكون النفسى ، « قل انظروا ما ذا فى السموات والأرض » ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ».

فلو كان كل ما ورد فى القرآن الكريم واضحاً لا عمق فيه ، بيّناً لا سرّ فيه ، جلياً عند الأذكياء والبلداء ، صريحاً للخاصة والعامة ، لكان ديناً راكداً خالياً من الحيوية ، فاقداً لجلال السمو ، وروعة القدسية ، محروما من المعانى العالية ، والحكم الدقيقة ، فضلا عما فى ذلك من تعطيل للعقول ، وأسر للتفكير ، وشل للأفهام .

فجعل الدين للعلماء ميادين يصولون فيها ، وآفاقا واسعة يجولون فى جنباتها ، بحثا وراء الحقيقة المستترة يكشفونها ، وجرياً وراء الأسرار البعيدة يتصيدونها ، وجعل للعوام حدوداً يقفون عندها ، ومعالم ينتهون إليها ، حتى إذا ما غُمّ عليهم

أمر من الأمور لجأوا إلى أولئك العلماء يستوضحونهم ، ويسمعون لآرائهم (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ثم هم يسلمون إليهم الزمام ، ويلقون إليهم بالقياد ، فإذا أبهم عليهم الأمر اتهموا أذهانهم بالقصور ، وعقولهم بالوهن ومقدرتهم بالعجز ، لا أن يتهموا العلماء فى عقائدهم ، ويدّعوا السيطرة على قلوبهم والحكم على إيمانهم ، فإن الله لم يجعل فى الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ، ولا سيطرةً على إيمانه ، على أن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه ، طالما خاطبه الله تعالى بأنه مبلغ ومذكر لا مهيمن ومسيطر (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) فليس لمسلم - مهما علا كعبه فى الإسلام - على آخر - مهما انحطت منزلته فيه - إلا حق النصيحة والإرشاد ، لا حق السيطرة على قلبه والاستبداد بعقيدته .

نعم لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسول الله من كلام الرسول وإنما يكون ذلك بعد إستيفاء الوسائل والحصول على الأدوات الواجبة والثقافات اللازمة ، فإن لم تسمح له حاله بالوصول إلى ذلك فليس عليه إلا أن يسأل العارفين ويستوضح الراسخين .

يقول حجة الإسلام الغزالى فى كتابه : « إلجام العوام عن علم الكلام » .

« فإن قلت : أى فائدة فى مخاطبة الخلق بما لا يفهمون ؟ .

فالجواب أنه قصد بهذا الخطاب تفهيم من هو أهله ، وهم الأولياء والراسخون فى العلم من العلماء ، وقد فهموا ، وليس من شرط من يخاطب العقلاء بكلام أن يخاطبهم بما يفهم الصبيان ، والعوام بالإضافة إلى العارفين كالصبيان بالإضافة إلى البالغين ، ولكن على الصبيان أن يسألوا البالغين ، فإن كانوا يطيقون الفهم فهّموهم ، وإلا قالوا لهم : هذا ليس من شأنكم ، ولستم من أهله ، فخوضوا فى حديث غيره « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . « لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم » .

فيجب على العامى أن يعتقد أن ما انطوى عنه من المعانى وأسرارها ليس منطوياً عن العلماء الراسخين ، وأنه إنما انطوى عنه لعجزه وقصور معرفته ، فلا ينبغى أن يقيس بنفسه غيره » .

والتاريخ يحدثنا كثيراً عن النكبات التى نزلت بالمفكرين ، والاضطهادات التى صبت على المحققين ، والنوازل التى أحرقت بنارها أئمة مجتهدين ، ويحدثنا عن الثورات التى كانت تشتعل بين المذاهب ، والفتن التى كانت تثار بين الطوائف ، والتى لم تكن تحدث لولا إشراك العامة فى الحكم على آراء العلماء ، وتسليطُ الغوغاء بالإضرار بهم ، والشغب عليهم ، بل إن كثيراً من رجال الحكم والسياسة لم يسيروا فى طريق الاتهام إلا ارضاء للعامة ، ولم يسرعوا إلى إلحاق الأذى بالمفكرين والعلماء إلا تزلفا إلى الجهلة ، لأن الغلو من شأن هذه الطبقة الساذجة ، والتطرف من خلق هذه الفئة الجاهلة ، والثورة من سمات هذه الجماعة الجامحة .

يقول « أولدس هكسلى » فى كتابه « الوسائل والغايات :

« إن الجمهور يحيا حياة عقلية أحط من الحياة العقلية للأفراد ، والجمهور لا يستطيع أن يسيطر على عاطفته كما يستطيع الفرد ، وذلك راجع إلى أن العامة فى كل أمة أكثر الطبقات عدداً وأوفر الجماعات جمهرة ، وهم لا يستطيعون أن يستقلوا بنظر ، ولا أن يؤتمنوا على تفكير ، لذلك كانوا دائما اتباع المهرّج ، وأنصار المشعوذ ، وجند الشغب ، تتلعب بهم الأهواء ، ويستغلهم العتاة ، وليس شر على الأمة من الفتن الشعبية التى تستمد قوتها ، وتأخذ وقودها من عقل ضعيف وحماسة شديدة ، ومغالاة فى الدين .

لقد بان الآن سر من أسرار الدين الاسلامى فى حثه على الاعتدال فى التدين والبعد عن المغالاة ، والتزمت فى العقيدة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » وقال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » ويقول « هكسلى » : « إن التغالى فى التدين كثيراً ما يدفع صاحبه إلى الشدة والقسوة ، ويتجه به إلى حب الاضطهاد والعنف » .

وقد يكون هذا هو سر ما اشتهر عن علماء المسلمين من التسامح ، وعرف من قواعد أحكامهم فى دينهم من أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة

وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد حُمل على الايمان ، ولا يجوز حمله على الكفر ، وإنما كان ذلك كذلك لما رأوه من الإسراف فى اتهام مفكرى الإسلام فى دينهم ، والتسرع إلى النيل من أعلام المتكلمين فى عقائدهم ، ووصمهم بالزندقة فى بواطنهم .

ولنضرب الآن أمثلة مستقاة من التاريخ لنـدلل بها على خطل السياسة التى تشرك العامة فى الحـكم على القلوب ، والسيطرة على العقائد ، ومسايرة السواد فى اتهام العلماء ، وإرضاء الغوغاء فى إنزال الاضطهاد بالحكماء ، والأحرار من العلماء .

من هؤلاء شيخ المفسرين ابن جرير ، يقول ياقوت فى معجمه :

هو المحدث الفقيه المقرىء ، كان أحد أئمة العلماء يُحكَم بقوله ، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، كان حافظاً لـكتاب الله عز وجل ، عارفا بالقرآن ، بصيرا بالمعانى فقيها بأحكام القرآن ، عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها ، حتى قال فيه أبو حامد الاسفراينى الفقيه : لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصّل كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيراً . رجل هذه منزلته . أتدرى ما ذا كانت خاتمته ؟ لقد دفن ليلا خوفا من العامة ، لأنه كان يُتهم بالتشيع ، وكانت الحنابلة لا تترك أحداً يسمع عليه ، ولا ذنب له إلا أنه عند ما ألف كتابه « اختلاف الفقهاء » ذكر فيه اختلاف مالك والأوزاعى والثورى والشافعى وأبى حنيفة مع أبى يوسف ومحمد ابن الحسن ثم أبى ثور ، وذكر بعضَ فقهاء الصحابة والتابعين وأتباعهم إلى أبناء المائة الثانية ، ولم يذكر أحمد بن حنبل ، فقصده الحنابلة وسألوه فى ذلك ، فقال : لم يكن أحمد فقيها ، إنما كان محدثا ، فأساء ذلك الحنابلة ، فرموه بالرفض ، وأهاجوا عليه العامة يوم وفاته ، وعَدُّوا عليه هذه واحدة . أما الثانية فهى كما ذكر « كرن » فى مقدمته لـكتاب : « اختلاف الفقهاء » و « اتجاهات المفسرين » لجولد تسهر ، إذ يقول هـــذا : فى الأقاليم التى تسود فيها الآراء السنية ، ويعترف بها مذهبا رسميا تعتمد على جماهير الشعب الساذجة فى محاربة الأقليات من أهل العقـل ، مستغلة لهم فى مناهضة هؤلاء الذين يُحدثون الضوضاء حول تعاليم أهل السنة ، وفى غالب الأحيان تصاحب حركات الجماهير القسوة والغلظة ، وأحيانا ما يأتون

بأعمال وحشية تذهب فيها أرواح الناس ، فأية مسألة من مسائل الخلاف فى تفسير القرآن لا تجعل خاصة العلماء فقط فرَقا ، بل تجعل الشعب الجاهل كذلك شيعا وأحزابا تتشاجر فى الطرقات ، وقد فهم الحنابلة المتعصبون هذه الغريزة فى الجماهير التى لا تحسن النظر ، وعرفوا كيف يثيرونها ضد التأثرين من أهل البدع الدينية ، ويجعلون من ذلك نزاعا يمس العقيدة ، وقد كان من نتيجة حملاتهم ، هذه الفتنة التى وقعت فى بغداد .

ففى سنة (٣١٧ هـ) وقعت فتنة عظيمة ببغداد ، وكان سبب ذلك الخلاف فى تفسير آية من القرآن فى سورة الإسراء : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » فماذا يعنى بالمقام المحمود ؟ فأما الحنابلة أصحاب اسحق المروزى شيخهم فى هذا الوقت ، فقد قالوا فى تفسيرها : إن الله سبحانه وتعالى يُجلس النبى صلى الله عليه وسلم معه على العرش ، وذلك جزاء منه لتهجده ، وقالت الطائفة الأخرى ممن تأثر بالمعتزلة إن ذلك كناية ـ وقد اعتبر هذا القول بعدُ عند أهل السنة ـ فليس المراد به مكانا محدودا ، ولكنه عبارة عن درجة الشفاعة التى أنعم الله بها على النبى لتهجده ، وكان لكلا الحزبين شيعة فوقعت الفتنة ، وقبل هذا بقليل ثار على الطبرى غوغاء الحنابلة المتعصبون ، وذلك عند ما أبدى رأيه فى هذه الآية مخالفا لرأى الحنابلة ، وقال إن حديث الجلوس على العرش محال . فوثب عليه الحنابلة ، ورموه بمحابرهم ، وكانت ألوفا فقام بنفسه ودخل داره فرجموا داره بالحجارة حتى صار على بابه كالتل العظيم ، وركب نازدك صاحب الشرطة فى عشرات الألوف من الجند يمنع عنه العامة .

هكذا يصنع العامة بمن خالفهم فى رأى ، وعارضهم فى فكرة ، مهما كان جليل القدر عظيم المنزلة ، سليم العقيدة ، قوى الإيمان .

ومن أولئك الذين نُكِّل بهم إرضاء للعامة ، ابن رشد الحكيم ، ضحية الفكر الحر ، يقول المقّرى فى كتابه « نفح الطيب » يصف حالة العلوم فى الأندلس :

« وكل العلوم لها عندهم (أى عند أهل الأندلس) حظ واعتناء ، إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة ، فإنه

كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة ، أو يشتغل بالتنجيم ، أطلقت عليه العامة إسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه ، وإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة ، أو أحرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان أو يقتله السلطان تقرباً إلى العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت . وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن » .

نشأ ابن رشد فى بيت فقهاء وقضاة ، وكانت أسرته من أكبر الأسر وأشهرها فى الأندلس ، وآباؤه من أئمة المذهب المالكى ، وكان هو وأبوه وجده قضاة قرطبة ، وانفرد هو حيناً بقضاء أشبيلية .

كل ذلك لم يشفع له عند حاسديه ، ولم يحل دون التنكيل به والنفى والإبعاد ، وإحراق كتبه ارضاء للعامة .

ويظهر أن أقسى ما أصيب به ابن رشد فى محنته : تألب العامة عليه وعلى ولده وتصديهم إلى سبهما والاعتداء عليهما ، والعامة فى كل زمان ومكان خصم ثالث يدخل بين الملوك ورجال الدين والفلاسفة . أخبر أبو الحسن عن ابن رشد أنه قال : أعظم ماطرأ علىّ فى النكبة : أنى دخلت أنا وولدى عبد الله مسجداً بقرطبة ، وقد حانت صلاة العصر ، فثار لنا بعض سفلة العامة فأخرجونا منه .

هذا وليس ابن رشد هو أول ضحايا الفكر ، ولن يكون آخرهم ، فكم من عالم مفكر قد قتل أو سجن ، وكم من إمام حر قد نفى أو شرد ، ولا ذنب لهذا ولا لذاك إلا سعة الأفق وحرية الرأى ، وهى صفة لا تتلاءم مع العقليات العتيقة والأذهان الراكدة .

ولولا هذا الاضطهاد لازدهرت عقول ، وسطعت نجوم فى سماء الفكر قد خبا نورها ، وخمد ضياؤها ، بتحريش العامة بأصحابها ، وتسليط السواد بالنيل منها ، والثورة عليها ، ومن أراد مزيداً فليقرأ تاريخ أبى حيان التوحيدى ، وابن تيمية ، والسهروردى المقتول ، وغيرهم ممن أنكرهم عوام عصرهم ، ولكنهم أناروا الطريق للأجيال من بعدهم ؟

رجل الدين ومصدر الأحكام الشرعية

لحضره صاحب الفضيلة

الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه

المستشار بالمحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

يمكن التعبير عن رجل الدين ووظيفته بأنه « مأمور تبليغ » مجتهداً كان أو مقلداً ، فالمجتهد ينقل عن الكتاب والسنة ، والمقلد ينقل عمن يقلده .

وليس لرجل الدين أية سلطة تشريعية مهما بلغت مقدرته العقلية ، ومنزلته العلمية والدينية ، بل ليس لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مجتمعين ، ولا للتابعين وعلماء المسلمين كافة أن يضعوا أحكاما وقوانين دينية من عند أنفسهم ، بل إن تعاليم الرسول ما هي إلا وحي يوحى ، وتبليغ عن الله سبحانه ، وليس للرسول فيها سوى شرف الرسالة الإلهية ، وفضل الأمانة فى تبليغها ، وعظمة الجهاد فى سبيل بثها وإحيائها « ما على الرسول إلا البلاغ » .

إذن على رجل الدين أن يبنى أحكامه وأقيسته وتحقيقاته فى كل أمر من أمور الشرع على أساس الكتاب والسنة ، فإنْ تجاوزهما إلى اجتهاد لا يستند ابتداء ولا ينتهى بوسيلة مشروعة إلى أحد هذين الأصلين فقد تجاوز حده ، واتخذ لنفسه سلطة الاستقلال فى التشريع التى لم يخولها الدين للأنبياء والأوصياء ، وهذه بديهة ليست محلا للنظر والبحث فى أى مذهب من المذاهب الإسلامية ، ومرجعها إلى

قول الله تعالى : « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » . « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » فلم يأمر الله سبحانه — عند التنازع والالتباس — بالرجوع إلى المحسنات والتعليلات التى لا تمت إلى الكتاب والسنة بصلة قريبة أو بعيدة ، وقد اتفقت كلمة المذاهب على أن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

أما الشيء الذى لا نص عليه بالذات فيستخرج حكمه من عمومات الكتاب والسنة « مافرطنا فى الكتاب من شيء » . « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » فقول الله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » يدل بعمومه على حلية كل قديم وجديد لم يقم الدليل على حرمته ، وأظهر منه فى الدلالة حديث : (رفع عن أمتى ما لا يعلمون) كما دل قوله سبحانه : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وحديث « لاضرر ولا ضرار » على أن الأحكام الثابتة لعناوينها لا تشمل مورد الحرج والضرر ، فوجوب جلد الزانى الثابت بآية « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » لا يتجه على من يؤدى جلده إلى هلاكه ، وصوم شهر رمضان لا يطلب من المريض .

إن الآيات والأحاديث الدالة على أحكام عامة لا يحصيها العد والبيان ، ومعها لا نحتاج إلى تصريح خاص فى حادثة تعرض لنا من جديد ، بل نثبت بها أحكاماً لموضوعات لم يرد فيها نص بالخصوص ، وننفى أحكاما عن بعض أفراد المفاهيم التى ثبت حكمها بالدليل القطعى ، ننفى الحكم الثابت فى مرحلة التشريع والإنشاء لمصلحة أهم وأقوى وغاية أنفع وأسمى ، وهذا الميدان الفسيح يغنى عن كل تعليل لا شاهد عليه من التنزيل .

ولو تتبعنا أقوال الفقهاء ولاحظنا الأدلة التى يعتمدونها لاستخراج الحكم ، لرأينا كثيراً منهم يخرج أحيانا عن هذه الجادة القويمة من حيث يقصد السير عليها

والتعبد بسلوكها ، فمنهم من شدد فى اتباعها ، وبالغ فى التضييق إلى حد استلزم إهمال الدليل ومخالفته مع قيامه ووضوحه .

نقل عن مؤمن أنه دعى إلى حضور ختان ، فلم يجب ، وقال : لم يكن يدعى له على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتجد هذا النوع من التشديد عند المتقدمين - فى الغالب - ومنهم من أفرط واندفع مع خياله يعلل ويحلل ، ويبنى المقدمات ، ويستخرج نتائج يزعم أنها شرعية وهى بعيدة عن نصوص الشرع وروحه بعد السماء من الأرض ، ويكثر هذا النوع فى الكتب المؤلفة فى العصور الأخيرة للشيعة والسنة .

فالقدامى يكادون يقفون عند النص الخاص ، حتى كأن لم يكن فى الكتاب والسنة عمومات وقواعد كلية ، ومن المتأخرين من يتجاوز حد المطلقات والعمومات ، ويطلق العنان لخياله وفلسفته .

والطريقة المثلى أن يخرج أولئك من أفقهم الضيق المحدود ، وينظروا نظرة أبعد وأكمل ، وأن يقف هؤلاء عند المصدر الوحيد للدين ، عند القرآن وأحاديث الرسول ، فإن الوقوف عند هذين الأصلين يركز الفقه على أسس علمية صحيحة ثابتة ، ويقضى على الخلاف والارتباك السائدين بين فقهاء المسلمين وأئمة المذاهب .

لقد علق بالدين من جراء العادات والتقاليد والحضارات المختلفة المتباينة أشياء حسبها كثير من الناس جزءاً منه وركناً من أركانه ، وكانت السبب الأكبر فى انقسام المسلمين ، وتعدد مذاهبهم ، وتناحرهم ، وما هى من الدين فى كثير أو قليل .

لقد رأينا رجالا ينعتهم الناس بلقب الفلاسفة والعلماء والأدباء ، يعللون ويفسرون أعمالهم بمنطق العلم والعقل ، مع أن الكثير منهم يستمد تفكيره من نفسه وظروفه ، فمن الجائز — والحالة هذه — أن يستنبط الفقيه أحكاما بهذا الدافع ، وهو يحسب أن رائده منطق العلم والدين .

إن الاسلام قد حذر من الظالم لنفسه ولغيره ، وممن كثرت أوهامه ولم يثبت على رأى ، فألغى شك كثير الشك فى الصلاة والطهارة ، ولم يعول على شهادته إذا شهد بنجاسة شيء فى يده أو يد غيره .

إن الغرض من هذه الاشارة أن يتنبه المصلحون من رجالات الإسلام إلى تنقية الدين من الشوائب وتحريف المبطلين ، وأن يقيسوا الأحكام الشرعية بقياس الكتاب والسنة فقط ، لا بما جاء فى كتاب قديم ، أو بما قاله عالم كبير ، ولا يؤيدوا أحكام الشرع إلا بقول كفء عرف بالعلم والاعتدال فى الذوق ، والسلامة فى التفكير ، ونبذ العصبيات ، ولم يتغلب على عقله ودينه شيء من السياسة والوراثة .

بهذه الوسيلة ، وهى الرجوع إلى دستور الإسلام الخالد نستطيع أن نقرب بين المذاهب الاسلامية فى أصولها وفروعها ، وإذا كان من خلاف فينحصر فى مفاد بعض الآيات ودلالتها ، وفى ثقة الراوى ، وضبطه .

لقد رأينا الشيعة يعولون على نقل من خالف مذهبهم إذا كان أمينا صادقا ، كما رأينا السنة يعتمدون على رواة الشيعة الثقات فى كثير من الموارد .

ومتى كانت أصول الاستنباط ، ومؤهلات الاجتهاد ، وشرائط النقل معلومة متفقاً عليها لدى الجميع ، قل الخلاف والتنازع ، وحصل القرب والوئام فى أكثر المسائل التى أوجبت التفرقة ، وأبعدت شقة الخلاف بين المسلمين ، ولم يبق بين المذاهب سوى فوارق عادية ، وأمور جزئية ، كتفسير لفظ ، أو تقييد مطلق ، أو تخصيص عام ، أو نسخ آية ، أو النظر فى مدى ثقة راوٍ ، أو نحو ذلك ، ومثل هذا لا يؤسس مذاهب مستقلة ، ولا يكوّن طوائف عدّة ؟

أنزل القرآن على سبعة أحرف

للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

المحرر بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

كان من سماحة الإسلام أن أباح للعرب قراءة القرآن بلهجاتهم التى اعتادوها ، وترك الألسن على سجيتها من إمالة وتفخيم وما شابه ذلك من طريقة أداء اللفظ بنغمة تخضع لعادة الإنسان اللغوية حيث لا يمكن الانسلاخ عنها بسهولة فالقبيلة التى اعتادت الأماله يكون من العسير عليها أن تنطق بالفتح ، والقبيلة التى تسهل الهمزة ، يكون من الشاق عليها تكلف التحقيق .

فليس من الممكن التضييق على القبائل العربيه بجعلها تجرى على نهج واحد ، وتسلك طريقاً بعينها مخالفة بذلك عادتها اللغوية ، أولهجتها ، ودين الله يسر لاعسر ، وهذه الإباحة أرشد إليها الحديث المرفوع « اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وفُهمت من أن الرسول قرأ فأمال « يحيى » فلما سئل فى ذلك ، قال : هذه لغة الأخوال بنى سعد .

أما حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فلم يكن مقصوداً به اللهجات التى هى عادة لغوية تتحكم فى عضلات النطق ، وكل توجيه لهذا الحديث على أنه يراد به لهجات القبائل ، إنما هو توجيه خاطىء ، أو هروب خاطىء من معناه الحقيق الذى تظاهره جميع الروايات الصحيحة لهذا الحديث . ومعلوم لكل إنسان أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة ، ولا فى مكان واحد ، بل نزل منجما فى ثلاثة وعشرين عاما بمكة والمدينة وما حولهما ، وكانت الآيات ينزل بها جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتلقاها المؤمنون من فم الرسول ، ويكتبها

من عُرفوا بأنهم كتاب الوحى ، كما يملها عليهم الرسول الكريم . ولم أجد ـ على كثرة ما قرأت ـ مَن ذكر العامَ الذى قيل فيه حديث (١) « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ولو على وجه التقريب ، فرأيت أن أراجع طرقه ورواته من الصحابة ومن ذكروا فيه وظروفه ، فتبين لى ما يأتى :

١ — ليس هناك شك فى أن الحديث كان بعد الهجرة لأن فيه من الصحابة الذين رووه ، أو وقعت معهم الحادثة : أبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأم أيوب وغيرهم ، وهؤلاء أنصار من أهل المدينة .

٢ — إن هذا الحديث كان بعد العام الثامن من الهجرة للأسباب الآتية :

(ا) من رواته أبو هريرة ، وقد أسلم سنة سبع من الهجرة .

(ب) من رواته ابن عباس ، وهو قد ولد قبل الهجرة بثلاثة أعوام ، ولا يشترك فى الرواية ، ولا يهتم بها ، إلا بعد أن يتجاوز العاشرة من عمره على الأقل ، وهو لم يتجاوزها ، إلا بعد سنة سبع من الهجرة .

(ج) ممن ذكروا فى طرق الحديث : زيد بن ثابت ، على أنه أقرأ غيره ، وزيد بن ثابت كانت سنه حين قدم الرسول المدينة ، أحد عشر عاما ، ولا يكون زيد مقرئاً لغيره ، إلا بعد أن يتجاوز حد الحلم . وعلى أقل تقدير تكون سنه ليؤخذ عنه القرآن فى عهد الرسول سبعة عشر ، أو ثمانية عشر عاما .

(د) من رواته عمرو بن العاص ، وقد أسلم سنة ثمان من الهجرة .

(هـ) من رواته من الصحابة ، أبو بكرة نفيع بن الحارث ، وقد أسلم فى حصار الطائف ، وقد كان ذلك فى أواخر شوال ، وأوائل ذى القعدة ، من العام الثامن الهجرى .

(و) وأقوى دليل وأثبته ، أن بعض النزاع فى القراءة كان بين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم ، وقد أسلم هشام يوم فتح مكة ، وكان فتحها فى العام الثامن الهجرى

---

(١) تراجع تراجم الصحابة فى الإصابة وأسد الغابة ، ويراجع الحديث وشروحه ورواياته فى النشر وفتح البارى وتفسير الطبرى والإتقان .

فى أواخر رمضان ، ولم يرجع الرسول إلى المدينة إلا فى ذى الحجة ، فعلى أقل تقدير يكون الحديث فى أوائل العام التاسع الهجرى .

(ز) يضاف إلى هذا أن الحكمة التى قصدها الإسلام من الحديث ، كان وقتها المناسب ، حينما كثر المسلمون كثرة تجعل من العسير الأشراف عليهم جميعا ، ولم يكثروا إلا بعد فتح مكة .

وإذن ، لقد هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتسعت دائرة الإسلام وكثر الأتباع ، وقد مضى عليهم ثلاثة عشر عاما فى مكة ، وثمانية أعوام فى المدينة يقرءون بعاداتهم اللغوية ، فلم يصل إلينا أن بعضهم أنكر على بعض فى القراءة ، أو شك بعضهم فى تلاوة الآخر .

نعم لقد مضى على الإسلام والقرآن فى مكة ثلاثة عشر عاما ، نزلت فيها بضع وثمانون سورة ، ثم ثمانية أعوام فى المدينة نزل فيها كثير من السور ، فما حدث خلاف بينهم مع إسلام كثير ممن لهم لهجات مختلفة من إمالة وتسهيل وغير ذلك ، وما أتانا خبر عن تنازعهم الذى أدى إلى أن يلبب عمر هشام بن حكيم بردائه وهما قرشيان لهجتهما واحدة ، ويذهب به إلى الرسول ليستقرئه ، وإلى أن يدخل الشك فى قلب عمر فيقول الرسول ثلاثا : أبعد شيطانا ، وأن يدخل قلب أبى بن كعب من التكذيب ، ولا إذ كان فى الجاهلية فيضرب الرسول صدره فيتصبب عرقا . . .

* * *

العرب أمة أمية أغلبهم لم يقرأ كتاباً قط ، ومنهم - كما فى الحديث - الشيخ الفانى ، ومنهم الغلام ، ومنهم العجوز الكبير ، وهؤلاء تعجز ذاكرتهم عن الحفظ الوثيق وبخاصة أن القرآن قد كثرت سوره وتعددت آياته ، والرغبة الدينية فى النفوس قوية إذ كانوا يحرصون على تلاوة القرآن ، فلا تنزل آية إلا بادروا إلى استماعها وتلقيها ، ولكن مايكاد يمر عليهم زمن حتى يشتبهوا أن يكون هذا اللفظ أو مرادفه هو المنزل ، وأكثرهم لم يكتبوه لأميتهم ، فيرجعوا إلى الرسول ، وإلى من كتبوه يستعيدون ما تلقوه ، ويتكرر ذلك ، والرسول يشهد ما هم فيه من معاناة ، وما يبذلونه من جهد ، ويعلم - كما قال لهم - أن القرآن أشد انفلاتاً من الإبل

فى عقلها ، ورأى أفراد الأمة بعد فتح مكة قد كثروا . فمن يرعاهم إذا اختلفت ألفاظهم ، ومن يردهم إذا نقصوا أو زادوا؟ والرسول كما قال الله فيه : « بالمؤمنين رءوف رحيم » يسعى إلى التخفيف عن الأمة ، ولا يريد أن يشق عليها ، فقد سأل الله من قبل أن يخفف عنهم الصلوات الخمسين حتى صارت خمس صلوات فى اليوم والليلة . كما يعلم أن الله بشئون عباده عليم خبير ، وفى أحكامه حكيم بصير ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى فى أول أمر المسلمين كل فرد منهم فى الجهاد بعشرة أشخاص « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » الأنفال / ٦٥ .

ثم لما كثروا وهو عالم بضعفهم خفف عنهم فجعل فى القتال كل رجل يعادل اثنين « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله » الأنفال / ٦٦

لهذا لجأ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الله يسأله التخفيف عن امته والرحمة بها « إنى بعثت إلى أمة أميين منهم الغلام والخادم والشيخ الفانى والعجوز الكبير » « فأتاه جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف واحد ، فقال الرسول : أسأل الله معافاته ومغفرته سل الله لهم التخفيف فإنهم لا يطيقون ذلك . فانطلق جبريل ، ثم رجع فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته إنهم لا يطيقون ذلك ، سل الله لهم التخفيف ، فانطلق ثم رجع فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فمن قرأ منها بحرف فهو كما قرأ مالم تختم آية رحمة بعذاب ، أو آية عذاب برحمة .

لقد جاءت رحمة الله وصدر الإذن بأن يُقرأ القرآن بحروف مختلفة ـ والسبعة دليل الكثرة ـ يعلمه جبريل عليه السلام الحروف ، وهى الألفاظ وأداء الجملة ـ كما تؤيد ذلك اللغة ـ على شريطة ألا يتغير المعنى ، ولا يختلف السياق ، فبدأ الرسول يلقن الصحابة ما أنزل الله عليه ، هذا يلقنه الآية بألفاظ ، وذلك يلقنه الآية

بالألفاظ مع اختلاف فى بعضها ، وإن كان المعنى واحداً ، لقنه كلَّ ذلك جبريل بإذن من الله العزيز الحكيم « فأيما واحد أصاب من ذلك حرفا فهو كما قرأ » .

فغدا المسلمون وقد حفظوا ما لقنهم ، فدخل عمر بن الخطاب المسجد فسمع هشام بن حكيم وهو قرشى مثله يقرأ سورة الفرقان بخلاف مالقنه الرسول ، فكاد يساوره فى الصلاة ، فتصبر حتى سلم ، فلما سلم لببه بردائه ، وقال له : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرؤها ، قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : كذبت فوالله إن رسول الله لهو أقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرؤها ، فانطلق يقوده إلى الرسول ، فقال : يارسول الله إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأتنى سورة الفرقان ، فقال الرسول : أرسله يا عمر ، اقرأ يا هشام ، فقرأ عليه القراءة التى سمعه عمر يقرؤها ، فقال الرسول : هكذا أنزلت ، ثم قال الرسول : اقرأ يا عمر فقرأ القراءة التى أقرأه الرسول ، فقال الرسول : هكذا أنزلت ، فوقع فى صدر عمر شىء ، فعرف النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فى وجهه فضرب صدره وقال : ابعد شيطانا ابعد شيطانا ابعد شيطانا ، ثم قال ياعمر إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منها ، إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذابا أو عذابا رحمة .

وإذا فى صلاة أخرى كان أبى بن كعب فى المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرها عليه ثم دخل رجل آخر فقرأ قراءة غير قراءة صاحبه ، وقال كل منهما : إن الرسول أقرأه كذلك ، فدخلوا جميعاً على الرسول ، فقال أبى : يا رسول الله ، إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل هذا فقرأ قراءة غير قراءة صاحبه فأمرهما فقرآ فحسن شأنهما ، فوقع فى نفس أبى من التكذيب ولا إذ كان فى الجاهلية فلما رأى الرسول ما غشيه ضرب فى صدره ففاض عرقا كأنما ينظر إلى الله فرقا ، ثم قال له الرسول يا أبىّ أرسل إلىّ أن أقرأ القرآن على حرف فرددت عليه أن هون على أمتى .. الخ الحديث .

وظل الأمر كذلك ، وعرف كثير منهم السبب فى الاختلاف والحكمة الإلهية ،

ولكن ما زال بعض الصحابة يذهبون إليه يشكون ، فهذا رجل جاء إليه ، فقال : أقرأني عبد الله بن مسعود سورة أقرأنيها زيد بن ثابت ، وأقرنيها أبى بن كعب ـــ وزيد وأبى أنصاريان خزرجيان من بنى النجار ـــ فاختلفت قراءتهم ، فبقراءة أيهم آخذ ؟ فسكت الرسول وعلىّ إلى جنبه ، فقال على : ليقرأ كل إنسان كما علم ، كلٌّ حسن جميل . ثم ما زال بعض الناس يختلف ويشكو فهذان رجلان قد اختلفا فى القراءة ، فقال هذا : أقرأنى النبى . وقال هذا : أقرأنى النبى ، فأتى النبى فأخبر بذلك فتغير وجهه ، ثم قال : اقرءوا كما علمتم ، وقال : إنما أهلك من كان قبلكم اختلافهم على أنبيائهم ، فقام كل رجل وهو لا يقرأ على قراءة صاحبه » .

لقد وضح الرسول مرة وأعاد الإيضاح مرة أخرى ، ومايزال الشك والشكوى فسكت ليجيب غيره بما أجاب به من قبل ، ثم مايزال الشك والشكوى مع ما علم وفهم ، فغضب من اختلافهم عليه بعد أن قال : اقرءوا كما علمتم ، والرسول يغضب إذا رخص فى شىء ، ثم يرى من يريد التشدد والعسر ، فقد سبق أن كان فى غزوة وكان المسلمون صائمين ، فشق عليهم الصيام ، وبلغ الرسول ذلك ، فأفطر وأمر بالإفطار ، فامتثل الأكثرون وأبى أن يفطر بعض المسلمين ، فغضب وقال : « هلك المتنطعون » وقد يعترض إنسان قائلا : لم لا تكون الحوادث السابقة فى أزمان متباعدة ، وأن بعضها مثلا كان عقب الهجرة ؟ وأعتقد أن الجواب على هذا فى غاية السهولة ، فإن أمراً يحدث شكا فى القلوب ويكاد يهز العقائد الراسخة ويكون فى القرآن الكريم الذى يحرص جميع المسلمين على معرفة منزله ، وما جاء به ، وما يدور حوله ، ثم لا يسمع أقرب الناس إلى الرسول وألصقهم به بالمشكلة التى حدثت ، والنزاع الذى نشب ، يكون من العجب بمكان . وكيف لايدرى عمر بما حدث مع أبى ، إن كان ذلك قد حدث فى زمن سابق متباعد ؛ وكيف لايدرى أبىّ بما حدث مع عمر إن كان ذلك قد وقع فى زمن سابق متباعد ؟ وكيف لا يدرى عبد الله بن مسعود بما حدث ، والبلدة وهى المدينة تضم الجميع ؟ وليست من الاتساع بحيث تخفى أحداثها عن ساكنيها ، وليسوا من ذوى التنافر والفرقة بحيث لا تتصل أمورهم ، ولا تتعارف حوادثهم ، وهم فى كل صلاة حول الرسول

وفى كل لحظة يتصلون به ، والأخبار الإلهية ، والأحكام الهامة ، يحرصون على معرفتها ، فما بالك إذا كانت فى القرآن ، وإباحة قراءته بأحرف كثيرة .

لقد كانت الحوادث متقاربة متتابعة ، وأيضاً مفاجئة للجميع ، وقد وضحها الرسول ، وبينها فى حزم وجلاء فى أقرب فرصة وأسرع وقت ، فاستيقنتها أنفسهم وزال عجبهم ، وكفوا بعد ذلك عن اختلافهم وظل كل منهم يقرأ كما علم .

هذا فى الواقع هو ربط الأحاديث والتوفيق بينها ، وتلك مقتضيات ظروفها وملابساتها تؤيدها الروايات المختلفة والطرق المتعددة ، وليس فيها من التعنت أو الفهم الخاطىء شىء ، وقد أشار إلى كثير منها جلة العلماء السابقين من أعلام الإسلام ، وإن كانوا لم يوضحوها كمال التوضيح . فليست المسألة مسألة إمالة وتفخيم وترقيق ، إذ يناقض (١) فهم ذلك لفظ الحديث لأبى بكرة « كقولك هلم وتعال واقبل » وقول أنس بن مالك خادم رسول الله حينما قرأ « وأصوب قيلا » فقال له بعض القوم : يا أبا حمزة إنما هى أقوم ، فقال : أقوم وأصوب وأهدى واحد وقول ابن شهاب ، ولعله الزهرى : بلغنى أن تلك السبعة الأحرف إنما هى فى الأمر الذى يكون واحداً لا يختلف فى حلال ولا حرام ، وقول الطبرى : فقد أوضح نص هذا الخبر أن اختلاف الأحرف السبعة إنما هو اختلاف ألفاظ ، كقولك : هلم وتعال باتفاق المعانى ، لا باختلاف معان موجبة اختلاف أحكام وقول عبد الله بن مسعود : « فإنما هو كقول أحدكم هلم وتعال » .

وهذا كله يبين لنا السر فى بعض الاختلاف اللفظى فى قراءة بعض القراء بالنسبة إلى غيرهم ، لأن السبب فى اختلاف القراءات السبع وغيرها يرجع إلى أن الجهات التى وجهت إليها المصاحف التى أمر بنسخها عثمان كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة ، فلما أمر عثمان بحرق ما عدا تلك المصاحف ، وأن يسيروا على رسم واحد ثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعاً من الصحابة بشرط موافقة الرسم العثمانى ولو احتمالا ، وتركوا ما يخالف الخط امتثالا لأمر

(١) يراجع تفسير الطبرى والإتقان والنشر وفتح البارى .

عثمان الذى وافقه عليه الصحابة لما رأوا فى ذلك من الاحتياط للقرآن ، فمن ثم نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار مع كونهم متمسكين برسم وخط واحد .

ولقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن من الضياع والتغيير ، فوفق إلى ما يأتى :

أولا : أن جبريل كان يدارس الرسول القرآن كل عام مرة ، ودارسه فى العام الذى قبض فيه مرتين ، فكان هذا تعهداً للنصوص .

ثانياً : أن كتاب الوحى كانوا يكتبون نص ماينطقه الرسول ولا يعتمدون على الحفظ فحسب .

ثالثاً : أن أبا بكر حينما وافق على جمع القرآن كان زيد بن ثابت يجلس أمام المسجد وهو يحفظ كتاب الله ، ولكنه يتلقى من الصحابة ما كتبوه على أن يشهد شاهدان أن فلاناً هذا سمع هذه الآية من فم الرسول ، وأن هذا المكتوب هو نفس ما سمعه ، وأنه كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمع كل هذا الذى شهد عليه لاغير ، وحفظ هذا المصحف إلى خلافة عثمان ، فكثر اختلاف الناس فى القراءات ، وكادوا يقتتلون فجمع الناس على مصحف واحد نسخوه من المصحف الذى حفظ ، وكان عند حفصة ، وكان الناسخون هم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث المخزومى ، وقد تركوا ما خالف المصحف الموجود من زيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى مما كان مأذونا فيه توسعة عليهم ، ولم يثبت ثبوتا مستفيضا أنه من القرآن ، ثم أمر عثمان ووافقه المسلمون حرصا على وحدة الأمة وجمعا لكلمتها وخشية أن يدخل فى القرآن ما ليس منه ، فأحرقت جميع المصاحف الأخرى التى لا تتفق مع المصحف الإمام ، وصار ما اتفق عليه الصحابة من الاقتصار كمن اقتصر مما خير فيه على خصلة واحدة ، لأن أمرهم بالقراءة على الأوجه المذكورة لم يكن على سبيل الإيجاب ، بل على سبيل الرخصة والتوسعة والتسهيل ، وإذن فقد أصبحت هذه المصاحف التى أجمع عليها المسلمون هى التى يعول على رسمها فى القراءة ، وأضيف إليها شرط

صحة سندها، وأن توافق العربية ولو بوجه من الوجوه، واعتبر ما عدا ذلك شاذا فما خالف اللغة العربية باطل ، وما خالف الرسم العثمانى مع صحة سنده شاذ تعبداً حيث خالف إجماع الأمة، ومالم يصح سنده شاذ بل باطل حيث لادليل على قرآنيته، والواقع أن ما خالف الرسم العثمانى قد هجره العلماء السابقون فانقطع سنده فأصبح مشكوكا فى كونه من السبعة الأحرف فابتعد بذلك عن أن يكون قرآنا تصح به الصلاة والعبادات. وشرط التعبد بالقرآن أن يكون متصل السند صحيح الرواية، مقطوعا بقرآنيته.

أما الآراء التى تقول إن السبعة الأحرف هى حلال وحرام وترغيب وترهيب أو إنها محكم ومتشابه وقصص وأمثال. أو إنها أمر ونهى . . . الخ . فكلها آراء بالغة الضعف لا تستند على أوهى دليل، ولعل فى هذا تبيانا وتوضيحا سليما مقبولا من كل وجه، والله أعلم بكتابه وهو بكل شىء عليم.

فإذا جمعتْ أى قراءة صحة السند، ووافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا فهى واجبة القبول، سواء أكانت من القراء السبعة المشهورين، أم العشرة، أم غيرهم من الأئمة المقبولين، ولهذا كان الحكم على إطلاقه بأن ما وراء العشرة شاذ لا تصح به الصلاة حكما خاطئا، لأن ما قرءوه لا يعتبر شاذا إلا فيما خالفوا فيه الرسم العثمانى، أما ما وافقوه ولم يخرج عن العربية فهو صحيح تجوز به الصلاة والعبادات، لأنهم فى الواقع أئمة مقبولون تلقى عنهم كثير من القراء وبخاصة السبعة، فالأعمش يعتبر شيخا لحمزة شيخ الكسائى، والحسن من شيوخ أبى عمرو، وكذلك ابن محيصين وقراءة أبى عمرو وصلت إلينا عن طريق اليزيدى، فلو لم يكونوا ثقات لما تلقى عنهم أحد، غاية ما فى الأمر أنهم تلقوا بعض ما خالف الرسم العثمانى واعتمدوه، وهذا كان مأذوناً فيه أولا كما مر، إلا أن المسلمين حافظوا على الرسم العثمانى واعتبروه هو الأساس الذى يسيرون عليه ورفضوا التعبد بما عداه.

والذين انتهى إليهم من الصحابة سند القراء الأربعة عشر، هم: عمر، وعثمان، وعلى، وعبد الله بن عباس، والحسين بن على، وعبد الله بن عياش المخزومى،

وعبد الله بن السائب المخزومى وهم قرشيون . وعبد الله بن مسعود من هذيل ، وأبىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء وهم من الأنصار . وأبو موسى الأشعرى من الأشعريين ، وهى قبيلة يمنية ، وأبو هريرة من الأزد ، ثم أصبحت مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق ، مقراً لشيوخ القراءات فى صدر الإسلام .

فبمكة عبد الله بن كثير ، أحد القراء السبعة ، ومحمد بن محيصين ، من القراء الأربعة عشر . وبالمدينة نافع أحد القراء السبعة ، وأبو جعفر من القراء العشرة . وبالكوفة عاصم بن أبى النجود وحمزة والكسائى ، وهم من القراء السبعة وخلف من العشرة وسليمان الأعمش من الأربعة عشر . وبالبصرة أبو عمرو بن العلاء من السبعة ويعقوب من العشرة والحسن البصرى واليزيدى من الأربعة عشر . وبدمشق عبد الله بن عامر من السبعة .

وقد اشتهر غير هؤلاء جماعة بالأمصار الخمسة السابقة كحميد بن قيس بمكة وشيبة بن نصاح بالمدينة ويحى بن وثاب بالكوفة وعبد الله بن أبى اسحق الحضرمى بالبصرة وعطية بن قيس الكلابى بالشام . إلا إن رواية قراءاتهم كاملة لم تدون كما دونت قراءات الأربعة عشر ، ولا يعرف عنهم إلا ما تناثر فى كتب التفسير والتراجم ، وما كان لهم من أستاذية على بعض القراء المشهورين حيث اختاروا من قراءاتهم لأنفسهم ما وافق شروط الاختيار .

وأول من تتبع وجوه (١) القراءات وتقصى الأنواع الشاذة فيها وبحث عن أسانيدها من صحيح ومصنوع هو هرون بن موسى القارىء المتوفى سنة ١٧٠ هـ إلا أنه لم يؤلف باستقصائه كتابا . ثم جاء أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ فكان أول من استقصاها فى كتاب ، ويقال إنه أحصى منها خمسا وعشرين قراءة مع السبع المشهورة .

أما أول من اختار السبعة المشهورين فى عهدنا هذا ، فهو أبو بكر بن مجاهد ، وذلك فى أواخر القرن الثالث الهجرى ومفتتح الرابع . ولم يكن الكسائى معدودا

(١) النشر .

من السبعة قبل عهد المأمون ، وقد كان من الأئمة قبل ابن مجاهد من أخرج حمزة والكسائى من السبعة ، وأدخل بدلا منهما أبا جعفر ويعقوب ، فلما جاء الإمام الشاطبي اختار من اختارهم ابن مجاهد ، وألف بهم منظومته حرز الأمانى المسماة الشاطبية فاقتصر عليهم المتأخرون تبعاً له اختصاراً واختيارا .

وقديماً كانت ثقافة القراء واسعة ، فلم ينصب أحد نفسه للإقراء بعد استنباط النحو ما لم يكن عالما بالعربية وأوجه الخلاف فيها ، كما أنهم لم يعدوا المرء عالما بالعربية مالم يكن ملما بالكثير من القراءات . وفى بدء الإسلام لم تكن هناك حاجة إلى علم القارىء بالنحو الذى لم تستوف أصوله بعد ، وإن كان له مع ذلك إلمام واسع بمأثور العرب ، فى حين أن اللسان العربى صحيح ، والسليقة لم تفسدها العجمة . فإذا سرنا مع الزمن ، وجدنا كل قارىء إماما فى العربية ، بجانب إمامته فى القراءات .

فهذا أبو عمرو بن العلاء ، كان حجة فى كلام العرب ولغاتها وغريبها . وهذا الكسائى ، جمع إلى إمامته فى القراءة إمامة الكوفيين فى النحو ، والإمام الشاطبي صاحب المنظومة المشهورة فى القراءات ، كان أعلم الناس بالعربية وعلومها ، ومنظومته التى تبلغ ألفاً ومائة وثلاثة وسبعين بيتا ، التى مطلعها .

بدأت ببسم الله فى النظم أولا تبارك رحمانا رحيما وموئلا

أكبر دليل على قدرته العلمية والأدبية ، وبراعته الفائقة لما شملته من جمال النظم ، وحسن السبك ، ودقة الرموز ، وقد ظلت على الرغم مما عورضت به ، وألف على غرارها هى التى يحفظها من يريد تعلم القراءات السبع .

أما ابن مالك صاحب الألفية التى صارت مرجع كل عالم فى النحو فقد كان حجة فى القراءات ، وإماما قدم الشام من الأندلس ، وصار شيخ الإقراء بالمدرسة العادلية بدمشق ، وألف قصيدة داليه فى القراءات السبع ، كما الف منظومة لامية فى القراءات على غرار قصيدة الإمام الشاطبي .

ابن عربي في التفكير الإسلامي

لحضرة الدكتور محمد البهى
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

---

(١) إلى أى مدى تمثل شخصية ابن عربى ثقافة وقته ؟

(ب) وإلى أى حد كان أثر ابن عربى فى التفكير الإسلامى ، وفى الأدب الفنى العربى ، وفى الآداب العربية ؟ .

فى القرن السادس من الهجرة تم للعقلية الإسلامية فى الشرق وفى الغرب ألوان عدة من الثقافة ، دينية وغير دينية ، وضروب مختلفة من التفكير الإنسانى ، عربى وغير عربى : أصبح لديها عدد من المذاهب الفقهية ، وجملة من الآراء الكلامية فى العقيدة ، وكثير من النظريات الفلسفية فى الكون ، فضلا عما تهيأ لها من طرق متنوعة للسلوك العملى وفق « الشريعة » مرة ، وطبقا « للحقيقة » مرة أخرى .

بين هذه الاتجاهات التى قد تكون متضاربة - وكثيراً ما كانت متضاربة ، وما زال أكثرها متضارباً - نشأ فى ١٧ من رمضان سنة ٥٦٠ ﻫ (١١٦٥ م) أبو بكر محمد بن على محي الدين الحاتمى الطائى الأندلسى المشهور بابن عربى وبالشيخ الأكبر بمدينة مرسية . وبعد ثمانية أعوام أقامها فيها وتعلم خلالها شيئاً من القراءة والقواعد رحل إلى إشبيلية . وهناك أخذ قسطاً من نواحى المعرفة فى عصره ؛ فدرس الفقه ، وتفهم القرآن ، كما درس الكلام والفلسفة ، وأقام الصلاة فى صفوف السنيين ، كما انضم إلى حلقات المتصوفة ولبس خرقتهم . ولكنه بالرغم مما جمعه من معارف من شيوخ هذه المدينة أراد المزيد من شيوخ المدن

الأخرى فى الأندلس ، ثم أراد المزيد أيضاً من شيوخ المغرب ، ثم أراد المزيد مرة ثالثة من شيوخ المشرق ، فتنقل فى بلاد الأندلس منذ سنة ٥٩٠ هـ ، ثم رحل عنها إلى تونس حتى كانت سنة ٥٩٨ هـ ، فرحل نهائيا عن المغرب إلى الشرق ، فمر بمصر ثم أقام بمكة وبغداد ، ثم كانت نهاية حياته فى دمشق الشام فى ربيع الثانى سنة ٦٣٨ هـ .

فلم تكن ثقافة ابن عربى إذاً ثقافة محلية ، ولم يكن أفق معرفته محدوداً بلون خاص ، أو ببيئة معينة .

ابن عربى ألف وأكثر من التأليف : ألف فى الفقه ، وفسر القرآن ، وألف فى الفلسفة ، وكتب عن التصوف ، وألف فى السيرة والأدب ، فهو صاحب المقنع فى إيضاح السهل الممتع ، والفتوحات المكية ، وصاحب التفسير المنعوت باسمه ، وصاحب فصوص الحكم ، وصاحب تاج التراجم ، وصاحب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار . وله كذلك ما يزيد على خمسين ومائة كتاب ذكرها بروكلمان ، فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » ج ١ ص ٤٤١ .

وابن عربى كما عرف بالخيال فى الأدب عرف أيضا بالتعمق والدقة فى الفلسفة وعرف أكثر بمزج الخيال الشعرى بالفلسفة ، وهما إن مزجا كان الغموض واللبس وقد كانت صنعة ابن عربى هذه من أسباب عدم وضوحه إن تحدث أو كتب .

* * *

(١) فلسفة ابن عربى ، وإلى أى مدى تدل شخصيته على ثقافة وقته ؟

ليست دراسته الفقه وحدها أو تفسيره لكلام الله ، ولا صنعته فى الأدب هى التى ترينا علاقة ابن عربى بثقافة وقته ، ولا من أجلها نلمح من خلال شخصيته صورة عامة لهذه الثقافة ، بل دراسته الفلسفية هى التى نحكم بسببها على مقدار تمثيله لمعرفة عصره ، وإن كانت هذه المعرفة مزيجا من ألوان متعددة . لأن الفلسفة منذ القرن الخامس الهجرى ، ومنذ احتكاك الغزالى بالفلاسفة لم تعالج من العقلية الإسلامية فى عزلة عن بقية المعارف الأخرى ، بل تناولها الأديب فى أدبه ،

والفقيه فى فقهه ، والمتكلم فى كلامه ، والمفسر فى تفسيره ، وأصبحت بذلك عنصراً هاما أو قليل الأهميـة فى تلك المعارف المختلفة . وها هو ذا ابن عربى فى تفسيره لكتاب الله يقول فى شرح قوله تعالى : « يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (يمحو الله ما يشاء) عن الألواح الجزئيـة التى هى النفوس السماوية من النقوش الثابتة فيها فيعدم عن المواد ويفنى (ويثبت) ما يشاء فيها فيوجد (وعنده أم الكتاب) أى لوح القضاء السابق الذى هو عقل الكل المنتقش بكل ما كان ويكون أزلا وأبدا على الوجه الكلى المنزه عن المحو والإثبات ، فإن الألواح أربعة : لوح القضاء السابق العالى عن المحو والإثبات ، وهو لوح العقل الأول ولوح القدر : أى لوح النفس الناطقة التى يفصل فيها كليات اللوح الأول ويتعلق بأسبابها وهو المسمى باللوح المحفوظ ، ولوح النفوس الجزئية السماوية التى ينتقش فيها كل مافى هذا العالم بشكله وهيئته ومقداره وهو المسمى : بالسماء الدنيا ، وهو بمثابة خيال العالم ، كما أن الأول بمثابة روحه ، والثانى بمثابة قلبه ، ثم لوح الهيولى القابل للصور فى عالم الشهادة (١) ، فهو يحكى نظرية الأفلاطونية الحديث فى نشأة العالم عن موجده : الله فالعقل الفعال فالنفس الكلية فعقل القمر ثم المادة ... الخ .

ابن عربى كان فيلسوفا كبقية الفلاسفة الإسلاميين ، تكلم فى الكون وفى مبدئه وفى صدوره ، وتكلم فى الإنسان وفى غايته من هذه الحياة ، وفى علاقته بموجده ، وفى السبيل إلى تحديد هذه العلاقة ، ولم يخرج فى جوهر ما قال عن الإفلاطونية الحديثة . والإفلاطونية الحديثة مصدر الفلسفة الإشراقية فى الثقافة الإسلامية ، ومصدر كبير للتصوف الإسلامى القائم على الإلهام فى المعرفة ، والفناء فى ذات الله ونبذ متع هذه الحياة .

ولكن ميزة ابن عربى عن الفلاسفة الإسلاميين الآخرين ، أمثال : الكندى ، والفارابى وابن سينا ، أو أمثال الغزالى وابن مسكويه ، فى تصوير هذه الفكرة الفلسفية ، فلم يشأ أن يحكيها أو أن يشرحها بعباراتها الاصطلاحية ، بل عرضها بأسلوب يكثر فيه التمثيل الشعرى :

(١) تفسير ابن عربى ج ١ ص ١٧١ طبع المطبعة الميمنية .

(ا) « فشوق » النفوس الحزينة إلى عالم العقول المجردة الذى تجعله الإفلاطونية الحديثة غاية من غايات الانسان يصوره ابن عربى بصورة شعرية غزلية ، ويبالغ فى شعرية هذا التصوير حتى يلتبس على القارىء فهم ما يرمى إليه ابن عربى ، فضلا عن أن يدرك أن هذا التصوير حكاية لفكرة فلسفية معروفة . ولذا اتهم ابن عربى من خصومه كثيراً بالحب الدنيوى ، وبالإفراط فى الميل إلى المرأة .

فمثلا يقول :

أقبل الأرض إجلالا لوطأتها حبًّا له وأنا منه على حذر
من أجل تقييده فى صورة امرأة عند التجلى فقلت النقص من بصرى

ويصف الذات العلية فى إحدى رسائله فى كتابه « تاج الرسائل » بقوله : « رائعة الجمال ، فائقة الجلال ، وضاحة الجبين ، معتدلة العرنين ، حسنة القد ، أسيلة الخد ، مريضة الأجفان ، عنبرية النشر ، عذبة الكلام » .

(ب) — والإفلاطونية الحديثة ترى وحدة الوجود ، فالله ليس غير العالم ، والعالم ليس غير الله ، وترى مع ذلك وساطة فى الخلق بين الله وبين هذا العالم المشاهد ، وأن هناك عقلا يسبق هذا العالم فى الوجود وله التدبير فيه ، وأن هناك نفساً كلية تستمد قوتها من هذا العقل فى تصوير « المادة » وتشكيلها بأشكال جزئية .

وابن عربى يحكى هذه الفكرة فى صورة خيالية على وجه التمثيل فيقول فى كتاب شجرة الكون (ص ٥) : « إنى نظرت إلى الكون وتكوينه فرأيت الكون كله شجرة ، وأصل نورها من حبة « كن (١) » قد لقحت « كان » الكونية بلقاح حبة « نحن خلقناكم (٢) » فانعقد من ذلك ثمرة « إنا كل شىء خلقناه بقدر (٣) » . فأول ما أنبتت هذه الشجرة ثلاثة أغصان : أخذ غصن ذات اليمين ، وأخذ غصن منها ذات الشمال ، ونبت غصن منها معتدل القامة ، فكان منه السابقون المقربون ... إلى أن يقول ، وجاء من فرعها الأدنى عالم الصورة والمعنى ، فما كان من قشورها

(١) كلمة الله = العقل الفعال . (٢) النفس الكلية . (٣) العالم الجزئى .

الظاهرة ، وستورها البارزة ، فهو عالم الملك ، وما كان من قلوبها الباطنة ، ولباب معانيها الخافية ، فهوعالم الملكوت ، وما كان من الماء الجارى فى شريانات عروقها الذى جعل به نموها وحياتها وسموها، فهو عالم الجبروت الذى هو سر كلمة « كن » ثم أحاط بالشجرة حائط حد لها حدوداً ورسم لها رسوما ، لحدودها الجهات ... وأما رسومها وما فيها من الأفلاك والأجرام والآثار فهى بمنزلة ما يستظل به من الأوراق » .

(ج) وإذا كانت الإفلاطونية الحديثة تحدد غاية الانسان من هذه الحياة بمكافحة شرور المادة والعمل على أن يكون الانسان عقلا محضا فيقترب بذلك من الخير المطلق ، وتحاول تعليل شرية المادة مع أنها صادرة عن خير محض وهو الله — بأمر يتصل بالغرض أو العقيدة ، فابن عربى يصور ذلك بقصة خيالية لها أثرها الشعرى على النفوس وامتلاك أزمتها وإن لم يفز فيها بعنصر منطقى أكثر مما فازت به الإفلاطونية الحديثة نفسها . فهو يتخذ من « العقل الفعال » خليفة لله فى ملكه ، ويتخذ من « النفس » زوجة له ، ثم يفرض من « الهوى » أميراً جميلا ، قوى الشكيمة ، ينازع الخليفة سلطته ، ويجعل لهذا الأمير معيناً هو « الشهوة » ، ثم يعقد صلة غرام بين النفس زوجة الخليفة وبين الهوى منازعه . ونتيجة هذا الغرام حيرة النفس بين أن تبقى على عهدها للعقل أو أن تستمر فى حب هذا الأمير الجميل .

وهكذا الحياة للإنسان ، فى نظر ابن عربى ، صراع بين الخير والشر ، وهكذا كانت النفس الإنسانية أمارة بالسوء مرة ومطمئنة مرة أخرى .

شخصية ابن عربى واضحة وغامضة ؟ واضحة فى تمثيلها ثقافة عصره ، وغامضة فى أنها لم تبرز صريح رأيه ومعتقده ، وأغلب الظن أن هذا الغموض مرجعه شغف ابن عربى باستخدام « القصة » فى الفلسفة ، والخيال فى التعبير عن الفكر ، وإن كان هو يعلله بقوله : « ليس فى مستطاع أهل المعرفة إيصال شعورهم إلى غيرهم ، وغاية ما فى هذا المستطاع هو الرمز عن تلك الظواهر لأولئك الذين أخذوا فى ممارستها » .

(٢) الى أى حد كان أثر ابن عربى فى التفكير الاسلامى ، وفى الأدب الفنى العربى ، وفى الآداب العربية ؟

ابن عربى فى فلسفته لم يأت بجديد ، فلم يضم فكرة إلى فكرة سابقة ، كما أنه لم ييسر هذه الفِكَر للعقلية الإسلامية ، بل بالعكس كان لأسلوبه الخاص فى معالجتها أثر فى تعقيدها ، وبالتالى فى تعقيد مرماه ، وأخيراً فى صعوبة الحكم على ميله الدينى ونزعته الاعتقادية .

ولكنه من ناحية أخرى أضاف إلى الأدب الفنى موضوعا لم يطرق من قبل وهو موضوع « القصة » فى الفلسفة . فهو يستخدم الخيال الشعرى فى معالجة موضوعات فلسفية كانت نتاج الفكر البشرى فى عدة قرون . ثم مع إضافته هذا النوع الجديد إلى الأدب الفنى لم يكن مقصراً فيه ، بل كان متقناً مجيداً فى كثير من الأحيان . فيقول مثلا فى التعبير عن فكرة الإفلاطونية الحديثة فى « شوق » النفس إلى الله ورغبتها فى الاتحاد به عن طريق التفكير فيه :

لما بدا السر فى فؤادى	فنى وجودى وغاب نجمى
وحـــال قلبى لسر ربى	وغبت عن رسم حس جسمى
وجئت منـــه به إليـــه	فى مركب من سنى عزمى
نشرت فيه قلاع فكرى	فى لجة من خفى علمى
هبت عليه رياح شوقى	فمر فى البحر مر سهم
لجزت بحر الدنو حتى	أبصرت جهراً من لا أسمى

هو مع الابتكار فى الانتاج الفلسفى قد غذى الآداب العربية بمجموعة من المؤلفات تشهد له بكثرة الاطلاع ، والقدرة على الاستيعاب .

* * *

ابن عربى عنوان واضح لثقافة عصره ، وأديب فى فلسفته ، ومكثر فى تأليفه ؟

التقريب بين المذاهب الإسلامية ودراسة علم التوحيد

لفضيلة الأستاذ الجليل

الشيخ عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

خلاصة ما سبق : تحدث الكاتب فى مقاله الأول عن التقريب وغايته السامية ، وأنه لا يمكن الوصول إلى هذه الغاية مادامت دراسة التوحيد باقية على حالها ، وأن علم الكلام نشأ فى جو من الخصام ، فكانت أول مسألة أثيرت فيه هى مسألة مرتكب الكبيرة ، أثارها الخوارج والسيوف تلمع فى أيديهم ، ثم وقع الجدال فيها بين الحسن البصرى وواصل بن عطاء ، ثم جاءت مسألة الكلام وخلق القرآن ، ثم ظهر أبو الحسن الأشعرى ، وكان متصلا بالمعتزلة ، ثم انقلب عليهم ، وظلت الخصومة بينه وبين غيره ، ثم بين أتباعه وغيرهم من الفرق الأخرى إلى وقتنا الحاضر دون أن تهدأ نيرانها .

لم يقتصر الأمر فى علم التوحيد على ما سبق من الخصومات التى قامت بين أصحابه من مبدئه إلى منتهاه ، بل تجاوز الأمر هذا إلى ما هو أخطر منه ، فعمل أصحابه على أن يقيموا الخصومة فيما بينهم على أساس من الدين ، لتكون خصومة مشروعة لا إثم فيها ، بل يثاب أصحابها عليها ، وكان هذا بأن ضيقوا فى أمر هذا العلم ، وجعلوه لايتسع لأكثر من مذهب واحد ، يكون صاحبه هو الطائع الناجى

ويكون من عداه هو العاصى الهالك ، وبنوا هذا على حديث اشتهر فيما بينهم ، من غير أن يبحثوا فى صحته من جهة سنده ، ومن جهة ملاءمته لطبيعة الإسلام ، وانسجامه مع أصوله المعلومة منه بالضرورة .

وهذا أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى صاحب كتاب (الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم) يجعل الباب الأول من كتابه فى بيان ذلك الحديث المأثور فى افتراق الأمة ، وبيان الفرقة الناجية من فرقها ، فرواه من ثلاث طرق ، ثم رتب عليه ما أراده من وضعه فى الباب الأول من كتابه ، وهذه طرقه الثلاث فى روايته :

١ — أخبرنا أبو سهل بشر بن أحمد بن بشار الاسفرايينى ، قال : أخبرنا عبد الله بن ناجية ، قال : حدثنا وهب بن بقية ، عن خالد بن عبد الله ، عن محمد ابن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة .

٢ — أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن على بن زياد السندى العدل الثقة ، قال : أخبرنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار ، قال : حدثنا الهيثم بن خارجة ، قال : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل ، تفرق بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة ، تزيد عليهم ملة ، كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، قالوا : يارسول الله ، وما الملة التى تنقلب ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى .

٣ — أخبرنا القاضى أبو محمد عبد الله بن عمر المالكى ، قال : حدثنا أبى ، عن أبيه ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا الأوزاعى ، قال : حدثنا قتادة ، عن أنس ، عن النبى عليه السلام ، قال : إن بنى إسرائيل افترقت على إحدى

وسبعين فرقة ، وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة .

ثم ذكر بعد رواية هذه الطرق أن للحديث الوارد فى افتراق الأمة أسانيد كثيرة ، وقد رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة ، كأنس بن مالك وأبى هريرة ، وأبى الدرداء ، وجابر ، وأبى سعيد الخدرى ، وأبى بن كعب ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، وأبى أمامة ، ووائلة بن الأسقع .. وغيرهم .

ثم ذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يريد من الفرق المذمومة التى هى من أهل النار فرق الفقهاء الذين اختلفوا فى فروع الفقه ، مع اتفاقهم على أصول الدين ، لأن المسلمين فيما اختلفوا فيه من فروع الحلال والحرام على قولين :

أحدهما : قول من يرى تصويب المجتهدين كلهم فى فروع الفقه ، وفرق الفقه كلها عندهم مصيبون .

والثانى : قول من يرى فى كل فرع تصويب واحد من المختلفين فيه ، وتخطئة الباقين من غير تضليل منه للمخطىء فيه .

فلا يريد النبى صلى الله عليه وسلم عنده بالفرق المذمومة ، إلا فرق أصحاب الأهواء الضالة الذين خالفوا الفرقة الناجية فى أبواب العدل والتوحيد ، أو فى الوعد والوعيد ، أو فى بابى القدر والاستطاعة ، أو فى تقدير الخير والشر ، إلى غير هذا من الأبواب التى اتفق فيها على أصل واحد أهل السنة والجماعة من فريقى أصحاب الرأى وأصحاب الحديث ، وخالفهم فيها أهل الأهواء الضالة من القدرية وغيرهم من فرق الضلال ، وبهذا صح عنده تأويل ذلك الحديث إلى هذا النوع من الاختلاف ، دون الأنواع التى اختلفت فيها أئمة الفقه من فروع الأحكام فى أبواب الحلال والحرام ، وليس فيما بينهم تكفير ولا تضليل فيما اختلفوا فيه من أحكام الفروع .

ولكن ما يراه أبو منصور البغدادى من صحة هذا الحديث غير مسلم له ، فقد قال ابن حزم فى كتابه — الفصل — : ذكروا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، أن القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة ، وحديثاً آخر : تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها فى النار حاشا واحدة . وهذان حديثان لا يصحان أصلا من طريق الإسناد ، وما كان هكذا فليس بحجة عند من يقول بخبر الواحد ، فكيف من لا يقول به .

وقال ابن الوزير فى كتاب – العواصم والقواصم – إياك أن تغتر بزيادة « كلها فى النار إلا واحدة » فإنها زيادة فاسدة ، ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة .

ومما طعن به فى سند ذلك الحديث أن فيه محمد بن عمرو الليثى ، وهو ممن أخرج له الشيخان فى المتابعات فقط ، ومثله لا يحتج بحديثه إذا لم يتابع ، وقد قال فيه الذهبي : محمد بن عمرو لم يحتج به منفردا ، ولكن مقروناً بغيره ، وكذلك فى بعض سنده عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم ، وفى بعضه كثير بن عبد الله ، وفى بعضه عباد بن يوسف ، وراشد بن سعد ، وفى بعضه الوليد بن مسلم ، وفى بعضه مجاهيل كما يظهر من كتب الحديث .

على أن ذلك الحديث قد أخرجه صاحب مسند الفردوس بزيادة تناقض الزيادة السابقة « كلها فى النار إلا واحدة » ، فقال : أخبرنا أبو ثابت بن منصور ، أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسين الأبهرى ، حدثنا صالح بن أحمد الحافظ ، حدثنا ابراهيم بن محمد بن يعقوب ، حدثنا الحسن بن زولاق ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا يحي بن يمان ، عن ياسين الزيات ، عن سعد بن سعيد أخي يحي ، عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة ، كلها فى الجنة إلا الزنادقة .

وقد قال الشمس محمد بن أحمد البشارى المقدسى فى كتاب - أحسن التقاسيم - بعد أن عدد الفرق وذكر حديث « اثنتان وسبعون فى الجنة وواحدة فى النار » ، وحديث « اثنتان وسبعون فى النار وواحدة ناجية » : هذا أشهر ، والأول أصح إسنادا .

ولكن بعض من ينتصر لزيادة «كلها فى النار إلا واحدة» رأى أن يوفق بين الحديثين، حتى لا تبطل هذه الزيادة بالمعارضة بينهما، فحمل أحدهما على الابتداء، والآخر على الانتهاء، يعنى أن هذه الفرق تدخل النار كما يدخلها سائر العصاة، ثم تخرج منها وتدخل الجنة كما يدخلونها بعد تعذيبهم على عصيانهم، وبهذا يصح أن يقال فى هذه الفرق «كلها فى الجنة إلا الزنادقة» لأنها تدخل الجنة فى نهاية أمرها، أما الزنادقة فيخلدون فى النار، لأنهم يخفون الكفر ويظهرون الإسلام، وهذا التوفيق إنما يقبل بعد صحة الحديث الذى وردت فيه تلك الزيادة «كلها فى النار إلا واحدة» فإذا لم يكن صحيحاً كما سبق لم يقبل حمل الآخر عليه، لأنه لا يقبل حمل صحيح على غير صحيح.

ثم إن تفرقة أبى منصور البغدادى بين المختلفين فى الأصول والمختلفين فى الفروع غير مقبولة، لأنه بنى هذه التفرقة على أن ما اختلف فيه أئمة الفقه ليس فيه بينهم تكفير أو تضليل، ومثل هذا لا يصح أن يبنى عليه تفرقة بين الفريقين لأن تكفير بعض المختلفين فى الأصول لبعض، أو تضليل بعضهم لبعض ليس فى شىء من الصواب، وكان الواجب أن يقتصر ما بينهم على الإقناع بالدليل، من غير أن يطعن أحدهم فى الآخر بكفر أو تضليل، وهذا هو ما تسعى إليه الآن جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، فإذا وصلت إلى هذا — وستصل إليه إن شاء الله تعالى — جرى الخلاف بين المختلفين فى الأصول كما يجرى بين المختلفين فى الفروع، فلا يكون بينهم طعن فى العقائد، ولا يكون هناك وجه لتلك التفرقة التى ذهب إليها أبو منصور البغدادى، وقامت على أساسها دراسة علم التوحيد، كما قامت على أساس ذلك الحديث السابق، وكلاهما غير صحيح ؟

« يتبع »

حاجتنا إلى تربية روحية

للدكتور ابراهيم مدكور

عضو مجلس الشيوخ المصرى وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

لا أظن أن الإنسانية بليت فى تاريخها الطويل ببلبلة واضطراب شبيهين بما عانت وتعانى فى نصف القرن الحاضر ، فهى فى تنافس دائم ، وتطاحن مستمر . ولا أدل على ذلك من أنها رُوِّعت بحربين عالميتين فيما لا يتجاوز خمساً وعشرين سنة ، وتخشى من يوم لآخر أن تساق إلى الثالثة .

ولهذا ؛ ولا شك ؛ ظروف وملابسات شتى ، سياسية واقتصادية واجتماعية ، ولا نود أن ندخل فى تفاصيلها ؛ إلا أنى أعتقد أن من بينها أمراً نكاد نغفله ولا نقدره قدره ، وأعنى به نقص المثل العليا والقيم الروحية ، أو حيدتها ، وعدم الاعتداد بها ؟ فليس لها فى صلات الأفراد والجماعات ماينبغى من وزن وتقدير ، ونستطيع أن نقرر أن هناك أزمة روحية وخلقية عامة قد انتابت الأفراد والشعوب .

أما دعوات الإخاء والمساواة ، والاتحاد والتضامن ، والسلام والأمن الجماعى — برغم قوتها وتعددها — فإنه لا يبدو عليها أنها صادقة كل الصدق ، ولا منبعثة تماماً من القلب ؛ ولذا لا نرى لها صدى واضحا ، ولا تلبث أن تذهب مع الريح . وبالأمس البعيد بنينا على عصبة الأمم آمالا كبارا ، وبعد قليل انهارت . ولا أظن أن ثقتنا وآمالنا اليوم فى هيئة الأمم الحاضرة ، تعادل ما كنا نحلم به ونطمح إليه

سنة ١٩٤٥ ، لخمس سنوات فقط ، كانت كفيلة بإضعاف الثقة والقضاء على كثير من التمنيات والآمال .

* * *

وفى الواقع ان العالم تجتاحه موجة مادية جامحة ، وتكاد تطغى فيه فكرة الكم على فكرة الكيف ، وكأنما يراد بالحياة كلها أن تصبح ضرباً من الآلية التى لا تدع مجالا يذكر للتدبر والاعتبار . والطابع الحضارى الذى نجدُّ فى محاكاته ، ونتسابق عليه ؛ معنيٌّ كل العناية بمظاهر الحس واللمس ، إنْ فى المأكل والمشرب ، أو الملبس والمسكن ؛ فالأطعمة فى تهيئتها وعرضها تغذى شهوات لا حد لها ، والأشربة فى ألوانها وأصنافها باب فسيح من أبواب الترفيه ، و « المودات » الموسمية لملابس الرجال والنساء تنحط فيها إلى مدى بعيد متعة العين والجسم ، والعمارات المكتظة بالسكان لا تتيح كثيراً من فرص الهدوء والسكينة .

والمرء فى أطوار حياته ، وبيئاته المختلفة منغمس ـ قصد أو لم يقصد ـ فى هذه المادية والجسمية ، فالطفل فى أسرته لا ينعم بذلك الجو الروحى الذى كان ينعم به الأطفال قديماً ، وأمره فى الغالب موكول إلى مربيات قل أن يكون للاعتبارات الروحية وزن كبير فى نظرهن ، وإن شغل به أبواه أحيانا ، فما ذاك إلا لتنميق زيه أو التفكه معه ، وهو فى مدرسته قطعة من جهاز كبير يراد به أن يتحرك حركة إجماعية متناسقة ، دون أن يكون لكل جزء من أجزاء هذا الجهاز حساب خاص .

والشاب فى معهده أو كليته حبله على غاربه ، لا يحتمل أية رقابة ، ولا يستطيب أى إشراف ، وإن حظى بشىء من ذلك فإنما ينصب على تربية جسمه وعقله ، فله فى الرياضات البدنية نشاط ملحوظ ، وهو مضطر لأن يحصّل من الحقائق والمعلومات ما يكفل له النجاح ، ويمكنه من نيل الألقاب العلمية ، أما روحه فى إحساساتها ووجدانها ، وعقده النفسية والكشف عنها ، وثوراته الباطنية وما يترتب عليها ، فكل تلك أمور متروكة بدون تربية أو تعهد .

ولا يختلف الرجل فى حياته العادية عن ذلك كثيراً ، فهو فى غمرتها لا يجد متسعاً لمحاسبة نفس أو تأنيب ضمير ، وهو فى انصرافه عن العبادات والطقوس الدينية لا ينعم بسماع موعظة ، ولا يتذوق نصيحة ، وقد كانت الجمعيات الصوفية والأخلاقية تتدارك بعض هذا النقص ، ولكنها بدورها فى تلاش وانقراض ، ولم تدع لها الأندية الرياضية والجماعات السياسية مجالا فسيحاً .

* * *

هذا هو الموقف فى خطوطه الرئيسية ، ويبدو منها فى وضوح أن الجانب الروحى من الإنسان أضحى فى حاجة ماسة إلى تعهد وغذاء ، وأخشى ما أخشاه أنه لا يحظى من القادة والمصلحين بما هو أهل له من عناية ، وإذا تتبعنا المذاهب والدعوات الجديدة التى قامت فى نصف القرن الماضى ، وجدناها - إلا قليلا - تنزع منزعا مادياً ، فمن كارل ماركس إلى لينين ، ومن موسلينى إلى هتلر ، إنما تردد نغمة الكفاح والنضال والفوز والغلبة . أما المثل العليا والقيم الروحية فلا يكاد يقام لها وزن ولا يحسب لها حساب .

* * *

وسأكتفى اليوم بأن أرسل هنا هذه الصيحة ، وأشخص الداء آملا أن تتاح فرص أخرى لتتبع شتى أعراضه ، ورسم وسائل العلاج ؟

ناس السودان

للدكتور محمد محمود الصياد

أستاذ الجغرافيا المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

فى النصف الجنوبى من حوض النيل ، وفى أرض تبلغ مساحتها نحو مليون ميل مربع يعيش الشعب السودانى الذى يبلغ سبعة الملايين عدداً أو يزيد . وهو تقدير ليس لدينا ما يدفع على الجزم به ، فلم يشهد السودان حتى الآن تعداداً دقيقاً كاملا كتلك التعدادات التى ألفناها فى مصر والتى تجرى كل عشر سنوات .

ولعل أول تعداد يمكن الاعتماد على نتائجه إلى حد ما هو ذلك الذى أجرى فى سنة ١٩٤٤ ولكنه لم يكن تعداداً شاملا ، بل اقتصر على المدن الكبرى ، والمراكز الحضرية كالخرطوم وأم درمان والعطبرة . ويقوم مفتشو المراكز ومديرو المديريات بإعطاء تقديرات سنوية للسكان فى مناطقهم ، ويتبعون فى ذلك طرقا تختلف من إقليم إلى إقليم ومن عام إلى عام مما يقلل من قيمة هذه التقديرات فى إصدار أحكام عامة عن البلاد ، ولذلك ليس غريباً أن يصل عدد السكان فى سنة ١٩٤٨ إلى أكثر من سبعة ملايين ونصف مليون من الأنفس ، على حين أنه لم يزد قليلا على ستة ملايين فى سنة ١٩٤٢ ، وليس مرجع هذه الزيادة بطبيعة الحال إلى نمو عدد السكان ، وإنما مردها إلى الاختلافات فى التقديرات لعدم وجود أساس ثابت تبنى عليه .

وكل سكان السودان تقريباً من أبنائه ، وليس فيهم من الأجانب إلا نحو خمسة وعشرين ألفاً معظمهم من الهنود واليمنيين والأحباش ، وقليل منهم من الأوربيين ، هذا بالإضافة إلى عناصر أخرى إفريقية هي عناصر « الفلاّتة » و« البرقو » الذين يفدون إلى السودان من الغرب : من نيجريا وإفريقية الاستوائية الفرنسية ، ولا رقيب عليهم ولا ضابط لعددهم ، فسياسة حكومة السودان أن تشجع هذه العناصر لا على الدخول إلى البلاد فحسب بل على الاستقرار فيها .

تمر هذه العناصر بالسودان فى طريقها إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج سعياً على الأقدام ، أو على ظهور الدواب ، وتنتقل فى قوافل صغيرة تتكون فى معظمها من عائلة أو عائلتين ، ولا يهمها الوقت بقدر ما يهمها الحصول على القوت ، وماذا عليها لو قطعت الرحلة إلى مكة فى سنوات ؟! وما ضرها لو عادت منها إلى أوطانها فى سنوات أخرى ؟! ويجد هؤلاء الحجاج فى السودان عملا يدر عليهم المال اللازم لرحلتهم ، وما أكثر الأعمال فى السودان خصوصا فى أرض الجزيرة ، حيث يزرع القطن وهو محصول يتطلب من الأيدى العاملة المدربة العدد الوفير ، وأبناء الغرب فيما يقال ذوو مهارة فى الزراعة ، وذوو جلد على القيام بعملياتها .

ويجد « الغرباء » ـ وهكذا يسمون فى السودان ـ تشجيعاً من الحكومة وعطفا فيقيمون ويستقرون ، وكثير منهم يعزف عن العودة إلى بلده ، ويتخذ من السودان وطنا ثانيا ، ولكن السودانى الأصيل يأبى أن يختلط بهذا « الفلاّتى » المتوطن ، فيتركه يحيا منعزلا فى « حلته » محتفظاً بلغته وعاداته ، وهيهات أن يسمح له بالاشتراك فى مناسباته الاجتماعية ، وهيهات أن ينظر إليه كمواطن . بل إنه ليخشى مزاحمته ويود لو عملت الحكومة على إقامة سد أمام هذه الهجرات . وقد يكون السودانى على حق فيما ذهب إليه ، ففتح الباب على مصراعيه بهذا الشكل يؤدى إلى قيام مجتمع غير متماسك يحوى عناصر متباينة لا يمكن أن تحيا فى سلام دائم .

وهكذا نشأت فى أراضى الجزيرة قرى الفلاتة المنعزلة ، يحكمها مشايخ منهم وسلاطين . وقد زرت واحدة منها بالقرب من « سنار » هى حلة « مايرنو » ،

ويحكمها سلطان منهم هو الشيخ محمد الطاهر ، الذى وفد هو وجماعته إلى الجزيرة عندما بدأت مشروعات الزراعة فى أراضيها منذ ربع قرن ، حيث استقر هو وأتباعه ، ومع أن القوم يتكلمون العربية ، إلا أن لغتهم الأصلية ما زالت هى لغة التخاطب الأولى . ولقد لقينا السلطان بحفاوة ، وتحدث معنا حديثاً شائقاً متشعبا ، ذكر فيه مصر وأفضالها ، والأزهر المعمور ورسالته ؛ وود لو بعثت مصر إلى قومه من يفقههم فى الدين ، ويبصرهم بأحكامه ، فالفلاتة شعب متدين ، ولكن إلمامه بأمور الدين سطحى لا عمق فيه .

أما فيما عدا هؤلاء وهؤلاء ، فسكان السودان جميعاً من أبنائه الخلص ، ولدوا فيه ، وارتبطوا بأراضيه . وهم قليلو العدد جداً بالنسبة إلى تلك المساحة الواسعة ، التى ينزلون فيها . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى الحالة الاقتصادية التى عليها السودان الآن .

فليست الثروة المعدنية بالمستغلة ، بل ولا بالمعروفة ؛ ولم تصل الزراعة — وإن تكن قد تقدمت فى السنوات الأخيرة — إلى ما يرجى لها من مكانة ، وما زالت لحرفة المرعى السيادة بين الحرف التى يأخذ بأسبابها السودانيون ، ويزاولونها فى ظروف تحول دون تقدمها ورقيها . ولا نستطيع أن نخلى المناخ والأحوال الجوية من المسئولية فى هذا الشأن ، فهى التى حتمت على كثير من السودانيين أن يحيوا حياة رحلة وانتقال ، سعياً وراء الماء ، وانتجاعاً لمواطن الكلأ .. وهى التى حددت أيضاً أنواع الحرف الإضافية التى يشتغل بها القوم بجانب الرعى ، وهى حرف لها أهميتها الخاصة ، إذ أنها العامل المرجح بين العسر واليسر فى كثير من جهات السودان .

ويمكن أن نقسم قبائل السودان بصفة عامة إلى ثلاث مجموعات ، على أساس الحرف التى يشتغلون بها : فهناك رعاة الإبل ، وهناك رعاة البقر ، ثم هناك الزراع المستقرون . وتمتد ديار رعاة الإبل فى شرق النيل وفى غربه ، من حدود مصر الجنوبية حتى خط عرض الأبيض ، ولا يمكن للجمل أن يتعدى حدود مملكته

الواسعة هذه نحو الجنوب ، إذ ينتشر الذباب الذى يحمل مرض « الغَفار » وهو من أخطر الأمراض التى تتعرض لها الجمال . كما أنه لا يستطيع أن يتجاوز فى حركاته دائرة العرض الثامنة عشرة فى غرب النيل ، حيث يسود الجفاف ، وتضن الأرض ، فلا تخرج من الحشائش ما يكفيه . وإن يكن هو الحيوان القنوع . ولكنه فى الجانب الشرقى من النيل يستطيع أن يمد نفوده ، وأن يتصل بشقيقه فى صحراء مصر الشرقية ، إذ كانت الطبيعة فى هذه الجهات أوفر كرما وأعظم سخاء ، فاستطاعت مرتفعات البحر الأحمر أن تجبر السماء على أن تسقط شيئاً من المطر بين الحين والحين . وهو مطر وإن يكن قليلا فى كميته ، إلا أنه عظيم فى قيمته فقد جعل هذه المنطقة من أراضى السودان شبيهة بالصحراء بدلا من أن تكون صحراء حقة كما فى الغرب .

ويختلف الجمل فى غرب النيل عنه فى شرقه ، فهو فى المنطقة الأولى من النوع الثقيل ، الذى يربى للحمه ولبنه ووبره ، وهو فى الأخرى من النوع الخفيف ، يقتنى كدابة حمل وركوب .

ورعاة الإبل فى غرب النيل من العرب الرحل ، وأوفرُ قبائلهم عدداً وأعظمها ثروة ، قبائل الكبابيش ، أما رعاة الشرق ، فمن البجة الذين — وإن كانوا يحيون نفس الحياة ، ويسيرون على نفس النظام - إلا أنهم يختلفون فى أصولهم الجنسية ، فليسوا عرباً ساميين كقبائل الغرب ، بل عناصر تغلب عليها الدماء الحامية ، وما زالت لهم لغتهم الأصلية المعروفة « بالتبداوية » بجانب اللغة العربية ، التى ينطقون بها فى لهجة خاصة .

أما أرض البقر فتمتد إلى الجنوب من دائرة العرض الثالثة عشرة . وللبقرة هناك مكان مرموق ، فهى وحدها مظهر الغنى والجاه ، وباعدادها يتفاخر القوم ويتباهون ؛ بل وبرماد روثها فى بعض الجهات يتطهرون ويتزينون ، وهى أداة التبادل والتعامل ، تدفع بها المهور عند الزواج ، وتقدم منها الدية فى القتل ، وتقرب منها إلى الآلهة القرابين ، وليس لفتى جنوب السودان من أمل إلا أن

يكون صاحب أبقار ، وليس للرجل من هدف إلا أن ينمى عدد مواشيه . وبعض القبائل تحتفظ بقرون ما ينفق من الماشية دليلا على الجاه التليد والغنى الموروث .

ورعاة البقر يحيون كإخوانهم رعاة الإبل فى رحلة وانتقال ، وقليل منهم المستقرون ، وحتى فى الجنوب ، حيث يغزر المطر ، وتتكاثف الحشائش ، تقوم الحياة على أساس الحركة والتنقل ، فالفيضانات السنوية تضطر السكان إلى ترك منازلهم فى السهول المنخفضة الكثيرة المستنقعات إلى منازل أخرى مؤقتة فى التلال والأراضى المرتفعة ، ومع أن القوم يتشابهون فى حرفتهم إلا أنهم يختلفون فى جنسهم ؛ فمنهم الجماعات العربية التى تنزل فى جنوب دارفور وكردفان ، ومن أشهر قبائلهم البقارة ، ويحيون فى نظام ليس بدويا خالصا ، ولكنه شبيه بالبدوى إلى حد بعيد .. ومنهم الجماعات النيلية وينزلون فى أعالى النيل ، ويتكونون من شعوب وقبائل تنتمى إلى أصول واحدة وتتشابه فى خلقتها بصفة عامة . ولكنها تتكلم بألسنة مختلفة ولكل منها عاداته الخاصة وتقاليده المتوارثة . وتختلف طرق حياتهم من إقليم إلى إقليم ، ولكن يوحد بينهم جميعا أن هذه الحياة مهماً اختلفت ألوانها ، وتعددت مظاهرها ، إنما تتركز حول البقرة والعناية بشئونها ، وهم يمارسون شيئاً من الزراعة ، ولكن المرعى يمثل العمود الفقرى فى حياتهم الاقتصادية .

ومن شعوب هذه المجموعة الشُّلك ، ويعيشون على الجانب الغربى للنيل الأبيض وفى أسفل السوباط ، وقد أخذوا يستقرون بالتدريج ، وبدأ اعتمادهم على الماشية يقل عن غيرهم من الشعوب النيلية ، وإن تكن قطعانهم لا تزال موفورة العدد .. ومن شعوبها الدِّنكا والنُّوير ، ويحتلون المناطق المنبسطة فى الأحواض الدنيا لبحر الغزال ، وبحر الجبل ، ونهر السوباط ، ويحيون حياة بدائية بسيطة قوامها الماشية التى يحتفظون بها لذاتها وقلما يفرطون فيها بالبيع أو الذبح .

أما الزراع المستقرون فى السودان ، فأراضيهم على جانبى النيل فى واديه الضيق شمال الخرطوم ، وفى هضاب كردفان ودارفور ، وفى أراضى الجزيرة الجيدة التربة الموفورة الماء ، وليس الوادى فى شمال الخرطوم سوى شريط ضيق من

الأراضى الخصبة كثيراً ما تقطعها حافة الهضبة فتقسمها إلى أحواض مقفلة منعزلة ويسكن هذا الشريط جماعات مختلفة من النوبيين والعرب ، وتنتشر العناصر الأولى فى مركزى حلفا ودنقلة ، ولهم « رطانهم » الخاص بجانب لغتهم العربية ، ومع ضعف الروح القبلية عند هذه العناصر الشمالية إلا أنهم وبخاصة النوبيون منهم شديدو التعصب لأبناء بلدهم ، عظيمو الحب للأرض التى أنجبتهم ، ويتمنون دائماً أن يوسد رفاتهم فى أول ما مست جلودهم من تراب .

وفى هضاب كردفان ودارفور تنزل قبائل النوبا والفور والبرتى وغيرها من القبائل التى اتخذت من الزراعة حرفة ، فارتبطوا بالأرض واستقروا ، ويشبههم فى ذلك إلى حد كبير جماعات النيام نيام الساكنين فى المرتفعات الفاصلة بين حوضى بحر الغزال والكنغو ، ولكن أهم العناصر المستقرة فى السودان هى بلا شك العناصر الساكنة فى إقليم الجزيرة قلب السودان النابض ومركز حياته الاقتصادية فعلى أكتاف هذه العناصر كانت نهضة السودان الاقتصادية الحديثة ، وعلى مجهودها يتوقف مستقبل ذلك الشطر من وادى النيل .

* * *

هذه نظرة سريعة وتعريف موجز بناس السودان وكيف يعيشون ، ولنا إلى الموضوع عودة نفصل فيها الحديث تفصيلا إن شاء الله تعالى ؟

مؤسس الدولة الهاشمية والمذهب الزيدى باليمن :

الإمام الهادى إلى الحق
يحيى بن الحسين

أرسل إلينا حضرة القاضى عبد الله الجرافى الصنعانى ، مندوب وزارة المعارف اليمنية بالقاهرة بعض المعلومات التاريخية عن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ، فأحلناها إلى أحد محررى المجلة لاستيفائها وإعدادها للنشر ، فكتب ما يأتى :

أمر جذير بالنظر ، حقيق بالاعتبار ، أحب أن ألفت إليه أنظار الباحثين فى تاريخ المذهب الزيدى باليمن ، والدولة الهاشمية القائمة بالحكم فيه ، ذلك هو التآخى بين الناحية السياسية النظامية ، والناحية العلمية الدينية ، فكل من اتصل باليمن ، أو عرف شئونه عن كثب ، تبين له أن به قوتين تمشيان جنباً إلى جنب ، متآزرتين على إسعاد أهله ، وإعلاء شأنه ، والسير به قدماً فى طريق الرقى والتقدم على بصيرة وتثبت : قوة الدين ، وقوة السلطان .

لاشك أن للسلطان نفوذه البعيد فى الناس ، وتأثيره القوى فى استقامتهم على سنن الرشاد الاجتماعى ، والصلاح السياسى ، وعصمتهم من التردى فى وهاد الفتن ، والتخبط فى مزالق الأهواء والخلافات ، ولكن السلطان إذا استند فى ذلك إلى روح دينى يعمر القلوب ، ويكشف عن الحقائق أمام العقول ، فإن هذا الروح يكون خير معوان على الصلاح والإصلاح ، وتبادل الثقة والرضا بين الحاكمين والمحكومين ، كما يكون خير ميزان للنَّصَفة والعدل ينزل على حكمه الناس مطمئنين .

وهذا ما تتميز به الدولة الهاشمية الزيدية منذ أسسها الهادى إلى الحق ، الإمام العالم المجاهد السياسى المفكر المصلح ، يحي بن الحسين عليه السلام .

* * *

جمع هذا الإمام العظيم بين ناحيتى السيادة والعظمة ، فكان فى العلم والفقه والدين أمة ، وكان فى الرأى والسياسة والدهاء أمة ، ولا عجب فإنه فرع زكى من فروع تلك الدوحة العلوية المباركة التى أثمرت وما تزال ولن تزال إن شاء الله تعالى تثمر أطيب الثمرات ، وينتمى إليها أقوى الغصون والفروع .

هو الإمام يحي بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب ، كان مولده بالمدينة المنورة فى سنة ٢٤٥ هـ ، وكانت وفاته سنة ٢٩٨ هـ ، فعاش حياته فى النصف الثانى من القرن الثالث ، وهى فترة ازدهار البلاد الإسلامية بالعلم والفكر والتأليف والتصنيف ، كما أنها فترة احتراب المذاهب المختلفة من سياسية وفكرية .

كان يعيش فيها من العلماء أمثال محمد بن اسماعيل البخارى ، ومسلم بن الحجاج ومحمد بن يزيد بن ماجه ، وأبى داود السجستانى ، ومحمد بن عيسى الترمذى ، أصحاب السنن ، وأحمد بن سيار ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصرى الفقيه المالكى ، وداود بن على إمام أهل الظاهر ، وعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوَرى صاحب المصنفات البديعة ، وجعفر بن محمد البلخى أستاذ عصره فى صناعة التنجيم ، وصاحب التصانيف المشهورة فيه ، كالمدخل والزيج والألوف وغيرها ، وأبى عبد الرحمن الأندلسى الحافظ الكبير ، وبقى بن مخلد صاحب المسند المبوب على الفقه الذى فضله ابن حزم على مسند الإمام أحمد بن حنبل ، والربيع المرادى صاحب الشافعى ، والبلاذرى المؤرخ المشهور ، وسيبويه أستاذ النحاة ، والمبرد إمام اللغة العربية وصاحب الكامل ، وابراهيم بن عبد الله بن مسلم الكجى ، الشيخ المعمر الذى يروى المؤرخون أن مجلسه كان يحضره خمسون ألفاً ممن معه محبرة ، سوى النظارة « أى الذين ينظرون ولا يكتبون » وأنه كان يستملى عليه سبعة مستملين متفرقين فى المواضع كلٌّ يبلغ صاحبه .

وكان يعيش فى هذه الفترة أيضاً من الزهاد وأئمة التصوف ، أمثال : سرى السقطى ، وأبى يزيد البسطامى ، وأحمد بن عيسى المكنى بأبى سعيد الخَرَّاز ، ومحمد بن عبد الله المعروف بأبى بكر الدقاق .

وعاش فيها كثير من علماء الكلام وأصحاب المذاهب والنحل الصحيحة والباطلة ، وألسنة الدعوة إليها ، من أمثال محمد بن كرام ، والجاحظ ، وأحمد ابن خلاد مولى المعتصم ، وكان من دعاة المعتزلة ، وسليمان بن حفص صاحب بشر المريسى ، وعثمان بن سعيد الدارمى الذى رد على بشر هذا فيما ابتدعه من التأويل لمذهب الجهمية ، واسحاق ابن محمد بن أحمد بن أبان ، الذى تنسب إليه الطائفة الاسحاقية من الشيعة المنقرضة ، والذى قيل إنه كان يعتقد إلهية على بن أبى طالب ، وأنه انتقل إلى الحسن ثم الحسين ، وأنه كان يظهر فى كل وقت .

وقد ظهر فى هذه الفترة أيضا كثير من الدعوات والوقعات السياسية والدينية كدعوة أبى الحسين يحيى بن عمر من ذريه الحسين بن على عليهم السلام ، الذى ظهر بالكوفة ، ودعا إلى الرضا من آل محمد ، وقوى أمره ، وتولاه أهل بغداد وأحبُّوه ثم آل أمره إلى أن استشهد وصلب وجيء برأسه إلى عبد الله بن طاهر ، فجعل الناس يهنئون عبد الله هذا بالفتح والظفر ، فدخل عليه أبو هاشم داود بن الهيثم الجعفرى ، فقال له : أيها الأمير ، إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً لعزى به ، ثم خرج يقول :

يا بنى طاهر كُلوه وَبيئاً ... إن لحم النبي غيرُ مرِيِّ
إن وتراً يكون طالبَه اللـه ... لوترٌ نجاحه بالحرىِّ

وغير ذلك من الدعوات التى كان يقوم بها آل البيت عليهم السلام .

كما ظهرت الدعوات الفاسدة ، كدعوات : الباطنية ، والقرامطة ، والجرمية ، والبابكية . . وغيرها .

* * *

من هذا العرض المختصر للعلماء والمفكرين وأصحاب الدعوات ، الذين كانوا

يعاصرون الإمام الهادى إلى الحق يحي بن الحسين ، يتبين أن العصر كان عصراً مليئاً بالأحداث والفتن ، والعلوم والفنون والمذاهب ، فلم يكن من العجب أن تكتمل لهذا السيد الزكى أسباب المعرفة والبصر فى الناحيتين السياسية والعلمية على النحو الذى يرويه التاريخ عنه ، والذى يعد مفخرة من مفاخر المسلمين ، ونعمة أنعم الله بها عليهم عامة وعلى أهل اليمن خاصة .

فأما ناحيته العلمية ، فقد كان عليه السلام ذا نظر صائب ، وفكر ثاقب ، وعلم واسع ، ومعرفة لا تسامى ، يدل على ذلك مؤلفاته الكثيرة ، وتصانيفه المتنوعة فى كل فرع من فروع العلم ، ومن أهم ذلك كتابه الجامع فى الفقه الذى هو على نمط « الموطأ » للإمام مالك ، واسمه « الأحكام » أو « جامع الأحكام فى الحلال والحرام » وهو يذكر فيه اجتهاداته ووجوهها ، ويربط أكثر المسائل بالأدلة ، ويلتقى اسنادُه غالباً باسناد الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ويوافقه فى كثير من مسائل الفقه .

ومن مؤلفاته :

المسترشد فى التوحيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، ومسألة العلم والقدرة والإرادة والمشيئة ، والرد على محمد بن الحنفية ، والرد على المجبرة والقدرية ، والرد على أهل الزيغ من المشبهين ، وتفسير آية الكرسى ، والمنتخب فى الفقه ، وكتاب الرضاع ، وكتاب الديانة ، وإثبات النبوة ، وما نهى الله عنه رسول الله ، وكتاب الفنون ، والرد على من زعم أن القرآن قد ذهب بعضه ، وتثبيت الإمامة ، وتثبيت إمامة أمير المؤمنين على ، والقياس ، والتحرير ، والمواعظ ، وكتاب أخطاء الأنبياء ، وكتاب الجمل ، والبالغ والمدرك ، وتفسير معانى السنة ، وتفسير بعض أجزاء من القرآن الكريم ، وغير ذلك .

وبعض هذه الكتب توجد لها أصول محفوظة بالمتحف البريطانى ، وفى برلين وميونيخ ، والفاتيكان ، وغيرها .

ومن كلامه عليه السلام :

أصل الخشية لله العلم ، وفرع الخشية لله الورع ، وفرع الورع الدين ، ونظام الدين محاسبة المرء نفسه ، وآفة الورع تجويز المرء لنفسه الصغيرة من فعله ، وأصل التدبير التمييز ، وأصل التمييز الفكر ، ومن لم يَجُدْ فكرُه لم يَجُدْ تمييزُه ، ومن لم يجد تمييزه لم يستحكم تدبيره ، والعقل كمال الإنسان ، والتجربة لقاح العقل ، ومن لم ينتفع بتجربته لم ينتفع بما ركب فيه من عقله ، وشكر المنة زيادة فى النعمة ، والنعمة لاتتم لمن رزقها إلا بشكر موليها ، ومن أغفل شكر الإحسان فقد استدعى لنفسه العرفان ، ومن أراد ألا تفارقه نعم الله فلا يفارق شكر الله ، العلم والحكمة لا ينموان مع المعصية ، والجهل والحيرة لا يقيمان مع الطاعة ، ومن وُفق أَمِن من الزلل ، ومن خُذل لم يتم له عمل ، ولم يبلغ غاية من الأمل ، ومن قوِى ناظرُ قلبه لم يضره ضعف بصره « فإنها لا تعمى الأبصارُ ، ولكن تعمى القلوبُ التى فى الصدور » .

ومن فقهه : ما رواه بعضهم من أن رجلا ادعى على آخر حقاً فى مجلسه عليه السلام ، فأنكر المدعى عليه وسأله البينة فأتى بها فحلَّف الشهود ، قال الراوى : فعجبت من ذلك ، فلما تفرق الناس دنوت منه فقلت : أيها الإمام : رأيتك حلفت الشهود ، قال : وما تنكر من هذا ؟ إنى أردت أن أحتاط ، وقد داخلنى فى هؤلاء الشهود بعض التهمة ، وهذا قول طاوس من التابعين ، وأصله قول الله عز وجل : « فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما » .

لا شك أن رجلا له هذا الأفق الواسع ، وتلك القدرة المحيطة بألوان العلم والتفكير جدير بأن يكون من أصحاب التوجيه ، وأعلام الهداية ، وأن تكون شخصيته ذات آثار بعيدة حيثما حل .

وهذا هو سر ما حفظه التاريخ من نجاح الإمام الهادى إلى الحق فى تأسيس الدولة الهاشمية والمذهب الزيدى فى اليمن على أساس من الحق والتقوى ، يجمع بين الحنكة والقوة والتجربة والعلم والدين .

كانت اليمن قبل هذا الإمام العظيم بلاداً قد امتلأت بالجور والقبائح ، وفشت بين أهلها أقوال أهل المذاهب الباطلة كالقرامطة والجبرية وغيرهم ، وكان أهلها متخاصمين متخاذلين ، لا تفتر من بينهم العداوات ، ولا تنطفىء نيران الأحقاد ، وقد خرج إليهم عليه السلام مرتين ، فأما المرة الأولى فكان خروجه سنة ٢٨٠هـ حتى بلغ موضعاً يقال له الشرفة بالقرب من صنعاء ، فأذعن له الناس بالطاعة ، وأقام مدة يسيرة ، ثم خذله أهل البلاد ، وغلب عليهم العصيان لله ، والخذلان لإمامهم ، فعاد عليه السلام إلى الحجاز ، وعم أهل اليمن بعده البلاء المبين ، وعادوا إلى ما كانوا عليه من الفوضى واتباع الأهواء ، والركون إلى أهل البدع ، والجدال في الآراء ، فلما عضهم البلاء بنابه كتبوا إليه عليه السلام يعتذرون مما فعلوا ، ويبرءون إلى الله منه ، ويخبرونه بتوبتهم وحاجتهم إليه ، ويستنهضونه في العودة إليهم ، فوصلت كتبهم إليه في ذى القعدة سنة ٢٨٣ هـ ، فأزمع إجابتهم إلى ما طلبوا رغبة في إحياء الدين ، وطمس آثار الضلال ، وخرج بشيعته وسادات أهله حتى انتهى إلى صعدة لستة أيام خلت من صفر سنة ٢٨٤ هـ ، وبينهم الفتن العظيمة ، فعمهم الصلح وأصبحوا بنعمة الله إخوانا (١) .

وقد نشر في هذه البلاد السعيدة علمه ، وأورثهم الأئمة الصالحين من ذريته المباركة ، فهم أصحاب الدولة الشرعية القائمة على عواتق اليمنيين ورضاهم ، وقد سار على مذهبه ، وقلده في اجتهاداته كثير من أهل اليمن ولا سيما أهل الجبال ، وقام أبناؤه والعلماء المعاصرون له فمن بعدهم بخدمة مذهبه ، واستخرجوا من نصوصه تخريجات مذهبية على طريقة علماء المذاهب الأربعة عند علماء السنة ، وظهرت مؤلفاته في بلاد جيلان وديلمان ، وكان الاتصال بين اليمن وتلك الأقطار بالمراسلة

---

(١) راجع كتاب : « الحدائق الوردية في ذكر أئمة الزيدية » للفقيه حسام الدين حميد الشهيد بن أحمد بن محمد بن أحمد المحلى الصنعانى ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨٧٥ / تاريخ .

وغيرها من الطرق المعهودة للاتصال فى ذلك للتاريخ، وقام بخدمة مؤلفاته الواصلة إلى تلك الديار جماعة من علماء الجبل والديلم، منهم: الإمام المؤيد بالله أحمد ابن الحسين بن هارون الهارونى الآملى، وصنوه الإمام أبو طالب يحي بن الحسين، وخالهما أبو العباس الحسن، وسلكوا معه مسلك الفقهاء المخرجين من نصوص الأئمة لمسائل الفقه، وألفوا فى ذلك المؤلفات الحسان، كشرح التجريد والتفريعات للمؤيد بالله، والتحرير وشرحه للإمام أبى طالب، وبهذا اقترن حكمه السياسى بمذهبه الفقهى، وانطبع اليمن بطابعه، واستقرت الدولة فيه على هذين الأساسين المرتكزين عليه.

وما زالت القبائل اليمنية، ولا سيما صميمها قبيلة هَمْدان أنصار هذا البيت الهاشمى الكريم، منذ خرج إليهم الإمام على بن أبى طالب، وقال فى حقهم كما يروى:

ولو كنت بوابا على باب جنةٍ لقلت لهَمْدانَ ادخلوا بسلام

وما زالت هذه الدولة قائمة على تعاقب السنين، وربما طغى تيار بعض الدول الغابرة فى بعض السنين على معظم البلاد اليمنية، ثم يضمحل ويعود لهذه الدولة القرشية الهاشمية.

وها هو ذا الإمام الناصر لدين الله «أحمد بن يحي»، مثابرٌ على حفظ هذا القطر المبارك، من أن تمتد إليه أيدى الاستعمار الغاشم، سواء فى الناحية السياسية أو فى الناحية العلمية والدينية.

وفقه الله لإصلاح اليمن، والأخذ بيده إلى الرقى والعمران والحياة الكريمة السعيدة.

الأصول الدينية للفن الإسلامي والفارسي

لحضرة الأستاذ أحمد محمـــد عيسى

أمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

[The Religious Background of Islamic Art and Persian Art; by C, Grand-Pierre, 1938.]

عثرت على هذا البحث فى المكتبة الهندية فى لندن أثناء زيارتى لها فى صيف سنة ١٩٤٩ ، وقد أعجبنى فى البحث صراحة المؤلف فى كلامه عن الإسلام ، والروح المنصف الذى تناول به موضوع الفتوح الإسلامية والفن الإسلامى فى البلاد التى خضعت للاسلام ، ولهذا أردت أن أنقله إلى اللغة العربية ، وأن أتقدم به إلى قرائها الأفاضل على صفحات ﴿ رسالة الإسلام ﴾ راجياً أن يكون فيه بعض الجديد بالنسبة إليهم .

موضوع هـذا المقال بحاجة إلى الكلام فى صراحة لمحاولة تصحيح الأقوال الخاطئة التى تأصلت بين الغربيين عن الإسلام وعن المسلمين الأولين ، وهى الأقوال التى تولدت نتيجة الغرور والتعصب ، وسوف أكون صريحاً هنا رغبة فى الوصول إلى ما يساعد على إنارة أفكارنا عن الأحوال المعقدة ، التى أحاطت الفن الإسلامى فى مرحلة التكوين .

وفى اعتقادى أن الصراحة أمر جد هام ، سواء أكانت فى محل القبول

أم الرفض ، وليكن واضحاً أن ما أبتغيه هو السعى لتقديم غذاء فكرى يساعد على أن نكون أكثر استمتاعا بالفن الإسلامى من ذى قبل .

لا شك أن احتواء جانب واحد من متحف من المتاحف على آثار فنية لبلاد الهند والعراق يبرر استخدام تعبير « فن الشرق الأدنى » غير أن المسيحيين التزموا لفترة طويلة ، استخدام تعبير « الفن المحمدى » وهو تعبير رفضه المسلمون رفضاً باتاً ، لأنهم يؤمنون أن محمداً ليس مبتدعاً لمذهب جديد ، وإنما هو نبى الله ورسوله ، الذى أنزل عليه القرآن هدى للناس ورحمة .

أما عبارة « الفن العربى » فخطأ كذلك ، ما دام لم يكن للعرب فن خاص بهم ، على أنه يبدو أن تعبير « فن بلاد العرب » أقرب للصواب مادمنا نتحدث عن تأثير أصحاب القومية العربية ، لا عن أولئك الذين استأجرهم العرب لمعاونتهم على خلق « فن إسلامى » .

أما الفرنسيون فقد ألفوا استخدام تعبير « الفن الإسلامى » وهو استعمال صحيح ، وإن حمل فى طياته معنى الدين بنسبته إلى الإسلام ، ولهذا التعبير الأخير : « الفن الاسلامى » دلالة جغرافية تمتد من الهند الشرقية الهولندية شرقا إلى الإطلنطى غرباً ، ومن موزمبيق بأفريقيا جنوباً إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط شمالا ، وفى اعتقادى أنه تعبير جامع شامل يحمل مبررات استخدامه .

وشاع خطأ بين بعض السالفين من العلماء أن بلاد العرب رقعة صغيرة عديمة الأهمية ، والواقع أن مساحتها تبلغ مليون ميل مربع ، أى ما يعادل مساحة البحر الأبيض المتوسط ، أو ثلث مساحة الولايات المتحدة ، أما مساحة البلاد العربية كلها ، بما فى ذلك العراق وسوريا وشرق الأردن وفلسطين ، فتعادل مساحة الهند أو نصف مساحة الولايات المتحدة تقريباً ، ومع ذلك لم يتجاوز تعداد سكان هذه المنطقة الشاسعة عشرين مليون نسمة فى أى عصر من العصور .

وعاش العرب ـ قبل أن يوحد الإسلام بينهم ـ قبائل متفرقة فى طرائق حياتهم وتعدد معتقداتهم ، ليس لهم فن خاص يمتازون به ، ولا نصيب لهم من فنى العمارة والنحت ، غير أنهم أشبعوا ميولهم الفنية بحبهم للألوان ، وبما أحاطوا به أنفسهم

من وافر الزهر ويانعه مما ينبت فى كل مكان من بلادهم ، ومما نشاهده حتى الآن حول الأكواخ المتهدمة فى الدروب الضيقة والدمن الدارسة .

ووجد هؤلاء العرب الرحل فى انبساط الصحراء ، ما أرضى حبهم للجمال ، مثلهم فى هذا مثل البحارة ، الذين يطلقون تأملاتهم مع أمواج البحر الفسيح ، ويقفون بأفكارهم أمام عجائبه المختلفة المتشابهة .

وبغض النظر عن الوسائل الفنية الأخرى عبّر العرب عن إحساسهم بالجمال قرونا قبل العهد المسيحى ، وذلك فيما أبدعوه من قصص خيالى رائع ، وفيما نظموه من ألوان الشعر والغناء ، وفيما التزموه من دقة صارمة فى تعبيراتهم وأساليبهم الكتابية والخطابية ، ويرى المعنيون بدراسة اللغة العربية أن قوانين الشعر القديم سهلة بسيطة ، وهم لهذا يضعونها فى مرتبة فنية رفيعة لما لها من الدقة والتنوع والروعة والجاذبية .

ومن الادعاءات التى يذهب إليها الكثيرون ممن درسوا موضوع الفتوح الإسلامية أن الفن الإسلامى ظهر وانتشر فى حركة غير مفهومة ، كما يزعم هؤلاء أن العرب لم يكونوا ـ إبان فتوحاتهم الأولى ـ سوى برابرة قساة ، أرغموا الناس على اعتناق الاسلام بحد السيف ، وحكموا حكما مطلقا مستبداً مستندا إلى أنواع القوة والحيلة .

والمعروف أن الحروب عامة كانت حتى الصف الأول من القرن السابع الميلادى ـ أى حين بدأت الفتوح الإسلامية ـ تقترن بقسوة لا تلين ، وتخريب لا يرحم ، غير أن العرب اختلفوا عن غيرهم من الفاتحين ، فلم يخربوا كما خرب غيرهم ، ولم يقيموا المذابح للناس ، ولم يشردوا المغلوبين إلى جهات نائية ـ خشية ثورة أو انقلاب ـ بل أبقوا الحال على ما هى عليه ، وفضلوا أولئك الذين لبوا نداء الإسلام طائعين على سواهم من أهل البلاد المفتوحة .

ولم يشغل العرب أنفسهم بشىء ـ خلال مدة الفتوح الأولى ـ سوى الحرب والصلاة ، ولهذا قل لديهم الوقت الذى يتأملون فيه ألواناً زاهية لحضارة أغريقية

ثابتة الأصول ، تتجلى من حولهم فى فنى العمارة والنحت ؛ هذا فضلا عن أنه أعوزت الفن الإسلامى الدوافع التى خلقت فناً مسيحياً قبيل عصر النهضة مثلا ، فإذا كان للإسلام أثر قوى فى الجهود الفنية وقتذاك ، فإن هذا الأثر لم تؤيده نصوص مدونة فيما هو لدينا من مصادر تاريخية ترجع إلى بداية العصور الوسطى .

على أن العرب - رغم قصورهم الثقافى حينـــذاك - خلقوا فى جميع أنحاء إمبراطوريتهم ، شعوراً دينياً عميقا ، وحماسة دافقة ، ورغبة قوية فى الأمن والسلام ، وهذا هو ماحرمته المسيحية ، وهو نفسه من ألزم اللزوميات لنهضة الفنون وازدهارها .

ومن المفتريات ، ادعاء بعض المؤرخين ، أن جهل العرب وافتقارهم لأنواع الفنون والفنانين ، دفعهم إلى تخريب ما صادفهم من آثار جميلة أثناء فتوحاتهم . ويبدو أن هؤلاء المؤرخين يجهلون أن ما خرب من الآثار الأخمينية مما أبدع فى عهد كورش ودارا واجزركسيس ، وما تلف من الآثار الفنية الرائعة ، مما تخلف عن العصر الساسانى ، إنما حدث على يد جنكيزخان وتيمور ومن خلفهما ، وليس على يد العرب كما يدعى البعض .

وفى سنة ٦٤١ ميلادية ، وقبل أن يمضى على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم تسع سنين ، غزا العرب بلاد فارس ووضعوا أيديهم على أصول الحضارة الساسانية وفنونها ، وغدت هذه الحضارة مصدراً هاماً من مصادر الفن الإسلامى ؛ فلو أن تلك الحضارة أصيبت منهم بسوء لاتجه الفن الإسلامى وجهة غير التى يتجه إليها حتى العصر الحاضر .

أدهش العرب ما وجدوا فى البلاد الفارسية من ألوان الحياة الرغيدة ، والنعمة فى العيش ، ومن أنواع الفنون والطعوم ، على أنهم أدركوا حاجتهم للتقاليد والثقافة إدراكهم لحاجات إمبراطوريتهم العظيمة ، فلم يحاولوا فرض وسائلهم البدائية على الشعوب المغلوبة ، بل أقاموا أنفسهم رعاة للفنون والآداب أينما ذهبوا ، وعملوا - منذ استقرارهم بفتوحهم - على تغذية الفن والأدب بما يتفق وحاجات الإسلام .

ومن الغريب أنه برغم حب العرب للجمال ، لم يظهر من بينهم كثير أو قليل من أهل الفنون . والواقع أن الفن الإسلامى يدين بوجوده إلى أناس من مختلف

الشعوب ، استخدمهم العرب ، فأسبغوا على ذلك الفن كل ما لديهم من مواهب وإحساس بالجمال ، ويظهر أثر هذا واضحاً فى فنى المعمار والزخرفة ، اللذين سادا جزءاً كبيراً من العالم المعروف وقتذاك ، على حين حالت قيود العقائد المتوارثة التى فرضها رجال الكنيسة دون تقدم فنى التصوير والزخرفة فى أوروبا .

ولا شك أننا واجدون أسرار ذلك المزيج الثقافى والفنى الذى خلقه العرب ، وعاشوا فى جوه إذا عرفنا ما يأتى :ــ

١ ــ إن قوة الاسلام وسهولة اكتساحه لبلاد تمتد من الهند ونهرجيحون شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا ، هى إحدى عجائب التاريخ . والأعجب أن العرب استطاعوا بقليل من الرائدين ، الاحتفاظ بالبلاد المفتوحة دون أن تحدث إقامتهم بهذه البلاد شغبا أو ثورة ـ وهذا باستثناء المصريين الذين ثاروا على الحكم العربى مثلما ثاروا قبلا ضد الكنيسة البيزنطية ، وضد حكامهم البيزنطيين .

٢ ــ أن للقوة وفنون الحرب قيمتهما فى الفتح والغزو ، ولكنهما كانتا دون ما تيسر للإسلام من سلطان قوى على نفوس المغلوبين .

٣ ــ أنه برغم ماحدث أحيانا من حروب بين العرب أنفسهم ، قد شعرت الأمم المغلوبة ـ وهى المتباينة فى أخلاقها وأجناسها ـ أنها أكثر قوة واتحاداً فى ظل الاسلام عنها قبلا .

٤ ــ أن الفن الاسلامى ازدهر من تلقاء نفسه ، وتقبلته الشعوب المغلوبة راضية ، هذا فضلا عن أن نضوجه يرجع إلى بداية القرن الثامن الميلادى ، وهو نضوج مبكر فيما نعتقد .

والحقيقة أن الفن الاسلامى ، أضحى ثمرة طيبة لتطور ثقافى رائع بين العرب الذين كان إخلاصهم وتقواهم مختلفاً عما اتصف به الأوروبيون فى أوائل العصور الوسطى من جهل وتعصب . هذا فضلا عن تحرره من خرافات الوثنية والمسيحية وخلوه من الانقسامات المريرة التى عمت أحوال الكنيسة وقتذاك ؟

[للمقال بقية]

الإسلام منهج أخلاقى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

حرص الإسلام على أن يكون فعل الخير والتزام الفضائل، وترك الشر وهجر الرذائل. خالصاً لوجه الله، لا لمنفعة خاصة، عاجلة أو آجلة، تعود على الشخص من الفعل أو الترك، تلمح ذلك فى قوله تعالى: «ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله» ومعنى هذا أن من خرج مهاجراً إلى غرض خاص فإن أجره يقع على نفسه، ويفسر هذا بوضوح قول الرسول عليه الصلاة والسلام: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) وحسابه على نفسه لا على الله، وهذا واضح فى أن الإسلام يلزم بالخير لذات الخير، ويأمر بالفضائل لأنها فضائل، وأن المؤمن الصادق يفعل الخير حباً فى الخير، وليس هذا فحسب، بل إن توجيه الإسلام الإنسان إلى فعل الخير والتزام الفضائل لذاتيهما يقوم على الإلزام، لا على التخيير، فهو يلزمك بالصدق لأن الصدق يجب أن يلتزم، ويلزمك باجتناب الكذب، لأن الكذب يجب أن يجتنب، كما يلزمك بالفضائل كلها، واجتناب الرذائل كلها، لأن الفضائل يجب التزامها، والرذائل يجب اجتنابها، ومن ابتغى غير ذلك فقد ظلم نفسه.

ولقد ضلت الإنسانية قرونا طويلة ، ولم تهتد إلى مفهوم الخير والشر، ثم خطا الإسلام بها خطوة واسعة ، فهو فى الوقت الذى يأمرك فيه بفعل الخير وترك الشر ، يحدد لك مفهوم الخير والشر تحديداً واضح المعالم ، لا تضل بعده ولا تشق ، فهو يعلن أن كل ما يحقق مصلحة للفرد أو الجماعة ، أو يدفع ضرراً عن الفرد أو الجماعة ، فهو خير يجب أن يفعله المؤمن ابتغاء وجه الله ، كذلك كل ما يعطل مصلحة أو يلحق ضرراً بالفرد أو الجماعة ، فهو شر يجب أن يترك لوجه الله ، والمؤمن فى فعله أو تركه يقصد بالعمل وجه الله ، لأن الله هو المشرع ومن حقه أن تطاع أوامره ، ومن واجب المؤمن أن يمتثل أمر الله من غير تردد أو تشكك ، ومن هذا نرى أن الإسلام هو أول داع إلى الخير لذات الخير ، وإلى الفضائل لأنها فضائل ، وأن دعوته الخلقية تقوم على إعداد روحى خاص ، يطهر النفس ويزكيها ، ويجعها محلا لتقبل الأمر بفعل الخير والتزام الفضائل ، ابتغاء وجه الله ، والتقرب إلى الله ، ونشدان الكمال ، وهذه الدعوة المثالية إلى الخلق الكريم ، لم تعرف البشرية لها صفة ولا منهجا واضحا قبل الإسلام ، مما يجعلنا نقرر فى غير تردد : أن الإسلام هو أستاذ جميع المذاهب الأخلاقية « الواجبية » لاسيما المذاهب الحديثة التى ظهرت بعده ، والتى فتنت بعض « المستغربين » من المسلمين ، لأن الإسلام ـ باتفاق العلماء فى الشرق والغرب ـ وجه الحياة الإنسانية كلها عند المسلمين وغير المسلمين ، وأثر آثاراً واضحة معترفا بها فى جميع العلوم والآداب التى أنتجت نهضة أوربا ، غير أن الإسلام يمتاز على هذه الآراء الفردية بتحديد معنى الخير والشر ، تحديداً واضحاً ليس فيه لبس ولا غموض ، بينما تجد هذه المذاهب غير متفقة على ما هو خير أو شر ، ولم يحدد مذهبٌ مفهوم كلمتى الخير والشر تحديداً سليما واضحاً يقبله العقلاء .

ولقد كانت عناية الإسلام عظيمة بتربية الخلق الفاضل فى الفرد والجماعة ، وقد عبر عن هذه العناية أبلغ تعبير محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وكان من خير ما امتدح الله به رسوله

الكريم قوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » لأنه تربية الله الذى اصطفاه ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وإنك لتجد فى كل آية من القرآن دعوة ، إلى أصل من أصول الخلق الحسن ، وتجد كل مبدأ إسلامى يرشدك إلى نمط من أنماط مكارم الأخلاق ولقد كان جواب العربى لمن يسأله عن دعوة محمد هو أنه يدعو إلى الخير كله ! وإنك لتجد القرآن رائعاً جد الروعة ، عند مايعلن أن مهمة محمد عليه الصلاة والسلام، مهمة أخلاقية أولا ، وهى تزكية النفوس وتطهيرها من أدران الفساد وأوزار الوثنية ، اقرأ : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة » . « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصلّ عليهم . إن صلاتك سكن لهم » . وتبلغ هذه الروعة أقصى غاياتها ، عند ما يُرجع القرآن الكريم نجاح محمد عليه الصلاة والسلام فى دعوته إلى مسألة أخلاقية « فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر » وافهم ما شئت بعد ذلك مهمة القرآن الكريم من قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ! .

وكما يمتاز الإسلام فى العقيدة ونمط العبادة ، يمتاز أيضاً فى تشريعاته للمعاملات الإنسانية كلها عن جميع التشريعات القديمة والحديثة بمميزات أظهرها وأجلاها ، ما اتفق عليه المنصفون الذين قارنوا الشريعة الإسلامية بالقانون الرومانى ، من أن التشريع الإسلامى يمتاز بعنصر أخلاقى ، له صفة الإلزام فى كلياته وجزئياته ، من شأنه أن يحمل المكلف على الامتثال والتنفيذ للأوامر والنواهى ، من غير تردد فى الفعل أو الترك ، لأنه يقوم بما يقوم به ، على أنه دين لازم يتعبده الله به ، ومن واجب المؤمن أن يستجيب لله الذى يأمر بكل جميل ، ولا يأمر بالفحشاء ، لا على أنه قانون بشرى يخضع للجدل فى سبيل اظهار وجه الخير والمصلحة فيه .

ولهذا العنصر الأخلاقى كانت الشريعة الإسلامية ـ عند فقهاء المقارنة ـ مستقلة ، غير مستمدة من التشريع الرومانى .

وإذن ، فتكاد تجد مهمة الإسلام ، ومهمة رسوله عليه الصلاة والسلام ، مهمة أخلاقية ! فما الأخلاق إذا لم تكن هى تهذيب النفوس وتزكيتها وتطهيرها ؟ ثم ما هو الدين . إذا لم يكن تنظيما للسلوك العام للإنسان مع خالقه ، ومع بنى أبيه ؟ وما الدين إذا لم يكن هو حسن الخلق ؟

للإسلام منهج أخلاقى ممتاز ، تتمثله فى كل آية من القرآن الكريم ، وكل حديث للنبى الكريم ، فى كل أمر أو نهى ، وفى كل مبدأ من المبادىء . فإذا لم يكن للإسلام منهج أخلاقى ، فى دعوته إلى الخير والجمال ، والتزام الفضائل بغية الكمال ، فكيف وأين يكون هذا المنهج المستقيم ؟ ؟

ما هذه المذاهب الأخلاقية التى تقرن أو تقارن بالإسلام ؟ هل يراد أن تكون « خلقية الاسلام » الجميلة الواضحة ، مثل ما تدعو إليه المذاهب الأخلاقية ؟ وهى آراء أفراد غير معصومين من الخطأ ، وهم مظنة الهوى ، ولم يسلم واحد منهم من التجريح ؟ ثم هى بعد ذلك آراء مجروحة ، وكثيراً ما اتخذها اللاحقون أداة سخرية بالسابقين ؟ وهل يريد إخواننا « المستغربون » أن يكون للإسلام مذهب فى الأخلاق كمذهب زينون الرواقى ، أو كمذهب أبيقور ، أو مذهب « كانت » ، أو سبنسر ؟ وهل يريدون أن يخضعوا منهج القرآن الأخلاقى للجدل والتجريح على الطريقة التى يتناولون بها مذاهب هؤلاء الأخلاقيين ؟ !

ما بالنا نسمع اليوم أناساً ينسبون الإسلام إلى مذاهب أفراد فى السياسة أو الاجتماع أو الأخلاق ! فهل سر هذا هو الجهل بالإسلام ، أو الكيد للإسلام ؟

نسمع مثلا « الاشتراكية الإسلامية » ، « الديمقراطية الاسلامية » ، وليس للإسلام مذهب أخلاقى ، فما هذا ؟ إن الاسلام لا يعرف الاشتراكية ، ولا يعرف الديمقراطية ، ولا المذهبية ، وإنما الاسلام دين وشرع . له خصائصه ، ومناهجه

التى يتميز بها فى الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق ، للإسلام كيان خاص ، و « شخصية معنوية » خاصة ، وهو سابق غير مسبوق فى كل ما قرره فى مسائل الحكم وسياسة الشعوب ، ونظام الاجتماع البشرى ، فكيف يستساغ عند بعض « المُتمسلمين » أن يغمطوا الاسلام بنسبته إلى أفكار ظهرت بعده وتلمذت عليه ؟ وكيف ينسب السابق إلى اللاحق ، والعكس هو الصحيح ؟ .

إن من حق الاسلام أن يُحكم فى هذه الأفكار ، وأن تنزل هى عليه ، إن وجدنا إلى ذلك سبيلا ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » .؟

التوسع فى دراسة
فقـــه المذاهب الإسلامية

جاء فى الفقرة (د) من القانون الأساسى لجماعة التقريب ضمن السبل التى تسلكها الجماعة لتحقيق أغراضها ، ما يأتى :

« العمل على أن تقوم الجامعات الاسلامية فى جميع الاقطار بتدريس فقه المذاهب الاسلامية حتى تصبح جامعات اسلامية عامة »

وقد وردت إلى الجماعة من شتى البلاد طائفة من الرسائل المتعلقة بهـذا الموضوع ، فاهتمت بها مرحبة ، وأحالت بعضها إلى جهات الاختصاص تمهيداً لبحثها ، ونرجو أن يظهر أثر ذلك فى القريب إن شاء الله تعالى .؟

من بحوث مجمع فؤاد الأول للغة العربية (١)

معجم ألفاظ القرآن الكريم

— ٣ —

لجنة صاحبي الفضيلة الأستاذين :
الشيخ إبراهيم حمروش عضو جماعة كبار العلماء
والشيخ محمد على النجار الأستاذ المساعد فى كلية اللغة العربية

ك . ى

كى . كيلا . لكيلا

كى　　كى تأتى على الوجهين الآتيين :

(١) غير مسبوقة باللام فيكون ما بعدها علة لما قبلها ، تقول : أجتهد فى عملى كى أنجح فى أمرى ، وقد جاء من هذا قوله تعالى : « فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن » ٤٠ / طه .

(٢) وقد تسبق باللام تقول : جئت لكى أزورك ، كأنك قلت : لأن أزورك .

كيلا　　وقد تأتى بعدها (لا) فتكون علة لانتفاء الفعل .

وقد جاء من هذا قوله تعالى : « كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم » ٧/الحشر .

لكيلا　　« فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم » ١٥٣ / آل عمران .

« ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا » ٧٠ / النحل .

---

(١) بإذن خاص من حضرة صاحب المعالى أحمد لطفى السيد باشا رئيس المجمع .

ك ى د

كاد . كيد . مكيد

كاد يكيد كيدا ، واسم المفعول منه مكيد : احتال فى إيصال الضرر ، أو مكر ، أو استدرج ، أو أمهل .

ويأتى على الأوجه الآتية :

كاد

(١) فيقال : كاده يكيده كيدا ، احتال فى إيصال الضرر إليه .

قال تعالى : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » ١٩٥ / الأعراف .

وقال : « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » ٥٧ / الأنبياء ، أى لأحتالن فى إيقاع السوء بها ، أو لأكيدنكم فى أصنامكم ، وقال : « إنهم يكيدون كيدا » ١٥ / الطارق ، أى يكيدون للدعوة الإسلامية وصاحبها .

(٢) ويقال كاد الله الكافر : أوقع السوء به من حيث لا يشعر ، وأكثر ما يرد ذلك فى القرآن مشاكلة لكيد الكافرين ، قال تعالى : « إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا » ١٦ / الطارق .

(٣) ويقال : كادله يكيد له بمعنى كاده .

وقد جاء من هذا قوله تعالى : « لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا » ٥ / يوسف ، أى فيدبروا لك سوءا .

(٤) ويقال كاد الله للعبد الصالح : دبر له أمره ، وصنع له الخير ، قال تعالى : « كذلك كدنا ليوسف » ٧٦ / يوسف .

كيد

والكيد الحيلة التى يتوسل بها من يكيد ، والكيد من الله تعالى قد يطلق على الاستدراج ، وهو أن يواتر الله نعمه على العبد فيطغى وينسى الشكر ويتمادى فى الكفر حتى يهلك .

وجاء من الأول قوله تعالى : « فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » ٢٨ / يوسف ، وقوله تعالى : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ١٢٠ / آل عمران .

وجاء من الثانى قوله تعالى : « وأملى لهم إن كيدى متين » ١٨٣ / الأعراف .

وقد فسر الكيد هنا بالعذاب وهو أوضح .

مكيد وقد جاء اسم المفعول فى قوله تعالى : « أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون » ٤٢ / الطور ، أى هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ، ويحيق بهم مكرهم ، أو المغلوبون فى الكيد .

ك ى ف

(كيف)

كيف كيف أداة تأتى على الأوجه الآتية :

١ — فتكون للاستفهام عن حال الشىء وصفته ، تقول : كيف وجدت عليا ؟ فيكون الجواب صحيحا أو سقيما أو ما جرى هذا المجرى .

وتقول : علمت كيف جاء محمد ، تريد : على أية حال وصفة جاء .

ومنه قوله تعالى : وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى » ٢٦٠/البقرة .

وقوله : « يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه » ٣١ / المائدة ، ومثله : ١٢٩ / الأعراف ، ١٤ / يونس ، ٢٤ / ٤٥ ، / ابراهيم ، ٢١ / الإسراء ، ٤٤ / الفرقان ، ١٩ - ٢٠ / العنكبوت ، ٥٠ / الروم ، ٦ / ق ، ١٥ / نوح .

٢ — وتأتى خارجة عن معنى الاستفهام للدلالة على عموم الأحوال .

وقد جاء منه قوله تعالى : « ينفق كيف يشاء » ٦٤ / المائدة . وقوله تعالى : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء » ٤٨ / الروم . ومثله ٦ / آل عمران .

٣ — وتأتى لاستبعاد الشىء ونفيه ، تقول : كيف التعجيل إلى الحج وأنا معدم فقير .

ومنه قوله تعالى : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله »

٧/ التوبة « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً » ٦٨ / الكهف ، « قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » ٢٩ / مريم ، « فكيف آسى على قوم كافرين » ٩٣ / الأعراف ، ومثله ٨٦ / آل عمران ، ٨١ / الأنعام ، ٨ التوبة .

٤ — وتأتى لإنكار الشىء والتعجب منه وأنه لاينبغى أن يكون ، وإذا وقع هذا الضرب فى خطاب الله تعالى فهو للتعجيب ، أى حمل السامعين على التعجب إذ كان الأمر مما يستحق التعجب .

وقد جاء من هذا قوله تعالى : « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ٢١ / النساء .

« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله » ٤٣ / المائدة ، « أمّن لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون » ٣٥ / يونس .

ومثله ١٠١ / آل عمران ، ٤٦ ، ٦٥ / الأنعام ، ٧٥/المائدة ، ٤٨/ الأسراء ، ١٥٤ / الصافات ، ٩ / الفرقان ، ٣٦ / القلم ، ١٩ ، ٢٠ / المدثر .

٥ — وتأتى لاستعظام الشىء وتهويله والإنذار والتخويف ، وأكثر ما جاء منها فى القرآن بهذا المعنى وذلك فى مقام الحديث عن العقاب والعذاب والنذير والنكير ونحو هذا .

ومنه قوله تعالى : فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه » ٢٥ / آل عمران ، « ثم أخذتهم فكيف كان عقاب » ٣٢ / الرعد ، « فستعلمون كيف نذير » ١٧ / الملك .

ك ى ل

(كال ـ اكتال ـ كيل ـ مكيال)

كال القمح وغيره يكيله كيلا : قدره بوعاء يصطلح على التقدير به ويقال : كلت محمداً القمح إذا أعطيته إياه مقدرا بالكيل .

كال وقد جاء من هذا قوله تعالى : « وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » ٣ / المطففين « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » ٣٥ / الاسراء .

اكتال واكتال القمح وغيره . أخذه من البائع كيلا .

وقد جاء من هذا قوله تعالى : « فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون » ٦٣ / يوسف

« ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون » ٣ / المطففين .

كيل والكيل يأتى بمعنيين :

(ا) الكيل بمعنى المكيل .

وقد جاء من هذا قوله تعالى « ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير » ٦٥/يوسف .

كيل البعير المكيل الذى يحمله البعير من الطعام أو هو وسق البعير ومنه ٦٠ ، ٦٣ / يوسف ويمكن أن يكون المقصود فى هذين الموضعين معنى المصدر أى فعل الكيل .

(ب) والكيل بمعنى ما يكال به .

وقد فسر بهذا قوله تعالى « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » ١٥٢/الأنعام . ومثله ٨٥ / الأعراف ، ٥٩ ، ٨٨ / يوسف ، ٣٥ / الإسراء ، ١٨١ / الشعراء .

المكيال والمكيال ما يكال به .

وقد جاء من هذا قوله تعالى « ولا تنقصوا المكيال والميزان » ٨٤ / هود

ك ى ن

(استكان)

استكان الرجل خضع وذل من كان يكين بهذا المعنى .

استكان وجاء استكان فى قوله تعالى « فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا » ١٤٦ / آل عمران ، وقوله تعالى « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » ٧٦ / المؤمنون .

لؤلؤ

اللؤلؤ واحدته لؤلؤة وهى جسم صلب مستدير أبيض لماع يتكون داخل صدفة فى البحار الملحة .

لؤلؤ

وبما جاء فيه اللؤلؤ قوله تعالى « ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » ٢٤ / الطور « يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا » ٢٣ / الحج .

ل ب ب

(ألباب)

اللب : خالص كل شىء ، ومن الجوز ونحوه قلبه ومنه اللب للعقل الخالص من الشوائب التى تغشى البصيرة وتعيب التفكير الصحيح ، ويجمع اللب على الألباب .

الألباب

وقد جاء الألباب فى عدة مواضع من الكتاب مسبوقاً بأولى دائماً ، كقوله تعالى :

« ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » ١٧٩ / البقرة .

« وليذكر أولو الألباب » ٥٢ / ابراهيم .

ل ب ث

(لبث ، تلبث ، لابث ، لبث)

لبث

لبث يلبث لَبْثا ولَبْثا ولَبَاثا فهو لابث ولَبِث يأتى على أوجه :—

(ا) يقال لبث فى المكان وبه أقام وتتعدى فى الكتاب العزيز بفى دائماً .

وقد جاء فى هذا قوله تعالى « فلبث فى السجن بضع سنين » ٤٢ / يوسف .

« للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » ١٤٤ / الصافات .

(ب) ويقال : لبث الإنسان : مكث وقر على حالة من الحالات .

ومن هذا قوله تعالى « فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما

أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام » ٢٥٩ / البقرة ، « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » ٥٢ / الإسراء ، « لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث » ٥٦ / الروم .

(ج) ويقال ما لبث أن فعل كذا إذا فعله وشيكا لم يبطىء به .

وجاء هذا فى قوله تعالى « فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » ٦٩ / هود .

تلبث — تلبث تأتى على الأوجه الآتية :

١ — فيقال تلبث بالمكان أقام به .

وجاء هذا فى قوله تعالى : « وما تلبثوا بها إلا يسيرا » ١٤ / الأحزاب . أى ما أقاموا بالمدينة .

٢ — ويقال تلبث بكذا : استقر عليه ولم يبارحه .

وفسر بعضهم الآية السابقة بهذا ، أى ما استمروا على فتنتهم إلا قليلا .

٣ — ويقال ما تلبث بكذا : ما أبطأ به وما أخره .

وفسر بعضهم الآية السابقة بهذا : أى ما تمهلوا فى إتيان الفتنة التى سئلوها ، بل أتوها سريعاً ريثما يتم السؤال والجواب .

لابث — أتى الوصف «لابث» من «لبث» فى قوله تعالى «لابثين فيها أحقابا» ٢٣/النبأ أى أن الطاغين يقيمون فى جهنم أحقاباً لا ينفكون منها .

لبث — وقرىء لبثين فيها أحقابا .

ل ب د

(لبد)

اللبدة : الجماعة تتزاحم وتتضام ويركب بعضها بعضا ، وأصله من لبدة الأسد وهو ما تجمع من شعر رأسه ، وجمعها لِبَد .

لبد — وقد جاء هذا فى قوله تعالى « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » ١٩ / الجن ، أى يزدحمون عليه متراكمين .

لبَد — اللبد يأتى وصفاً للكثير المتراكب المجتمع ، يقال مال لبد : جم كثير وقد جاء هذا فى قوله تعالى : « يقول أهلكت مالا لبدا » ٦ / البلد .

ل ب س

(لَبِسَ - لَبَس - لَبْس - لِباس - لَبُوس)

لبس الشيء كسمع يلبسه لبسا بالضم ، ويأتى على الأوجه الآتية :

لَبِسَ — (ا) فيقال لبس الثوب : استتر به وحاط به جسمه ، ولم يأت الفعل فى القرآن إلا مع الثياب البهية ، قال تعالى : « يلبسون ثياباً خضراً من سندس » ٣١/الكهف « يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين » ٥٣ / الدخان .

(ب) ويقال : لبست المرأة الحلى : تحلت به ووضعته موضع الزينة منها .

وقد جاء فى الكتاب مع الحلية البحرية ، قال تعالى « لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها » ١٤ / النحل . « ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها » ١١ / فاطر .

لبس — ولبس الأمر كضرب يلبسه لبساً : خلطه ، ويقال لبس عليه الأمر إذا لم يبينه له وجعله منه فى شبهة وغمة .

قال تعالى رداً على المشركين الذين يطلبون أن يكون الرسول ملكا : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » ٩ / الأنعام . أى ولخلطنا عليهم ما يخلطون حينئذ ، إذ يقولون حين يأتيهم الملك فى صورة إنسان : إنه إنسان وليس بملك ، وقرىء ولبسنا بلام واحدة ، كما قرىء وللبسنا بالتشديد .

وقال تعالى لبنى إسرائيل «لا تلبسوا الحق بالباطل» ٤٢/البقرة ، أى لا تكتبوا فى التوراة ما ليس فيها ، فيختلط باطلكم بالحق الإلهى ، أو لا تجعلوا الحق ملتبساً ومشتبهاً بالباطل الذى تكتبون أو إليه تدعون ، ومثله ٧١ / آل عمران .

وقال تعالى . « أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » ٦٥ / الأنعام . أى يخلط عليكم الأمر ويجعلكم باختلاف أهوائكم فرقا شتى متناحرة متشابكة .

وقال تعالى . « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » ٨٢ / الأنعام . أى لم يخلطوه بالظلم .

وقال تعالى عن المشركين « وليلبسوا عليهم دينهم » ١٣٧/الأنعام ، أى ليخلطوه عليهم بما يدسونه إليه .

لبس وجاء اللبس من لبس بمعنى خلط فى قوله تعالى . « أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد » ١٥ / ق ، أى فى خلط واشتباه من البعث .

لباس واللباس مثل اللبوس واللبس والملبس هو مايلبس ، وقد جاء فى القرآن على مايلى.

(ا) فاللباس ما يلبس من الثياب وغيرها .

قال تعالى . « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشا » ٢٦ / الأعراف

« ولباسهم فيها حرير » ٢٣ / الحج ، ٣٣ / فاطر .

(ب) واستعمل اللباس على سبيل التشبيه والتمثيل كذلك . قال تعالى « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ١٨٧/ البقرة ، فجعل كلا من الزوجين لباساً لصاحبه لما يصده عن القبيح ويقيه السوء .

ويقال الليل لباس الناس لأنه بظلامه يغطيهم ويسترهم كما يستر الثوب . قال تعالى « وهو الذى جعل لكم الليل لباساً » ٤٧ / الفرقان ومثله ٧ / النبأ .

وقال تعالى « ولباس التقوى ذلك خير » ٣٦ / الأعراف ، ولباس التقوى هو الإيمان والورع والخشية من الله تعالى .

وقال تعالى : « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . ١١٢ / النحل .

جعل الجوع والخوف أو آثارهما الظاهرة فى الجسم لباسا على التجسيم والتشبيه .

لبوس واللبوس هو اللباس وقد أريد به الدرع فى قوله تعالى عن داود عليه السلام .

« وعلمناه صنعة لبوس لكم » ٨٠ / الأنبياء .

ل ب ن

(لبن)

لبن اللبن اسم جنس ، والجمع ألبان ، وهو ما يخرج من ثدى المرأة ، وضرع أنثى الحيوان ، قال تعالى :

« نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصاً سائغاً للشاربين » ٦٦/النحل.

وقد أطلقه القرآن فى متمام الحديث عن الجنة على ما يشبه ذلك ، قال تعالى : « فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه » ١٥ / محمد .

ل ج أ

(ملجأ)

ملجأ لجأ الرجل إلى الحصن : لاذ به واعتصم ، واسم المكان ملجأ ، وهو ما يعتصم به الإنسان من الخطر يحدق به .

ومنه قوله تعالى : «لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه » ٥٧/التوبة.

ل ج ج

(لج . لجة . لجى)

لج ١ — لج فى الشىء يلج — من بابى ضرب وعلم — لجاجا : تمادى فيه وأبى أن ينصرف عنه ، ومنه قوله تعالى : « للجوا فى طغيانهم يعمهون » ٧٥/المؤمنون .

لجة ٢ — اللجة : معظم الماء وغمرته .

وقد جاء ذلك فى قوله تعالى : « فلما رأته حسبته لجة » ٤٤ / النمل .

لجى ٣ — اللجى : العميق ، الكثير الماء نسبة إلى اللجة : يقال بحر لجى : تعظم لججه وتتلاطم أمواجه ، ومنه قوله تعالى : « أو كظلمات فى بحر لجى » ٤٠ / النور .

ل ح د

(ألحد . إلحاد . ملتحد)

١ ــ ألحد الرجل يلحد إلحاداً يأتى على وجهين :

ألحد

ا ــ فيقال ألحد فى الأمر إذا مال فيه عن سبيل الحق .

ويقال : ألحد فى أسماء الله تعالى إذا سماه بغير ما ينبغى أن يسمى به من أسمائه الحسنى .

وألحد فى آيات الله إذا انحرف فى تأويلها عن جهة الصحة والاستقامة أو جادل فيها ومارى .

وقد جاء من هذا قوله تعالى « فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه » ٤٠ / الأعراف

أى اتركوا تسمية الذين يميلون الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى .

ب ــ ويقال ألحد بلسانه إلى كذا مال إليه فى القول والحديث .

قال تعالى فى مقام الإنكار لزعم من يذهبون إلى أن الرسول يأخذ عن بعض الأعاجم : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى » ١٠٣ / النحل أى لسان الرجل الذين يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أعجمى والقرآن لسان عربى .

إلحاد

٢ ــ وألحد عدل عن القصد ومنه الإلحاد فى قوله تعالى « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم » ٢٥ / الحج . أى من يرد فى الحرم شيئاً عادلا عن القصد ظالما .

ملتحد

٣ ــ التحد الرجل إلى الشىء ركن إليه ومنه الملتحد وهو الملتجأ يعتصم به الإنسان ، ومنه قوله تعالى : « لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا » ٢٧ / الكهف ومثله ٢٢ / الجن .

ل ح ف

(إلحـــاف)

الحف السائل يلحف إلحافا : ألح فى سؤاله وأبى أن يفارق إلا بشىء يعطاه .

إلحافا وقد جاء من هذا قوله تعالى : « تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا » ٢٧٣ / البقرة .

ل ح ق

(لحق — ألحق)

لحق ١ — لحق به ولحقه يلحق لحقا ولحاقا : أدركه وبلغه وقد جاء من هذا قوله تعالى . « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم » ١٧٠ / آل عمران .

أى يستبشر الشهداء بالذين بقوا من بعدهم ولم يقتلوا فيدركوهم أو لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم .

« وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » ٣ / الجمعة ، أى لم يدركوهم وسيأتون من بعدهم .

ألحق ٢ — ألحقته بغيره جعلته يلحقه ويدركه .

وقد جاء منذلك قوله تعالى : « قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء » ٢٧ / سبأ أى قايستم بينهم وبين الله وأبلغتموهم مبلغه من الألوهية .

« توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » ١٠١ / يوسف ، أى واجعلنى مع الصالحين .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

---

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة أو طوائف إسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وأن يعتمد على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وأن لا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ — من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديما فى الشئون الدينية ، واستغلتها فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتا لأقدامهم ، وقد سخّروا - مع الأسف - بعض الكتاب والأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة .

هذا ما نريد أن نلفت إليه أنظار بعض المؤلفين أو المعلّقين على الآثار فى عصرنا هذا ،

ونرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، بل مصلحة الإسلام والمسلمين قبل كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى :ـ

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

جـ ـ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشاً مصرياً

وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣



تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الثالثة
العدد الثالث

رمضان ١٣٨٠ هـ
يوليو ١٩٥١ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

«قرآن كريم»

بسم الله الرحمن الرحيم



كانت « إيران » فى الأشهر الأخيرة هى الدولة البارزة فى الشرق والغرب ، بما وقع فيها من أحداث ، وبما اعتزمته فى وجه أكبر دولة استعمارية من تقرير « تأميم » البترول فى بلادها ، وإنهاء عقد الشركة التى كانت تقوم على استخراجه وتصريفه ، ووقفت الدنيا كلها ترقب « إيران » بين مشفق عليها ومشفق على العالم من حوادثها ، وبات المسلمون فى رَوْع وفزع يخافون على الشقيقة الكريمة التى أوقعتها الحوادث بين نارين من الكتلتين عن يمين وشمال ، ويدعون ربهم أن ينقذها من كيد الكائدين ، وطمع الطامعين ، وأن يخرجها من هذه الفتنة مُخرَجاً حسناً يصون به عزتها وكرامتها ومصالحها ، وأن يدرأ عنها عوادى السوء ، ويجنبها مواقع الزلل ، ويحميها فى جهادها ونضالها من شر أعدائها ومن شر نفسها .

ونحن نكتب هذه الكلمات ـ فى آخر الأسبوع الثانى من شهر رمضان المبارك ـ والأزمة ما زالت قائمة لا يدرى أحد متى تنفرج ، ولا كيف تنفرج ، ومهما يكن من شىء فقد دلت هذه الأزمة على حيوية فى الشعب الإيرانى ، وشدة فى شكيمته ، ونبهت أهل الاستعمار وأصحاب المطامع إلى أن للشعوب صَحَوات ، وإن طالت بها الغَفَوات ، وأن من الخير لهم أن يتخذوا مع هذا الشرق سبيلا غير مادرجوا عليه من السبل ، فقد تغير الزمان ، وتبدلت الأجيال غير الأجيال ، وأصبح الذى كان يُرى بالأمس سياسة وكيسا ، يُعدُّ اليوم حماقة وأَفَنا ، ولن تستطيع قوة فى الأرض أن توقف عَجَلة التقدم والله هو مُسيّرها ، ولَيُغلبَن مُغالِب الغلاب .

* * *

إن « تأميم » المرافق ومنابع الثروات حق طبيعى للأمم ، لأنه انتفاع الموهوب بما وهب له ، والله تعالى قد وزع هباته على الناس ، فلم يحصرها فى شعب ،

ولم يخص بها أرضا دون أرض ، فلهذه الأمة أرضها الخصيبة ، وللأخرى مناجمها الحديدية أو الذهبية ، وللثالثة بترولها أو فحمها أو ما شاء الله من خير ، فإذا حاولت أمة أن تحوز لنفسها كل خيرات الأرض أو جلها فهى أمة أثرة خارجة على الطبيعة متمردة على أمر الله ، وإذا فرطت أمة فيما وهبها الله فأقطعته غيرها أو نزلت عن منافعه فقد رفضت هبة ربها وبطرت نعمته ، ولن يكون فى العالم سعادة وهناءة حتى يكون فيه توازن وتعاون ، ولن يكون التوازن والتعاون إلا إذا احترم التوزيع الإلهى ، ووجهت القوى إلى تبادل منافعه ، لا إلى اغتصابه أو انتزاعه ، وليست جريمة المغتصب فى هذا بأكبر من جريمة المفرط ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه .

* * *

هناك أنواع أخرى من « التأميم » يجدر بالعالم الإسلامى أن ينشدها ويفيد منها ، فليست هبات الله قاصرة على الثروات المادية التى أودعها الأرض ، ولكن له هبات وراء ذلك ، ولعل بعضها أسمى وأغلى من الثروات الطبيعية ، فنحن مثلا معاشر المسلمين قد أوتينا القرآن والشريعة الإسلامية ، وفيهما كنوز لو أثرناها لكان لنا فى العالم مقام محمود ، ولأدينا الأمانة الغالية التى عهد الله إلينا بها من هداية العالم إلى الصراط المستقيم ، ولكننا نترك هذه الثروة التى خصنا الله بها كما تُترك الكنوز فى بطن الأرض يأتى عليها الإهمال أو النسيان ، ونفتح آفاقنا لأفكار غيرنا وتشريع غيرنا ، فيكون لأصحابها السيادة علينا والتحكم فينا ، وما من شعب من شعوب الأمة الإسلامية فى وقتنا الحاضر إلا وهو يحكم بشريعة غير شريعة القرآن ، ونحن أمة القرآن ! .

إن التفريط فى هذه الشريعة تفريط فى مورد من موارد عظمتنا وعزتنا ، وإن التسليم فيه للذين غزوا عقولنا ونظمنا لا يقل خطراً عن التسليم فى آبار البترول للذين غزوا ثرواتنا ، فلنحرص على تأميم تشريعنا كما نحرص على تأميم بترولنا .

ثم ما أحوجنا كذلك إلى أن « نؤمم » رجالنا وأبناءنا ، فقد خرَّجت عصور الضعف والانحلال جيلا منا يؤمن بالغرب ويكفر بالشرق ، وجر ذلك كثيراً منهم إلى أن يصبأ عن الولاء لوطنه ، أو يشرك فى حب أمته ، فهم فينا خدام لأعدائنا من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، وهم آفتنا وجرثومة الكثير من أدوائنا ، فعلينا أن « نؤممهم » ونطبعهم بطابعنا ، ونعلمهم أن « التوحيد » فريضة فى حب الوطن والولاء للأمة ، كما هو فريضة فى الإيمان بالله ، ولا يكون ذلك إلا إذا صغنا أبناءنا منذ الصغر على ثقافتنا وأفكارنا وأصول ملتنا ، وحببنا إليهم مفاخرنا ، وعرضنا لهم الاسلام عرضا جذابا فى صورته النقية الوضاءة التى أنزله الله عليها ، وحميناهم شر الخرافات والأوهام والأضاليل التى أدخلت على الدين وليست من الدين ، وأفهمناهم أنهم أبناء أمة عزيزة كريمة ليست حدودها هى تلك الحدود الضيقة التى فرضها الاستعمار والظلم ، وإنما هى حيث يوجد مؤمن فى أية بقعة من بقاع الأرض يدعو ربه ويؤمن برسوله وكتابه ، فالاسلام ليس دين جنسية أو عصبية أو إقليمية ، وإنما هو دين عقيدة ومُثل ومبادىء يوجد حيث توجد ، ويجمع عليها القلوب والأرواح ، وإن تباعدت الديار والأشباح !.

إننا إن فعلنا ذلك « أممنا » رجالنا وأبناءنا ، أى « أممنا » أنفسنا ، وقد كان هذا هو حال المؤمنين الأولين ، فقد علموا أن المؤمن الحق هو من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأنه لا يكمل إيمان أحدهم حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن المؤمن لايحب إلا فى الله ولا يبغض إلا فى الله ، وأن دستورهم المتبعَ فى ذلك هو ما قرره كتاب الله : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ».

إذا كان من خصائص « التأميم » نفى الدخيل ، والاعتزاز بالأصيل ، فإن « جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية » تأخذ بمبدأ « التأميم » وتسير على روحه ، فهى تعلم أن الاسلام أمة واحدة ، ربها واحد ، ونبيها واحد ، وكتابها واحد ، وأن المسلم لا يخالف المسلم فى عقيدة أصلية من عقائد الإيمان وإن اختلفا فى فروع من العلميات أو العمليات ، وأن هذا الخلاف فى الفروع بعد الاتفاق فى الأصول أمر طبيعى لا سبيل إلى رفعه ، فلم يقل أحد إن أفراد الأسرة الواحدة يجب أن يكونوا متحدين فى كل شأن من شئونهم ، ولكن يكفى أن يتفقوا على الأسس التى لا يكونون أسرة واحدة إلا بها ، ولهم بعد ذلك أن يختلفوا ماشاء لهم الاختلاف دون أن يتصدعوا أو يتهدم كيانهم .

تعرف ذلك جماعة التقريب ، وتعرف أن عوامل غريبة عن أهل الاسلام حاولت فى الماضى وما زالت تحاول أن تصور لهم الخلاف فيما وراء الأصول التى بها يكون الإيمان خلافا أساسياً يمنع تعاون السنى والشيعى ، ويحول دون تآخيهما الذى فرضه الله ، وهذه العوامل الغريبة تعمل فى ذلك لمصلحتها ، ولا تقصد من وراء سعيها إلا أن تفرق فتسود .

فجماعة التقريب تريد أن تبعد هذه العوامل الغريبة عن المسلمين ، وأن تبصرهم بسوء قصدها وسوء مغبتها ، وأن تخلصهم لأنفسهم ، وتعيدهم إلى سماحة دينهم وتمكنهم من الرجوع بأنفسهم إلى مصادرهم الأولى التى لا تثمر إلا الصفاء والأخوة والتعاون والمحبة ، فهى تنفى عنهم الدخيل ، وتقف فى وجهه كما يقف الحارس الأمين فى وجه لص مخاتل مخادع يلبس لباس الأصدقاء وهو أعدى الأعداء .

فإذا نجحت هذه الجماعة ؛ وإنها لناجحة بإذن الله .

عادت الأمة أمة ، وعاد إليها أمرها ، وأحياها الله بعد موتها .

والله يحيي ويميت وهو على كل شىء قدير ؟

محمد محمد المدنى

تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

سورة النساء

— ١ —

هذه هي السورة الرابعة من سور القرآن الكريم ، وكثيراً ما يطلق عليها اسم « سورة النساء الكبرى » تمييزاً لها عن سورة أخرى عرضت لبعض شئونهن وهي « سورة الطلاق » التي كثيراً ما يطلق عليها اسم « سورة النساء الصغرى » .

ولم تكن هاتان السورتان فقط هما كل ما عرض فيه القرآن لشأن النساء ؛ بل عرض لهن في أكثر من عشر سور ، وإن لم تسم بهذا الاسم : عرض لهن فيسورة البقرة في ربعين عظيمين هما : « يسألونك عن الخمر والميسر » « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » بيّن في أولهما حكم تزوج المسلم للمشركة التي لا تؤمن بكتاب ولا برسول ، وحكم تزوج المسلمة بالمشرك : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » :

وأبطل بعض العادات الضارة التى كان يعتادها أهـل الجاهلية مع النساء ، « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين » .

وأبطل بعض المعاملات التى كان يؤذى النساءَ بها أهلُ الجاهلية ، كما بين الطلاق الذى يملك الرجل فيه رجعة الزوجة ، والطلاق الذى لا يملك فيه الرجعة ، وبين أن للمرأة الحق فى افتداء نفسها بما تملك من مال إذا أساء الرجل عشرتها وامتنع عن طلاقها ، وبـيّن مساواتها للرجل فيما لها وفيما عليها من الحقوق الزوجية ، وأمر بإمساكها بمعروف أو تسريحها بإحسان ، وحذر من عضل النساء ومنعهن من أن يتزوجن بمن يرون طمعاً فى مالهن وضراراً لهن .

وبـيّن فى الربع الثانى أن المرأة شريكة الرجل فى شأن الولد وإرضاعه ، وأنه لا يصح للرجل أن يبت فى هـذا الشأن برأى إلا « عن تراض منهما وتشاور » . وبـيّن فى هذا السياق الخطبة وأدبها ، كما بين حق المطلقات فى المتعة وهى ما يبذله الرجل للمرأة بعد طلاقها مما تتعزى به ويخفف عنها وقع الفراق وجعله حقاً على المتقين ، وبـيّن عدّة المتوفى عنها زوجها وحث الأزواج على الإيصاء لهن بعد الوفاه بالبقاء فى منازلهن دون إخراج لهنّ منها . نرى ذلك كله فى الآيات من ٢٢٦ — ٢٤٢ .

وعرض لهن فى سورة المائدة ، وبـيّن حل تزوّج المحصنات الكتابيات منهن وسوّى فى حقوق الزوجية بينهن وبين المحصنات المؤمنات ، ونرى ذلك فى الآية الخامسة من هذه السورة .

وعرض لهن فى سورة النور ، وبين ما يردعهن عن ارتكاب ما يزرى بالكرامة ويخل بالشرف والمكانة ، كما بـيّن حكم من تعدى عليهن بالقذف زوجا كان أو غير زوج ، وشرع الأدب الواجب على الرجال حين يردن الدخول عليهن فى البيوت ،

وذلك حفظاً لهن من أن تقع عليهن الأنظار وهن فى حالة التبذل والقيام بالمصالح المنزلية ، كما خص هؤلاء الذين نضبت وجوههم من ماء الحياء بشديد من التحذير مما اعتادوا فى إكراه الفتيات على البغاء تكسباً بعرضهن . نرى ذلك كله فى الآية الثانية حتى الآية الرابعة والثلاثين . ثم فى الآية الثامنة والخمسين حتى الآية الحادية والستين .

وعرض لهن فى سورة الأحزاب وعالج كثيراً من المشاكل المنزلية وما يجب عليهن من آداب وقد اتخذت السورة زوجات الرسول مثالا حيا فيما ينبغى أن تتخذه الزوجة الصالحة أساساً لحياتها المنزلية الفاضلة . ونرى ذلك فى الآية الثلاثين من هذه السورة حتى الآية التاسعة والخمسين .

وعرض لهن فى سورة المجادلة ، فاستمع إلى رأى المرأة وقرره مبدأ يسير عليه التشريع العام الخالد ، وبذلك كانت آيات الظهار التى بدئت بها السورة المذكورة أثراً من آثار الفكر النسائى ، وصفحة إلهية خالدة تلمح فيها على مر الدهور صورة احترام الإسلام للمرأة ، وأن الاسلام ليس - كما يظن أعداؤه - يراها مخلوقاً يقاد بفكر الرجل ورأيه ، وإنما هى مخلوق له إبداء رأيه ، وللرأى قيمته ووزنه .

يقول أوس بن الصامت لزوجه خولة بنت ثعلبة : « أنت علىّ كظهر أمى » وكان المعروف فى الجاهلية أن الرجل إذا قال هذه الكلمة لزوجته حرمت عليه . ثم دعاها أوس إلى نفسه فأبت وقالت : والذى نفس خولة بيده لا تصل إلىّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ، ثم جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : يارسول الله إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ فلما خلا سنى ، ونثرت بطنى جعلنى كأمه ، وتركنى إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لى رخصة يارسول الله فحدثنى بها . فقال عليه الصلاة والسلام : ما أمرت فى شأنك بشىء حتى الآن ، وما أراك إلا قد حرمت عليه ، فأخذت تجادل رسول الله مراراً وتقول فى الرد عليه : إنه ما ذكر طلاقا ، فكيف أحرم عليه ؟ إن لى منه صبية صغارا إن ضمهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول :

اللهم إنى أشكو إليك ، وما برحت على هذه الحال حتى نزلت الآيات الأربع الأوائل من هذه السورة .

وعرض لهن فى سورة الممتحنة ، وبيّن حكم النساء يهاجرن مؤمنات من بلاد الأعداء إلى بلاد الإسلام وحكم زوجيتهن لأزواجهن السابقين، وزواجهن بالمؤمنين وبيّن حقهن فى المبايعة على السمع والطاعة ، وعلى القيام بحدود الشريعة وأحكامها وأنهن فى ذلك كالرجال ، وقد روى المفسرون قصة هذه المبايعة التى شغلت مركز المفاوضة فيها عن النساء هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وهى قصة طريفة ، يبدو فيها ظاهرة عظيمة من حرية الرأى فى النقاش والحوار ، ونرى ذلك فى الآيات من العاشرة حتى الثانية عشرة من هذه السورة .

وعرض لهن فى سورة التحريم فى شأن جرى بين زوجات الرسول ، ويجرى بين كل الزوجات فى كل زمان ومكان ، وتقررت فى هذه السورة مسئولية المرأة عن نفسها مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل ، وأنه لا يؤثر عليها وهى صالحة فساد الرجل وطغيانه . ولا ينفعها وهى طالحة صلاح الرجل وتقواه ، ونرى ذلك فى الآيات الخمس الأوائل من هذه السورة ، والآيات الثلاث التى ختمت بهن .

* * *

وأخيراً عرض القرآن الكريم للنساء فى سورتهن الكبرى والصغرى : النساء والطلاق . وكم تنبض قلوب النساء فرحا لتكريم الله لهن وعنايته بهنّ حينما يسمعن أو يعلمن أن القرآن عرض لهن فى هذه السور كلها ، وأن من بين هذه السور سورتين سميتا باسمهن ، وعالجتا كثيراً من شئونهن فى أطوار حياتهن كلها ، من عهد الطفولة إلى عهد الزوجية والأمومة ، وأن إحدى هاتين السورتين تبدأ بخطاب الناس جميعاً وتردهم بذكورهم وإناثهم إلى أصل واحد ، تنتظمهم جميعاً رحم واحدة ، وأن الأخرى ، وهى الصغرى تبدأ بخطاب الرسول بوصف النبوة فيما تعرض له من أحكام . وفى هذا وذاك حث شديد ، واستنهاض قوى على مراعاة ما يفرض بعد الخطاب فى شأن النساء من أحكام وارشادات ، ولا ريب أن منزلة النساء

من العاطفة والمركز الاجتماعى فى الأسرة جديرة أن تستثار فى أمرهن وشيجة الرحم التى تجمع بين الناس ذكوراً وأناثا ، والتى يقوم الرجال بحقوقها والهيمنة عليها « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » وعاطفة الرحمة التى يحملها وصف النبوة « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

وهذا الوضع كما يبعث فىقلوب النساء الفرح بتكريم الله لهن ، جديربأن يلفت هؤلاء الذين يرمون الإسلام بأنه يحط من قدر النساء ليتعرفوا هذه المكانة التى وضع الإسلام النساء فيها فيكفوا عن زعمهم أن الإسلام لم يمنح المرأة من العناية والاهتمام ما منحتها المدنية الحديثة ، والواقع أن الإسلام منح النساء كل خير ، وصانهن عن كل شر ، ولم يأب عليهن سوى ما دفعتهن إليه هذه المدنية الكاذبة من « حرية » جعلت المرأة الغربية إذا ما خلت إلى ضميرها الإنسانى تبكى دما على الكرامة المفقودة ، والعرض المبتذل ، والسعادة الضائعة . وسيعلم النساء متى ثُبْن إلى رشدهن أن لا منقذ لهن ، ولا حافظ لكرامتهن سوى هـذه التعاليم الإلهية التى يحاول ذوو الغرض والمخادعون أن يصوروها فى أعينهن بصورة الأغلال . التىتطوق الأعناق وتحول بينهن وبين مالهن من حق فى الحياة ؛ ونرجوأن يجد النساء فيما تضمنته هذه السورة من أحكام ترفع قدرهن وتُعلى شأنهن الحجة القوية فى الإيمان بأن هؤلاء لم يقصدوا بتشويه وضعهن فى الإسلام إلا الكيد لهن ، والحيلولة بينهن وبين التمتع النفسى والاجتماعى بهذه المكانة التى رسمها لهن القرآن الكريم .

* * *

ونعود فنتحدث عن سورة النساء ، وأول ما يلفت نظرنا بعد ما تقـدم أن سورة النساء هذه إحدى سورتين فى القرآن الكريم بدأهما الله بنداء واحد وأمر واحد ، بدأهما بنداء الناس جميعاً ، وأمرهم بتقوى ربهم الذى هو مصدر الفضل والإنعام عليهم بنعمة الخلق والإيجاد ، وبنعمة التهيئة لوسائل الحياة الفاضلة والانتفاع بهـا « وبنعمة الجزاء على الأعمال خيرها وشرها : « يأيهـا الناس اتقوا ربكم » بهذا بدئت سورة النساء ، وبه بدئت سورة الحج ، وتشير سورة النساء فى سياق الأمر

بتقوى الرب إلى أوْلى النعم وأهمها وهى نعمة الخلق ونعمة الرحم التى انتظمت الناس جميعاً والتى نشأت عن خلقهم من نفس واحدة « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » وبهذا كان الناس فى نظر القرآن على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وتباين أقطارهم أسرة واحدة ، للواحد منها حق الأسرة وعليه واجبها فلا تظالم ، ولا طغيان ، ولا طبقات ، ولا استغلال ، ولكن محبة ، وتآلف ، وعدل ، ومساواة . وهذا أصل قرره القرآن فى غير ما آية ، ودعا به الانسانية إلى التصافى ، والتعاون ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

وجدير بأهل الحضارة الحديثة ، والثقافة البشرية أن يخلعوا أنفسهم مما كبّلوها به من أغلال الجحود والنكران والتعصب ، برهة من الزمن يتفهموا فيها تلك الحقيقة الواقعية التى يقررها الوحى الإلهى ، فيثوبوا إلى رشدهم ، ويريحوا أنفسهم من عناء التكتل الجنسى ، أو الاقليمى ، أو الدينى ، استعدادا لهذه المجازر البشرية التى يسقون فيها الأرض بدماء أرحامهم وإخوانهم فى الإنسانية التى كرمها الله وفضلها على كثير من خلقه .

هذا وتشير السورة الأخرى وهى سورة الحج بعد نداء الناس جميعا ، وأمرهم بالتقوى ، إلى هوْل يوم القيامة ، يوم البعث والجزاء على الأعمال ، استنهاضاً للهمم نحو عمل الخير ومكافحة الشر ، وتجعل ذلك تمهيداً لإقامة الحجة على أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، كما تجعل سورة النساء المبدأ الذى قررته تمهيدا يوحى إلى الناس بادىء ذى بدء بالتزام الأحكام التى شرعها الله بعد لينظموا بها أحوالهم ، ويقيموا عليها شئونهم وحياتهم . « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » .

وهكذا تجيء السورة الرابعة من نصف القرآن الأول مذكرة بجانب المبدأ وتشرع ما تقتضيه السعادة فى الحياة الأولى . وتجيء السورة الرابعة من نصفه الثانى مذكرة بجانب المعاد ، وما أعد فيه لمن أحسن فى الأولى ولمن أساء ، وبهذا وذاك يتم للناس تمثل سبيل الحياتين ويعرفون سبيل السعادة فى الدارين .

* * *

يجدر بنا بعد هذا أن نجمل ما عرضت له سورة النساء من أحكام وإرشاد فى نواحى الجماعة فنقول :

إن احتفاظ الأمم بكيانها يرتبط بأمرين عظيمين : الاستقرار الداخلى ، والاستقرار الخارجى .

فالاستقرار الداخلى : أساسه صلاح الأسرة ، وصلاح المال فى ظل تشريع قوى عادل ، مبنى على مراعاة مقتضيات الطبيعة الإنسانية ، مجرد من تحكيم الأهواء والشهوات ، وذلك إنما يكون إذا كان صادراً عن حكيم خبير بنزعات النفوس واتجاهاتها ، تمتلىء النفس بعظمته وقوته ، وغيرته على تشريعه ومحارمه .

والاستقرار الخارجى : أساسه احتفاظ الأمة بشخصيتها ، والاستعداد لمقاومة الشر الذى يطرأ عليها ، والعدو الذى يطمع فيها .

وسورة النساء تكفلت بوضع أسس الأحكام التى تصلح بها هذه النواحى ، ونستطيع أن نرد ما عرضت له السورة إلى الموضوعات الآتية :

الأسرة ، المال ، أساس الجماعة الاسلامية ، مصادر التشريع ، ألوان التمرد على التشريع ، أسس الاستقرار الخارجى ، مكافحة الآراء والشبه الضارة ، تتويج هذا كله بالدعوة إلى الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من هداية ونور .

ففى نظام الأسرة أعلنت السورة أولا أن المرأة أحد العنصرين اللذين تكاثر منهما الانسان ، وجعلت ذلك نعمة توجب على الناس تقوى الله ومراقبته « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » .

وقررت مساواة النساء بالرجال فيما هو من خصائص الإنسانية ، فشرعت الكسب للنساء كالرجال ، وأرشدت كلا منهما إلى تحرى الفضل والخير من الأموال بالعمل دون التمنى والتشهى ، وأنه ليس للرجل أن يسلب المرأة العمل الذى خلقت له ، كما أنه ليس للمرأة أن تطمع فيما وراء مؤهلاتها الطبيعية ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما ، ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدا » الآيتين ٣٢ ، ٣٣

وقررت أن للنساء ثواب أعمالهن الصالحة ، وأن مسئوليتهن عن أعمالهن مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل ، فهى إنسان مكلف مسئول ، والرجل إنسان مكلف مسئول « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » الآية ١٢٤

وعلى هذا الأساس رفع الاسلام شأن المرأة عن أن تكون متاعا يورث وجعل لها حرية فى ذاتها وأموالها « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ، وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » الآيتين ١٩ ، ٢٠

وفى حقوقهن المالية يقول : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئا مريئا » الآية الرابعة .

وشرعت نظاما للزواج فيه تكريم للمرأة والأسرة فحظرت التزوج بأصناف من النساء حفظا لروابط لا ينبغى أن تعرّض بالزواج إلى الفساد :

حظرت زواج الأبناء من زوجات الآباء ، وزواج الآباء من زوجات الأبناء

وحظرت زواج الأمهات ، والبنات ، والأخوات ، والعمات ، والخالات ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، والأمهات من الرضاع ، والأخوات من الرضاعة ، وأمهات النساء والربائب بشرطه المذكور فى الآية ، وحظرت الجمع بين الأختين ، وزواج المتزوجات والمعتدات ، واقرأ فى ذلك كله قوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيما . والمحصنات من النساء إلا ماملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما » .

وأشارت إلى تخير الزوجات من العناصر الطيبة وهى الحرائر المؤمنات ، ومنعت العدول إلى غيرهن إلا عند العجز عنهن مع خوف العنت ، وذلك شأن له قيمته فى أساس الأسرة ، فى إنجاب الولد ، واختيار البيئة الصالحة لتربيته ، وضمان التوافق والسعادة فى الحياة الزوجية ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى :

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » الآية ٢٥

ومن هنا أخذ الفقهاء أن الشريفة مقدمة فى الزواج على غير الشريفة ، وأن حسنة السمعة مقدمة على سيئتها ، وفى هذا إيحاء قوى للنساء بأن يعملن جهدهن على تحسين سمعتهن . وتحليهن بالأخلاق الفاضلة التى ترغب فيهن الأزواج ، ويلتقى هذا مع قوله تعالى فى سورة النور : « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » .

ولقد كان لما اتخذته الفتاة لنفسها أو مكنها منه ولى أمرها من حرية واسعة فى هذه الأيام نصيب كبير فيما نرى من أزمة الزواج ، وإعراض الشباب عنه ، لما يعلمون عن الفتاة من أخلاق جعلت الزواج فى نظرهم بابا من أبواب الشقاء . فعلى الفتاة ، وعلى ولى أمرها أن يتدبرا الأمر ، فإن عليهما وحدهما تقع تبعة هذه المشكلة ، وعليهما وحدهما أن يعملا على حلها إن إرادا الخير والسعادة .

وأفرغت السورة على عقد الزواج صبغة كريمة أخرجته عن أن يكون عقد تمليك كعقد البيع والاجارة ، أو نوعا من الاسترقاق والأسر كما كانت قبل الاسلام عند العرب وغيرهم . أفرغت عليه صبغة « الميثاق الغليظ » .

ولهذا التعبير قيمته فى الإيحاء بوجبات الحفظ والرحمة والمودة ؛ وبذلك كان الزواج عهداً شريفا ، وميثاقاً غليظا ترتبط به القلوب ، وتختلط به المصالح ويندمج كل من الطرفين فى صاحبه ، فيتحد شعورهما ، وتلتقى رغباتهما ، وآمالهما ، كان علاقة دونها علاقة الصداقة والقرابة ، وعلاقة الأبوة والبنوة « هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن » « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » يتفكرون فيدركون أن سعادة الحياة الزوجية إنما تبنى على هذه العناصر الثلاثة : السكن والمودة والرحمة . وجدير بمن يتخذون الزواج وسيلة للإغناء بمال الزوجة أومال الزوج أو جاه كل منهما أن يتدبروا ما تؤول إليه حال كثير ممن ينهجون المنهج المادى فى إيجاد تلك الرابطة الروحية القلبية ، فكم من بيوت خرت على عروشها ، وكم من أبناء شردوا ، وكم من أزواج تعرضوا للذلة والمهانة حينما تقلص عن أفق حياتهم الزوجية هذا المال الذى كانوا يقصدون ، وهذا الجاه الذى كانوا عليه يعتمدون .

ولما أخرج القرآن عقد الزواج عن أن يكون عقد تمليك طرفاه مبيع وثمن أفرغ على المال الذى يبذله الرجل للزوجة صبغة « الصدُقات » ووصفه بأنه نحلة ، والنحلة ما يمنح عن طيب نفس دون أن يكون عوضاً عن شىء ، ولا ريب

أن الصلة بين الزوجين أعلى وأشرف من أن يجعل عوضها دراهم معدودة ، فليس المهر فى نظر الإسلام ثمنا ، ولا عوضا عن شيء يملكه الرجل فى المرأة كما يظن كثير من الناس ، وإنما هو آية من آيات المحبة والتقدير ، ولذلك كان واجبا على الرجل ، وإن اتفق الزوجان على ألاّ مهر للزوجة « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » .

وإذا تنبهنا إلى أن كلمة ميثاق لم ترد فى القرآن الكريم إلا تعبيراً عما بين الله وعباده من موجبات التوحيد ، والتزام الأحكام ، وعما بين الدولة والدولة من الشئون العامة الخطيرة ، علمنا مقدار المكانة التى سما القرآن بعقد الزواج إليها ، وإذا تنبهنا مرة أخرى إلى أن وصف الميثاق « بالغليظ » لم يرد فى موضع من مواضعه إلا فى عقد الزواج تضاعف لدينا سمو هذه المكانة التى رفع القرآن إليها هذه الرابطة السامية عن كل ما أطلق عليه كلمة « ميثاق » .

وبيّنت السورة الدرجة التى جعلها الله للرجال على النساء بعد أن سوى بينهما فى الحقوق والواجبات ، وأنها لا تعدو درجة الإشراف والرعاية بحكم القدرة الطبيعية التى يمتاز بها الرجل على المرأة ، وبحكم الكد والعمل فى تحصيل المال الذى ينفقه فى سبيل القيام بحقوق الزوجة والأسرة . وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد والتسخير كما يصورها المخادعون المغرضون . واقرأ فى ذلك أولا قوله تعالى فى سورة البقرة : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » ثم اقرأ فى سورتنا قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

وأرشدت السورة بعد هذا إلى أن النساء أمام هذه الرياسة منهن صالحات ، وأن من شأن الصالحات القنوت وهو السكون والطاعة لله فيما أمر به ، ومنه القيام بحقوق الزوجية والرياسة المنزلية والخضوع لرياسة الرجل فيما جعلت له فيه الرياسة والاحتفاظ بالأسرار الزوجية والمنزلية ، التى لا ينبغى أن يطلع عليه أحد غير الزوجين ، وأن هذا الصنف من الزوجات ليس للزوج عليهن شيء من سلطان التأديب .

أما غير الصالحات - وهنّ اللاتى يحاولن الخروج على حقوق الزوجية ويحاولن الترفع والنشوز عن مركز الرياسة ، بل على ما تقتضيه فطرهن فيعرضن بذلك الحياة الزوجية للتدهور والانحلال - فقد وضعت السورة لردعهن واصلاحهن وردهن إلى مكانتهن الطبيعية والمنزلية : طريقين واضحين ، وكلت أحدهما إلى الرجل بحكم الإشراف والرياسة وهو أن يعالجها بأنواع من العلاج ، هى الوعظ ، والهجر ، والضرب ؛ لكل صنف من النساء ما يليق به ويكفى فى ردعه .

فالتى يكفيها الوعظ بالقول لا يستعمل معها الهجر ولا الضرب ، والتى يصلحها الهجر لايتهاون فى جانبها بالوقوف عند حد القول والوعظ ، ولا يسرف فيصل به الأمر إلى حد الضرب ، بل يهجر وكفى .

وهناك صنف من النساء معروف فى بعض البيئات لا تؤثر فيه الموعظة ولا يكترث بالهجر فضلا عن أن يصلحه الهجر ، فأبيح للرجل نوع من التأديب المادى وهو الذى عبر عنه القرآن بالضرب وجعله آخر الوسائل الإصلاحية إشارة إلى أنه لايلجأ إليه إلا عند الضرورة كدواء أخير . وقد أساء المتحضرون من أبناء المسلمين فهم هذا النوع من العلاج ووصفوه بأنه نوع من الطغيان الذى لا يتفق وكرامة الزوجة ، وهم فى الواقع إنما يتملقون بذلك عواطف المرأة ، ويتظاهرون أمامها بالحرص على مصلحتها وكرامتها ، وحسبنا أن نسأل المرأة العاقلة : أى الأمرين أحفظ لحياة الزوجة ، وأبقى على الأسرة ؟ أأن تؤخذ الزوجة الشاذة بشىء من العقوبة يردها إلى صوابها ، أم تترك لتسترسل فى نشوزها فتهدم بيتها وسعادتها وتشرد أطفالها ؟ إن التأديب المادى لأرباب الشذوذ أمر تدعو إلية الفطر ، وقد وكلته الطبيعة إلى الآباء فى الأسر ، كما وكلته إلى الحكام فى الأمم ، ولولا هذا لما بقيت أسرة ، ولا صلحت أمة ، وليس من كرامة الأسرة أن يهرع الرجل إلى طلب محاكمة زوجه كلما انحرفت أو خالفت أو حاولت أن تنحرف وتخالف . فهذا هو التشريع الحكيم الذى وضعه الخبير بطيات النفوس ، الرحيم بخلقه ، المحيط بالطبائع

أما الطريق الثانى فهو التحكيم ، وجاءت آيته بعد آية الطريق الأول للإشارة إلى أنه إنما يكون فى حال عجز الرجل عن العلاج بالطريق التى شرعت له وعند تطور الحالة من النشوز إلى الشقاء ، وفى حالة ما إذا كان النشوز واقعاً من الزوج نفسه ، وقد خاطب الله بهذا العلاج الأخير جماعة المسلمين تحقيقا لما يجب أن يكون بينهم من التكافل والتضامن على حفظ الأسر والبيوت ، وعلى الحكام أن يقوموا بمثل هذا الواجب نيابة عن جماعة المسلمين كما هو الشأن فى الأحكام التى تتعلق بالأفراد ، ولا يمكن أن يقوم بها الأفراد ، كالحكم بالقصاص ، والحدود ، وكل ما توجبه المصلحة لجماعة المسلمين .

وقد طلبت الآيات الواردة فى التحكيم ، أن يكون الحكمان فى هذا الشأن من أهل الزوجين وذلك نظراً إلى أن الشأن فى الأهل أن يكونوا أدرى الناس بأحوال الزوجين وأحرصهم على سعادتهما ، وأقدرهم على التأثير فى نفوسهما ، وأحفظهم لما قد يجدون بينهما من أسرار ، واقرأ فى ذلك كله قوله تعالى :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا ، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً » الآيتين ٣٤ ، ٣٥ . واقرأ فيه أيضا قوله فى السورة :

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا .. الآية ١٢٨ »

أما بعـد :

فهذه جملة الأسس الإصلاحية فى جانب الأسرة ، التى تناولتها أو أشارت اليها سورة النساء ، وإلى اللقاء فى العدد المقبل إن شاء الله ؟

المعتزلة والمحدّثون

لحضرة صاحب العزة الاستاذ الدكتور أحمد امين بك

كان للمعتزلة منهج خاص أشبه ما يكون بمنهج من يسميهم الفرنج العقليين ، عمادهم الشك أولا ، والتجربة ثانيا ، والحكم أخيراً . وللجاحظ فى كتابه الحيوان مبحث طريف عن الشك ، وكانوا وفق هذا المنهج لا يقبلون الحديث إلا إذا أقره العقل ، ويؤولون الآيات حسب ما يتفق والعقل كما فعل الزمخشرى فى الكشاف ، ولا يؤمنون برؤية الإنسان للجن لأن الله تعالى يقول : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم » ويهزءون بمن يخاف من الجن ، ولا يؤمنون بالخرافات والأوهام، ويؤسسون دعوتهم إلى الإسلام حسب مقتضيات العقل وفلسفة اليونان ، ولهم فى ذلك باع طويل ، ولا يؤمنون بأقوال أرسطو لأنه أرسطو ، بل نرى فى الحيوان أن الجاحظ يفضل أحيانا قول أعرابى جاهلى بدوى على قول أرسطو الفيلسوف الكبير .

هكذا كان منهجهم ، وهو منهج لا يناسب إلا الخاصة ، ولذلك لم يعتنق الاعتزال إلا خاصة المثقفين ، أما العوام فكانوا يكرهونه .

وجرّهم هذا المنهج إلى تشريح الصحابة والتابعين كما يشرح سائر الناس ، فهم فى نظرهم عرضة للخطأ كما يخطىء الناس ، فلم يتورعوا عن أن ينقدوا أبا بكر وعمر وعثمان ، ولم يمنعهم أن يفضلوا بعضهم على بعض ، ومن أجل هذا كانوا أقرب إلى الشيعة من المحدثين ، بل كان بعض المعتزلة شيعة .

ويقابل هذا المنهج منهج المحدّثين ، وهو منهج يعتمد على الرواية لا على الدراية ، ولذلك كان نقدهم للحديث نقد سند لا متن ، ومتى صح السند صح المتن ولو خالف العقل ، وقل أن نجد حديثاً نُـقِد من ناحية المتن عندهم ، وإذا عُرِض عليهم أمر رجعوا إلى الحديث ولو كان ظاهره لايتفق والعقل ، كما يتجلى ذلك فى مذهب الحنابلة

وكان من سوء الحظ أن تدخّل المعتزلة فى السياسة ولم يقتصروا على الدين ، والسياسة دائماً شائكة ، فنصرهم على ذلك المأمون والواثق والمعتصم ، وامتحنوا الناس وأكرهوهم على الاعتزال ، فكرههم العامة واستبطلوا الإمام ابن حنبل الذى وقف فى وجههم ، فلما جاء المتوكل انتصر للرأى العام ضدهم ، وانتصر للإمام أحمد ابن حنبل على الجاحظ وابن أبى دؤاد وأمثالهما ، ونكل بهم تنكيلا شديدا ، فبعد أن كان يتظاهر الرجل بأنه معتزلى ، كان الرجل يعتزل ويختفى حتى عد جريئاً كل الجراءة الزمخشرى الذى كان يتظاهر بالاعتزال ويؤلف فيه ، ولم يكن له كل هذا الفضل ، لأنه أتى بعد هدوء الفورة التى حدثت ضد الاعتزال .

فلنتصور الآن ماذا كان يكون لو سار المسلمون على منهج الاعتزال إلى اليوم ؟! أظن أن مذهب الشك والتجربة واليقين بعدهما كان يكون قد ربى وترعرع ونضج فى غضون الألف السنة التى مرت عليه ، وكنا نَفْضُل الأوروبيين فى نفختهم وطنطنتهم بالشك والتجربة التى ينسبانها إلى بيكن مع أنه لم يعمل أكثر من بسط مذهب المعتزلة . وكان هذا الشك وهذه التجربة مما يؤدى حتما إلى الاختراع وبدل تأخر الاختراع إلى مابعد بيكن وديكارت ؛ كان يتقدم مئات من السنين ، وكان العالم قد وصل إلى ما لم يصل اليه إلى اليوم ، وكان وصوله على يد المسلمين لا على يد الغربيين ، وكان لا يموت خلق الابتكار فى الشرق ويقتصر على الغرب ، فقد عهدنا المسلمين بفضل منهج المحدثين يقتصرون على جمع متفرق أو تفريق مجتمع ، وقل أن نجد مبتكراً كابن خلدون الذى كانت له مدرسة خاصة ، تلاميذها الغربيون لا الشرقيون .

فالحق أن خسارة المسلمين بإزالة المعتزلة من الوجود كانت خسارة كبرى لا تعوض .

ثم بدأ المسلمون ينهجون منهج الحضارة الغربية تقليداً من الخارج لا بعثاً من الداخل ، وشتان ما بينهما ، فالتقليد للخارج بثّ فيهم ما يسميه علماء النفس مركب النقص ، فهم يرون أنهم عالة على الغربيين فى منهجهم ، ولو كان من أنفسهم لا عتزوا به وافتخروا ، ولكن ما قُدِّر لا بد أن يكون . ولله فى خلقه شئون ؟

تعليق على مقال :

الاجتهاد في نظر الإسلام

لحضرة صاحب السعادة على عبد الرازق باشا

قرأت فى العدد الأخير من مجلة ﴿ رسالة الإسلام ﴾ المؤرخ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠هـ ، إبريل سنة ١٩٥١م ، بحثا قيما لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك تحت عنوان : « الاجتهاد فى نظر الإسلام » ، وقد جاء فى صدر هـذا البحث أنه كان يتجادل معى ، وكنا نستعرض حال المسلمين وما صاروا إليـه من جمود ؛ فقلت فيما قلت : « إن دواء ذلك أن نرجع إلى ما نشرْته قديماً من أن رسالة الإسلام روحانية فقط ، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل . . . الخ .

وقفَتْ أمام ناظرى كلمة « رسالة الإسلام روحانية فقط » ولم تشأ أن تمر من غير أن تثير ذكرى قصة قديمة لهذه الكلمة معى ، وتبعث من جديد فى خاطرى صوراً من هذا الصراع الذى احتدم يوم نشرت كتاب « الإسلام وأصول الحكم » فقد زعم الطاعنون الذين جعلوا فى قلوبهم الحمية يومئذ : أننى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة ، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا ، أما أنا فقد رددت ذلك عليهم وقلت لهم يومئذ صادقا ومخلصاً : « إننى لم أقل ذلك مطلقاً لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره ، ولا قلت شيئا يشبه ذلك الرأى أو يدانيه » ثم كان ما كان من لدد فى الخصومة ، وتماد فى الحق وفى الباطل ، ومصابرة فى الهجوم وفى الدفاع إلى أن قامت هـدنة طال أمدها ، والله وحده يعلم هل تمت الرواية أم لم تتم فصولا !.

أسوق هذا الحديث ليذكر الأستاذ الكاتب الكبير أن فكرة روحانية الاسلام لم تكن رأياً لى يوم نشرت البحث المشار إليه ، وأننى رفضت يومئذ رفضاً باتاً أن يكون ذلك رأيى ، فما ينبغى ـ وذلك موقفى ـ أن أعود اليوم فأقول إننى أدعو إلى أن نرجع إلى ما نشرته قديماً من « أن رسالة الاسلام روحانية فقط » لأن ذلك لم يكن رأيى فى تلك الرساله ولا فى غيرها .

أرجو ألا يظن صديقى أحمد أمين بك أو من يقرأ كلمتى هذه أننى أمارى من قريب أو من بعيد فى صحة الحديث الذى رواه عنى ، فإنى لأذكر هذا الحديث نفسه ، وأذكر أين ومتى كان ؟ وما ينبغى لشىء يرويه الدكتور أحمد بك أمين أن يكون موضعاً للمراء .

وما أرى فى الأمر إلا أن هناك خطأ فى التعبير جرى به لسانى فى المجلس الذى كنا نتجادل فيه ونستعرض حال المسلمين ، وما أدرى كيف تسربت كلمة روحانية الاسلام إلى لسانى يومئذ ، ولم أرد معناها ، ولم يكن يخطر لى ببال ؟ بل لعله الشيطان ألقى فى حديثى بتلك الكلمة ليعيدها جذعة تلك الملحمة التى كانت حول كتاب « الاسلام وأصول الحكم » والتى أشرت إليها آنفا ، وللشيطان أحيانا كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس .

هذه كلمة غير ذات بال لا تمس موضوع المقال ، ولكنها تصحح وضعاً شخصيا أرى من الانصاف أن يصحح ، أما الموضوع فى ذاته فقد رأى الأستاذ الكاتب الكبير : « أن نظريته تؤدى إلى نفس النتيجة التى أراها » وإنه ليشرح صدرى أن يرى الأستاذ الكبير أن غايته تتفق وغايتى ، وذلك فضل من الله كبير ، وما يسرنى أن لى به حمر النعم . ومن يدرى ؟ فلعلنا لو حققنا النظر فيما يظنه الأستاذ الكبير خلافا بيننا فى المقدمات لا فى النتائج لوجدنا أكثره يرجع إلى اختلاف فى الأسماء وفى تحديد ما تحمل من معان ، ولعلنا لو استطعنا أن نحدد الكلمات التى يقوم الخلاف حول معانيها ومدلولاتها مثل كلمات روحانية الاسلام ، والاجتهاد المطلق الخ لوجدنا بعون الله الاتفاق تاماً بيننا فى المقدمات والنتائج وفى المبادىء والغايات ؟

النفسية المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

حصة العالم الحيوانى من لفنه النفسية العالية

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الأستاذ محمد فريد وجدى بك

مدير مجلة الأزهر

إن الروح المحمدية التى اصطفاها الحق سبحانه لنشر دينه العام فى العالم بلغت من السمو إلى الحد الذى استأهلت فيه أن يكل إليها خالق الوجود تربية الأمة التى سيعهد إليها أن تتولى هذه المهمة الخطيرة .

وقد رأيتَ مما ذكرنا فى فصولنا السابقة كيف قامت هذه الروح بمهمتها فى وسط جاهلية جهلاء ، ولم تدع مظنة من مظان الانحراف الخلق ، أو غريزة من غرائز الوحشية الأولى ، إلا انتزعتها وأحلت محلها عاملا إصلاحيا يؤديها إلى مثلها الأعلى ؛ كما لم تبق ناحية من النواحى التى يصل إليها السلطان الآدمى إلا نالت حصتها من العدل والرعاية ، حتى العالم الحيوانى فى ظل هذه الروح العلوية ، مصداقا لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

كان النوع الإنسانى قبل العهد الإسلامى لا يقيم للعالم الحيوانى وزناً ، حتى إن الفلسفة اليونانية التى سيطرت على العقول قروناً طويلة ، تعتبر الحيوانات كائنات مجردة من الحقوق ، لا يقام لحياتها وزن ، وليس لها أقل حق على الإنسان وكيف يقام لها وزن ، وقد قرر أعلام الفلسفة وعلى رأسهم إفلاطون وأرسطو ،

أنها كائنات مجردة من الروح ، مثلها كمثل الجمادات ، فلما جاء الإسلام قرر أن لها أرواحا ، وأنها تحشر يوم القيامة ، ويحاسب من أساء اليها ، ويجازى على ما صنعه بها ، جزاء وفاقا ، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، لا هى أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

كان هذا أول صوت ارتفع فى الأرض يصرح بأن للحيوانات أرواحا تحشر ، وأن من أساء إليها يعذب بدخول جهنم .

من الذى قال قبل الإسلام إن للعصفور حقاً يطالب به يوم القيامة فيؤدى إليه ، ويعذب مهتضمه عذابا نكرا ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قتل عصفوراً بغير حق سأله الله عنه يوم القيامة » .

ومن الذى قال قبل الإسلام إن إسداء البر إلى حيوان قد يكون سبباً فى الحظوة برحمة الله ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يرحم عبده المؤمن برحمته العصفور » .

ومن الذى قال قبل الإسلام ان الله جل شأنه يلعن من يتجارى على التمثيل بعصفور ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لعن الله من مثل بالعضفور » .

فإذا علمت ان لعنة الله للعبد هى اكبر عقوبة يمكن ان يجرها إنسان على نفسه بسوء عمله ، ادركت كنه التشديد الوارد فى الإسلام فى وجوب مراعاة حقوق الحيوان .

ومن الذى اوصى قبل الإسلام مقتنى المطايا بالرحمة بها ، والإحسان إليها ، ومراعاة راحتها ، والقيام بواجباتها ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اركبوا هذه الدواب سالمة ، واتدعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق ، فرب مركوبة خير من راكبها ، واكثر ذكراً لله منه .

نعم من الذى قال مثل هذا أو قريبا منه ؟ أليس من أعلى مراتب التنويه بالعالم

الحيوانى قوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث « فرب مركوبة خير من راكبها ، وأكثر ذكراً لله منه » ؟ .

وقد ثبت فى القرنين الأخيرين للباحثين فى العالم الحيوانى أن للحيوانات مدارك وعقولا محدودة ، وأنها تقبل التعلم إلى حد ما ، وقد وصل المشتغلون بتربيتها وتقدير قواها الادراكية ، إلى العلم بأن أكثر الحيوانات ادراكا القردة من طبقة الشامبانزية والأورانج أوتانج ، والفيلة والكلاب والهررة ، وأنها تقبل التعليم إلى حد ما ، فوصلوا إلى تعليم هذين الصنفين الأخيرين طريقة التفاهم بواسطة الكتابة ، لا بأيديهما ولكن بوسيلة أخرى ، وهى بأن يتلو صاحبهما الحروف الهجائية ، فيضرب الحيوان الأرض عند ذكر مخاطبه الحروف التى يتألف منها جواب سؤاله . فرأوا أنهما يجيبانه على ما يسألان عنه بلهجة طفلية فى درجة عقلية الانسان فى سنتة الرابعة من حياته ، وما وصل المشتغلون بهذه التجارب إلى هذه النتيجة إلا بعد عناء كبير وصبر طويل .

ومن يشاهد ما وصل إليه القردة والهررة والكلاب والفيلة والخيول وغيرها من فهم ما يطلبه مدربوها منها من القيام بالحركات والألعاب ، لا يشك فى أنها تفهم ما تؤمر به وتؤديه على الوجه الذى تلقته منهم وهذه التأدية منها تدل على أنها متمتعة بفهم وادراك إلى حد ما ، وهو ما كان ينكر عليها إلى عهد قريب .

* * *

اما بعد فالذى قدمناه من فصولنا تحت عنوان (النفسية المحمدية) يسمح لنا ان نتساءل : هل بلغ رجل فى هذا العالم من وفور العقل ، وبعد النظر ، وسمو الفطرة وسعة المدارك ، وحسن التقدير ، وجلالة المبادىء ، والتجرد من الأهواء ، واكتمال الإنسانية ، ما بلغه (محمد بن عبد الله) رسول رب العالمين إلى الأمم كافة ؟

إذا جحد جاحد هذه الصفات فإن ما قام به صلى الله عليه وسلم من الدعوة إلى الدين الحق ، وما سنه من شرائع للداخلين فيه ، وما اذاعه بأحاديثه من حكمته وتعاليمه ، لأدلة محسوسة لا تقبل النقض على صحة ما نذهب إليه .

إنه ما من فيلسوف أو مشترع ممن عنى العالم بنشر آرائهم ومذاهبهم إلا تؤخذ عليه سقطات ، وتسجل عليه انحرافات ، سوى خاتم المرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، فإن كل ما قاله اصول لا معدى عنها لأمم تريد أن تعيش كريمة ، وقواعد لا بد منها لا رواح تتعطش ان تنال البر وتقيمه ، لا تصادف فيها عوجا ولا أمتا ، ولا تجد فيها النفوس الكريمة ما يصدها عن ان تتخذه لبلوغ غاياتها سمتا ، بل ولا يعثر فيها النقاد على مثل ما يعثرون به فى كثير من المذاهب الفلسفية من الشطط المؤدى إلى الحيرة ، أو الغلو الباعث على العجز .

* * *

هذه النفس التى أعدها الحق أمينة على وحيه ، وامدها من فضله بما اهّلها لأن تكون واسطة بينه وبين خلقه ، جديرة بما أسنده إليها من هداية عباده ، وخليقة بأن يختصها بمنزلة من الكرامة لم تنلها غيرها وهى الماثلة فى قوله تعالى :

« إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

الآراء الاجتماعية في نهج البلاغة

لحضرة الأستاذ عبد الوهاب حموده

أستاذ الأدب الحديث بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

لسنا بصدد تحقيق نسبة كتاب « نهج البلاغة » إلى الإمام على رضى الله عنه ، أو إلى جامعه الشريف الرضى ، فإن لذلك مجالا غير هذا .

غير أنه مما لا شك فيه عند أحد من أدباء هذا العصر ، ولا عند أحد ممن تقدمهم فى أن أكثر ما تضمنه « نهج البلاغة » هو من كلام أمير المؤمنين رضوان الله عليه .

وعلى ضوء هذا الرأى نحن ننظر فى الكتاب فنبحث فى مطاويه ، ونمتع الذهن بأسرار معانيه ، ونستخرج منه الآراء الناضجة الاجتماعية ، والأفكار الخالدة الإنسانية.

وإن الباحث ليتملكه الدهش حين يرى لأدب آل البيت جميعا سمات خاصة وخصائص متمايزة ، لا فرق فى ذلك بين رجالهم ونسائهم وخطبائهم وشعرائهم .

فإن لأدب كل جماعة سمات تستمد من وجداناتهم ، وصدق عواطفهم ، ونبل مقاصدهم ، ودقة مشاعرهم .

فمن سمات أدب آل البيت صدق العاطفة . وجزالة الأسلوب ، وسمو المقصد ، وحرارة العبارة ، وقوة الإيمان ، ورسوخ العقيدة ، وتوقد الوجدان .

ولا عجب فى ذلك ، فإن الأدب ينهض فى عصور المشادة لا عصور اللين والأمن ، وإن عصور الأمن عصور طراوة ودعة لا تحفز النفوس ، ولا تستثير قواها الكامنة .

وعلى النقيض من ذلك عصور المشادة والجهاد التى تحرك أعمق أعماق النفوس وتثير كل تياراتها ، وتبتعث رواقدها ، لما تتطلبه طبيعة العراك من استمداد كل قوة ، وإفراغ كل جهد .

إن الاضطهاد العنيف لم يترك فى أدب آل البيت أنيناً وشكوى ، ولا بكاء ولا عويلا ، وإنما ترك قوة صامدة ، وتحقيراً لأمر الدنيا ، وإعظاماً للجهاد ، وإكباراً للتضحية .

ولم يكن لآل البيت أسلوب قوى فحسب ، بل كانت معانيهم أيضاً قوية ، فقد اصطبغت هذه المعانى بالمثل الأعلى للإيمان والعقيدة ، فاكتسبت رونقا وجلالا وعظمة وجمالا .

ولا غرو فقد قدموا فى سبيل هذه العقيدة أغلى ما يمكن أن يقدمه إنسان قربانا لعقيدة ، وهى أنفسهم الزكية ، وأرواحهم الطاهرة ، أليس يقول الإمام رضى الله عنه : « لنا حق فإن أعطيناه ، وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى » .

وقد اجتمع له رضى الله عنه فى كتاب « نهج البلاغة » ما يجتمع لكبار الحكماء وأفذاذ الفلاسفة ، ونوابغ الربانيين من آيات الحكمة السامية ، وقواعد السياسة المستقيمة ، ومن كل موعظة باهرة ، وحجة بالغة ، وآراء اجتماعية ، وأسس حربية ، مما يشهد للإمام بالفضل وحسن الأثر .

فأنت واجد فى خطبه ووصاياه رضوان الله عنه ملتقى العاطفة المشبوبة والإحساس المتطلع إلى الرحمة والاكبار ، فقد كانت حياته وحياة أبنائه سلسلة من الجهاد والصراع والاضطهاد والجلاد .

فكان رضى الله عنه شجاعا فى غير بغى ، قوياً فى غير قسوة ، سليم الصدر من الضغن والحقد ، برىء النفس من حب الانتقام والغرور ، لا يتكلف ولا يحتال على أن يتكلف ، بل كان يقول : « شر الإخوان من تكلف له » .

وكان لا يعرف غير طريق واحدة هى طريق الصراحة التى تكشف عن قرارة نفسه ، فهو فى طلب الحق لا تلين قناته ، ولا تأخذه فيه هوادة ، وهو يربأ

بنفسه أن يستهوى الأفئدة بالمداجاة والمقاربة وبذل العطاء كما كان يفعل سواه .

ومن اليسير أن نعرف سياسة الإمام بينه وبين رعاياه من غير حاجة إلى الاطالة فى التعريف وسرد الأمثال . فإنها سياسة الرجل الذى شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية فى نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية ، فهى سياسة أقرب إلى المساواة ، وأدنى إلى رعاية الضعفاء ، فالناس فى الحقوق سواء ، لا محاباة لقوى ، ولا إجحاف بضعيف ، فالروح الإنسانى هو قوام الحكومة الإمامية .

فمن آرائه الاجتماعية أنه رضى الله عنه قد دعا إلى التعاون دعوة صريحة فى عبارة نبيلة حيث قال يودع جنوداً ذاهبين إلى القتال :

« وأى امرىء منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ، ورأى من أحد إخوانه فشلا . فليذبّ عن أخيه بفضل نجدته كما يذب عن نفسه ، فلو شاء الله لجعله مثله » .

وهو لا يزال يلح فى دعوته إلى التعاون ، وإنه ليسوقها فى منطق واضح وحجة لازمة : « أيها الناس إنه لا يستغنى الرجل وإن كان ذا مال عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم » .

فالإنسان مدنى بالطبع أو هو كما وصفه فيلسوف اليونان أرسطو « حيوان اجتماعى » ولهذا دعا الإمام دعوته .

وما مر بنا من دعوة الإمام إلى التعاون ، ليس إلا بعض دعوته إلى (الحب العام) فإن قلبه النبيل قد غمر بهذه العاطفة الشريفة ، وثبتها إيمانه القوى المنقطع النظير . وليس هذا بغريب ممن صادق النبي صلوات الله وسلامه عليه وشاطره آلامه وجهاده ، فشعر بحلاوة الصداقة ، وذاق جمال الأخوة .

وإن النزعة الديمقراطية فى كتاب « نهج البلاغة » أبين من أن تحتاج إلى بيان . فهو قد فضل العامة على الخاصة ، وإن سخط الخاصة ، وهذا عرفان منه لخطر العامة ومبلغ تأثيرهم فى صلاح الأمة وفسادها ، فقال :

« إن سخط العامة يجحف برضى الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا

العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء وأقل معونة له فى البلاء ، وأكره للإنصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقل شكراً عند الإعطاء وابطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبرا عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة . وإنما عماد الدين وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء : العامة ، فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم ، فهذا كلام صريح فى تفضيلهم ، والاعتماد عليهم .

غير أنا نقف برهة عند هذا الاندفاع ، نقف لنسمع الاعتدال فى الرأى والأصالة فى الحزم ، والدقة فى الفكرة ، يقول رضى الله عنه فى وصية له :

« ثم الصق بذوى الأحساب وأهل البيوتات الصالحة ، والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة ، والسخاء والسماحة » .

نعم إن هذه النغمة قد تبدو شاذة ، ولكن ينبغى ألا نرتاع لها ولنكمل استمتاعنا بأنشودة الإمام الحبيبة ، فإن وصيته بالالتصاق بذوى الأحساب لاتنافى الديمقراطية فهو لم يدع إلى تمييزهم ، وإنما دعا إلى الانتفاع بما عندهم ، وكثيراً ما يتسق نبل الأخلاق مع نبل الدماء ، ثم إن الإمام أتبع ذلك بقوله « والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسماحة » وهؤلاء يكونون من هذه الطبقة كما يكونون من تلك دون تمييز ، على أن الإمام قد تأثر فيما يبدو بما كان عند العرب من احترام للأنساب وتفاخر بها .

وإذا كان الإمام قد أخذ بالديمقراطية كما وضح فمن الطبيعى أن نراه نصيرا للحرية ، يهيب بابنه « ولا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حرا » .

ولكن الإمام لم ينس أن للجمهور سيئاته ، كما أن له حسناته ، فلنسمع كلمة الامام فى الغوغاء ، قال :

« الناس ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق » .

ووصف الغوغاء فى موضع آخر بأنهم من إذا اجتمعوا غلبوا ، وإذا تفرقوا لم يعرفوا ، ووصفهم مرة أخرى بأنهم من إذا اجتمعوا ضروا ، وإذا تفرقوا نفعوا ، لأن كل صانع ينصرف إلى عمله فيحصل النفع .

وقد وضع الإمام إصبعه على آفة من آفات الجماهير وطبيعة من أخص طبائعهم ، وهى سرعة التقلب ، وقد وضحها « شكسبير » أبلغ توضيح فى رواية « يوليوس قيصر » .

وقد أمر رضى الله عنه باحترام التقاليد الشعبية ، والعادات الاجتماعية ، فكان حكيما بعيد النظر فى سياسة الجماعات ، وما زلنا نرى ساسة الأمم يفشلون حين يتجاهلون للشعوب تقاليدها ، وللجماعات عرفها ، قال الإمام :

« ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة ، واجتمعت بها الألفة وصلحت بها الرعية » .

وإذا أردت وصفاً دقيقا يصدّق الحكمة القائلة « التاريخ يعيد نفسه » فاستمع إليه وهو يصف مجتمعه بأوصاف كأنهم يعيشون بيننا ويتنقلون بين أظهرنا ، فيقول :

« واعلموا — رحمكم الله — أنكم فى زمان القائل فيه بالحق قليل ، واللسان عن الصدق كليل ، واللازم للحق ذليل ، أهله معتكفون على العصيان ، مصطلحون على الإدهان ، فتاهم عارم — شرس — وشائبهم آثم ، وعالمهم منافق ، وقارئهم مماذق — غاش مخادع — لا يعظم صغيرهم كبيرهم ، ولا يعول غنيهم فقيرهم » .

وكان دستوره رضى الله عنه فى تحصيل الضرائب ، الرفق بالأهلين ، وعدم بيع شىء ضرورى ، وهذا ما تفعله قوانيننا الحديثة ، من منع الحجز على الملابس ، ومرتبات الموظفين ، وكل ما يقوم به الأود ، فيقول : « ولا تبيعُن للناس فى الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتمدون عليها ، فإن شكوا ثقلا — أى ثقل المضروب عليهم من مال الخراج — أو علة أو انقطاع شِرب — أى ماء فى بلاد تسقى بالأنهار — أو بالّة — أى ما يبل الأرض من ندى ومطر — أو إحالة أرض اغتمرها غَرَق — أى تحويلها البذر إلى فساد بالتعفن لما اغتمرها وعمها من الغرق — أو أجحف بها عطش ، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم » ، وهذا بعد نظر ، وسياسة مالية حكيمة ، تزيد وضوحا فى قوله :

« تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن

سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله . وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلا ، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإسراف الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر » .

وقد أدى بُعد نظر الإمام به إلى أن يدعو إلى تقسيم الأعمال وتوزيعها ، وهو المبدأ الذى لم تعرفه المدنية إلا حديثاً فقال :

« واجعل لكل إنسان من خدمك عملا تأخذه به فإنه أحرى ألا يتواكلوا فى خدمتك » وقال من رسالة إلى الأشتر النخعى أيضاً :

« واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها طبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة » .

ثم فصل بعد ذلك وظيفة كل فرقة تفصيلا يذكرنا بتقسيم إفلاطون لطبقات المجتمع حين شبهه بجسم الانسان ، فيه القوة العقلية يقوم بها الكتاب والمفكرون ، والقوة الغضبية يمثلها الجيش ، والقوة الشهوية يقوم بها الصناع والزراع .

أما نصائحه وسننه التى وضعها لأفراد المجتمع فى معاملة بعضهم بعضا فكثيرة يعسر حصرها ، منها :

لا تتخذن عدو صديقك صديقا فتعادى صديقك .

ولا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه فانه ليس لك بأخ من أضعت حقه .

لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه فى ثلاثة : فى نكبته وغيبته ووفاته .

صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام .

وبعد : فهذا بحر لا ساحل له ، وكنز لا تنفد ذخائره ، ومنار لا يطفأ إشعاعه فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ؟

الاقتصاد الإسلامى

مقامه بين الاقتصادين الرأسمالى والشيوعى الاشتراكى

للكاتب الفاضل الأستاذ محمود اللبابيدى ـ حلب

مقدمة :

يمتاز الإسلام بين الأديان الكبرى ، بأنه ليس نظاماً دينيا فحسب ، وإنما هو نظام للحياة الفعالة ، تام الحلقات ، أى أنه نظام سياسى كامل ، ونظام اجتماعى سليم ، ثم هو نظام اقتصادى فريد .

ولما كان للدين فى الإسلام مفهومٌ غير مفهومه فى الديانات الأخرى ، وكان تاريخ بعض هذه الديانات قد اقترن بنزعة خصيمة لتقدم العلم ، انتهت بفواجع مؤلمة ، نزلت بنوابغ العلماء ، وأخرت سير العلم ؛ فقد أسىء فهم الدين فى الإسلام من طريق التداعى .

ولم يقتصر سوء الفهم هذا على الأجانب ، بل شمل كثيراً من أبناء الإسلام الذين لم يدرسوه دراسة علمية ، الأمر الذى استلزم أن يقعوا فى أخطاء ، ما كان لهم أن يقعوا فيها ، لولا سوء الفهم هذا .

وأول هذه الأخطاء سوء التقدير لعلاقة الإسلام بالدولة ، ثم سوء التقدير لعلاقته بالعلوم الكونية . ولذا رأينا أن بعضهم راح ينادى بفصل الدين عن السياسة مأخوذاً بما فعلته أمم كانت تدين للكنيسة بالطاعة ، كما راح بعضهم يلوح بضرورة

تبنى الاقتصاد الشيوعى ، بعد أن بدت مقاتل الاقتصاد الرأسمالى الغربى ؛ لأنه يظن خطأ أن السياسة فى الاسلام ، والاقتصادَ الاسلامى ، كلاهما ذو رائحة دينية من النوع الذى خاصم العلم والعلماء .

وكلمتى إلى هؤلاء ، فى توضيح ما عنيته بمفهوم الدين فى الاسلام فى هذه المقدمة ، أن أقول لهم : إذا كانت الكنيسة فى يوم من الأيام قد استندت فى توسيع سلطانها إلى بعض عبارات الكتاب المقدس ، حتى صارت تتدخل باسم الدين فى الصغيرة والكبيرة ، فقد حرر الاسلام أتباعه من مثل هذه السلطة ومن أى سلطة أخرى مهما علا شأنها ، حتى ان الله سبحانه خاطب رسوله الكريم فى كتابه العزيز محدداً وظيفته بقوله « إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » وبذا حرم وجود هيئات كهيئات الإكليروس .

ولهذا لم يعد من الممكن أن يرى فى تاريخ الاسلام قصة كقصة الخصام بين الدين والعلم ، ولا قضية كقضية الفصل بين الدين والدولة ، ولا مذاهب تتضافر على القول بضرورة استبعاد الدين عن حرم العلم .

ثم إن الدين فى الاسلام ليس له مصلحة فى أن يقف فى وجه العلم ، بعد أن امتنع أن يكون له رجال كهنوت وهيئات إكليروس ، يحلون ويعقدون كما يشتهون على نحو ما يجرى إلى اليوم (١)

من أجل هذا ، كان سوء السمعة الذى اكتسبته بعض الأديان ، لما صاحب تاريخها من قتل الناس صبراً فى غرف التعذيب ، وتقديم نوابغ العلماء طعمة للنيران فى ساحات المدن الكبرى باسم الدين ، يجب أن لا ينسحب على الاسلام بوجه من الوجوه .

على أن مفهوم الدين فى الاسلام ، على ما أعتقده كمسلم (٢) ، ليس - فى جوهره -

(١) فى ٢ أيار سنة ١٩٤٩ أصدر البابا منشوراً يحرم فيه زواج الكاثوليكية من الأرثوذوكسى والبروتستنتى و .. الخ (الأب بولس كوسا . دليل الزواج المسيحى ص ٣٢)

(٢) أى فى الشئون السياسية والاقتصادية .

سوى تحقيق « تقوى الله » وما تقوى الله فى واقع الأمر ، سوى توفير العنصر الأخلاقى فى شئون الحياة .

فإذا كانت السياسة فى الاسلام ، يجب أن توضع فى إطار الدين ، فالمقصود من ذلك ، أن تخضع لمبدأ أخلاقى ، ينفى عنها الظلم والعدوان ، سواء فى داخل البلاد أو فى خارجها . وإذا كان الاقتصاد يجب أن يظل فى إطار الدين أيضاً ، فلأن الغرض من ذلك هو ترسيخ اقتصاديات البلاد والمعاملات الاقتصادية على قاعدة أخلاقية ، هى عدم افساحه المجال لمظلمة ، بحيث يسود نظام التكافؤ فى المغرم والمغنم بين جميع المتعاملين ، سواء أكانوا عمالا أم رأسماليين .

فالدين فى الاسلام إذن ، عبارة عن العنصر الأخلاقى وتحقيق وجوده فى كل مرفق من مرافق الحياة ، وليس شيئاً آخر . وهو ما عبر عنه فى الكلمة المأثورة : « الدين المعاملة » أى المعاملة الحسنة الخالية من الظلم بأنواعه ، وهو ما حققه العرب فى فترة من فترات تاريخهم السياسى لما خضعوا للإسلام ، استلزمت أن يشهد لهم مؤرخ أوروبى عظيم ، فيقول « إن العرب أول من علم الناس كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

من أجل هذا ، لم يعد يستقيم النظر إلى الدين فى الاسلام ، من خلال الكوة التى ينظر منها إلى غيره من الأديان ، ولا أن ننفيه من شئون الحياة ، إلا إذا أردنا أن ننفى العنصر الأخلاقى عنها .

ولما كانت مشاكل الاقتصاد الرأسمالى الغربى ، ناجمة فى أحد وجوهها الرئيسية ، من استبعاد العنصر الأخلاقى عن المعاملات الاقتصادية ، فسيجد القارىء أن الاقتصاد الاسلامى وقد قام على توفير العنصر الأخلاقى ، هو الاقتصاد الفريد الذى يقف موقفاً فريداً بين تطرف الاقتصادين : الرأسمالى والشيوعى الاشتراكى ويحل مشاكلهما ، إذ يجمع بين فضائل هذين الاقتصادين من غير أن ينجر إلى عيوبهما .

بعد هذه المقدمة الخاطفة التى كان لا بد منها ، ندخل فى موضوعنا الأساسى فى النطاق الآتى :

١ — الاقتصاد الرأسمالى ، ما له وما عليه .

٢ — الاقتصاد الشيوعى ، ما له وما عليه .

٣ — الاقتصاد الاشتراكى ، ما له وما عليه .

٤ — الاقتصاد الاسلامى .

« أولا » – الاقتصاد الرأسمالى

يقوم الاقتصاد الرأسمالى على أساس حرية الفرد ، فى أن يعمل المرء ما يروقه من الأعمال التجارية والصناعية وما يتبعها من معاملات ، وأن ينتج الأصناف التى يختارها والكمية التى فى وسعه انتاجها ، وأن يتعامل مع غيره بكل ما يستطيع من حرية ، وبعبارة أخرى : إن الاقتصاد الرأسمالى يرتكز على سياسة الباب المفتوح Laissez faire فى الداخل والخارج ، ولهذا أطلقوا عليه أيضا اسم الاقتصاد الحر ، والاقتصاد الفردى ، لأنه يعنى بمصلحة الفرد ولا يتعرف على مصلحة المجتمع .

وقد وجد علماء الرأسمالية أنه لكى تكون الحياة الاقتصادية سوية طبيعية لا بد أن تكون مستندة إلى أسس ثلاثة :

١ — المصلحة الشخصية ، كهدف .

٢ — المزاحمة ، كوسيلة .

٣ — الحرية ، كشرط .

نادوا بالمصلحة الشخصية ، لأن واقع الانسان ، أنه لا يعمل إذا لم يكن له مصلحة شخصية ، وهى تأمين أرباح تغطى نفقاته ونفقات عائلته ، وتضمن له وفراً لأيام العطالة والمرض والشيخوخة ، ووفراً آخر لتجديد ماخلق من وسائل عمله .

ونادوا بالمزاحمة كوسيلة ، لأن الانسان مسير فى أكثر أعماله بخلقه أكثر مما هو مسير بذكائه وعقله . فهو أبداً خاضع للقوانين النفسية التى يسيطر عليها عالم

العواطف ، إذ هو فى حاجة على الدوام لمهماز من « المنافسة » يسوقه نحو العمل والجد والتفوق . وليس من وسيلة لذلك ، إلا إطلاق الانسان فى جو من المزاحمة والمنافسة الحرة .

ونادوا بالحرية كشرط ، لأن فقدانها أو الحد منها يتعارض مع المصلحة الشخصية ويفقدها قوة المنافسة وقيمتها .

هـذه هى أسس الاقتصاد الرأسمالى ، وموجز خاطف عن حجج القائلين به ونحن إذا استعرضنا تاريخ الحركة الاقتصادية فى أوروبا ، رأينا أنه لما دار دولاب العمل فى جو الرأسمالية الحر ، وجـد الناس أنفسهم طبقات : ملاك أشراف ، وربويون ، وصناع وأجراء يعملون وينتجون ، وآخرون يعملون ولا ينتجون كالكهنوت وحواشى الملوك . . . الخ . وكانت الحياة تبدو طبيعية نوعا ما ، لأنه لا أزمات اقتصادية ، ولا مصانع مغلقة ، ولا عمال مضربين .

فلما توصل الذكاء البشرى لايجاد الآلة البخارية ، حلت هذه الآلة مكان الصانع ففاض الإنتاج وكثر المتعطلون ، وراح أرباب الثروات والمصانع ، يعالجون الانتاج الفائض تارة بوقف الانتاج ، وبإغلاق المصانع وصرف العمال ، وتارة أخرى بتدمير الانتاج ، ليظلوا محتفظين بالأسعار العالية .

وتنشأ الأزمات الاقتصادية ، ويدب الذعر فى قلوب العمال أولا ، لحرصهم على القوت ، وتتجهم وجوه أرباب المصانع فزعا من ثورة العمال وتضعضع ثرواتهم الضخمة ، وترتبك الدولة خوف إفلات زمام الأمور من أيديها ، ثم تنفرج الأزمة ، فتتكشف عن مفاسد النظام القائم وعن ضحايا لا بد منها .

ويدور الفلك دورته ، وإذا الأزمات تتكرر من جديد ، وينظر العالم وإذا الثروات الضخمة تتكدس بين أفراد قلائل ، وإذا العالم قبضة هؤلاء النفر ، يوجهون الحكومات الوجهة التى تزيد فى ثرواتهم وتحفظها فى أيديهم ، ولو أدى ذلك إلى شقاء سواد الشعب وهلاكه جوعا ، وإذا الدول الرأسمالية ، تسير فى ركاب الثروة ، وإذا رجال الحكم يقرون السلام أو يعلنون الحرب نزولا على أوامر

رأس المال ، وإذا السلب المنظم والنهب المقنع تحت أسماء مختلفة من أعمال المصارف والبنوك والشركات الاستثمارية ، يصبح دستورا مقدسا ، وحقاً مشروعا لاجدال فيه .

ويرى الناس البؤس والفاقة والمسغبة ، منيخة بكلاكلها على ملايين من البشر المتعطلين ، ويرى الناس الطفولة المشردة ، والشيخوخة المتسكعة ، والنساء الهائمات على وجوههن ، وفى الناس قلوب تتحرك ، وعقول تصطرع ، وفى يد بعضهم أقلام براها الظلم وأشرعها العدم ، فغمسها أصحابها بدموع الملايين من أولئك الأطفال المشردين ، وغذوها بآهات المحاويج ، فولدت الشيوعية ، وهبت ثورات العمال كاسحة ماحقة ، فتحطمت الآلات وخربت المصانع ، وبدأ العالم الجائع المقهور فى عواطفه ، المحروم من كسائه وغذائه ومعرفته يتجمع كالفراش حول الشعلة الحمراء إلى أن أصبحت هذه الفكرة الملتهبة حقيقة دولية فى أكبر ممالك الأرض اتساعا وأعنى بها روسيا السوفياتية التى أضحت رمز الاقتصاد الشيوعى .

« ثانيا » – الاقتصاد الشيوعى

فى هذا الجو الرأسمالى المحموم ، المتعثر بالمشاكل الكثيرة ، وتحت اللهب الأحمر ، والدخان المتصاعد ، وبين الجياع المشردين الذين حطموا الآلات وخربوا المصانع ، وفى رأى بعض ذوى الأقلام المنكوبة ، ولد الاقتصاد الشيوعى وغايته أن يحل محل الاقتصاد الرأسمالى الهرم ، ليضمن العيش لكافة الناس بالتساوى أما وسيلته فالعنف والثورة ، وأما حججه فكما يأتى :

١ — لما كان الركن الأول للاقتصاد الرأسمالى هو المصلحة الشخصية ، فإنه يئول إلى تكديس الثروة بيد الأقلية ، وحرمان الأكثرية من تدارك الحاجات الضرورية ، وبالتالى تضحية مصلحة الأكثرية فى سبيل رفاهيته أقلية ضئيلة ، وخلق تفاوت عظيم بين الناس يجعلهم طبقات يحارب بعضهم بعضا ، حرب الطبقات والاستثمار .

٢ — وإذا كان الركن الثانى للاقتصاد الرأسمالى هو المزاحمة الحرة ، فإن

من أكبر عيوب المزاحمة ، أنها تؤدى إلى تبذير القوى الانتاجية ، ومن ثم إلى تعطيل رءوس الأموال وصرفها عبثا ، ولا أدل على ذلك ، كما يقولون ، من رؤيتنا كيف يحل الدمار والخراب والإفلاس الاقتصادى بين المتزاحمين من أصحاب الإنتاج الموحد .

ولتدارك هذا الخراب قبل حلوله ، نجد أن المنتجين يخفون إلى تكوين اتحادات بينهم ، سواء أكانت من نوع « الكارتل » أم من نوع « التروست » . ولتقريب ذلك إلى فهم القارىء ، نذكره بما يقع عادة فى سورية ولبنان بين أصحاب معامل الجليد « الثلج » فى أيام الصيف ، أو بين أصحاب المطاحن ، من إغلاق كافة معامل الجليد وتشغيل معمل واحد بصورة دورية فى كل أسبوع ، ليظل سعر قالب الثلج واحداً طول فصل الحر ، فيثرى منه أصحاب المعامل .

وفى كلتا الحالتين ، نجد أن المزاحمة فى الاقتصاد الرأسمالى ، قاعدة مجرمة سواء فى حق الرأسماليين أو فى حق المستهلكين ، لأنها فى حق الأولين ، سبيل إلى الخراب الاقتصادى ، إذا لم يقع اتحاد بينهم ، لأنهم يعمدون إلى المضاربة فيفلسون . وهى فى حق التالين مؤامرة مكشوفة ، وسلب فى حمى القانون ، ناهيك عن أن شروط المزاحمة الحرة فى النظام الرأسمالى — وهى تسليح الناس بسلاح متكافىء — مفقودة تماما .

٣ — وأما العيب الثالث فى الاقتصاد الرأسمالى كما يراه الاقتصاد الشيوعى ، فهو الحرية الاقتصادية المطلقة التى لا تعنى سوى الفوضى ، فالاقتصاد الرأسمالى فوضوى إلى حد بعيد . لأنه يترك الفرد حراً فى انتاج ما يشاء كيفما يشاء ، أى نوعا وكماً ، دون أن يحسب حسابا لما ينتجه الآخرون أمثاله ، فيؤدى ذلك إلى فائض فى انتاج نوع من السلع ، وإلى الندرة فى نوع آخر ، وينشأ عن عدم التوازن والانسجام هذه الفوضى التى يعقبها من غير شك ، الأزمات الاقتصادية المخيفة ، حتى إذا انفرجت أزمة جاءت أخرى ، وهكذا لعدم وجود ضابط أو منهاج للاقتصاد الرأسمالى ، ولأن هذه الحرية فى حقيقتها لا تستهدف سوى مصلحة الفرد الشخصية وتسقط من حسابها المصلحة العامة .

هذه هى عيون الاقتصاد الرأسمالى عند القائلين بالاقتصاد الشيوعى ، فعلى أى المبادىء يقوم الاقتصاد الشيوعى ،

يقوم الاقتصاد الشيوعى على المبادىء التالية :

أولا : محو الملكية الفردية محواً تاما ، سواء للأراضى أو للمسقفات أو لرأس المال ، وتمليك كل ذلك المجموع ، وتسليمه للدولة لتديره باسم المجموع ولخير المجموع ، وهو التأميم Nationalisation المطلق .

ثانياً : توزيع السلع الاستهلاكية على الأفراد كل على حسب حاجته .

ثالثاً : المنهاج الاقتصادى .

والعلماء القائلون بالاقتصاد الشيوعى ، يوضحون هذه المبادىء ، فيقولون : إن الغرض من محو الملكية الفردية ، هو إزالة التفاوت بين الناس ، والقضاء على النظام الطبقى قضاء مبرما ، ثم تفادى المشاكل التى يعانيها المجتمع بسبب الجشع الذى يتملك الأفراد نتيجة الأثرة والطمع ، اللذين يؤديان إلى الخصومة فالإجرام ، بسبب رفاهية فريق قليل على حساب بؤس فريق كبير ، ثم إن محو الملكية يؤدى إلى انعدام الأضرار الناجمة عن المزاحمة الحرة غير المتكافئة ، وفى طليعتها التبذير فى القوى الانتاجية التى يمكن إضافتها لتأمين الرغبات البشرية بصورة أفضل ، وتحقيق التساوى بين الناس تحقيقاً تاماً .

وفى معرض شرح المبدأ الثانى ، يقولون : إن توزيع السلع الاستهلاكية على حسب الحاجة أمر لا بد منه ، لأن للإنسان حاجات طبيعية لا محيص من توفيرها لكل الناس كالمأكل والملبس والمسكن والدواء والثقافة ، ولا يمكن حرمان أحد من هذه الحاجات لأنها حقه الطبيعى .

وفى صدد الكلام على المبدأ الثالث ، يقولون : إن ضبط الإنتاج وتوجيهه طبق حاجة المجموع من مفاخر الاقتصاد الشيوعى ، لأنه الدعامة الأولى فى تأمين سلامة المجتمع الشيوعى ، إذ بدونه ، لا معنى لوجود مجتمع شيوعى ، ذلك لأننا

إذا لم نضبط الإنتاج طبقا لمنهج واضح ، تظهر ق هـذا المجتمع نفس الأعراض والأزمات والمشاكل التى يعانيها المجتمع الرأسمالى التى وصفناها قبل قليل .

« ثالثا » - الاقتصاد الاشتراكى

ومن الجدير بالملاحظة ونحن فى هذا المقام ، أن ننبه القارىء إلى أن المؤمنين بالاقتصاد الشيوعى ، وعلى رأسهم أقطاب الشيوعية القابضون على زمام الحكم فى « الاتحاد السوفياتى » اليوم ، قد وجدوا بالتجربة العملية سنوات : أن الاقتصاد الشيوعى لا يمكن تطبيقه من غير أن يمر الناس فى فترة انتقال تسهل لهم العبور إلى هذا اقتصاد ، ولهذا عمدوا إلى تطبيق الاشتراكية الماركسية التى قال بها كارل ماركس Karl Marx صاحب الكتاب الشهير « رأس المال » وهذه الاشتراكية عبارة عن مزيج معدل من الرأسمالية والشيوعية .

وعلى هذا فلا عجب إذا وجد المتتبع أن القائمين على تسيير الاقتصاد فى روسيا اليوم لايفتأون يرسمون المناهج ويهدمونها ليرسموا غيرها ثم ليكون نصيبها الهدم أيضاً إلى أن يهتدوا إلى خير منها ، مما يؤكد وجود الفساد فى هذه الاشتراكية أيضاً كما سيجىء .

فبدأ محو الملكية الفردية ، قد عدل عنه إلى حل وسط ، وهو الاحتفاظ بالصناعات الثقيلة والتجارة الخارجية والمصارف والتجارة الداخلية الكبيرة والمشاريع العامة بإبقائها تحت الانحصار الحكومى ، وإطلاق الصناعة الصغيرة والتجارة الوسطى والصغيرة ، وتركها للسعى الشخصى .

كذلك ، عدل عن مبدأ توزيع السلع الاستهلاكية حسب حاجة الأفراد المفرغ فى النص الآتى : « من كلّ حسب قدرته ، ولكلّ حسب حاجته » فأصبح المبدأ المعمول به كما نص عليه الدستور السوفياتى الصادر سنة ١٩٣٦ « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب مايؤديه من عمل ، ومن لاعمل ، ليس له الحق فى أن يأكل » .

أما السبب فى هذين التعديلين الخطيرين ، فلأنهم وجدوا أن الأفراد لما اطمأنوا إلى تأمين معاشهم بدأوا يتهربون من العمل ، وأخلدوا إلى الكسل ،

لزوال الحوافز والدوافع الشخصية ، حتى صار كل الأفراد يختلقون شتى المعاذير ، ويتوسلون بكل الوسائل ليعملوا فى الأعمال غير المجهدة ، ويهربون من الأعمال المجهدة ، مما اضطر زعماء الشيوعية لإجراء تعديلات خطيرة فى مبادىء الشيوعية ، فأوجدوا فوارق الأجور بعد أن لاح لهم أن هذه الفوارق يجب أن تزول ، وقد عللوا هذه التعديلات أنها وقعت نظراً لأن الناس ما زالوا على عوائد النظام الرأسمالى ، فلا بد لهم من فترة تنسيهم هذه العوائد .

ثم كان مصير المبدأ الثالث للاقتصاد الشيوعى مصير المبدأين السابقين ، إذ أنه على الرغم من أن المنهاج الاقتصادى هو عمدة الاقتصاد الشيوعى ، فقد اضطر السوفيات إلى إهماله تماماً طول فترة الحرب العالمية الثانية ، لأن المنهاج عمل مرهق بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وهو ما لا تحتمله إمكانيات المولعين به ، فضلا عن ملاحظة السوفيات تدهور الحياة الاقتصادية فى بلادهم بسببه .

وهكذا يجد القارىء أنه لم يبق شىء من مبادىء الاقتصاد الشيوعى فى حيز التطبيق ، كذلك فإننا نجد أن نظام الاقتصاد الاشتراكى الذى لجأوا إليه كتدبير وسط ، أو كمعبر يعبرون عليه إلى الاقتصاد الشيوعى ، لم يسعفهم ، وهم فى كل فترة يدخلون عليه تعديلا جديداً .

ومن الأمثلة على ذلك إلغاؤهم المزارع الحكومية المعروفة باسم «السوفركوز» وهى التى أنفقوا عليها نفقات باهظة تقدر بالملايين ، وذلك لظهور فشلها تماما ، كما عدلوا المناهج التى تسير عليها المؤسسات الزراعية التعاونيه المعروفة تحت اسم : « الخولكوز » وهى التى قيل أنها تبشر بالنجاح .

أضف إلى هذا ، أن الاقتصاد الاشتراكى وإن كان أكثر واقعية من الاقتصاد الشيوعى ، وأقرب إلى نفوس الناس من حيث احتفاظه لهم بالملكية الصغيرة والوسطى فى الصناعة والتجارة ؛ إلا أنه لم يلغ المعاملات المصرفية التى تشبه المناشير التى تأكل أموال الناس فى الدخول والخروج ، كما لم يلغ القروض الربوية التى هى فى الواقع أصل بلاء الاقتصاد الرأسمالى والسوس الهدام فى بنائه ، ولأن العمل

فى ورشات الدولة ليس خيراً من العمل فى ورشات الشركات ، بل هو أكثر سوءاً من وجوه عديدة .

« رابعا » – الاقتصاد الاسلامى

مما يلفت النظر ، أن عامة المثقفين من أبناء العرب يجهلون أسس الاقتصاد الإسلامى جهلا تاماً ، كما يجهل خاصتهم قيمه هذا الاقتصاد وقدرته على حل معضلات المجتمع الحديث .

والسبب فى ذلك ، يعود فى رأيى إلى أن اساتذة الاقتصاد فى جامعات الشرق العربى يتجاهلون وجود الاقتصاد الإسلامى ، ولا يعيرون دوره الخطير الذى لعبه فى هذه البلاد طول أربعة عشر قرنا أى اهتمام .

ومع أن تقاليد العلم التى ترعاها الجامعات عادة ، تقضى بأن يبحث واقع البلاد الاقتصادى المنحدر من أعماق التاريخ كأساس للمادة العلمية ، ثم يقفى عليه ببحث الاقتصاد الطارىء مشفوعا بالمعارضة والمقارنة ، إلا أن هؤلاء الأساتذة يمضون فى عرض الاقتصاد الغربى ومشاكله لوحده ، الأمر الذى جعل أغلب طلاب الجامعات العربية ، والفئة المثقفة المتخرجة من هذه الجامعات وجامعات الشرق الأدنى — مع الأسف — يعتقدون بأن علة عزوف الاساتذة عن التعرض للاقتصاد الإسلامى ، هو تفاهة دوره الذى لعبه فى الماضى ، وعجزه عن مجاراة الاقتصاد الحديث فى الحاضر ، وقد يكون فعلا هذا رأى بعض الاساتذة ، فلا يمنع أن نخالفهم فيه ، ونجلو وجه الاقتصاد الإسلامى كما وعيناه .

إن الاقتصاد الاسلامى ، اقتصاد رأسمالى قبل كل شىء . أى أنه يقوم على الأركان الاقتصادية الثلاثة المعروفة : المصلحة الشخصية كهدف ، والمزاحمه كوسيلة والحرية كشرط ، ولكن لا على أسس الرأسمالية الأوروبية الأمريكية التى لا تتعرف مطلقاً على العامل الأخلاقى وتنكره ، بل على أساس الاعتراف بهذا العامل اعترافا تاما . فالفرق اذاً بين الاقتصادين جوهرى وأساسى إلى حد بعيد ، إذ أن أحدهما يثبت العامل الأخلاقى ، بينما الثانى ينفيه ، وشتان بين النفى والإثبات .

ويتجلى الفارق ، فارقا عظيما ، بين نظام رأسمالى يأخذ بعين الاعتبار العامل الأخلاقى كعنصر أساسى ، وبين نظام رأسمالى ينفى هذا العامل ولا يتعرف عليه ، إن النظام الأول « الإسلامى » يعترف بمصلحة المجتمع كضابط عام ، فيحد من حرية الفرد فى تصرفه الاقتصادى ، حداً يظهر أثره فى صالح المجتمع بيناً مقصودا ، بينما نرى النظام الآخر « الأوروبى الأمريكى » فردياً إلى أبعد الحدود ، فإذا صح أن انتفع المجتمع فى ظله ، فيكون انتفاعه عفويا وليس مقصودا كالأول ، وشتان بين الاقتصاد العفوى والاقتصاد الموجه !

إن مصلحة المجتمع فى الاقتصاد الإسلامى ، لتبدو عيانا فى مظهرين عامين :

المظهر الأول — كون الاقتصاد الإسلامى ، يحارب تكديس الثروة وجمعها فى يد فئة قليلة ، ويجنح إلى جعلها رأسماليات متوسطة وصغيرة ، لأنه يحث على انفاقها فى سبيل المصلحة العامة حيث يقول دستوره « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ، ولأن نظامه الإرثى يفتت الثروة تفتيتا لا مثيل له فى أى قانون آخر ، إذ يوزع أنصبته توزيعاً واسعا فهو لا يفعل كالقانون الانكليزى حيث يحصر الثروة فى البكر من الأولاد ، ويحرم ما عداه ؛ كما لا يفعل فعل القوانين الأخرى التى تجيز الوصية لكائن من كان بجميع المال ، سواء أكان وارثا أم غير وارث ، ويتركه لمن يناله بالصدفة (١) . إنما يتصرف تصرف حكيم ، فيعطى للقرابات أنصبة متفاوتة ، وللأبعدين ، ولا يسمح لصاحب الثروة أن يتصرف فيها كما يشاء إلا فى ثلث ثروته ، ويعد هذا الثلث كثيرا . وقد نص على الغاية من ذلك الدستورُ القرآنى ، فقال فى سورة الحشر . « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » محافظة منه على التوازن الاقتصادى فى المجتمع ، ولأنه

(١) أوصت المليونيرة صاحبة شركة ماكينات سنجر للخياطة ، بنصف ثروتها التى تقدر بثلاثة ملايين من الجنيهات ، لمن يعثر على وصيتها ، فعثر عليها عامل على شاطىء البحر قرب سان فرنسيسكو فى زجاجة طافية .! والنصف الثانى لمحاميها ، وحرمت ورثتها .

مقرر لديه ، أن حصر الثروة فى يد فرد : ـ وارث أو موصى له ـ يؤدى حتما إلى اقامة دولة من العسف والطغيان « إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » .

إذن فالاقتصاد الإسلامى ، مؤسس على رعاية المصلحة العامة ، وقائم على محاربة طغيان رأس المال الكبير من غير غلو ولا تطرف .

على أنه لم ينح نحو الاقتصاد الشيوعى فيمحو الملكية محواً تاما ، ولا فعل كما فعل الاقتصاد الاشتراكى من محو الملكية الكبيرة والإبقاء على الصغيرة وتسليم الأولى للدولة ليديرها طبقة من الموظفين ، فيكون قد نقلها من يد قوية إلى يد أقوى ، بل عمد إلى طريقة خير من هذه الطرائق : عمد إلى وسيلة تمنع تجمع المال الوفير ، وجعله يتسرب إلى المجتمع شيئا فشيئا ، لأنه قد لاحظ مسبقاً ، أن رأس المال الكبير سواء أكان فى يد أفراد من الشعب ، أم فى يد موظفى الدولة ، هو سلاح خطر يمكن أساءة استعماله من كلا الفريقين ، بل قد لاحظ أنه فى يد فريق الموظفين أشد خطراً على المجتمع لأن فى يدهم القوة السياسية أيضاً ، ولهذا جنح إلى تفتيته بقدر يستفيد منه المجتمع من غير أن يكون خطراً فى يد الفرد .

وهكذا نجد أن الاقتصاد الإسلامى قد اتخذ موقفاً فريداً ، فآلت إجراءاته إلى إيجاد « نظام الملكيات الوسطى والصغيرة » ليقى أفراد المجتمع طغيان رأس المال الكبير ، وليجنبهم عسف دولة الأغنياء ، وليأمن أيضاً انقلاب دولة الموظفين أشد عسفاً وطغيانا لاجتماع القوة السياسية فى أيديهم أيضاً .

والمظهر الثانى : (لاستهداف الاقتصاد الإسلامى مصلحة المجتمع بصورة مقصودة) تحريمه الربا ، فقد شن حربا لاهوادة فيها على كافة المعاملات والقروض الربوية ، وفى ذلك يقول الدستور الاقتصادى فى الاسلام : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم ، لا تَظلمون ولا تُظلمون » .

والغرض الذى رمى إليه الاقتصاد الاسلامى من تحريم الربا هو إخضاع المعاملات الاقتصادية بكافة وجوهها ، إلى قاعدة ثابتة عادلة ، وقد أفرغها فى هذا

النص الموجز الواضح : « الغنم بالغرم » أما أن يتمتع رأس المال بربح ثابت كما هو جار فى النظم الاقتصادية الأخرى ، فهذا لا يجوز أصلا لتحقق معنى الظلم فيه والاقتصاد الاسلامى يريد أن يبعد هذا الظلم عن كافة المتعاملين على السواء تحقيقاً لمعنى قوله « لا تَظلمون ولا تُظلمون » .

ومعنى آخر يتضمنه تحريم الربا ، هو كون العمل فى عرف الاقتصاد الاسلامى متقوماً برأس المال ، وقد يكونان متساويين ، والأصل كما بنيا أنه لا يحق لرأس المال أن ينفرد بالتمتع بأى امتياز أصلا تجاه العمل ، لأن العمل فى نظره رأس مال معادل ، وفى حالة انضمام رأس المال إلى العمل يعتبران طرفى عقد ، ويتمتعان بامتيازات متساوية فى النتيجة، سواء أكانت هذه النتيجة خسارة أم ربحاً ، ونستطيع أن نبين لك واضحاً أن الخسارة إذا لحقت رأس المال نفسه ، لم يكن لصاحب رأس المال أن يقسم هذه الخسارة بينه وبين العامل بمواهبه وقواه البدنية ، لأن هذه الخسارة قد لحقت العامل نفسه بما صرف من جهد وما بذل من قوة ، ولأن العمل متقوم برأس المال (انظر المادتين ١٣٤٧ و ١٤٢٨ من مجلة الأحكام العدلية التى كانت تقوم مقام القانون المدنى) .

وبذلك يكون الاقتصاد الاسلامى قد حل المشكلة الكبرى القائمة بين الاقتصادين الشيوعى والرأسمالى ، وهى مشكلة فضل القيمة Plus Value (١) .

على أن رأس المال فى الاقتصاد الرأسمالى الغربى يتمتع دوما بحصة الأسد ، ولا يرضى أن يتساوى مع العمل بحال من الأحوال ، إذ يحتم أن ينال فائدة ثابتة مع أصل رأس المال ، وهذا الامتياز لرأس المال (الربا) هو فى الواقع علة بلاء العالم وما يشكو من اضطراب ومشاكل لا تنتهى وحروب لا تنقضى .

---

(١) وفضل القيمة هو الذى يعتبره الاقتصاد الشيوعى السرقة الكبرى ، التى يسرقها أصحاب رءوس الأموال فى المصانع من عمالهم ، لأنها الفرق الحاصل بين تكاليف القطعة المصنوعة بما فيها أجور العمال ، وبين قيمتها فى السوق ، تلك القيمة التى يربحها أصحاب المصانع ، مع أن للعمال الذين أنتجوها حق المقاسمة فيها .

ولهذا لا تجد فى تاريخ الاقتصاد الإسلامى أى تصادم أو أى ثورة فر منها رأس المال ، وللسبب نفسه لا تجد أيضاً فى البلاد التى حكمها هذا الاقتصاد ، أثرا للملكيات الكبيرة أو لرءوس الأموال الضخمة ، إلا عند ما ينحرف الذين بيدهم السلطان عن دستور هذا الاقتصاد ، وتجد هذا التصادم والثورة واضحين فى أوروبا إذ يفرضهما رأس المال هناك فرضا .

إن هذين المظهرين : مظهر تفتيت الثروة وإحالتها إلى ملكيات متوسطة وصغيرة ، ومظهر تحريم الربا ، يبعدان الاقتصاد الاسلامى عن الاصطباغ بالصبغة الفردية المفرقة التى هى طابع الاقتصاد الرأسمالى الغربى .

فالاقتصاد الإسلامى من هذه الجهة ، اقتصاد رأس مالى فردى من نوع خاص له حسنات النظام الرأسمالى الفردى ، ولكن ليست له عيوبه ، لأنه قائم على معيار أخلاقى يجعل فرديته مقيدة بالمصلحة العامة بصورة مقصودة وواضحة ، لاعفوية ولا غامضة .

نأتى الآن على بحث (المزاحمة) التى هى وسيلة الاقتصاد الاسلامى كما هى وسيلة الاقتصاد الغربى لنقول إن هذه الوسيلة مختلفة فى هذين النظامين الرأسماليين كاختلافهما فى مفهوم الفردية الاقتصادية .

لقد هاجم دعاة الاقتصاد الشيوعى والاشتراكى مبدأ المزاحمة هذا بقولهم : إنها مزاحمة بين مجتمع ليس أفراده متكافئين بأسلحتهم ، ولكى تكون مزاحمة حرة ، يجب تسليح الناس جميعا بسلاح واحد ثم تركهم يتنافسون فى معركة الحياة ذلك أن الناس ليسوا متساوين فى الظروف ولا فى الكفاءات الطبيعية ، ولا فى القوة الاقتصادية ، ولا فى احصار الملك والإرث ، إذ منهم من حبته الطبيعة بالذكاء أو بالقوة الجسدية ، أو بالثروة الموروثة ، ومنهم من حرمته من كل ذلك .

ونحن من جانبنا ، يجب قبل البحث فى تكافؤ الأسلحة ، أن نسقط من حسابنا القوى الجسدية ، والمواهب الفكرية ، إذ ليس فى استطاعتنا أن نصحح أسلوب الطبيعة ، أو قانون الوراثة ، كما أنه ليس من المعقول أن نقلل من قوة ذوى البنية

المتينة ، أو أن نحد من مواهب ذوى المواهب ، لكى نساير محدودى الذكاء وضعفاء البنية ، بدعوى التساوى فى الأسلحة !

ولكننا نستطيع أن نسوى بينهم ، من حيث القوة الاقتصادية ، وهذا ما فعله الاقتصاد الإسلامى ، ولم يفطن إليه الاقتصاد الغربى والاقتصاد الاشتراكى .

إن الاقتصاد الإسلامى لكى يضمن المزاحمة الحرة للأفراد فى معركة الحياة بأسلحة متكافئة ، فرض جملة قواعد أهمها :

أولا : أنه حرم الربا لكى لا يثرى أحد من غير عمل أو على حساب غيره .

ثانياً : أنه حرم ألعاب الميسر بأنواعه ، لكى لا يثرى أحد بطريقة الحظ .

ثالثاً : أنه حرم الوصية للوارث ، حتى لا يظفر بنصيبين ، نصيبه من الأرث ونصيبه من الوصية ، فلا يظفر بسلاح أفضل .

رابعاً : أنه فرض الوصية لغير الوارثين ، ليحصل غير الوارث على مال يعده للمزاحمة .

خامساً: أنه حرم أن تتجاوز الوصية ثلث المال ، لكى لا يصير المال كله بالوصية إلى الموصى له ، فيحرم الورثة ، وتختل شروط المزاحمة .

سادساً : أنه جعل أنصبة الإرث متعددة ، ليشيع المال فى أيد متعددة ، فتقل الفروق بين المتزاحمين إلى أقصى درجة، دون الخروج على القواعد النفسية .

سابعاً : أنه فرض الزكاة لثمانية أصناف من الناس عدّدَهم فى سورة التوبة ، وهم أضعف الخلق ، لكى لا يحرم أحدا من سلاح يزاحم به فى مضمار الحياة ، وجعل مقدارها ٢/٥ ./٠ مما يملكه الفرد سنويا من الأموال القابلة النماء ، سواء بنفسها أو بالقوة .

وبعبارة أخرى ، أنه لم يترك فى الساحات الاقتصادية صنفا واحداً من الناس كالوارثين للثروات مثلا أو الموصى لهم ، يديرون المعركة الاقتصادية وحدهم ! بل أشرك معهم كل أصناف الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ممن عددتهم السورة

المشار إليها ، حتى شمل فاقدى الحرية من الرقيق ، ولم ينس المثقلين بالديون فأنه مع تأجيله لديونهم إلى وقت الميسرة « وإن كان ذو عسرة ، فنظرة إلى ميسرة » أفسح لهم المجال ليستأنفوا نشاطهم الاقتصادى من جديد ، بأن ادخر نصيبهم المفروض من ميزانية الزكاة يحفظ لهم فى خزينة الدولة وهو الثمن - كغيرهم من الأصناف الذين أشرنا إليهم - من حاصل ما جمع ، وهو رأسمال جديد يبدءون به عملا جديدا ، ويزاحمون به ، فيستطيعون بكدهم وذكائهم أن يزيدوه ويربحوا المعركة التى خسروها قبلا ، لأن حلبة المزاحمة والمنافسة مفتوحة أمامهم بشروط معتدلة مدى الحياة . وهكذا نجد أن الاقتصاد الاسلامى ، لم يترك وسيلة من الوسائل إلا أخذ بها ، ليجعل أسلحة المتزاحمين فى معركة الحياة متكافئة بصورة عملية .

من الجدير بالملاحظة ، أن الاقتصاد الإسلامى ، بتمهيده للمزاحمة المتكافئة على الوجه الذى بسطناه ، يحتم ظهور طبقة وافرة العدد من صغار الرأسماليين كلما مات رأسمالى كبير مسلم ، وكلما ولد عام جديد ، حيث يبدأ صندوق الزكاة بالتوزيع على المستحقين ، مع العلم أنه إذا لم يظهر مستحق لصنف من الأصناف الثمانية المعدودين عاد نصيبه إلى الأصناف الأخرى ، فيكون نصيب المستحق سبعاً أو سدسا . . الخ .

بعد هذا ، نأتى على ذكر القاعدة الثالثة فى الاقتصاد الرأسمالى وهى (الحرية) إن الحريه الاقتصادية شرط أساسى لازدهار الاقتصاد الرأسمالى من غير شك . غير أن مفهوم هذه الحرية يختلف بين الاقتصاد الإسلامى ، وبين الاقتصاد الغربى اختلافا بينا ، فبينما هى حرية مطلقة إلى أبعد حدود الاطلاق فى هذا الاخير ، لقيامها على سياسة الباب المفتوح Laissez faire إذا هى فى الاقتصاد الاسلامى مقيدة بقيدين خطيرين : المبدأ الأخلاق ، والمصلحة الاجتماعية .

وتظهر هذه الفوارق واضحة بين هذين الاقتصادين من أن الحرية الاقتصادية قد تطورت فى الاقتصاد الغربى تطورا طويلا ، حتى اهتدى أصحابه إلى صورة من صوره

الأخيرة فى شكل الاقتصاد الموجه أو المسير Econamic Dirigee من غير استقرار عليه ، فى حين ولد الاقتصاد الإسلامى محاطا بالحدود والقيود ، ولهذا لم يسمع فى أرجاء الممالك الشاسعة التى خضعت لقواعد هـذا الاقتصاد أن جرى إتلاف المنتجات والمحاصيل للاحتفاظ بالأسعار العالية ، ولو وقع شىء من ذلك لتكفل نظام التقرير الجزائى بقمعه ، فضلا عن أن هذا النظام كان يحارب الاحتكار ، ويعاقب المحتكرين المتحكمين فى الأسواق .

ولقـد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن خلفاء الإسلام ومؤسسة الحسبة كانوا يسهرون على مراقبة الأسواق ، وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب ينزل إلى أسواق مدينة الرسول ويراقب كل ما يجرى فيها ، وقد أغلق فى بعض جولاته عدداً من الحوانيت ، لأنه اكتشف أن أصحابها يجهلون المعاملات الاقتصادية النظيفة ، وقد أنذر أصحاب هذه الحوانيت أن حوانيتهم ستظل مغلقة حتى يتعلموا أصول التعامل الاقتصادى كما رسمه الإسلام ، ومن يفتح اليوم أى كتاب فى (الحسبة) يجد بابا خاصاً يبحث عن (المعاملات المنكرة) أى المعاملات الاقتصادية التى يشجبها الإسلام ويعاقب عليها وهى كثيرة .

النتيجة :

يتضح من هـذه الدراسة الخاطفة والاستعراض الموجز جداً ، الذى قدمناه لتعيين موقع الاقتصاد الإسلامى من الاقتصادين : الرأسمالى والشيوعى أو الاشتراكى :

أولا : أن الاقتصاد الإسلامى اقتصاد رأسمالى فردى من نوع خاص .

ثانياً : أن الاقتصاد الإسلامى لا موقع له بين هذه النظم الاقتصادية ، لأنه فريد فى بابه ونسيج وحـده ، لأنه وفق بين مبدأين يبدوان متناقضين : تقدم العالم وازدهاره ؛ والحيلولة دون إقامة دولة للأغنياء أو لرأس المال ، وذلك لارتكازه على أسس مختلفة مع الأسس التى قامت عليها تلك النظم .

ثالثاً : أن الاقتصاد الإسلامى فيـه من الرأسمالية الفردية خير ما لديها دون شرورها ، وفيه من الاشتراكية أحسن ما لديها دون عيوبها ، أما الاقصاد الشيوعى

فبعيد عنه تماما ، لأنه اقتصاد خيالى إذ لم يعترف بأهمية الغرائز البشرية ، وهذا واقعى ، لأنه قرر مبدأ مسايرة الغرائز والميول النفسية مع تقييده لها .

والسبب فى ذلك ، أن الاقتصاد الإسلامى قد شيدت أسسه على قواعد القانون الطبيعى ، والعدل الاجتماعى فى الحدود العملية ، إذ أنه قد بنى من أساسة على مبدأ صحيح وسليم ، هو مبدأ مسايرة الغرائز والميول النفسية ، فأباحة حق التملك مع تقييد هذا الحق بمبدأين عظيمين معدلين: توفير العنصر الأخلاقى، واستهداف المصلحة العامة للحيلولة دون قيام دولة للأغنياء أو لرأس المال .

وبعبارة أخرى ، إن الاقتصاد الإسلامى ، قد اعترف بهيمنة الغرائز البشرية على الإنسان ، كما اعترف بسلطان الميول النفسية الأساسية عليه ، فلم يشأ أن يصطدم بهذه القوى — كما فعل الاقتصاد الشيوعى وتحطم على صخورها ، فاضطر أن ينشىء له مرحلة انتقالية — وإنما سايرها ، لأن الاصطدام بهذه القوى ، فضلا عن أنه عقيم ووخيم العواقب ، يعوق تقدم العالم .

والاقتصاد الإسلامى ، بوضعه مبدأ مسايرة الغرائز البشرية والميول النفسية ، لم يترك هذا المبدأ طليقاً مطلقا ، بل أنشأ له مبدأ القيد والمراقبة ، هذا المبدأ الذى لم يفطن إليه الاقتصاد الرأسمالى الغربى إلا فى الأيام القريبة جداً ، عند ما اصطدم بالاقتصاد الشيوعى ، ومع ذلك فإنه لم تؤد به هذه الفطنة — التى أكره عليها — إلى اكتشاف أساس صالح يقيم عليه هذا القيد والمراقبة ، كالذى وفق اليه الاقتصاد الإسلامى .

فعيب الاقتصاد الرأسمالى الغربى بعد أن أخضع للتوجيه والمراقبة ، أنه أبقى رأس المال سيداً والعمل رقيقاً ، ولم يعترف بامتيازات لهما متساوية ، فبقيت مشكلة رأس المال والعمل (فضل القيمة Plus Value) من غير حل وهى المشكله الكبرى القائمة إلى اليوم

وعيب الاقتصاد الشيوعى ، تجاهله غرائز الانسان الأصلية وميوله النفسية

كحبه التملك والاقتناء وحب المنافسة والتفوق ، وتجاهله الفوارق الطبيعية بين الأفراد من حيث المواهب الفكرية والقوى الحيوية والجسدية ، أما تفكير أصحابه بأنهم سيقضون على هذه الفوارق ، بتهذيب الناس وإعطائهم الفرص المتكافئة ، وعندئذ يتخلى الناس عن غرائزهم وميولهم هذه إلى غرائز وميول جديدة ، فلعمرى ، إن لم يكن هذا حلما وخيالا ، فإنه أدخل فى باب الوهم والخبال .

إن بواعث النفس لترقية شئون الحياة ، تابعة لقانون ندرة السلع المفضلة التى يجرى وراءها الفرد بقصد حيازتها ، فإذا اضمحل هذا القانون بحكم حصول كل الناس بشكل متساوٍ على كل ما يشتهون ، الذكى كالغبى ، والخامل كالجد ، لم يعد هناك معنى للحياة ، إلا على أساس حيوانى ، والإنسان يربأ بنفسه أن يرتد حيواناً بعد أن قطع مرحلة لا بأس بها فى سلم الحضارة .

وعيب الاقتصاد الاشتراكى ، أنه يعوق تقدم العالم ، إذ يمنع التعاون الاقتصادى بين الأفراد لبناء المشاريع الكبرى ويسلمها للدولة ، إن تسليم المشاريع الكبرى للدولة ليس بحل صحيح لعدم ارتكانه على قاعدة صحيحة ، إذ الأفراد أقدر من الدولة كما قلنا ، على إدارة هذه المشاريع ، لأن أعمال الدولة متسمة على الدوام بميسم البطء والجمود وسوء الإدارة ، فضلا عن أن الاقتصاد الاشتراكى لا يلغى المعاملات والقروض الربوية ، وإن كان يخفض نسبتها .

ويأتى الاقتصاد الإسلامى ، فنجد أنه براء من هذه العيوب جميعها ، لأنه هُدى إلى اكتشاف الأسس الصالحة ، فبنى عليها قواعده وأرساها .

فقد وضع نصب عينيه التوازن بين مبدأين رئيسيين : الأول : تقدم العالم وازدهاره ، والثانى : الحيلولة دون إقامة دولة للأغنياء كى لا يستبد رأس المال ولا يطغى . فكيف يجمع بين هذين النقيضين ويحفظ توازن العالم ؟ وبعبارة أخرى .

إن توازن هذين المبدأين هو مشكلة العالم الحديث القائمة اليوم ، والباقية بلا حل ، وقد واجهت الاقتصاد الإسلامى من قبل لحلها ، فكيف حلها ؟

إن الحل يسير جداً ، مثلما المشكلة معقدة جدا ، إذ كلما رجع الإنسان إلى القانون الطبيعى وإلى العدالة الاجتماعية ، ظفر بهذا الحل ، وهو أمر موضوع فى متناول بصيرة الإنسان .

فالقانون الطبيعى يوحى بأن معالجة الواقع خير من العمل على تغيير هذا الواقع ، لأنه أقصر الطرق ، وأقل نفقة ، وأكثر جدوى . ولهذا وضع الاقتصاد الإسلامى مبدأ مسايرة الغرائز والميول النفسية ، فقرر مبدأ : الحرية الاقتصادية ، ولكى لا يساء استعمال هذه الحرية ، لأن الإساءة مطبوعة فى خصائص الغرائز والميول ، وضع مبدأ القيد والمراقبة . وحتى يكون أساس هذا القيد وهذه المراقبة صالحين لكل زمان ومكان ، ردهما إلى مبدأ أخلاقى يجعل نفى الظلم ملاك أمره ، فقرر مبدأ « مصلحة المجموع مقدمة على مصلحة الفرد » فقال فى المادة ٥٨ من مجلة الأحكام « التصرف على الرعية منوط بالمصلحة » أى مصلحة الجماعات ، فلا يمنع عند الحاجة أن يخضع الاقتصاد إلى برنامج احصائى وغير ذلك من التدابير الواقية . وتطبيقاً لهذا المبدأ وضع أيضا سلسلة من المبادىء التبعية ، فقرر تحريم احتكار ما كان ضروريا لحياة الجماعات ، كما قرر تحريم الربا تحريماً باتا ، ومنع كافة المعاملات الربوية وعاقب عليها ، ليمنع طغيان رأس المال واستبداده بالعاطلين عن رءوس الأموال .

كما وضع مبدأ توازن العمل مع رأس المال ، بأن جعل العمل يقوم مقام رأس المال ، بل جعله رأس مال ، حتى قرر فى شركات المضاربة أنه إذا خسرت الشركة ، توخذ الخسارة من الربح أولا ، ثم من رأس المال ، فإذا استغرقت الخسارة رأس المال فلا يلحق بالمضارب شىء ، لأن العمل لما كان رأس مال مقابل ، فقد فات بالخسارة أيضا (أنظر المادتين ١٣٤٥ و ١٤٢٨ من المجلة القائمة محل القانون المدنى) وبذلك فتح باب التعاون الاقتصادى بين العمل ورأس المال على أساس عادل ، يكفل تقدم العالم وازدهاره ، من غير

إزراء بالعمل ، ولا استعلاء من جانب رأس المال ، بل على أساس التعاون على الإنتاج بحقوق وامتيازات متساوية . وبذلك ضمن استقرار العمل وتفادى الأزمات الاقتصادية وقضى على مشكلة فضل القيمة Plus Value

وعلى هذا الأساس يمكن أن تنقلب بنوك التسليف من بنوك تسليف بفائدة ثابتة على رأس المال ، إلى بنوك تسليف متعاونة لها إشراف وتوجيه ، تتقاسم فى النتيجة الأرباح والخسائر تبعا لقاعدة : « لا تَظلمون ولا تظلمون » التى انبثقت عنها القاعدة العامة الشهيرة « الغنم بالغرم » .

ثم إنه على هذا الأساس من التعاون الاقتصادى السليم ، لا يقر الاقتصاد الإسلامى مبدأ « التأميم المطلق » الذى هو فى الواقع احتكار وانحصار من جانب الدولة Manopole إلا ما كان بالغا حد الضرورة القصوى لحياة الجماعة ، وإن كان يقر التأميم الجزئى ، إذ أن للتأميم المطلق سوءات كثيرة ، فقد سبق لنا أن وصفنا الدولة بأنها أعجز من الأفراد فى إدارة هذه الانحصارات ، لأن أعمالها على الدوام مطبوعة بطابع البطء والجمود وسوء الإدارة مجتمعة ، وهذا يتنافى مع مصلحة المجتمع تماما .

هكذا حل الاقتصاد الإسلامى ، مسألة تقدم العالم وازدهاره بشكل عملى قائم على أساس علمى صحيح ، دون أن يضحى بالعمال ، فلننظر كيف حل مشكلة طغيان رأس المال الفردى .

لقد حلها بإصدار سلسلة من القوانين ترمى كلها إلى تفتيت الثروة والحيلولة دون قيام دولة لرأس المال الفردى ، وهى قوانين تلائم قانون الحياة ، وتمشى مع الغرائز والميول النفسية جنباً إلى جنب . منها قانون الإرث الذى توسع فى تعداد مستحقيه ، وفاوت بين أنصبتهم ، وليس من قانون إرثى آخر توسع هذا التوسع ، ومنها قانون الوصية إذ « لا وصية لوارث » و « لا وصية إلا من ثلث المال والثلث كثير » . ومنها قانون الزكاة الذى توسع فيه أيضاً فشمل ثمانية أصناف من المستحقين ، منهم الفقراء ، ومنهم المساكين ، ومنهم

الأرقاء ليشتروا حريتهم ، ومنهم أبناء السبيل ، ومنهم الذين ركبتهم ديون (١) . الخ فاكتسح بذلك الثرة المتجمعة وفرقها على أصحاب الحاجة ، ليـنزلوا إلى الحياة الاقتصادية من جديد برأسمال جديد ، حتى إذا تجمع رأس المال عند هؤلاء وزاد ونما وبلغ ما بلغ وخيف من طغيانه ، جاء قانون الحياة . جاء الأجل ، وكلٌ آتيه أجله ، فعاد رأس المال متفرقا .

ولهذا فانه كلما مات رأسمالى مسلم ، وكلما ولد عام جديد ، ظهرت فى المجتمع طبقة وافرة العدد من صغار الرأسماليين أو من متوسطيهم وهكذا دواليك .

* * *

على هذين الوجهين ، حل الاقتصاد الإسلامى مشكلة العالم القائمة اليوم ، التى تقف أمامها الأنظمة الاقتصادية المختلفة مكتوفة اليدين ، حلا مبنياً على أسس علمية صحيحة ، تكفل تطور المجتمع وازدهاره ، من غير ظلم للطبقات الكادحة ، كما تكفل تفادى قيام أزمات اقتصادية وثورات عمالية ، ذلك لأن له مزية التأليف العجيب ، بين تجميع الثروة وبين تفتيتها فى آن واحد ، من غير ظلم لأحد ؟

---

(١) لقد كان صندوق الزكاة ، يوفى عن المدينين الذين لزمتهم ديون — من طرق المعاملات المشروعة ، وعجزوا عن الوفاء بها — من (سهم الغارمين) حتى لا تضيع الثقة بين المتداينين ، ويبقى التعاون بين الأفراد قائما .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن رجلا سأله من الصدقة فأجابه بقوله : « إن الله لم يرض فى الصدقة بقسم نبي ولا غيره ، ولكن جزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » .

حاجة القانون إلى الدين

لحضرة الاستاذ الدكتور محمد البهى

أستاذ الفلسفة بكلية اللغة العربية

وضعُ القانون ظاهرةٌ من ظواهر نزعة الاستقلال لدى الإنسان، واعتداده بنفسه، ورغبته فى عدم الإصغاء إلى مصادر التوجيه السابقة، فالإنسان البدائى كان يحتكم إلى العادات المتوارثة فى بيئته فى حسم النزاع والخصومات التى تقع فى جماعته، والإنسان المتدين فى القديم كان يلجأ إلى الكهنة يطلب منها الرأى والفصل فيما يعرض له من مشاكل، والأديان السماوية بعد ذلك تكفلت بإبداء النصيحة للإنسان سواء أكان للفرد فى أموره الخاصة أم فى علاقته بغيره من معاشريه، وأصبحت نصيحتها له شرعة يلتزم الأخذ بها والاطمئنان إليها، ونصائح هذه الأديان كانت فى بداية أمرها جملة من المبادىء العامة تقرها الفطرة الإنسانية السليمة، ثم تطور عنها فيما بعد كثير من التفريعات والتفصيلات المختلفة، وتتصل كثرتها اتصالا وثيقاً بأحداث الجماعة والأخذ فى علاجها فى دائرة تلك المبادىء العامة، ومع أن هذه التفريعات من اجتهاد الإنسان نفسه وعمله الفكرى الخاص لها من قداسة الدين ما لذلك الأصل الذى ترد إليه.

* * *

ولكن الإنسان لم يشأ أن يستمر فى توجيهه فى السلوك الفردى أو السلوك الجماعى مرتبطا ارتباطا كليا بإملاء خارج عنه، صادر من مصدر معين لعقيدة خاصة أو من وحى وظيفة معينة؛ لم يشأ أن يسلم تماما بما ينصح به الدين، وبما يحكيه رجال الدين باسمه، بل رغب فى أن يكون له رأيه فيما يروى له،

وأن يحتكم إلى عقله العام فيما تحكيه المراجع الدينية ورجال الدين فتفلسف ونقد وكون له معرفة خاصة تتميز عن الدين بأنها تحمل طابع الإنسان ونتيجة لقوته الفكرية، ورضى أن تكون معرفته هذه مصدر هدايته وسيره فى الحياة، كما تكون أساسا لتقنينه وتشريعه الوضعى فى جماعته، وأخذت هذه المعرفة اسم « الفلسفة » فى تاريخ الإنسان .

وسارت الفلسفة مع الدين فى اتجاه واحد ولغاية واحدة، فكلاهما قصد إلى إرشاد الإنسان فرداً وجماعة ، وإلى وضع حدود لتسوية ما يجد بين الأفراد من منازعات، والفرقُ بينهما كان فى الخطوات التى يقطعها كل منهما فى سيره نحو الغاية الواحدة ، بطأ وسرعة . ففى الوقت الذى كان التدين يسود جماعة من جماعات الإنسان كانت خطوات الدين فيه أسرع ، وبالعكس إذا سيطرت الفلسفة على عقلية نفر من الخاصة قيض لها أن تحكم الجماعة وتنفرد بالتوجيه فيها .

وعلى كل حال كان مرد أمور الجماعة كلها فى القديم إلى الديانات الشعبية وكهنتها ، ثم إلى الأديان السماوية فيما بعد ، واستمر الوضع على ذلك إلى عصر النهضة فى أوربا وإلى أواخر القرن التاسع عشر فى الشرق .

ومنذ عصر النهضة الأوربية قويت نزعة الإنسان الاستقلالية ، وجدّت الفلسفة - تبعاً لذلك - فى السير نحو هدفها ، وهو إقناع الإنسان بالاعتماد على الإنسان، لا على قوة خارجة عنه ، فى وضع مبادىء السلوك ، وتحديد الحياة ، وتحديد قيمتها ، وتحديد غايتها . ونمت بذلك البحوث الأخلاقية والاجتماعية التى أثرت جميعها فى وضع القانون وتنظيمه ، وأصبح بجانب النهضة العلمية الطبيعية نهضة أخرى تشريعية إنسانية ، وهكذا استقل الإنسان بالتدريج بالسيطرة على حياة الإنسان عن طريق القانون .

والقانون لا ينظر إليه باعتبار أنه جملة من المواد تنظم علائق الأفراد بعضها مع بعض فى الجماعة، بل ينظر إليه من حيث غايته ، وغاية القانون إسعاد الجماعة الإنسانية بالحرص على تحقيق مصالحها العامة .

وفى دائرة هذه الغاية اختلفت قوانين الجماعات فى الأمم والشعوب ، لكنها اعتمدت جميعها على مراعاة البيئة ، والعوامل الاجتماعية ، والمفارقات الجغرافية ، والخصائص الثقافية ، والتقاليد ، لما فى ذلك كله من دخل فى تحقيق الغاية التى يقصد إليها القانون ، ولكل أمة من الأمم الحديثة اليوم قانونها الخاص وفلسفتها الأخلاقية الخاصة ، وهما يهدفان معاً إلى تحقيق المصالح القومية أكثر من تحقيق المصالح الإنسانية البحتة .

وقانون أية أمة من الأمم الحديثة لا يراعى الجوانب السابقة فحسب لتحقيق مصالح الأمة ، بل يراعيها أيضاً لضمان رضاء الأفراد رضاء نفسيا ، وضمان طاعتهم للقانون نفسه .

* * *

للقانون أن ينظم حياة الجماعة الاقتصادية وحياة الأسرة وحياة الفرد فيها ، ويخضع الأفراد على سبيل الإلزام لنظامه ، لكنه لا يطلب ـ كقانون ـ من الفرد أن يتبرع لفقير أو يعمل خيراً لإنسان أو أن يكون ذا فضائل بأن يكون مثلا شجاعا أو ذا قناعة أو إيثاريا ، وهذه معان تدخل أيضاً فى تحقيق السعادة فى الجماعة ومع ذلك لا يستطيع القانون أن يكفلها .

القانون يعنى بظاهر العلاقات بين الأفراد ، لكنه لايستطيع النفاذ إلى نفسية الفرد وتوجيه نشاطه وميوله إلى الخير حتى يكون صنع الخير من عاداته ، لأن ذلك ليس من وظيفته .

والقانون يطاع من الفرد ، ولكنها طاعة معلقة بقدر مايراعى بيئته الجغرافية وخصائصه الوراثية والثقافية ، إذ لو انحرف المقنن عن رعاية بعض هذه النواحى فى تقنينه لاتبدو للفرد مزية فى القانون من أجلها يمنحه طاعته ، ولو أرغم على طاعته فذاك لقوة المشرف عليه فحسب ، وخشية من صرامة منفذه .

فالقانون من حيث هو قانون لا يعالج نفسية الفرد ولا يهتم بتوجيهه ، والقانون من حيث هو قانون أيضاً لا يضمن طاعة الفرد له طاعة مصحوبة أو منبعثة عن رضا نفسى منه .

فهو إذن فى حاجة إلى موجه آخر لنفسية الفرد نحو المثل العليا ، ونحو غاية سامية فوق المصالح المتبادلة بين الأفراد ، هو فى حاجة إلى ما يقوى علاقة الفرد بغيره تقوية ناشئة عن شعور نفسى داخل فيه ، هو فى حاجة إلى ما يصقل الفرد ويهذبه ويُكوّن عنده « الضمير العام » أو ما يسمى بالضمير الإنسانى ، هو فى حاجة إلى عامل آخر غيره ، يحد من فردية الفرد ويخفف من أنانيته .

ولهذا لا يدعى المقننون فى الأمم الحديثة الاكتفاء بالقانون فى توجيه الدولة أو الأمة كجماعة مكونة من أفراد ، بل طلبوا عوناً أجنبياً عنه ، طلبوا عون « التهذيب » ثم رأوا فى الدين أكمل نوع منه ، رأوا فيه ما ينمى طبيعة الخير فى الفرد أو ينشئها فيه ، ورأو فيه ما يكوّن عنده الفضائل الفردية والجماعية ، وما يرسم له طريق الحد من أنانيته ، ثم رأوا أخيراً فيه أنجع وسيلة لتعليم الطاعة للقانون والخضوع للنظام العام عن طمأنينة ورضا .

ففى انكلترا يكوّن الدين أهم العناصر فى تقاليدهم ، وتربيتُهم قائمة على المحافظة على هذه التقاليد والاستمرار فى مراعاتها فى السلوك الفردى والجماعى .

وفى ألمانيا يلعب التهذيب الدينى دوراً رئيسياً فى مرحلة التعليم العام إلى سن الرابعة عشرة ، حتى النازية كانت لا تغفل عنصر الدين كمصدر مهم فى تعويد الناشئة الطاعة للدولة .

القانون بطبيعته ليس له اكتفاء ذاتى فى التوجيه ، وهو بحاجة إلى عامل آخر لضمان سلامة التوجيه ونجاح القانون نفسه فى مهمته . وهذا العامل الآخر لم يره القانون إلا فى الدين .

وليس نجاح القانون إذن فى كثرة دور المحاكم ، وكثرة رجال القضاء ، وكثرة إحداث التشريعات الجديدة المختلفة ، بل نجاحه أولا فى مراعاة خصائص الجماعة ، وثانياً فى الاستعانة بالتهذيب ، إذ كلما كان معبراً عن خصائصها كان أقرب إلى نفسية الأفراد ، وكلما كان أقرب إلى نفسية الأفراد كلما قلت مخالفتهم له ، وعلى قدر استعانة الدولة بالدين - كمصدر لتهذيب الفرد - بجانب القانون تكون طاعة الشعب للدولة وللقانون ؟

رأى فى ابن عربى ودراسته

لحضرة الاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

ابن عربى الفيلسوف ، هو محمد بن على بن محمد الحاتمى ، الملقب بمحيي الدين ، والمعروف بالشيخ الأكبر ، وهوغير أبى بكر بن العربى المحدث الأندلسى ، قاضى قضاة اشبيلية المتوفى عام ٥٤٣ هـ . وفى هذا يقول « المقّرى :

« وكان بالمغرب يعرف بابن العربى بالألف واللام ، واصطلح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام ، فرقا بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى » . (١)

ولد الشيخ الأكبر بمدينة مُرْسية ، وانتقل منها وهو فى دور الطفولة إلى اشبيلية حيث استقر نحوا من ثلاثين عاما ، وفى هذه المدينة كان تحصيله للعلم دراسة وسماعا ، حتى ظهر وعلا أمره . ويصفه بعض من ترجم له بأنه كان « محصلا لفنون العلم أخص تحصيل ، وله فيه الشأو الذى لا يلحق ، والتقدم الذى لا يسبق » .

وقد جرى على سنة سلف له ، من جِلة العلماء ، من المغرب والأندلس ، من الرحلة إلى الشرق للقاء كبار الشيوخ والأخذ عنهم . وللانتفاع بما يوجد فى مكتبات الشرق الحافلة بعيون الكتب والمؤلفات ، إذ كان الشرق فى ذلك العصر مهد العلم ودار المعرفة ، ولذلك تراه يترك اشبيلية عام ٥٩٨ هـ إلى المشرق ليبقى فيه حتى يتوفاه الله . وفى هذه الفترة من حياته ، تراه يحج إلى الحجاز أكثر من مرة ، كما

---

(١) نفح الطيب ، ج ٢ : ٣٧٣ ، نشر مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٩ .

يزور الشام والموصل وآسيا الصغرى ، وأخيراً ينتهى به المطاف إلى دمشق عاصمة الشام ، حيث يلحق بربه عام ٦٣٨ هـ

وابن عربى له المكانة المرموقة جداً فى العلم والفكر ، وتآليفه تبلغ نحو مائة وخمسين كتابا فى ضروب مختلفة من العلوم والمعارف ، وكلها عظيمة القدر والأثر، والمنتفعون به فى حياته ، وبكتاباته بعد وفاته لايحصون كثرة . ومن أجلّ مؤلفاته : « فصوص الحكم » و « الفتوحات المكية » ، وهما ـ فى رأينا ـ المرجعان الأساسيان لمن يريد دراسته ومعرفة مذهبه معرفة حقة من كلامه نفسه ، وقد أفدت منهما كثيراً فى البحث الذى كتبته منذ سنوات عنه فى كتابى : « فلسفة الأخلاق فى الإسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية » ، وهو بحث لا أرى بأساً فى الانتفاع منه فى هذه الكلمة .

وقد تعارف الناس لابن عربى كتاب تفسير القرآن المطبوع منسوبا له فى مجلدين ، وقد تناوله بعض الباحثين(١) على أنه له ، مع أنه لأحد تلامذة مدرسته وهو عبد الرازق الكاشانى المتوفى عام ٧٣٠ هـ . وقد نبهنى لهذا منذ سنوات العالم المحقق الأستاذ الكبير الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، فله عظيم الشكر .

والواقع ، كما قلت من قبل بكتابى « فلسفة الأخلاق » ، أنه بالرجوع إلى كشف الظنون لحاجى خليفة ، بمناسبة الحديث عن « تأويلات القرآن » للكاشانى المذكور يعلم أن كتاب التأويلات هذا هو ما نشر فيما بعد باسم تفسير ابن عربى ، مع أنه ليس له بيقين .

على أن فى نفس هذا التفسير دليلا ماديا يجعله لغير ابن عربى قطعا ، ذلك أنه فى تفسير قوله تعالى فى سورة القصص : « واضمم إليك جناحك من الرهب » ، يذكر المؤلف نقلا عن شيخه المولى « نور الدين عبد الصمد » ، ونور الدين هذا

---

(١) أنظر بحث ابن عربى فى التفكير الاسلامى لحضرة الزميل المحترم الأستاذ الدكتور محمد البهى بالعدد الماضى (جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ هـ ابريل سنة ١٩٥١ م) من هذه المجلة الغراء .

توفى فى حدود عام ٦٩٠ هـ ، فلا يمكن أن يكون شيخاً لابن عربى الذى توفى عام ٦٣٨ ! ونظن أن الأمر ، بعد هذا ، لا يحتاج إلى دليل آخر(١) .

ونسبة بعض الوراقين بعض الكتب لغير أصحابها أمر معروف غير منكور وذلك لأسباب ليس الآن محل بيانها أو الإشارة إليها ، بل إن ابن عربى نفسه قد أضيفت إليه رسالة فى الأخلاق ليست له ، ونشرها محي الدين الكردى ضمن مجموع عام ١٣٢٨ هـ على أنها له ، كما نشرها غيره بعده مستقلة . وهذه الرسالة دخلت على كثير من العلماء ، واعتقدوا أنها من مؤلفات الشيخ الأكبر ، فرجعوا إليها لمعرفة مذهبه فى النفس والأخلاق .

والحق أن هذه الرسالة ليست لفيلسوفنا الصوفى ، ولا للجاحظ الذى نسبت إليه ، ونشرت باسمه أحيانا ؛ إنها ليحيي بن عدى النصرانى اليعقوبى ، الذى انتهت إليه رياسة أهل المنطق فى عصره ـ كما يقول القفطى ـ المتوفى ببغداد عام ٣٦٣ هـ . وإذا قابل الباحث هذه الرسالة المنسوبة لابن عربى ، برسالة « تقريب الأخلاق » ليحيي بن عدى التى نشرها جرجس عوض بمصر عام ١٩١٣ م ، يجد نفسه أمام رسالة واحدة لا رسالتين ، مما يدل على عدم صحة نسبتها إلى صاحب الفتوحات ، فضلا عن أن المذهب الذى تقول به هذه الرسالة لا يتفق فى شىء مع مذهب ابن عربى (٢) .

وبعد هذا ، يحسن أن نتنبه إلى أمر له خطورته فى درس ابن عربى . ذلك أن قارىء كتبه : « الفصوص ، والفتوحات » وغيرهما من المؤلفات صحيحة النسبة له يحس من أول الأمر أن فيها من النصوص ما يتعسر ، إن لم نقل يتعذر ، تأويلها

---

(١) ومع هذا انظر نفح الطيب للمقرى ج ٢ : ٣٧٦ من الطبعة المذكورة ، ففيه أن ابن عربى وصل فى تفسيره إلى آية : « وعلمناه من لدنا علما » من سورة الكهف ، وأنه توفى ولم يكمله ، وهذا طبعا غير التفسير الذى بأيدينا وينسب خطأ له .

(٢) وانظر ص ٣ ، أصل وهامش ، من دراسات فى تاريخ الترجمة فى الإسلام للدكتور كراوس .

لتتفق مع أصول الإسلام التى نعرفها من القرآن والحديث الصحيح ، ومع هذا لا يصح المبادرة إلى استبعاد صدورها عنه ، والتفكير فى أنها مدسوسة عليه كما فعل أحد تلاميذه غير المباشرين وهو الشعرانى المتوفى عام ٩٧٣ هـ .

إنه ليقول فى مختصره للفتوحات ، كما جاء بترجمة ابن عربى الملحقة بكتاب الفتوحات ج ٤ : ٥٥٥ من المقرى : « وقد توقفت حال الاختصار فى مواضع كثيرة منه ، لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة ، فحذفتها من هذا المختصر ، وربما سهوت فتبعت ما فى الكتاب ... ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التى حذفت ثابتة عن الشيخ محيى الدين ، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين أبى الطيب المدنى فذاكرته فى ذلك ، فأخرج لى نسخة من « الفتوحات » قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محيى الدين نفسه بقونية ، فلم أر فيها شيئاً مما توقفت فيه وحذفته ، فعلمت أن النسخ التى بمصر الآن كلها من النسخ التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة ، كما وقع له ذلك فى كتاب « الفصوص » وغيره » .

لكن الباحث الذى يبحث للحق وحده ، لا يرضيه هذا المنهج من الشعرانى ، إنه قد اعتقد بادىء الأمر موافقة ابن عربى لأهل السنة فى العقيدة ، فهو لهذا يحذف من كلامه ما يخالف ذلك ، وتلك خطة إثمها أكبر من نفعها ! إن هذه الخطة تشكك فى الكتب المتوارثة عن أسلافنا الأمجاد ، بلا ضرورة أو برهان ، اللهم إلا الخوف من تهمة أحدهم بالرقة فى الدين ، وهذا ما لا ضرر فيه ، وقد ذهب إلى رب يعلم السر وأخفى ! أما التشكيك فى التراث العلمى بلا دليل ، فمن شأنه أن يدعو بعض من فى قلوبهم مرض من المستشرقين وأمثالهم إلى الشك فيما هو صحيح ويقوم عليه الدين من هذه المؤلفات ، وحينئذ يكون الخطر حقا ، إننا حينئذ لا نستطيع أن ندفعهم عن الشك فى هذا الكتاب أو ذاك ، من الكتب التى نعتبرها صحيحة لا ريب فى نسبتها لأصحابها ، ما دام طريق وصولها إلينا ليس أكثر من طريق وصول « الفتوحات » أو « فصوص الحكم » مثلا !.

هذا ، وابن عربى أحد فلاسفة الإسلام بلا ريب ، وله مذهبه الذى كونه مستنداً فى جوهره إلى الإفلاطونية الحديثة ، وله مدرسته التى يسير تلاميذها على هديه وفى طريقه ، على أنه آثر أو اضطر إلى وضع ما وصل إليه من حقيقة فى إطار كثيف من الرمز والإشارة . ويبين منه اعتماده فى التعبير على عاطفته وخياله ، ولا عجب ! فهو ، ككل الصوفيين أمثاله ، حاول أن يعالج مسائل ليس من السهل - فى رأيه - على العقل وحده أن يعالجها ، دون اعتماد على الذوق والكشف ، ولا على اللغة المتعارفة أن تعبر عن أسرارها . ومن ثم رأوا ضرورة التأويل المجازى لكثير من آى القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولهم فى هذا نظراء من مفكرى اليهودية والمسيحية سبقوهم فى هذا السبيل .

وهذا المذهب ، أو فلسفة ابن عربى كلها التى أراد أن يشرح بها الوجود ، هى « وحدة الوجود » فهذه الفكرة يراها الباحث مبثوثة فى جميع كتبه ، وبخاصة الفتوحات والفصوص ، وفى هذا الكتاب الثانى نجد الشيخ الأكبر يقرر مذهبه فى وحدة الوجود فى صورته الأخيرة التى فهمها وارتضاها ، كما نراه يعالج المشاكل الأخرى التى تفرعت عن هذه الفكرة ، نعنى فكرة وحدة الوجود ، وكل هذا على نحو نعرف منه بوضوح ثباته فى رأيه الذى انتهى إليه .

إنه يرى أنه ليس هناك إلا موجود واحد بحق : هذا الموجود - ولك أن تسميه بالحقيقة الوجودية أو الكلية أو بغير هذا من الأسماء - هو واحد باعتبار ذاته وجوهره ، ومتكثر باعتبار صفاته وأسمائه التى تعرض له بحسب النسب والإضافات ، أى أن لهذه الحقيقة ، أو للحق ، وجوداً حقيقياً فى ذاته ، ووجوداً إضافياً فى أعيان الموجودات . وهى ، أى هذه الحقيقة ، قديمة أزلية ، وإن كانت الصور التى تظهر فيها محدثة متغايرة ، فلنا أن نصفها بالقدم إن أردنا بها الموجود بلا سبق عدم أو وجود الله ، وبالحدوث إن أردنا بها الموجود بعد أن لم يكن وهو ما سوى الله ، ولكنها مع هذا كله واحدة على كل حال .

وهنا يجب أن نلاحظ أن ابن عربى حين يتكلم عن الحدوث والخلق

والوجود بعد عدم ، إنما يريد تبدل الصور وتعاقبها على الحقيقة الواحدة ، أى ظهور الموجود بحق فى صورة غير التى كان ظاهرا فيها من قبل ، أى لا يريد المعانى التى تفهم من هذه المصطلحات فى لسان الشريعة ، بل إن خروج « الشىء » من صورة لأخرى ، يكون من « الشىء » نفسه ، لا بإرادة الله تعالى . وهكذا ، يقضى ابن عربى على فكرة الخلق كما نفهمها ، ويعطل الإرادة الإلهية (١) .

ويحرص صاحب الفتوحات والفصوص حرصاً شديداً على ألا يظهر مذهبه بعيداً عن الدين وتعاليمه ، ولهذا يلجأ كثيراً للقرآن يحاول أن يتخذ منه سندا لآرائه وهذا بتفسيره على ما يريد ؛ ولنذكر لذلك مثالا واحدا :

ففى تفسير قوله تعالى (سورة لقمان آية ١٦) : « إن الله لطيف خبير » يرى أن الله للطافته يكون منبثاً فى كل شىء ، من سماء وأرض وشجر وحيوان ، وما إلى ذلك مما خلق (٢) حتى عجل بنى إسرائيل هو بعض تعينات أو مظاهر الذات الإلهية ؛ ولهذا صح لموسى أن يقول للسامرى الذى صنعه : « وانظر إلى إلهك » إذ علم موسى أن هذا العجل هو بعض المجالى الإلهية التى ظهر فيها الحق تعالى ، ولهذا أيضا كان عتب موسى على أخيه هارون عليهما السلام ، إذ لم يدرك هذه الحقيقة « فإن العارف من يرى الحق فى كل شىء ، بل يراه عين كل شىء » (٣) هكذا يقول ابن عربى متناسياً تتمة الآية الكريمة ، وهى : « وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً » .

---

(١) راجع مثلا فى كتاب فصوص الحكم وشرحه للدكتور أبو العلا عفيفى ج ١ ص ١١٥ ، ١١٦ و ج ٢ ص ١٣٤ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م ، عند الحديث فى الفصل الحادى عشر عن تكوين العالم ، إذ يؤكد أن الشىء متى قال الله « كن » يوجد بنفسه بلا إرادة وخلق من الله تعالى ، لأن فى قوة الشىء التكون من نفسه .

(٢) الفصوص ، نشر الدكتور عفيفى ، ج ١ : ١٨٨ ، ١٨٩

(٣) نفسه ، ج ١ : ١٩٢

هذا مثل واحد فيه الكفاية على ما نعتقد ، لنعرف أى طريق سلكه ابن عربى فى تفسير القرآن ! طريق جعل القرآن الكريم كأنه نصوص فى الفلسفة الإرسطية حينا ، وفى الفلسفة الإفلاطونية الحديثة حيناً آخر ! وكل هذا يشهد لمذهبه القائم على وحدة الوجود ، أى على عدم الاعتراف بوجود خالق ومخلوق بالمعنى الذى يعقله العقل ، ويقول به الدين الحق .

* * *

وأخيراً ، نحب أن نختم هذه الكلمة ببيان أن ابن عربى لم يضف إلى الأدب الفنى « موضوعا لم يطرق من قبل وهو موضوع القصة فى الفلسفة ، كما جاء ببحث « ابن عربى فى التفكير الإسلامى » المنشور بالعدد السابق من هذه المجلة . (جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ هـ - ابريل سنة ١٩٥١ م) فإن من المعروف أن لابن سينا قصة « حى بن يقظان » التى تسمى أيضاً « الرسالة الطيرية » ، وهى مطبوعة ومخطوطة . كما أن له قصيدته العينية المشهورة ، وهى ليست إلا قصة النفس فى فترات وجودها المختلفة .

وبعد ابن سينا نجد الفيلسوف الأندلسى « ابن طفيل » يكتب فى بيان فلسفته قصته المعروفة : « حى بن يقظان » . ومن المعلوم أن كلا من هذين الفيلسوفين سبق ابن عربى فى الوجود والحياة ، وإذاً لا يمكن أن يكون قد طرق فى هذا السبيل موضوعا لم يطرق من قبل ، بل إنه لم يسم بعض ما كتب باسم « القصة » كما فعل الشيخ الرئيس فى المشرق ، وابن طفيل فى المغرب ؟

إعجاز القرآن
فى مذهب الشيعة الإمامية

لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ توفيق الفكيكى

المحامى ببغـــداد

نشرت مجلة الأزهر الزاهرة عدة مقالات فى إعجاز القرآن ومذهب الصرفة لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العمارى . وقد بسط فى مقاله الأخير رأى ابن سنان الخفاجى فى الصرفة ، وابن سنان هو الأديب الشاعر الشيعى صاحب كتاب « سر الفصاحة » وبعد أن سرد الأستاذ الفاضل بالتفصيل أقوال ابن سنان فى الصرفة ، ومناقشته آراء الرمانى الذى يخالفه فى الرأى ، انتهى بذكر مجمل أقوال الخفاجى ، من أن أسلوب القرآن لا يختلف عن أسلوب الفصحاء من العرب ، فمعارضتهم كانت ممكنة لولا الصرفة . ومعناها عنده أنهم سلبوا العلوم ، وهذا القول من الأقوال التى أشار إليها صاحب الطراز ابن حمزة العلوى عن معنى الصرفة خلاصته : « أن الله سلب العرب العلوم التى لا بد منها فى الإتيان بما يشاكل القرآن ، أعم من أن تكون حاصلة لهم فأزيلت عنهم أو غير حاصلة ، ولكن الله صرف دواعيهم عن تحصيلها » ثم قال فضيلة الشيخ العمارى : وهذا مذهب ابن سنان ويظهر أنه مذهب القائلين بالصرفة من الشيعة .

وقد رأيت من المفيد بهذه المناسبة بسط آراء المتقدمين والمتأخرين ممن يعول على آرائهم من فحول علماء الشيعة الإمامية وأعاظم المتكلمين منهم على صفحات ﴿ رسالة الإسلام ﴾ الغراء ، ليقف إخوانهم من حملة القرآن وحماته ودعاته فى المشرقين على أن أقوال أئمة الإمامية المعتمدة المعتبرة ، والمعول عليها عندهم ،

لاتختلف عن كلام أهل التحقيق من أساطين العلم وزعماء البياء فى حقيقة الإعجاز ، حتى لقد اشتهر قولهم : « القول بالصدفة كالقول بالصرفة » وقد نسب إلى الشيخ الجليل العلامة « المفيد » القول بالصرفة على حد قول النظام وأتباعه من المعتزلة فى هذه المسألة ، كما نسب ذلك إلى تلميذه علم الهدى السيد المرتضى ، وسنأتى بما يبطل هذا الاحتمال المخالف لعقيدة الشيعة الإمامية وأصولها .

يرى الشيعة الإمامية كما يرى غيرهم من علماء المسلمين الأجلاء كون القرآن معجزاً خارقاً للعادة ، والاستدلال به على صدق النبى صلى الله عليه وسلم لما فيه من ضروب الإعجاز من الفصاحة المفرطة والنظم المخصوص ، والأسلوب البديع ، أو هو الأمر الخارق للعادة ، المطابق للدعوى ، المقرون بالتحدى ، المتعذر على الخلق إتيان مثله ، والتحدى بتشديد الدال بمعنى المباراة ، وطلب الغالبية فى الدعاوى . وجاء فى تفسير العلامة المحقق الشيخ الطبرسى ، وهو ثقة المفسرين الإسلاميين عند تفسيره آيات التحدى ما يأتى :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » معناه قل يا محمد لهؤلاء الكفار لئن اجتمعت الإنس والجن متعاونين متعاضدين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ونظمه على الوجوه التى هو عليها من كونه فى الطبقة العليا من البلاغة والدرجة القصوى من حسن النظم وجودة المعانى ، وتهذيب العبارة ، والخلو من التناقض ، واللفظ المسخوط ، والمعنى المدخول على حد يشكل على السامين مابينهما من التفاوت لعجزوا عن ذلك ولم يأتوا بمثله « ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » وفى هذا تكذيب للنضر بن الحارث حين قال : لو نشاء لقلنا مثل هذا ، قال أبو مسلم وفى هذا أيضا دلالة على أن السؤال بالروح وقع عن القرآن لأنه من تمام ما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم به »

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » معناه بل أيقولون اختلق القرآن واخترعه وأتى

به من عند نفسه ، وقيل : إن ههنا محذوفاً وتقديره ، أيكذبونك فيما آتيتهم به في القرآن ، أم يقولون افتريته على ربك ، وحذف لدلالة ما أبقى على ما ألقى ، وعلى هذا ، فتكون أم هذه متصلة (قل) يا محمد لهم : « فأتوا بعسر سور مثله مفتريات ، أي إن كان هذا مفترى على الله كما زعمتم ، فأتوا أنتم بعشر سور مثله ، في النظم ، والفصاحة مفتريات على زعمكم ، فإن القرآن نزل بلغتكم ، وقد نشأت أنا بين أظهركم ، فإن لم يمكنكم ذلك فاعلموا أنه من عند الله تعالى ، وهذا صريح في التحدى ، وفيه دلالة على جهة إعجاز القرآن : وأنها هي البلاغة والفصاحة في هذا النظم المخصوص ، لأنه لو كان جهة الإعجاز غير ذلك ، لما قنع في المعارضة بالافتراء والاختلاف ، لأن البلاغة ثلاث طبقات ، فأعلى طبقاتها معجز وأدناها وأوسطها ممكن ، فالتحدى في الآية ، إنما وقع في الطبقة العليا منها ، ولو كان وجه الإعجاز الصرفة ، لكان الركيك من الكلام أبلغ في باب الإعجاز والمثل المذكور في الآية ، لا يجوز أن يكون المراد به مثله في الجنس ، لأن مثله في الجنس يكون حكايته ، فلا يقع بها التحدى ، وإنما يرجع ذلك إلى ما هو متعارف بين العرب في تحدى بعضهم بعضا ، كما اشتهر من مناقضات امرىء القيس ، وعلقمة ، وعمرو ابن كلثوم ، والحرث بن حلزة ، وجرير ، والفرزدق وغيرهم . وقوله : « وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » معناه : أدعوهم ليعينوكم على معارضة القرآن إن كنتم صادقين في قولكم إني افتريته ، ويريد بقوله من استطعتم من خالف نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم في جميع الأمم ، وهذا غاية ما يمكن من التحدى والمحاجة ، وفيه الدلالة الواضحة على إعجاز القرآن ، لأنه إذا ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ، تحداهم به وأوعدهم بالقتل والأسر بعد أن عاب دينهم وآلهتهم ، وثبت أنهم كانوا أحرص الناس على إبطال أمره ، حتى بذلوا مهجهم وأموالهم في ذلك ، فإذا قيل لهم : افتروا أنتم مثل هذا القرآن ، وادحضوا حجته ، وذلك أيسر وأهون عليكم من كل ما تكلفتموه ، فعدلوا عن ذلك ، وصاروا إلى الحرب والقتل ، وتكلف الأمور الشاقة ، فذلك من أدل الدلائل على عجزهم ، إذ لو قدروا على معارضته مع سهولة ذلك عليهم لفعلوه .

لأن العاقل لايعدل عن الأمر السهل إلى الصعب الشاق ، مع حصول الغرض بكل واحد منهما فكيف ، ولو بلغوا غاية أمانيهم فى الأمر الشاق ، وهو قتله صلى الله عليه وسلم ، لكان لا يحصل غرضهم من ابطال أمره . فإن المحق قد يقتل فإن قيل لِمَ ، ذكر التحدى مرة بعشر سور ، ومرة بسورة ، ومرة بحديث مثله ، فالجواب أن التحدى إنما يقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام ، فيجوز أن يتحدى مرة بالأقل ، ومرة بالأكثر .

وقد ذكر العلامة الحلى المتوفى سنة ٧٢٦ ﻫ ، فى كتابه « كشف المراد فى شرح تجريد الاعتقاد » : أما اعجاز القرآن فقد تحدى به فصحاء العرب ، لقوله تعالى « فأتوا بسورة من مثله » ، « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » ، « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً ، والتحدى مع امتناعهم عن الإتيان بمثله ، مع توفر الدواعى عليه إظهاراً لفضلهم ، وإبطالا لدعواه ، وسلامة من القتل يدل على عجزهم ، وعدم قدرتهم على المعارضة .

وجاء فى كتابه : « كشف الفوائد فى شرح فوائد العقائد » للخواجه نصير الطوسى ، قوله : « اختلف الناس فى إعجاز القرآن ، فقال بعضهم : إن جهة إعجازه الفصاحة التى لا يمكن لأحد أن يأتى بمثلها ؛ وقال آخرون : جهة إعجازه أسلوبه وتركيبه الغريب .

والقائلون بالفصاحة ، إما لأمر يعود إلى اللفظ خاصة ، فإن توقف حصوله على اجتماع الكلمات ، فهو قول من جعل إعجازه لأسلوبه ، فإن الفواصل والاسجاع إنما تحصل باجتماع الكلمات وتأليفها ، وإن لم يتوقف ، وهو قول من جعل الإعجاز لعذوبة الألفاظ ولبراءتها عن الثقل على اللسان ، وهو اختيار الحافظ . وإما لأمر يعود إلى اللفظ من حيث دلالته على المعنى ، فإما أن يعتبر دلالة المطابقة أو الالتزام ، وقد ذهب إلى كل منهما قوم .

ومن أعلام الشيعة الإمامية الذين أجمعوا على نفى الصرفة ، المرحوم الحجة

السيد عبد الله شبّر المتوفى سنة ١٢٤٢ هـ ، فقد شرح فى كتابه : (حق اليقين فى أصول الدين) وجوه إعجاز القرآن ، فقال :

قد وقع الخلاف بين العلماء فى وجه إعجاز القرآن ، هل هو لأجل كونه فى أعلى مراتب الفصاحة ، ومنتهى مرتبة البلاغة ، بحيث لا يمكن الوصول إليه ، ولا يتصور الأتيان بمثله ، أو من جهة أن الله تعالى صرف قلوب الخلائق عن الإتيان بمثله ، وإن كان ممكناً ، والأكثر على الأول .

والحق أن إعجاز القرآن لوجوه عديدة ، نذكر جملة منها .

١ — مع كونه مركباً من الحروف الهجائية المفردة ، التى يقدر على تأليفها كل أحد ، يعجز الخلق عن تركيب مثله بهذا التركيب العجيب ، والنمط الغريب ، كما فى تفسير العسكرى عليه السلام فى (الم) قال : معناه أن هذا الكتاب الذى أنزلته هو الحروف المقطعة التى منها (ألف ، لام ، ميم) وهو بلغتكم ، وحروف هجائكم « فأتوا بمثله إن كنتم صادقين » .

٢ — من حيث امتيازه عن غيره مع اتحاد اللغة ، فإن كل كلام وإن كان فى منتهى الفصاحة وغاية البلاغة ، إذا زين ورصع بجواهر الآيات القرآنية ، وجدت له امتيازاً تاماً وفرقاً واضحاً يشعر به كل ذى شعور ، ونقل أنه كان فى الأيام السالفة كل من أنشأ كلاماً أو شعراً فى غاية الفصاحة والبلاعة ، علقه فى الكعبة المعظمة للافتخار ، والقصائد السبع مشهورة ، فإذا أنشأ ما هو أبلغ منه رفعوا الأول وعلقوا الثانى ، فلما نزل قوله تعالى : « وقيل يأرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى » رفعوا المعلقات من الكعبة وأخفوها خوفا من الفضيحة .

٣ — من جهة غرابات الأسلوب وأعجوب النظم ، فان من تتبع كتب الفصحاء ، وأشعار البلغاء ، وكلمات الحكماء ، لا يجدها شبيهة بهذا النظم العجيب ، والأسلوب الغريب ، والملاحة والفصاحة ، ويكفيك نسبة الكفار له إلى السحر لأخذه بمجامع القلوب .

٤ — من حيث عدم الاختلاف فيه ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ، فلا تجد مع هذا الطول كلمة خالية من الفصاحة ، خارجة عن نظمه وأسلوبه ، وأيضاً لاختلاف فى معانيه .

٥ — من حيث اشتماله على كمال معرفة الله وذاته وصفاته وأسمائه مما تحيرت فيه عقول الحكماء والمتكلمين ، وتذهل عنه ألباب الاشراقيين والمشائيين فى مدة مديدة من الأعوام والسنين .

٦ — من حيث اشتماله على الآداب الكريمة والشرائع القويمة ، والطريقة المستقيمة ، ونظام العباد والبلاد ، والمعاش والمعاد ، ورفع النزاع والفساد فى المعاملات والمناكحات والمعاشرات ، والحدود والأحكام ، والحلال والحرام ، مما تتحير فيه عقول الأنام ، وتذعن له أولو العقول والأفهام ، ولو اجتمع العقلاء والحكماء والعرفاء وبذلوا كمال جهدهم ، وسعوا غاية سعيهم فى بناء قاعدة لنظام العالم والعباد مثل ما ذكر لعجزوا .

٧ — من حيث اشتماله على الأخبار بخفايا القصص الماضية ، والقرون الخالية مما لم يعلمه أحد إلا خواص أحبارهم ورهبانهم الذين لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم معاشراً لأحد منهم ، كقصة أهل الكهف ، وشأن موسى مع الخضر ، وقصة ذى النون ، وقصة يوسف ونحوها .

٨ — من حيث اشتماله على الإخبار بالضمائر والعيوب مما لا يطلع عليه إلا علام الغيوب ، كإخباره تعالى بأحوال الكفار والمنافقين ، وما يضمرونه فى قلوبهم ويخفونه فى نفوسهم ، وكان صلى الله عليه وسلم يخبرهم بذلك فيعتذرون .

٩ — من حيث اشتماله على الأخبار المستقبلة ، والأحوال الآتية ، كما فى قوله تعالى فى اليهود .

١٠ — من حيث خواص سوره وآياته وكلماته ، فإن فيها شفاء للأرواح والأجسام ، ودفعاً للوسواس والتسويلات .

١١ — من حيث اشتماله على الحكم القويمة والمواعظ المستقيمة .

١٢ — من حيث إنه لا يخلق على طول الأزمان ، ولا يمل منه ، بل كلما تلوته ونظرته وجدته طرياً ، وهذه الخاصية لا توجد فى غيره .

* * *

ومن يرى هذا الرأى السديد من الأئمة المعاصرين الإمام المصلح أستاذنا الأكبر الحجة الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ، فقد جاء فى كتابه : « الدين والإسلام » ما ملخصه : حقيقة الإعجاز هو الكلام الذى يعجز عامة أهل اللسان عن الإتيان بمثله ، أو الإتيان بما هو من نسخه ، وعلى طرزه وأسلوبه ، كهذا الإعجاز المحمدى ، فإن وراء إعجازه ما عجز أهل اللسان عن مباراته وأدهشهم وأعجزهم عن معرفة نزعته وجنسيته ، فلم يعرفوا وإلى الآن ، أنه من قبيل الشعر أو الخطب أو الرسائل أو الرجز أو الهزج أو غير ذلك من أنواع الكلام وأمهات أبوابه ، نعم ما عرفوا سوى أنه خارج عن تلك الأنواع غير داخل فى شىء من هاتيك الأبواب ، ما أصابوا من حقيقته سوى أنهم ما أصابوها ، وما عرفوا غير أنها غريبة ما عرفوها ، ومنتهى فساد القول بأن إعجاز القرآن ليس هو بجوهره وذاته ، بل بالحجز عنه والصرفة دونه ، إنْ ذلك إلا رأى عازب وقول كاذب ، قول من لم يجعل الله له من معرفة البلاغة حظا ، ولا حصل من شرائف حقائقها ومعانيها إلا حكاية ولفظا ، فمن ضائقة العجز والجهالة ، لجأ إلى هذه المقالة ، وظل يخبط فى أمثال هذه الضلالة ، ولست أدرى لهذه الشبهة صورة صدق ولباس حق يدعو إلى توفر العناية فى شأنها ، وإيضاح بطلانها ، لاسيما وكل من عنى بهذا الشأن وتصدى لعلم بلاغة القرآن قد شنع على هذا القول ، وبالغ فى بطلانه وإحالته ، على أن من نسب إليه ذلك لم ينقل عنه الاستناد إلى حجة ولو ضعيفة ، والتعويل على شبهة ولو سخيفة ، وإنما هو رأى رآه ، أو احتمال أبداه ، والسداد عزيز والصواب معوز ، إلا بتأييد من الله ولطف منه ، وإليه نرغب فى ذلك ، فإنه منتهى الرغبة ، ومحط نجاح كل حاجة وهو أرحم الراحمين .

وقد أصدر قبل أيام علامتنا الحكيم السيد هبة الدين الحسينى ، المشهور بالشهرستانى رسالته (المعجزة الخالدة) تناولت البحث عن أسرار معجزة القرآن

ومزاياه، ووجوه إعجازه، وقد أضاف إلى ماذكره صاحب حق اليقين فى أصول الدين من المزايا المتقدمة مزايا أخرى عالية منها .

١ — مسحة البداوة أى عروبة العبائر الممثلة لسذاجة البداوة مع اشتمالها على بسائط الحضارة .

٢ — توفر المحاسن الطبيعية .

٣ — سمو المعنى وعلو المرمى فى استهدافه الكمال الأسمى .

٤ — اشتماله على السهل الممتنع الذى يعد فى الشعر ملاك الإعجاز والتفوق النهائى .

٥ — أمثاله الحسنى التى تجعل المعقول محسا ، وتجعل الغائب عن الذهن حاضراً لديه .

٦ — معارفه الإلهية كأحسن كتاب فى علم اللاهوت ، وكشف أسرار عالم الملكوت ، وأوسع سفر فى مراحل المبدأ والمعاد .

٧ — تعاليمه العسكرية ، ومناهجه فى سبيل الصلح وفنون الحرب .

٨ — سلامته عن الخرافات والأباطيل ، التى من شأنها إجهاز العلم عليها كلما تكاملت أصوله وفروعه .

٩ — قوة الحجة ، وتفوق المنطق .

١٠ — اشتماله على الرموز فى فواتح السور، ودهشة الفكر حولها وحول غيرها .

١١ — جذباته الروحية الخلابة للألباب ، والساحرة للعقول، الفتانة للنفوس .

ثم قال : أما أنا فقد وقع اختيارى بعد طول اختبارى على وجه واحد ، هو الأخير فيما عددناه وهو عندى وجه الإعجاز المقصود فى آيات التحدى ، أعنى جذباته الروحية (١) الناشئة من كونه كلام خالقنا الرب الحكيم ، وهذه الجذبة محسة للشرقى والغربى والعجمى والعربى ، لا ينازعنا فيها أحد ، أما سائر وجوه

---

(١) وممن لاحظ هذه المزية القرآنية العجيبة أيضاً ثقة الاسلام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء فى كتابة « الدين والإسلام » والعلامة الأستاذ المرحوم السيد رشيد رضا صاحب المنار فى كتابه (الوحى المحمدى) ونابغة الأدب والبيان المرحوم الرافعى فى كتاب إعجاز القرآن .

الحسن والامتياز ، فهي آثار كونه كلام أو مؤثرات معدة فى تكوين إعجازه وجذباته الروحية ، وحتى ان جمهور العلماء الذين عبروا عن إعجاز القرآن ببلاغته ، أرادوا ما أردنا من جاذبيته الروحية .

وجوه الإعجاز :

قال علامتنا حفظه الله تعالى : ولما سبرنا مزايا القرآن البالغة الثلاثين ، واختبرناها على المحك القرآنى ، نجحت منها ستة صالحة ، لأن تعد من وجوه الإعجاز ، وهى :

١ — صدوره من أمى مثل محمد صلى الله عليه وسلم .
٢ — بلاغته الفائقة .
٣ — غرابة أسلوبه .
٤ — أنباؤه الغيبية .
٥ — جذباته الروحية .
٦ — جامعيته لهذه الوجوه .

وصادفت هذه الجهات الست أن لكل منها قائلين من ذوى العلم ، ومن وراء هذه الجهات الست ، جهة (الصرف) ومعنى ذلك أن وجه الإعجاز صرْف الله لوجوه البلغاء ، وألسن الأدباء ، وقلوب المعارضين عن الإتيان بمثله ، فمع هذه التى يسمونها جهة الصرفة أصبحت النظريات فى وجوه الإعجاز سبعاً ، وقد أفردنا القول بالصرفة عن النظريات الست من وجوه إعجاز القرآن لتباعد بين هذه وتلك ولضعف الحجة والمحجة معاً .

نسبة الصرفة إلى المفيد والمرتضى : لم يشتهر شيخ فقهاء الإمامية العلامة الشيخ الجليل « المفيد » محمد بن النعمان المتوفى سنة ٤١٣ هـ وهو رئيس المتكلمين فى عصره بالرأى فى الصرفة ، ولم ينقل عنه علماء الأمة فى مختلف تفاسيرهم ومؤلفاتهم وفيما وقفنا عليه من أقوال المؤالف والمخالف منذ عهده إلى اليوم شيئاً من ذلك أما ما جاء فى كتابه (أوائل الكلمات فى المذاهب المختارات) (١) فلا يحتمل

(١) طبع فى تبريز سنة ١٣٦٣ هـ .

صدوره من شيخ مشايخ الإمامية لمخالفته لأصول المذهب ، لأنه يقر فكرة الجبر التى تنكرها الفرقة الإثنى عشرية أشد الإنكار ، ولو كان ممن يرى هذا الرأى ، لعرف واشتهر ونقل عن كتابه المشهور « البيان فى تأليف القرآن » أو عن آثاره الأخرى الكثيرة التى تقرب من ثلثمائة كتاب فى مختلف العلوم والفنون ، والذى نحتمله بل ونعتقده أن الشيخ المفيد معروف لدى العام والخاص بقوة الجدل والمناقشة والتمرس بفن المناظرة والمحاورة ، وكان كسقراط مع تلاميذه يحاورهم فى المسائل الدقيقة لاختبار عقولهم ومعرفتهم بما يلقيه عليهم من شبهات المعتزلة من آراء النظام وأصحابه القائلين بالصرفة كأبى اسحاق النصيبى ، وعباد بن سليمان الصيمرى ، وهشام بن عمرو القوطى ، والمردار ، وأبى الحسين البصرى وأمثالهم هذا عدا ما كان ينفرد به من خوض المعارك الكلامية ، والمناظرات الفقهية ومجادلاته فى المنقول والمعقول فى مجالس العلماء والأمراء مع مخالفيه فيورد عليهم الآراء والنظريات المشكلة التى يقولون بها حسب مذهبهم ، ثم يقارع حجتهم بالحجة ، ويفند الدليل بالدليل ، ولا يبعد أن مسألة الصرفة كانت إحدى تلك المسائل التى ناظر بها أقطاب المعتزلة ، فوقع فى نفوس البعض أنه من القائلين بها وهو اشتباه لا يستند إلى بحث وتحقيق . وكثيراً ما وقع مثل هذا فى نقل الآراء ورواية الأخبار ، واستنساخ الكتب والآثار .

أما ما نسب إلى تلميذه الشريف المرتضى من قبل العلماء ، فيجيب عنه علامتنا السيد هبة الدين الحسينى فى رسالته (المعجزة الخالدة) بقوله : نسبة هذا الرأى إلى علامتنا الشريف المرتضى على بن أحمد المتوفى سنة ٤٣٦ ه ، فإنه ـ طاب ثراه ـ معروف بقوة الجدل والتحول فى حوار المناظرين إلى هنا وهناك فلا نعلم هل بقى ثابتاً على هذه النظرية كعقيدة راسخة ، أو تحول عنها ؟ وهذا المذهب أعوج أعرج ، أو كما قيل ، حرفة عاجز ، وحجة كسول ، لا يليق أسناده إلى علمائنا الفحول . لأن الله عز شأنه ، فياض العدل ، ذو رأفة وفضل ، فهو أرفع شأناً من أن يأمر الإنس والجن بأن يباروا القرآن ، ويرضى منهم بمباراة بعضه لو تعذر عليهم كله . ثم يعترض سبيلهم ، ويصرف منهم القوة والهمة ، ويمنعهم من أن يأتوا بما أراد منهم .

والظاهر من ظواهر الآيات أن القرآن فى ذاته متعال بميزاته حائز أرقى الميزات وأبلغ المعجزات ، وينبغى كذلك ان أريد مدحه وفضله .

أما لو حصرنا وجه الإعجاز فى نقطة الصرفة ، فيتم حتى مع كونه كلاما مبذولا مرذولا للغاية ، ففى الوجوه الوجيهة السالفة غنية وكفاية والله ولى الهداية .

وقد أشار الامام الحجة الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء إلى ما نسب إلى الشريف المرتضى وشيخه المفيد بقوله المتقدم فقال : على أن من نسب إليه ذلك ـ أى الصرفة ـ لم ينقل عنه الاستناد إلى حجة ولو ضعيفة ، والتعويل على شبهة ولو سخيفة ، وإنما هو رأى رآه أو احتمال أبداه ، والسداد عزيز ، والصواب معوز إلا بتأييد من الله ولطف منه .

نقول وقد ألف الشريف المرتضى كتابه ـ الموضح ـ فى إعجاز القرآن ، وتداولته الأيدى من بعده أحقابا ، ولم ينقل لنا الرواة الثقاة عنه أو عن مصنفاته الكلامية ، ومؤلفاته الفقهية الجمة ، وأماليه القيمة ، مما نسبه إليه المتأخرون فى القول بالصرفة الذى لا يتفق وعقيدة التشيع التى لا تقر فكرة الخير ، كما ذكرنا آنفا . ثم قد رأينا كيف حمل الشيخ كاشف الغطاء على القائلين بهذه الفكرة حملته الشعواء ، ورماهم بقارص الكلام ، ونبال التقريع ، وندد برأيهم الفائل ، وسفه أحلامهم، ووصمهم بالعجز والجهالة ، والخبط والضلالة ، ولو علم وهو المجتهد البصير، والنيقد الخبير ، بأن الشيخ المفيد أو تلميذه علم الهدى السيد المرتضى من أصحاب تلك المقالة ، لما هاجمهما هذا الهجوم العنيف ، وسماحته أدرى من غيره بعلو مكانتهما العلمية ، ومنزلتهما الأدبية الرفيعة ، وجلالة قدرهما فى أنظار أبدال الشيعة الإمامية .

وبعد : فهذه صفوة الكلام ، وزبدة القول فى إعجاز القرآن فى مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية ، بسطناها للقارىء الكريم خدمة للحقيقة العلمية والمباحث الإسلامية . وإخلاصاً لمبدأ ﴿ رسالة الإسلام ﴾ المجاهدة فى سبيل التقريب بين المذاهب الإسلامية تحت إشراف جماعة التقريب الموقرة .

كان الله فى عون الجميع ؟

فلسفة محمد عبده

لحضرة الأستاذ الدكتور عثمان أمين

أستاذ تاريخ الفلسفة بجامعة فؤاد الأول

محمد عبده من أبرز شخصيات التاريخ الإسلامي الحديث : إن أحداً فى مصر لا يجهل اسم « الأستاذ الإمام » ، ومع ذلك يبدو أن هذا المفكر لم يعرفه قومه كما ينبغى أن يعرفوه ، ولم يلق إنصافاً من معاصريه : فمنذ قرابة نصف قرن من الزمان ، دفع الحسد الشخصى ، أو التعصب المذهبى ، أو الخصومة الحزبية إلى رسم صورة له مشوهة ، كما أدت المعرفة السطحية لآرائه إلى تأويلات زائفة تبطلها آثاره ، كما تنكرها حياته نكراناً واضحا .

ولما كان قصدنا أن نضع الإمام فى المقام اللائق به ، وأن نقدر فكره حق قدره ، فقد حاولنا الانتفاع بجميع المصادر التى وصلت إلينا عنه وعن معاصريه . وإذا كانت أعمال محمد عبده تعرفنا بالفيلسوف ، والمصلح ، وعالم الدين ، فإن رسائله ودروسه وأحاديثه ، تكشف لنا عن شخصيته فى جلاء ، وهذا ما يجعله عندنا خليقاً بالاهتمام :

إن المذهب الفلسفى الصادق ليس نظرية قائمة على المجردات ، وإنما هو فى صميمه عمل أخلاقى ، له من القيمة بقدر ما فيه من صاحبه ، وبقدر ما وضع الرجل فيه من نفسه .

ولم يكن محمد عبده عالما حبيس مكتبه ، ولا صوفيا منعزلا عن العالم ، ولا خيالياً يسبح فى أحلامه ، بل كان خبيراً بأحوال الناس وشئون الحياة ، وكان قادراً دائما على أن ينظر بروح التسامح والود فى آراء غيره ، مهما يكن بينها وبين آرائه من تباعد واختلاف .

ولم يكن محمد عبده أحد كبار أئمة الإسلام فحسب ، بل كان أيضاً فيلسوفا بأسمى معانى الكلمة وأصدقها : إذ وضع لهداية العمل مذهبا خصبا واسعا ، واتخذ من أغلب المسائل الفلسفية موقفا لا تعوزه الأصالة ولا الاستقلال ، وكان له ، فوق هذا ، مزاج الفيلسوف الحق الذى يميل ، فى كل ما يعرض له ، إلى التأمل والروية ، وينحّى الآراء المألوفة الشائعة ، ولا يستسلم لحكم الأمر الواقع الذى يذعن له الناس فى الشرق أكثر مما ينبغى ، بل كان يسلك الطريق الفلسفى الأصيل ، ذلك الطريق الافلاطونى القديم ، الذى جدده ديكارت « أبو الفلسفة الحديثة » ، ونعنى به النظر إلى الأشياء بعين الروح ، وإخضاع العالم لشرعة العقل .

ولعل أروع ما تتجلى عليه صورة الأستاذ الإمام حين نرى الفيلسوف وعالم الدين يتعاونان فى شخصه تعاونا لم يتهيأ لنا من قبل مدى قرون طويلة ، وحين يلوح لنا فكره موفقا بين طرفين جرت العادة أن يراهما المفكرون متعارضين ، وهما المذهب العقلى ، والمذهب العملى :

فمن ناحية كان الإمام يميل إلى مذهب ديكارت العقلى واتجاهه فى توخى الأفكار الواضحة المتميزة التى ليس فيها غموض ولا إبهام ؛ وقد أثبت محمد عبده أن هذا الميل عنده لم يكن مجرد كلام : فسواء فى تعاليمه العامة أو فى مراسلاته الخاصة ، وسواء فى دروسه فى علم المنطق ، أو فى دروسه فى تفسير القرآن ، وفى استعانته المتواصلة بروح النقد ، وأخيراً فى احترامه للعلم المحص المضبوط ، استطاع أن يساهم فى إمداد المذهب العقلى بحافز جديد لم يكن يتيسر لهذا المذهب فى مصر بدون جهوده الموفقة .

ومن ناحية أخرى كشف الأستاذ الإمام ، فيما أثر عنه من فكر وعمل ، عن نزعات إنسانية عميقة ، تطّرح التجريدات المدرسية ، والاستنباطات الملتوية ،

وتُعنى عناية متصلة بما هو حى، واقعى إنسانى : فكان أكبر اهتمام الفيلسوف المصلح هو الاتجاه نحوالعمل الإنسانى الفعال فى الأنظمة المختلفة التى تتناول الحياة الروحية للمجتمع الإنسانى فى ذلك الحين .

وبهذه النظرة العقلية العملية معا ، عارض الشيخ محمد عبده ما كان سائداً فى زمانه عن العلم والمعرفة ، فاستطاع بذلك أن يساهم مساهمة قوية فى تحرير الفكر الإسلامى من الآلية المدرسية و « الروتين » الضيق ، وقد كانا متغلغلين حينئذ فى البيئات الأزهرية تغلغلا شديدا .

محمد عبده عصرى جدا ، إذا راعينا الاتجاهات العامة لفكره ؛ وهو شديد القرب منا ، من حيث إنه يعبّر عن طبيعة يسودها الشعور الأخلاقى ، ومن حيث إنه يجعل لهذا الشعور السبق على الجدل المدرسى ، والمماحكات الكلامية . ونحن إذا استثنينا الغزالى ، لا نجد عند فيلسوف آخر من فلاسفة الإسلام ، ما نجده عند محمد عبده . فبدلا من تلك الثقة المطلقة فى قوة العقل التى تتجلى عند ابن سينا ، نجد عند الفيلسوف المصرى موقفا إنسانيا معتدلا ؛ فهو لا يغترف من معين الجدل والمنطق إلا بقدر ، لأنه كان يرى أن « روح الرياضة » وحدها لا تكفى ، ولا غنى لنا عما كان « بسكال » يسميه « روح الدقة » .

على أن الأستاذ الإمام لم يكن من المتزمتين ، لافى الفلسفة ولا فى الدين : فبينما كان ابن سينا يلتزم جانبا واحداً من الحقيقة ، يناصره ويذود عنه ، كان محمد عبده على نقيضه ، قليل الثقة بالمذاهب المغلقة ، يريد أن يمد بصره إلى حقيقة أوسع وأشمل .

فيبدو أن الإمام ، بنزعاته الأخلاقية على العموم ، كان أقرب إلى الغزالى منه إلى ابن سينا ؛ ولكن الإمام ، على نقيض الغزالى ، لم يكن من المتشككين فى قدرة العقل : كان يثق فى العقل على شرط أن لا يتجاوز حدوده ، إذ العقل عنده يقوم بمهمة لا يستهان بها فى علم الأخلاق ، وفى علم الدين نفسه . ولكن محمد عبده ، مع ذلك ، لم يكن من المسرفين فى تقدير قيمة العقل ، فلم يتشدد ، ولم يتورط فيما تورط فيه غيره ، من إثبات وتقدير .

من أجل ذلك ، تبدو لنا فلسفة محمد عبده ، فلسفة مرنة غنية ، تفتح لنا ما لانهاية له من إمكانيات المستقبل ، ومن أجل ذلك ، كان الرجل خليقا أن يحيا بيننا بفكره الملهم لأعماله ، وبذلك الأثر الذى طبعته روحه المخلدة ، لا فى تلاميذه المباشرين فحسب ، بل فى عدد من المفكرين الذين لم يروه ولكنهم عرفوه بآثاره فقدروه وأحبوه .

أستطاع محمد عبده بتعاليمه فى مصر وفى بلاد الإسلام ، أن يرفع لواء القيم الروحية ، وأن يؤدى للعقل ما ينبغى له من احترام ، وأن يؤيد ، أمام بطش القوة حقوق الضمير ، ومطالب الأخلاق ؛ واستطاع لعنايته الدائمة بألا يفصل الفكر عن العمل ، ولا العلم عن الدين ، أن يعود بالفلسفة إلى أحسن تقاليدها ، وأن يفتح لها فى العالم الإسلامى آفاقا بعيدة .

* * *

فإذا أضفنا إلى مساهمته الشخصية فى الفكر الإسلامى عامة نصيبه فى الإصلاح الدينى ، وروحه المفعمة بحب الحق والخير ، وعطفه على الإنسانية المعذبة ، تبينا أنه خليق أن يتخذ مثلا يحتذى ، ورائداً يقتدى به ، وأن آثاره جديرة أن تتأملها أجيال الشبيبة المسلمة المتطلعة إلى الكمال .

الإمام يحيي بن الحسين :

فى ص ١٩٤ من العدد الثانى من « رسالة الإسلام » ذكر نسب الإمام يحيي بن الحسين ، وسقط منه سهواً بعض الأسماء ، وصوابه كالآتى : يحيي بن الحسين بن القاسم بن إبرهيم ابن اسماعيل بن ابرهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .

التقريب بين المذاهب الإسلامية ودراسة علم التوحيد

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المتعال الصعيدى

الأستاذ بكلية اللغة العربية

— ٣ —

إذا أردنا أن نعرف حقيقة حكم الإسلام فى خلاف الفرق فى الأصول ، وجب أن نعرف : هل هناك ما يقتضى وجود هذا الخلاف ؟ لأنه إذا كان هناك ما يقتضى وجود الخلاف فى الأصول ، وجب أن يقبل الخلاف بين الفرق فيها ، كما يقبل فى الفروع ، فلا يكون هناك فَرْق بين ما يقبل الخلاف من أصول الدين وفروعه ، بل يجب أن ينظر إلى الخلاف فى البابين نظرة واحدة ، لأن قبول الخلاف فى أحدهما دون الآخر ، يكون تحكماً غير مقبول .

وقد ذكر ابن رشد فى كتاب ـ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ـ أن معرفة الله تعالى هى السعادة التى دعت إليها الحكمة والشريعة ، وقد أمر بها كل مسلم من الطريق الذى تقتضيه طبيعته من التصديق ، لأن طباع الناس فى التصديق متفاضلة ، فمنهم من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق بالدليل الجدلى ، ومنهم من يصدق بالدليل الخطابى ، لأنه ليس فى طبع كل واحد منهم أكثر من ذلك ، ثم ذكر أنه لما اختصت شريعتنا بدعوة الناس من هذه الطرق

الثلاث ، عم التصديق بها كل إنسان ، إلا من يجحدها عناداً بلسانه ، أو من لم تتقرر عنده طرق الدعوة فيها إلى الله لإغفاله ذلك من نفسه ، وخص النبي صلى الله عليه وسلم بالبعث إلى الأحمر والأسود ، لتضمن شريعته طرق الدعوة إلى الله تعالى ، كما جاء فى قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، فالحكمة إشارة إلى البرهان ، والموعظة إشارة إلى الدليل الخطابى ، والجدال بالتى هى أحسن إشارة إلى الدليل الجدلى .

وقد اقتضى هذا أن تختلف نصوص القرآن إلى محكم ومتشابه ، كما اقتضاه نزول القرآن فى أعلى درجات البلاغة ، لتدخل بلاغته فى إعجازه ، كما يدخل غيرها من وجوه الإعجاز ، ولا بد فى البلاغة من استعمال أساليب المجاز والاستعارة والكناية ، وما إلى هذا من أساليبها ، وهذه الأساليب كثيراً ما تقتضى وجود قسم المتشابه فى نصوص القرآن .

وهذا المتشابه من نصوص القرآن هو الذى اقتضى وجود الخلاف بين المسلمين فى الأصول ، كما يشير إلى هذا قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » وقد اختلف العلماء فى تأويل المتشابه ، ففريق يمنعه لأنه يقف على قوله « إلا الله » فيكون مما استأثر الله بعلم تأويله ، وعلى الراسخين فى العلم أن يؤمنوا به من غير تأويل ، وربما يشهد لهذا قوله « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » وفريق لا يمنع التأويل لأنه يقف على قوله « والراسخون فى العلم » فيكون الراسخون فى العلم ممن يعلم تأويل المتشابه ، ويجوز لهم أن يذهبوا إلى تأويله اذا لم يكن قصدهم به ابتغاء الفتنة ، وارادة تفريق كلمة المسلمين ، وإيقاع العداوة والخصام بينهم ، وانما يكون قصدهم الوصول الى الحقيقة ، والاجتهاد فى معرفة المقصود من المتشابه .

وجمهور المسلمين الآن يذهب إلى جواز تأويل المتشابه ، ويرى أنه إذا تعارض دليل النقل ، ودليل العقل ، وجب تأويل دليل النقل بما يوافق دليل العقل ، والتأويل اجتهاد فى النص ، فيجب أن يباح لمن يبلغ رتبة الاجتهاد من العلماء ، وأن ينظر إلى المجتهد فيه كما ينظر إلى المجتهد فى الفروع ، وأن يقبل الخلاف فيه كما يقبل الخلاف فيها ، لأن إباحة الاجتهاد فى شىء تقتضى إباحة الخلاف فيه ، إذ لا يباح الاجتهاد إلا فيما لا يقين فيه بدليل نقلى أو عقلى ، وعند فقد اليقين يأتى الخلاف ويتشعب الرأى ، ولا يليق بسماحة الدين أن يضيق فى مثل هذا الخلاف ، لأنه لا يعلم فيه الحق بيقين ، فيكون من التحكم الإلزام فيه برأى من الآراء ، بل يكون لكل مجتهد رأيه فيه ، فان كان مصيباً فى الواقع فهو مأجور ، وإن كان مخطئاً فى الواقع فهو معذور ، ولا يحرم من أجر على اجتهاده ، وتكون ميزة المصيب عليه أنه يؤجر أجرين : أجر على اجتهاده ، وأجر على صوابه .

وقد بلغ من تسامح القائلين بالتأويل وهم جمهور المسلمين أن ذهبوا إلى أنه لا كفر مع التأويل ولو خرق الإجماع ، وقد أشار ابن رشد إلى هذا فى كتابه السابق ، فذكر أنه إذا كان فى الشرع أشياء أجمع المسلمون على حملها على ظاهرها وأشياء أجمعوا على تأويلها ، وأشياء اختلفوا فيها ، فهل يجوز أن يؤدى البرهان إلى تأويل ما أجمعوا على ظاهره أو ظاهر ما أجمعوا على تأويله ، ثم أجاب عن هذا بأنه لا يصح ذلك إذا ثبت الإجماع بطريق يقينى ، وإذا كان ظنيا فقد يصح ، ولهذا قال الغزالى وإمام الحرمين : إنه لا يقطع بكفر من خرق الإجماع بالتأويل فى أمثال هذه الأشياء .

ثم ذكر أنه مما يدل على أن الإجماع لا يثبت فى النظريات بطريق يقينى كما يثبت فى العمليات ـ الفروع ـ أنه لا يمكن ثبوته فى مسألة ما فى عصر ما إلا إذا كان ذلك العصر محصوراً عندنا ، وكان علماؤه معلومين عندنا بأعيانهم وعددهم ونقل إلينا فى المسألة مذهب كل واحد منهم بالتواتر ، وصح عندنا اتفاقهم على أنه ليس فى الشرع ظاهر وباطن ، وأن العلم بكل مسألة لا يصح أن يكتم عن أحد ،

وأن الناس طريقهم واحد فى علم الشريعة ، وقد نقل عن كثير من الصدر الأول خلاف ذلك ، كما نقل عن على رضى الله عنه أنه قال : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ فكيف يتصور مع هذا إجماع فى مسألة نظرية ، ونحن نعلم أنه لا يخلو عصر من علماء يرون أن فى الشرع أشياء لا يصح أن يعلم حقيقتها إلا أهل التأويل ، وهم العلماء الراسخون فى العلم ، وهذا بخلاف العمليات - الفروع - لأن الناس كلهم يرون إفشاءها لجميع الناس على السواء ، فيكفى فى ثبوت الإجماع فيها أن تنتشر المسألة فلا ينقل إلينا فيها خلاف .

وقد ذكر ابن تيمية أن عدم الفرق فى الاجتهاد بين الأصول والفروع هو قول السلف كأبى حنيفة والشافعى والثورى والظاهرى وغيرهم - منهاج السنة النبوية ج ٣ ص ٢٠ - وقد ذهب إليه بعدهم عبيد الله بن الحسن العنبرى ، وحجتهم فى هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد » وأى حاكم أحق بهذا من الذى يحكم على الوجود بأنه كذا أو ليس كذا ، وما إلى هذا من المسائل العويصة فى الأصول ، وهؤلاء الحكام هم العلماء الذين خصهم الله تعالى بالتأويل ، والخطأ المصفوح عنه هو الخطأ الذى يقع منهم ، والخطأ الذى يقع من غيرهم إثم محض ، لأنه ليس من أهل التأويل مثلهم . وهذا إلى أن التصديق بالشىء من جهة الدليل القائم بالنفس اضطرارى لا اختيارى ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار فالمصدق بالخطأ لشبهة عرضت له معذور إذا كان من أهل العلم .

وبهذا يكون الخطأ على قسمين : خطأ يعذر فيه من هو من أهل النظر فيما أخطأ فيه ، كما يعذر الطبيب الماهر إذا أخطأ فى صناعة الطب ، وخطأ لا يعذر فيه أحد من الناس ، فاذا وقع فى مبادىء الشريعة فهو كفر ، وإذا وقع فيما بعد المبادىء فهو بدعة ، وهذا الخطأ هو الذى يكون فى الأمور التى تؤدى جميع أصناف الأدلة الى معرفتها فتكون معرفتها ممكنة لجميع الناس ، كالإقرار بالله تعالى والنبوات والسعادة والشقاء الأخرويين ، فالجاحد لها كافر معاند بلسانه دون قلبه ، أو بغفلته عن معرفة دليلها ، لأنه اذا كان من أهل البرهان فقد جعل له سبيل

الى التصديق بها بالبرهان ، وان كان من أهل الموعظة فقد جعل له سبيل إلى التصديق بها بالموعظة ، وإن كان من أهل الجدل فقد جعل له سبيل إلى التصديق بها بالجدل .

وإذا كان هذا شأن الخلاف فى مسائل الأصول ، وإذا كانت فرقها ناجية أصابت أو أخطأت ، فإنه يجب أن يكون الجدال بين هذه الفرق بالتى هى أحسن فلا يتعدى الإقناع بالدليل إلى إثارة الفرقة والخصام ، ومحاولة التفريق بين المسلمين ليضعف أمرهم ، ويتمكن أعداؤهم منهم ، لأن من يقصد إلى هذا لا يكون مسلما بل كافراً ، ومن يفعله من غير قصد يكون آثما لأنه يضر المسلمين بفعله ، ولا يصح أن يعذر فيما يضر به غيره .

وكذلك لا يصح أن يتعدى الجدال بين الفرق حد الاقناع بالدليل إلى الطعن فى الدين ، والحكم على المخالف بفسق أو إثم ، لأنه لا فسق ولا إثم فى ذلك الخلاف ، بل يكون الآثم والفاسق فيه هو من يحكم على المخالف بالإثم والفسق .

وقد سن القرآن الكريم سنة دعوة المخالفين فى الدين من المشركين وغيرهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فأمرنا أن نجادلهم بالتى هى أحسن ، فقال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . وقال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » . ولا شك أن الموافقين لنا فى الإسلام أولى بهذه المعاملة الكريمة عند الخلاف فى أمر من أمور الدين ، فيجب أن يدعو بعضنا بعضا بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجب أن يجادل بعضنا بعضا بالتى هى أحسن حتى لا يفرق بيننا الخلاف فى الرأى ، ولا يثير بيننا شيئا من العداوة والخصومة ، ومن ميزة الإسلام أنه لم يجعل الخلاف بين الناس فى الدين سببا من أسباب العداوة بينهم ، فلم يرض للمسلمين أن يعادوا غيرهم لمجرد الخلاف فى الدين ، ولهذا قال الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » ولا شك أن فرق المسلمين أولى بالموادة فيما بينهم ، لأن الخلاف فيما بينهم لا يبلغ ما يبلغه الخلاف بينهم وبين غيرهم .

ويجب أن يكون هذا أيضاً شأن الفرق الناجية من المسلمين مع الفرقه غير الناجية ، وهي فرقة الزنادقة ، والهاء في زنادقة عوض من الياء في زنديق ، والزنديق فارسي معرب ، كان أصله عندهم ـ زنده كرد ـ وزنده : الحياة ، وكرد : العمل ، أي يقول بدوام الدهر ، ويقال له في العربية : ملحد ، ودَهري بفتح الدال ، فإذا أرادوا معنى السن قالوا دُهري بضمها ، وقال القاموس : الزنديق بالكسر من الثنوية ، أو القائل بالنور والظلمة ، أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية ، أو من يبطن الكفر ويظهر الإسلام ، وهذا المعنى الأخير هو الذي يناسب عندي الحديث السابق : « تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة ، كلها في الجنة إلا الزنادقة » لأن الزنادقة بالمعنى الأخير يمكن أن يعدوا من فرق المسلمين بحسب ظاهرهم ، بخلاف المعاني التي قبل المعنى الأخير ، والزنديق بهذا المعنى يرادف كلمة منافق ، وقد ظهر المنافقون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان يقبل منهم ظاهرهم ويجري عليهم أحكام المسلمين ، ولا يكلف نفسه التفتيش عن عقائدهم ، بل كان يقول : « أمرت أن آخذ بالظاهر ، والله يتولى السرائر » وقد روى عدي بن الخيار أن رجلا سارَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ندر ما ساره حتى جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو يستأذنه في قتل رجل من المنافقين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولا شهادة له ، قال : أليس يصلي ؟ قال : بلى ، ولا صلاة له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أولئك الذين نهاني الله عنهم .

ولا ينافي هذا ما ورد في سورة التوبة من التشدد في أمر أولئك المنافقين ، لأن هذا كان في شأن فريق منهم كان يكيد للإسلام والمسلمين ، ويقوم بالتجسس عليهم لأعدائهم ، ولا يكتفي بما يبطنه من الكفر ، فيخون وطنه كما يخون دينه ، وخيانة الدين بإبطان الكفر يمكن الإغضاء عنها في الدنيا ، ولا يمكن الإغضاء عن خيانة الوطن بذلك الشكل ، لأن خيانته لدينه بإبطان الكفر يعود ضررها على نفسه ، وخيانته لوطنه يعود ضررها على غيره ، فلا يصح أن يغضى عنها كما يغضى عن الأولى ؟

العالم الإسلامي في ثلاثة أشهر

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد محمود الصياد

تركيا والعالم العربي :

شهدت الأسابيع الأخيرة حركة ترمى إلى التقارب بين تركيا ودول الجامعة العربية ، فزار جلالة الملك عبد الله بن الحسين ملك شرق الأردن تركيا ، حيث قوبل بالحفاوة والترحاب ، وتركت زيارته أثراً بعيد المدى ، ثم دعى عزام باشا الأمين العام لجامعه الدول العربية لزيارة أنقرة زيارة رسمية ، فلبى الدعوة ، وكانت له مع الرجال المسئولين أحاديث ومباحثات .

لقد كان الترك والعرب منذ نيف وثلاثين سنة يكوّنون سلطنة واحدة تدين بالولاء للجالس على عرش بنى عثمان ، وكانت الخلافة فى استانبول عاملا يؤلف بين الدول الإسلامية جميعاً ، ويوجه أنظارها إلى البلد الذى فيه الخليفة ؛ فلما تقوض العرش العثمانى ، وزالت الخلافة الإسلامية ، تجزأت السلطنة ، وتبع ذلك أن قطعت تركيا كل صلاتها بالعرب ، وتفرغت لشئونها الخاصة ؛ بل وولت ظهرها للشرق كله ، ونفضت يدها منه ومن مشاكله ، وزعمت أنها دولة أوربية لا صلة لها بآسيا أو أفريقية ، وترتب على ذلك عهد من القطيعة الطويلة غرست فى النفوس شيئا من المرارة غير قليل .

فلما كان هذا التقارب الجديد تلفت البعض يتساءلون عن السر فى هذا التحول ؟ وما الذى دعا تركيا إلى إعادة النظر فى أمر علاقاتها مع الدول العربية ؟ وهل

هناك أهداف خاصة تختفى وراء هذه الحركة ، ويرى هذا الفريق أن تركيا لم تفكر فى العرب إلا لأنها فشلت فى محاولاتها المتكررة للانضمام « لميثاق الأطلنطى » ولو أنها نجحت فيما سعت إليه لظلت على تجاهلها للعرب وللدول العربية ، أما وإنها الآن فى مركز دقيق ، إذ يربض « الدب الروسى » على أبوابها متحفزا ، فلتتحالف حتى مع الشيطان فى سبيل الاستعداد ، لما يمكن أن يأتى به الغد من مفاجآت .

وكان هذا الفريق على حق حينما ذهبت به الظنون كل مذهب ، خصوصا وأن تركيا - وهى دولة كانت لها زعامة الإسلام حتى عهد غير بعيد - كانت من أسبق الدول إلى الاعتراف باسرائيل الصهيونية دون مراعاة لخاطر العرب ، ولما بينها وبينهم من وشائج وصلات ، بل ولا يزال الحزب الجمهورى فى تركيا يعارض فى تقاربها مع العرب ، لأن هذا التقارب مما يثير غضب إسرائيل ، حتى لقد كتب السيد « حسين جاهد يالتشين » وكان من قبل عضواً فى لجنة التوفيق الدولية بين الدول العربية وإسرائيل ، مقالا فى جريدة « أولوس » لسان حال الحزب الجمهورى ، ذكر فيه أن « ليس من مصلحتنا تجاهل اسرائيل فى الشرق الأدنى ، وفضلا عن ذلك فإن هناك خلافا أساسياً بين مصر وحليفتنا بريطانيا ، وأى اتفاق يربطنا مع مصر فى الشرق الأوسط ، معناه قيامنا بخطوة ضد بريطانيا ، الأمر الذى يتنافى وسياستنا الخارجية » .

ولا نريد أن نتطرف مع المتطرفين ، فنتهم تركيا « بالمكيافيللية » ، وليس من بأس فى أن نقبل حجتها ، فى أن اعترافها بإسرائيل ، إنما جاء نتيجة للضغط الأمريكى المتواصل ، وأنه لو ترك لها الاختيار ، لما اعترفت بإسرائيل حتى اليوم ، ولكنها الحاجة إلى « الدولار » هى التى جعلتها تسلك هذا السبيل ، وكانت أمريكا قد علقت معونتها لتركيا على شرط اعترافها بإسرائيل ، وكانت تركيا فى أشد الحاجة إلى هذه المعونة .

وليس هناك من سبب جوهرى يدعو الدول العربية إلى رفض مثل هذا التعاون ، ولكن بشرط ألا يكون وسيلة لربطها بالتزامات هى فى أشد الغنى عنها ؛

لا بأس فى أن تتعاون الدول العربية مع تركيا دون أن تنساق إلى الارتباط مع الغرب فى أى حلف عسكرى يخدم تركيا ولا يستفيد منه العرب ، فهم على خلاف تركيا المستقلة تمام الاستقلال ، لاتزال تربطهم بالغرب بقايا من آثار الاستعمار ، يكافحون بمرارة فى سبيل التخلص منها .

ويختلف مركز الدول العربية من هذه العلاقات المقترحة ، فالعراق مثلا يربطها بتركيا وإيران « ميثاق سعد أباد » وهو وإن لم يشعر أحد بوجوده منذ قيامه ، إلا أنه على العموم مظهر من مظاهر التكتل فى الشرق الأوسط ، سبقت به دول هذه المنطقة من العالم زميلاتها فى الغرب ، وهناك بجانب الميثاق معاهدة صداقة وحسن جوار بين تركيا والعراق ترجع إلى سنة ١٩٤٧ ، ثم هناك مصالح مشتركة بين البلدين ، فالأنهار العراقية تنبع من هضاب الأناضول ، وخط حديد استانبول ـ البصرة ، يمر بالأراضى التركية والسورية قبل دخوله فى حدود العراق . وعلى العكس من ذلك نجد الجمهورية السورية فى مركز دقيق ، فهى لا تود أن ترفض يد تركيا الصديقة إذا مدت إليها ، ولكنها لا تستطيع أن تتناسى حقوقها فى الاسكندرونة ، التى يضع الأتراك يدهم عليها . ثم إن الدول العربية بأجمعها لا تعترف بإسرائيل ، وتفرض عليها حصاراً اقتصادياً ـ برهن على أنه أهم الأسلحة التى يمكن استخدامها ـ فى الوقت الذى تتجر فيه تركيا مع إسرائيل ، بل ويتخذ الصهيونيون كما تدل الإحصائيات الرسمية من تركيا طريقا يستخدمونه فى تهريب ما تحتاج إليه دولتهم من البضائع والمنتجات العربية .

هذه وغيرها مشاكل يجب أن يفكر فيها عند وضع أى ميثاق ، وإن كنا لا نقلل من أهمية مثل هذا الميثاق ، فالتكتل التركى العربى له فائدة محققة للطرفين خصوصاً ونحن نعيش فى عالم ينقسم إلى معسكرات تربط بينها الغاية الواحدة والمصلحة المشتركة . وسلامة الشرق الأوسط ، وضرورة الدفاع عنه تستدعى مثل هذا التعاون ، ، وتحث على الإسراع فيه .

البترول الإيرانى :

ولا يزال الموقف فى إيران مضطربا ، وقد ظلت مشكلة البترول تحتل المكان البارز فى صحف العالم جميعاً خلال الثلاثة الأشهر الماضية ، وكان آخر ما وصلت إليه تطورات المشكلة ، أن إيران بعد أن قبلت المفاوضه مع شركة البترول الإنجليزية الإيرانية ، وبعد أن وصل وفد الشركة إلى عبدان لمفاوضة ممثلى حكومة إيران فى تسوية المشكلة ؛ بعد أن حدث هذا كله ، أعلنت طهران أنها لن تدخل فى المفاوضات إلا إذا حصلت على ٧٥ ٪ من إيرادات الشركة منذ ٢٠ مارس الماضى ، أى من تاريخ موافقة البرلمان الإيرانى على قرار تأميم الزيت . وهددت بوقف البترول عن بريطانيا إذا لم تقبل الشركة شرط الحكومة ، ورفضت الشركة ، ولكنها تركت الباب مفتوحا بأن عرضت على الحكومة الإيرانية استعدادها لدفع عشرة ملايين من الجنيهات تحت الحساب حتى تتم التسوية النهائية للموقف ، وأصرت طهران على موقفها مما أدى إلى قطع المفاوضات ، وإلى أن تقرر إيران الاستيلاء على منشآت شركة البترول ، وأن تكلف مجلس إدارة مؤقت بتولى إستخراج البترول وتكريره وبيعه لمن يرغب فى شرائه ، ولا سيما عملائها السابقين ، وذلك وفق الأسعار العالمية .

وهكذا بلغ التوتر بين إيران وبريطانيا أقصاه ، ولم يعد أمام انجلترا بعد أن اتخذ الإيرانيون هذه الخطوة إلا أن تسلك إحدى وسائل ثلاث : فإما أن تعرض النزاع على هيئة محكمة العدل الدولية ، وإما أن تفرض العقوبات الاقتصادية على إيران . ثم ثالثة الأثافى وهو التدخل العسكرى ، وبالرغم من أن بريطانيا قد لجأت إلى بعض مظاهر تشعر بأنها قد تغامر فتسلك الطريق الأخير ، فألغت المناورات الجوية السنوية فى منطقة القنال ، وعقد كبار قوادها مؤتمرا فى فايد لدراسة احتمالات الموقف ، وحشدت فيما يقال قوات برية كبيرة فى البصرة ، ونقلت لواء المظلات إلى قبرص ، وأعدت العدة لترحيل الرعايا البريطانيين ؛ بالرغم من

هـذا كله فلا يزال التدخل العسكرى آخر الاحتمالات التى يمكن أن يفكر فيها ، إلا إذا كانت انجلترا قـد أعدت العدة لتلق بالعالم فى آتون حرب عالمية ثالثـة ، ذلك لأن معاهدة سنة ١٩٢١ بين إيران وروسيا تعطى الأخيرة الحق فى إرسال جيوشها إلى إيران إذا دخلتها أى جيوش أجنبية أخرى ، وأغلب الظن أن الانجليز ليسوا على استعداد لمثل هذه الحرب .

ولقد هددت بريطانيا بسحب خبرائها من معامل البترول ، وسحب أسطول النـاقلات البريطانية من المياه الإيرانية ، ولانجلترا سُبْع أساطيل الناقلات العالمية ، وليس من شك فى أن هذا قد يؤثر فى مركز انتاج البترول فى المرحلة الأولى من التأميم .

وخير لإيران أن تنتج لنفسها نصف إنتاج من أن ينتج دخيل لنفسه إنتاجاً كاملا ، أو كما قال رئيس حكومتها الدكتور مصدق : « خير لإيران أن ترى بترولها وقد جف من أن ترى الامتيازات الأجنبية تستنزف هذا البترول .

لواء من عرب فلسطين :

وتفكر الجهات المسئولة فى مصر فى تكوين كتيبة فلسطينية ، قوامها المجندون من اللاجئين المقيمين فى قطاع غزة ، وهى فكرة لم تلق بعد ما هى جديرة به من الاهتمام والعناية ، مع أنها مما يرفع روح اللاجئين المعنوية ويشعرهم بالكرامة ، ويذكى فى نفوسهم روح التحرير ، والعمل على استعادة وطنهم المغتصب ، ومن قبل نجحت هذه الفكرة فى المملكة الأردنية الهاشمية التى كونت من اللاجئين لواءً عهدت إليه بحراسة حدودها المشتركة مع إسرائيل ، فجدير بمن يعنون بهذا الأمر أن يمضوا قدما فى سبيل إيجاده ، والله ولى التوفيق ».

صدر الدين الشيرازى

مجدد الفلسفة الإسلامية

لحضرة الدكتور محمود محمد الخضيرى

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

وعدت فى مقال سابق (*) تفضلت بنشره « رسالة الإسلام » أن أتحدث عن النشأة الدراسية لصدر الدين الشيرازى ، وعن أساتذته وتلاميذه ، واليوم أفى بما وعدت ، وأنا التمس التفضل بالمعذرة لتأخرى فى تحرير هذا الحديث .

ولد صدر الدين فى مدينة شيراز فى جنوب إيران ، ولا نعرف سنة ميلاده على وجه التحقيق ، ولكن الأرجح أنه ولد فى الربع الأخير من المائة العاشرة بعد الهجرة ، وكان والده من أعيان شيراز ، وقيل إنه تولى فيها منصب الوزارة ، واشتهرت نسبته إلى أسرة قوام العريقة فى توارث الرياسة والفضل ، وقد بدأ تعليمه فى مسقط رأسه ، وكانت شيراز عامرة إذ ذاك بالمدارس والعلماء ، ولكنها كانت دون أصفهان ، لاسيما وأنه اتفق أن اجتمع فى هذه العاصمة الأخيرة فى أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر للهجرة ، عدد من الحكماء والعلماء يندر أن تحظى به مدينة واحدة فى وقت واحد .

توجه صدر الدين إلى أصفهان ليتمم دراسته ، وليستفيد من القراءة على علمائها المشهورين ، واتصل فى بادىء الأمر بالسيد الأمير أبى القاسم الفندرسكى ، ثم قرأ

(*) رسالة الإسلام العدد الثانى من السنة الثانية ص ٢١٢

على الشيخ بها الدين العاملى ، ثم على محمد باقر الاسترابادى المعروف بالمير الداماد وهؤلاء الثلاثة كانوا أشهر حكماء عصرهم تفخر بهم أصفهان ، وهم شيوخه وأساتذته .

وقد روى المرحوم العلامة أبو عبد الله الزنجانى تفاصيل طريفة عن ظروف الصدفة التى جمعت بين صدر الدين والأمير أبى القاسم الفندرسكى (١) ، ولم يذكر المصدر الذى استمدها منه ، ولا شك عندى أنه استفادها من بعض ما كان ينفرد بامتلاكه من نوادر الكتب ، على أنى أستبعد كثيرا أن تكون الصدفة هى التى عرفت صدر الدين فى أول عهده بطلب العلم بأصفهان بالحكيم أبى القاسم الفندرسكى وهو إذ ذاك فى شيخوخته فى بعض حمامات المدينة ، بل إنى لأميل إلى الظن بأنه قصد إليه يلتمس أن يقرأ عليه ، وأن يرشده ويوجهه فى دراسته ، ولعل الأستاذ اعتذر بكثرة شواغله وتقدمه فى السن . ونصح تلميذه الشاب أن لا يعتمد عليه كل الاعتماد ، وأن يستفيد من الشيخين الذين كانت تفخر بهما أصفهان فى ذلك الوقت .

وقد ذكر صاحب رياض العلماء (٢) فى ترجمته للحكيم الفندرسكى ما يلى : « السيد الأمير أبو القاسم الفندرسكى الحسينى الموسوى كان حكيما فاضلا فيلسوفا صوفياً ماهرا فى العلوم العقلية والرياضية ، معاصراً للسلطان الشاه عباس الماضى الصفوى ، والسلطان الشاه صفى معظما عندهما ، وله إلمام بالشعر ، سافر إلى الهند وكرمه سلاطينها ، ونُقل من موفور مهارته فى العلوم الهندسية والرياضية أنه قد جرى ذات يوم ذكر مسألة هندسية من كلام المحقق الطوسى ، فأقام عليها السيد

---

(١) الفيلسوف الفارسى الكبير صدر الدين الشيرازى ، دمشق ، ص ٨

(٢) كتاب رياض العلماء من كتب التراجم المعروفة عند الشيعة ، وليس بين يدى نسخة منه ، وإنما اقتبست عنه ما نقله المرحوم العلامة الشيخ عباس بن محمد رضا القمى فى كتابه : « سفينة بحار الأنوار ، ومدينة الحكم والآثار » ج ٢ ص ٤٣٠ ، أما مؤلف رياض العلماء فهو ميرزا عبد الله بن عيسى التبريزى ، ثم الأصفهانى المشهور بميرزا عبد الله الأفندى ، وقد جاءه اللقب التركى بسبب إقامته زمنا فى الآستانة ، وهو من أصحاب العلامة المجلسى ، وكتاب الرياض يقع فى مجلدات كثيرة ، ولم يبلغنى أنه مطبوع .

برهانا بداهة وقال : هذا الذى قال المحقق الطوسى فى مقام البرهان ؟ قالوا : لا ، فأقام برهانا آخر ثم سأل أهذا الذى أقامه ؟ قالوا : لا ، إلى أن أقام دلائل وبراهين عديدة ، ومضى صاحب الرياض فى الحديث عن الحكيم الفندرسكى إلى أن قال : له من المؤلفات الرسالة الصناعية بالفارسية : مختصرة معروفة ذكر فيها جميع موضوعات الصنائع وتحقيق حقيقة العلوم ، وله شرح كتاب المهارة من كتب حكماء الهند بالفارسية ، وهو المعروف بشرح الجول ، ولعله غيره ، وتوفى بأصفهان فى دولة الشاه صفى ، وقبره معروف فيها ، وله من العمر نحو ثمانين سنة ، ثم ذكر شيئا عن اثنين من أجداده عرفا بالقرب من السلطان وخدمته وكذلك عن سبطه ، وكان معاصرا لمؤلف الرياض ، وله مشاركة فى العلوم والشعر بالفارسية والعربية .

والفندرسكى نسبة إلى فندرسك ـ بكسر الفاء والنون ـ قرية من نواحى استراباد فى خراسان .

ومن أخبار هذا الحكيم ، أنه كان أستاذاً فى المعقول للآقا حسين الخوانسارى(١) وذكر أيضاً أنه لقى فى الهند حكيما كان يشتغل بشرح كتاب القانون فى الطب لابن سينا ، ولم تعجبه طريقته فى التأليف إذ كان يقتصر على الجمع والنقل ووضع المعلومات والنصوص بعضها بجوار بعض دون تصرف فى الرأى ، ولا اجتهاد فى التفكير الشخصى ، فاستاء الفندرسكى من هذه الطريقة ودفعه استنكاره إياها إلى الظن بأن الرئيس ابن سينا كان كذلك (٢) .

وأبو القاسم الفندرسكى مدفون فى مزار معروف باسمه فى تخت فولاد بأصفهان وقيل إنه توفى بين سنة ١٠٣٠ و ١٠٤٠ بعد الهجرة (٣) .

وعندى من مؤلفاته « رسالة حقائق الصنائع » بالفارسية (٤) ، وهى الرسالة

(١) روضات الجنات ص ١٩٧

(٢) روضات الجنات ص ٢٤٦

(٣) الفيلسوف الفارسى الكبير للزنجانى ص ١٧

(٤) مطبوعة على الحجر مع أخلاق ناصرى ، للمحقق الطوسى بمباى سنة ١٢٦٧

التى سماها صاحب رياض العلماء باسم الرسالة الصناعية ، وفيها مايشهد لهذا الحكيم بالأصالة والرغبة فى تجديد الموضوعات ، إذ لايخفى أن البحث فى الصنائع وطبقات الصناع ، كان مما يدخل فى نطاق العلوم العملية عند السابقين ، ويختص بها العلم المسمى « تدبير المنزل » وهو علم يتفق فى موضوعه مع « الاقتصاد السياسى » فى الوقت الحاضر .

أما الأستاذ الثانى لصدر الدين ، فهو بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملى الحارثى الجباعى، وهو رجل فذ ، اشتغل بجميع العلوم الدينية نقلية وعقلية ، كما اشتغل بالفلسفة والرياضة والفلك والأدب والشعر ، وله فى جميع ذلك آثار محمودة ، تشهد له بسعة التحصيل ودقة النظر ، وهو بدون شك من أعظم شخصيات العالم الإسلامى فى القرن الحادى عشر .

وأحب قبل الكتابة عن سيرته باختصار ، أن أنبه إلى خطأ وقع فيه بعض المعاصرين : ذلك أن الأستاذ قدرى حافظ طوقان وضع كتابا فى « تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك » (١) أنكر فيه نسبة البهاء العاملى إلى جبل عامل ونسبه إلى قرية اسمها آمل ، وعلى ذلك سماه « الآملى » . وهذا خلط سببه أن المستشرقين الذين نقل عنهم المؤلف ، وهم من غير المحققين ، أغفلوا رسم العين فى كلمة العاملى ، فنقل الأستاذ عنهم على حسب طريقتهم فى النطق والرسم ولم يحاول الرجوع إلى ما كتبه المؤرخون من معاصرى العاملى ، ولا إلى ما كتبه العاملى نفسه . والحقيقة أنه ينسب إلى جبل عامل فى الشام ، حيث تعيش جالية شيعية منذ زمن طويل ، وإلى جبل عامل ينتسب كثير من علماء الشيعة ، أفرد لبعضهم كتاب قيم مشهور (٢) .

ولد بهاء الدين بمدينة بعلبك يوم الخميس لثلاث عشرة بقين من المحرم سنة

---

(١) مطبوع فى القاهرة سنة ١٩٤١

(٢) أمل الآمل فى ذكر علماء جبل عامل ، وغيرهم من المتأخرين عن زمان الشيخ الطوسى لمؤلفه الشيخ محمد بن الحسن بن على الحر العاملى

ثلاث وخمسين وتسعمائة (١) ، وانتقل وهو صغير مع والده ، وكان من العلماء إلى إيران ، وهناك تعلم ونبغ وذاع صيته ، وهو لا يزال فى سن الشباب وما لبث أن أسندت إليه مشيخة الإسلام فى هراة . ولكنه رغب فى السياحة والسفر ، فبدأ بالتوجه إلى الحجاز للحج والزيارة ، وأقام هناك فترة اجتمع فيها مع من كانوا يقيمون فى الحجاز من العلماء من مختلف البلاد . ثم شرع بعد ذلك فى رحلات كثيرة قضى فيها ثلاثين سنة . وأقام فى مصر مدة عرف أثناءها علماء القاهرة وأعيانها ، ونحن نجد تفاصيل أخباره المتصلة بإقامته فى القاهرة فى كتابين مفيدين للمحبي والخفاجي (٢) ، ولم يجد بهاء الدين فى مصر فى ذلك الوقت ما وجده فى الحجاز وإيران والشام وغيرها من البلاد الإسلامية التى زارها من العناية بالعلم بالرغم من إعجابه بذكاء المصريين ، فأسف لذلك ، وشاركه هذا الأسف صديقه القاهرى السيد محمد البكرى وكانا يتبادلان الود والتقدير ، وعبر بهاء الدين عن رثائه لحالة العلم فى مصر إذ ذاك ، فى قصيدة مدح بها السيد محمد البكرى ، فقال :

من شاء أن يحي سعيداً بها	منعما فى عيشة راضية
فليدَعِ العلم وأصحابه	وليجعل الجهل له غاشية
والطب والمنطق فى جانب	والنحو والتفسير فى زاوية
وليترك الدرس وتدريسه	والمتن والشرح مع الحاشية (٣)

وكان البهاء العاملى مقيما فى مصر سنة ٩٩٢ كما يظهر من إشارات له متعددة فى كتابه الكشكول (٤) وكان دائم الصلة أثناء رحلاته بذويه فى هراة وبأصحابه فى مختلف البلاد الإسلامية ممن عرف أقدارهم وعقد العلم بينه وبينهم علائق المودة

---

(١) روضات الجنات ص ٥٣٥ أواخر الصفحة

(٢) خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبي ، القاهرة سنة ١٢٨٤ ، ج ٣ ص ٢٤٠ ــ ٢٥٣ ، وريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا لشهاب الدين أحمد الخفاجى ، بالقاهرة سنة ١٢٧٣ ، ص ١٠٣ وما بعدها

(٣) ريحانة الألبا ، للخفاجى ، ص ١٠٦

(٤) أنظر مثلا ص ١٦ و ص ١٨ من طبعة القاهرة سنة ١٢٨٨

ولما عاد إلى إيران استقبله الشاه عباس الصفوى بحفاوة عظيمة ، وقلده مشيخة الإسلام فى أصفهان ، وهى إذ ذاك دار السلطنة وعاصمة الدولة .

وكما تميز البهاء العاملى فى جميع العلوم المعروفة فى زمنه ، وكان بذلك عالمى التفكير واسع الثقافة ، كذلك تميز فى عاطفته الدينية الإسلامية ببعد النظر فكان أينما حل فى أسفاره بين طائفة من المسلمين يعرفهم بخير ما عند سائر الطوائف الإسلامية ، ويقتبس ما عند هذه الطائفة من خير ، فهو بلا شك شيعى مخلص ، مدحه كل من عرفه من علماء السنة وأهل التصوف ، وكان هو لا يغمط أحدا حقه بل كان يعظم بعض المخالفين اعترافا بما قد يوجد عندهم من علم أو فضل . ولعله كان يحذو فى ذلك حذو السيد المرتضى الذى اعتاد أن يترجل إذا مر بقبر أبى اسحاق الصابى وهو راكب ، تعظيما لما عهده فيه من أدب وعلم ، بالرغم مما بينهما فى الدين من اختلاف بعيد . والحقيقة هى أن البهاء العاملى كان صديقا لبعض العلماء من أهل السنة ، وكانت له مشاركة فى علوم السنة ، وليس هذا بمستنكر ، وكان أيضاً صديقاً لبعض الصوفية ، وهو كثير الإشارة إلى « الأستاذ الأعظم الشيخ محمد البكرى » صاحبه فى مصر ، وليس بمستغرب بحال من الأحوال أن يكون لشيخ الإسلام فى دولة السلطان عباس الصفوى مشاركة فى التصوف ، لأن الصفويين كانوا يشجعونه ، وليس يتعارض هذا كله أدنى تعارض مع حبه لآل النبى ، وتشيعه لهم (١)

وبالجملة فإن أصدق وصف لهذا العالم الكبير ، هو ما جاء فى كتاب : « أمل الآمل » ونصه : « كان ماهراً متبحراً جامعاً كاملا شاعراً أديبا منشئا عديم النظير فى زمانه فى الفقه والحديث والمعانى والبيان والرياضى وغيرها » (٢) . وقد

---

(١) راجع فى ذكر أقوال المؤرخين من الشيعة وأهل السنة فيه كتاب روضات الجنات ص ٦٣٥

(٢) كتاب أمل الآمل فى ذكر علماء جبل عامل للشيخ محمد بن الحسن بن على الحر العاملى ص ٣٥٠ من طبعة طهران سنة ١٣٠٧ هـ

ألف كتبا كثيرة فى شتى العلوم باللغتين العربية والفارسية (١) ، طبع منها فى مصر الكشكول والمخلاة ، وهما فى الأدب ، وخلاصة الحساب ، وقد طبع هذا الكتاب الأخير طبعات كثيرة أخرى ، يحتوى بعضها على شروح بالفارسية أو بالتركية فى الهند والقسطنطينية وبرلين ، وظل مدة طويلة مرجعاً فى تعليم الحساب ، كما ترجم إلى الفارسية والتركية والألمانية والفرنسية (٢) ، وتوفى الشيخ بهاء الدين فى شوال سنة ١٠٣٠ ، وقيل ١٠٣١ بأصفهان ، ودفن فى طوس ، وقبره معروف هناك بجوار قبر الإمام على بن موسى الرضا .

أما الأستاذ الثالث لصدر الدين فهو صنو البهاء العاملى فى التأثير عليه ، وهو أكثر ميلا إلى الفلسفة ، وكان الفندرسكى قد قال :لتلميذه صدر الدين الشيرازى فى مقام الموازنة بين الأستاذين : « إذا أردت أن توسع عقلك فعليك بالشيخ بهاء الدين ، أما إذا أردت أن ينفتق لسانك فعليك بأمير محمد باقر » وفضّل صدر الدين سعة العقل على تفتق اللسان ، ولازم بهاءَ الدين العاملى ليقرأ عليه الكلام والفلسفة وعلوم الأوائل ؛ ولكن الشيخ بهاء الدين كان أحسن ظنا بالأمير محمد باقر من الأمير أبى القاسم الفندرسكى ، فقال له يوماً : « أنت تلقيت جل علومى » ثم وجهه بحيلة ظريفة إلى آخر أساتذته المير محمد الباقر بن محمد الحسينى الاسترابادى المعروف بالداماد (٣) .

ولقب الداماد مهم للتمييز بينه وبين عالم آخر معاصر له اسمه أيضا محمد باقر الاسترابادى ، كان من تلامذة الشيخ البهائى (٤) وجاء هذا اللقب عن أبيه ومعناه

---

(١) راجع بيانها فى أمل الآمل ص ٣٥٠ ، ٣٥١ ، وروضات الجنات ص ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، وكتاب بروكلمن « بالألمانية » فى تاريخ الأدب العربى ج ٢ ص ٤١٤ ، ٤١٥

(٢) راجع لتقدير منزلته فى تاريخ الفلك والرياضة كتاب سوتر « بالألمانية » عن علماء الرياضة والفلك بين العرب ومؤلفاتهم ، ليبزغ سنة ١٩٠٠ م ، ص ١٩٤

(٣) أطروحة الشيخ أبى عبد الله الزنجانى عن صدر الدين ص ٨

(٤) أمل الآمل ص ٤٥٧

بالفارسية الختن ، لأن أباه كان ختنا للمحقق الشيخ على بن عبد العالى العاملى الكركى الذى يعرف بين علماء الشيعة بلقب الشيخ العلائى أو المحقق الثانى أو المحقق الكركى المتوفى بالنجف الأشرف سنة ٩٤٠ هجرية ، وهو جد لمحمد باقر ، وهو كثيراً ما يوقع كتبه وإجازاته بمثل هذه الصيغة :

« كتب بيمناه الداثرة أحوج الخلق إلى الله الحميد الغنى محمد بن محمد يدعى باقر ابن داماد الحسينى ، ختم الله له بالحسنى حامداً مصلياً » (١) .

ذكر صاحب أمل الآمل فى ترجمته بعد أن أورد أسماءه وألقابه : « عالم فاضل جليل القدر حكيم متكلم ماهر فى العقليات معاصر لشيخنا البهائى ، وكان شاعراً بالفارسية والعربية مجيداً ، روى عن خاله الشيخ عبد العالى بن الشيخ على ابن عبد العالى العاملى الكركى إجازة ، وروى أيضاً عن الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملى (وهو والد الشيخ البهائى) إجازة ، وقد رأيت الإجازتين » (٢) .

وكان مقرباً عند السلطان عباس الصفوى الذى كان يعتز به وبصنوه الشيخ البهائى ، ويحمد الله لاجتماعهما فى أيامه (٣) ، وإن كان صاحب سلافة العصر يذكر أن هذا السلطان أضمر له السوء مراراً ، فرقا من توجه القلوب إليه وخوفا من خروجه عليه (٤) ، وكذلك كان يقربه خليفته السلطان شاه صفى .

وكان المير محمد باقر صديقاً مخلصاً للشيخ بهاء الدين ، وجرت بينهما رسائل كثيرة ينم المنشور منها عن اشتراكهما فى التعمق فى الفلسفة الإشراقية . وتدل مؤلفاته على أنه كان أكثر من صاحبه تخصصاً فى الفلسفة ، ولم يكن يشتغل مثله بجميع العلوم :

---

(١) روضات الجنات ج ١ ص ١٥ ، وانظر أيضاً خطبة كتاب القبسات .

(٢) أمل الآمل ص ٤٩٨

(٣) الروضات ج ١ ص ١١٥

(٤) على صدر الدين خان المعروف بابن معصوم ، كتاب سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر ، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ ، ص ٤٨٦

وعندى من مؤلفاته مجموعة تحتوى على كتاب القبسات ، وصحيفة القدس ، وكتاب خلسة الملكوت ، وكتاب الإيقاظات ورسالة فى تصحيح مذهب أرسطو (١) والرسالة الأخيرة بالرغم من صغر حجمها ، تدل على خبرة بالفلسفة تضعه فى رتبة الفلاسفة الكبار ، وقليل عددهم فى التاريخ ، وهى تستحق دراسة خاصة . وله غير ذلك كتب أخرى فى الحكمة ، نذكر منها : الرواشح السماوية ، وكان عند العلامة الخوانسارى منها نسخة بخط تلميذه صدر الدين الشيرازى (٢) . وكتاب السبع الشداد وغيرها ، كما أنه ألف فى الفقه عدة كتب ، وله حواش على الكافى (٣) . ومن هذا نرى أنه لم يهتم إلا بالحكمة والفقه ، بخلاف الشيخ بهاء الدين الذى ألف فى أكثر العلوم .

وقد ذكر صدر الدين فى ابتداء شرحه على أصول الكافى ، أن له الرواية عن هذين الشيخين الجليلين مقدما بهاء الدين على الداماد ، وإن كان ذكره إياه بعده بمزيد من التبجيل (٤) . وذكر أيضاً فى نسخته من كتاب الرواشح ، أن له الرواية عن أستاذه الداماد .

وبالرغم من استفادة الداماد من كتب ابن سينا ، إلا أنه لم يقتصر على تلخيص أفكاره أو شرحها ، بل كان يعتبر نفسه نداً له ، فقد كتب فى إجازة له لبعض أقاربه : « قرأ على أنولوطيقا الثانية وهى فن البرهان من حكمة الميزان من كتاب الشفا لسهيمنا السالف ، وشريكنا الدارج ، الشيخ الرئيس أبى على الحسين بن عبد الله بن سينا .. قراءة بحث وفحص وتحقيق وتدقيق الخ » (٥) .

واشتهر الداماد بحسن السيرة ، والحرص على فروض الدين ونوافله ، والإكثار من تلاوة القرآن ، وقيل إنه كان يقرأ كل ليلة منه خمسة عشر جزءاً كما قيل إنه ظل أربعين سنة لا يأوى بالليل إلى فراشه ، وذلك لاشتغاله بالتعبد

---

(١) طبع حجر طهران سنة ١٣١٥ (٢) روضات الجنات ص ١١٥
(٣) أمل الآمل ص ٤٩٨ (٤) الروضات ص ٣٣١ (٥) روضات ص ١١٦

والقراءة ، وذهب فى آخر حياته فى صحبة السلطان شاه صفى لزيارة النجف ، فمات ودفن هناك بين النجف وكربلاء سنة ١٠٤٠ هـ(١) ، وقيل: بل مات سنة ١٠٤١ هـ(٢)

وقد استفاد صدر الدين من هذين الأستاذين أعظم فائدة ، وأخذ عن كل واحد منهما ما اختص بالتفوق فيه ، ودفعه تعلقه بطلب العلم وحب الحكمة ، أن يبتعد عن مناصب الإدارة والحكام ، فتفرغ للتأليف والتعليم ، ونجح فى تكوين طائفة من الحكماء والعلماء ؛ لم يتيسر إلا لنصير الدين الطوسى أن يجمع حوله مثلها . وكان له بذلك فضل عظيم فى النهضة بالتعليم وإشاعته ، ونرجو أن نعود إلى تفصيل ذلك عن قريب إن شاء الله ؟

إلى حضرات المشتركين

ترجو (رسالة الإسـلام) من حضرات مشتركيها الذين لم يؤدوا قيمة اشتراكهم : أن يتفضلوا بإرسال هذه القيمة على مكتب بريد الجزيرة مشكورين .

إن مجلة (رسالة الإسلام) لا تحب أن تطالب مشتركيها أو تذكرهم أو تعاملهم معاملة تجارية ، فتقطع أعدادها عنهم ، فإن اشتراكها زهيد ، وغايتها سامية ، وقراءها صفوة ، ولكننا نخشى أن يكون فى السهو عن مثل ذلك سهو عن الفكرة التى نعتز بها ، ونعمل جاهدين على إحيائها ؛ وحاشاهم !

---

(١) روضات ص ١١٦ (٢) سلافة العصر ص٤٨٦ ، وأمل الآمل ص ٤٩٨

أنباء وآراء

بين شيخين جليلين :

علم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر أن حضرة صاحب السماحة العلامة الأكبر الحاج آقا حسين بروجردى كبير علماء الشيعة بإيران قد مسه طارىء من المرض أقعده عن مباشرة كثير من أعماله الطيبة فى خدمة الإسلام والمسلمين ، وقد صادف أن فضيلة الأستاذ الأكبر كان معتكفاً فى هذه الفترة لمرضه ، فما إن عاد إلى مباشرة أعماله بعد شفائه حتى أمر بإرسال كتاب ودى أخوى إلى سماحة العلامة الجليل هذا نصه :

حضرة صاحب السماحة آية الله الحاج أقا حسين بروجردى :

سلام الله عليكم ورحمته . أما بعد : فقد بلغنا ـ عن طريق المذياع ـ أن صحتكم الغالية قد ألم بها طارىء من المرض ، فأسفنا لذلك أشد الأسف لما نعرفه فيكم من العلم والفضل والإخلاص للحق ، وإنا لنسأل الله جلت قدرته أن يعجل بشفائكم ، ويلبسكم لباس العافية ، حتى تتمكنوا من العود الحميد إلى نشاطكم المعهود فى خدمة الإسلام والمسلمين .

ولقد شاءت إرادة الله أن أكون أنا أيضاً فى هذه الفترة مريضاً معتكفا فى بيتى أحمل همين ممضين : همّ نفسى وهمّ قومى ، وأطيل التفكير خالياً فى حال أمتنا العزيزة ، فيأخذنى من القلق والحزن ما الله به عليم ، فأرجو أن تسألوا الله لى العافية كما أسأله لكم ، والله يتولانا جميعاً برحمته .

إن الأمة الإسلامية الآن أحوج ما تكون إلى رجال صادقى العزم ، راجحى الوزن ، يجاهدون فى الله حق جهاده ، ليدرءوا عنها غوائل الفتن ، ونوازل المحن ، فقد تألبت قوى الشر ، وتجمعت عناصر الفساد ، وزلزل المؤمنون فى كل قطر من أقطارهم زلزالا شديداً ، وكأنْ قد أتى الزمان الذى أنبأ الصادق الأمين : ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ـ أن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر ، وإنما مثل أهل العلم من المؤمنين الصادقين كأطواد راسية أو حصون منيعة ألقاها الله فى الناس أن تميد بهم الأرض من فتنة أو جهالة ، أو كنجوم ثاقبة فى ليل داج ، ترشد السارين ، وتهدى الحائرين . فادع الله معى أن يحفظ هؤلاء ويكثر فى الأمة منهم ، وينشر عليهم رحمته ، وينزل عليهم سكينته ، ويؤيد بهم الحق والدين ، ويهزم بهم المبطلين والملحدين والمفسدين ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

١٤ من شعبان سنة ١٣٧٠ هـ

وقد تأثر صاحب السماحة العلامة الأكبر بهذا الكتاب الذى يدل على ما تنطوى عليه نفس فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وكبير علماء السنة من عواطف كريمة نحو إخوانه المؤمنين ، وحرص على نهوض الأمة الإسلامية نهضة تعيد إليها سابق مجدها وعزها ، فأجاب بهذا الكتاب :

حضرة صاحب الفضيلة الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم

شيخ الجامع الأزهر ـ دامت إفاضاته

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ـ فقد بلغنا كتابكم الكريم الحاوى للعواطف الإسلامية السامية ، يحكى لنا أنه لما بلغكم عن طريق المذياع أن صحة هذا العبد قد ألم بها طارىء من المرض ، أسفتم لذلك ، ودعوتم الله تعالى أن يعيد له الصحة

فأشكركم على ذلك ، وأسأل الله تعالى أن يبدّل التعارف والتعاطف بين المسلمين ، مما كان بينهم من التناكر والتدابر والتقاطع ، إنه على ما يشاء قدير .

ويَحكى كتابكم أيضاً ، أنه قد ألم بصحتكم الغالية طارىء من المرض ، كما ألم بى ، فاعتكفتم فى البيت حاملين لهمين ممضين : همّ نفسكم ، وهمّ قومكم ، وأن إطالة التفكير فى حالة الأمة ، توجب لكم من القلق والحزن ، ما الله به عليم .

هكذا ينبغى أن يكون رجال العلم ورجال الإسلام ، مهما حاقت بالمسلمين زلازل الفتن ، وأحاطت بهم نوازل المحن ، فأسأل الله عز سلطانه ، أن يلبسكم لباس العافية ، ويوفقكم لخدمة الإسلام والمسلمين ، ولما يوجبه الاهتمام بأمر الأمة فى مثل هذا الزمان ، من أمثال جنابكم الذين وقفوا أنفسهم لخدمة هذه الأمة ، ودرء عوادى المفسدين والملحدين عنها . إنه قريب مجيب .

إن هنا أموراً كنت أحب إبداءها لكم ، لكن حالى لا تساعدنى على ذلك .

والسلام عليكم وعلى من أحاط بكم من المؤمنين الصادقين ورحمة الله وبركاته .

١٧ من رمضان سنة ١٣٧٠ هـ

* * *

السكرتير العام لجماعة التقريب :

يهيأ هذا العدد من مجلة « رسالة الإسلام » ويصدر ، والأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ محمد تقى القمى فى رحلته بإيران ، بعد أن مكث بالقاهرة آخر مرة عامين كاملين ، بعيداً عن بلاده ومصالحه عاكفاً على خدمة التقريب ورسالة الإسلام .

والنفس تلتفت إلى هذا الرجل الصابر المحتسب ، الذى يضرب أروع الأمثال فى الجهاد لفكرة آمن بها قلبه ، وأيقن أنها أساس قوة الإسلام . تلتفت إليه النفس إجلالا وإكباراً ، وتقديراً وعرفانا ، ولو كان فضيلته هنا ، لما استطعنا أن ننشر هذه الكلمات اليسيرة ، لأنه كما يأخذ نفسه بالتقشف فى حياته ، والتوفر على فكرته ، يأبى أن يُذكر شخصه ، أو يُشادَ بعمله ، فهى فرصة ننتهزها لنحيي الرجل المؤمن العامل الصامت وهو فى دياره بين أهله وقومه ، وندعو له بدوام

التوفيق ، وبالعود الحميد ، إلى دار هجرته ليسير قدما فى سبيل الجهاد حتى ينصره الله « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

* * *

جماعة جديدة فى اللاذقية :

تألفت أخيراً باللاذقية فى سوريا جماعة خيرية إسلامية جعفرية ، تضم كبار العلماء من طائفة العلويين ، والغرض منها نشر الثقافة الإسلامية ، ومناصرة الفضيلة وبث فكرة التقارب بين المذاهب الاسلامية ، والعمل على كل ما يفيد المسلمين عامة ، والطائفة العلوية خاصة .

وقد دعا الى تأليف هذه الجماعة السيد المبجل الشريف الهاشمى الأمير عبد الله الحسينى ، وصاحب السماحة الشيخ العلامة الجليل حبيب آل ابراهيم ، وأسندت رياستها الى السيد الشريف بالإجماع .

وقد استقبلت هذه الخطوة بالتأييد والاستحسان من الرأى العام هناك شيعيه وسنيه ، وتناقلت الصحف نبأها مرحبة مستبشرة ، ودارت بين سمو الأمير الجليل رئيسها ، وسماحة السكرتير العام لجماعة التقريب مكاتبات فى شأنها والترحيب بها .

وإننا نهنىء إخواننا العلويين وسائر المسلمين بهذه الخطوة المباركة ، ونسأل الله جلت قدرته أن يبارك أعمالهم ، ويوفق مساعيهم ، وأن يؤيد كل عامل على جمع كلمة المسلمين ، واعتصامهم بحبل الله المتين .

* * *

من وحى التقريب

بعث الينا حضرة الأستاذ العلامة الشيخ محمد حسن بن الشيخ الأجل محمد رضا آل ياسين من النجف الأشرف بمقال ممتع عنوانه « من وحى التقريب » بدأه بالثناء على مجلة « رسالة الإسلام » وما تقوم به من خدمة للعلم والدين ، ثم ذكر

أنه اطلع على مقال حضرة صاحب الفضيلة والسماحة الأستاذ الشيخ محمد تقى القمى الذى نشر فى العدد الأول من السنة الثالثة بعنوان : « جولة بين الآراء » فوجده يرى فى هذا المقال أن التقريب بين الطوائف الإسلامية محقق لامحالة ، اذا ما فهم الجميع حقيقة ما تدعو اليه هذه الجماعة المباركة ، وأخذ كل كاتب من كل طائفة نفسه بالتزام الحسنى والنقد النزيه فى كل ما يكتب ويحكم من طريق الاطلاع على كتب سائر الطوائف ، ليسلك « فى تآليفه مستقبلا طريقة لا تحصر تداول مؤلفاته فى محيط طائفته ، وتصرف عنها بقية الطوائف لما تشتمل عليه من طعون وافتراءات » .

ثم قال :

« هذه خلاصة ما جعله فضيلة الأستاذ القمى علاجا لمشكلة التقاطع الموجود بين الطوائف الإسلامية ، ودرءا للتباغض والتفسخ الذى ابتلى به المسلمون ، وأنت ترى أنه فرض الكتاب والمؤلفين من أهم الأسس فى الموضوع ، وعلق كل أمله عليهم إذا ما التزموا الحسنى والنقد النزيه فى الكتابة والحكم .

وهنا أرجو أن تسمح لى جماعة التقريب و « رسالتها » أن ألتزم الصراحة فى تعليق هذا ليكون معرباً حقاً عما يجول فى الخاطر ، ويختلج طى خفايا النفس .

ومجمل تلك الصراحة أن هناك أموراً لم يذكرها فضيلة الأستاذ أظنها تفوق فى تأثيرها ـ وتأثيرها التقاطع طبعاً ـ كل ما يكتب الناقدون ، وجميع ما يحرر المغرضون ، ذلك لأن لكل طائفة من طوائف الإسلام شئونا تعتبرها مقدسة فى نظرها محترمة عندها ، وإن لم تعتبرها طائفة أخرى كذلك ، ومعلوم بدهى أن التعرض لمثل هذه المقدسات والاعتداء عليها أمر له نتائجه الوخيمة وعواقبه المؤلمة فى التأثير على الوحدة التى تدعو إليها هذه الجماعة بالحكمة والموعظة الحسنة » .

ثم تناول أمراً يتصل بإخواننا النجديين وما عملوه بالحجاز والمشاهد المعظمة ، واقترح على الجماعة أن تتصل فى شأنه بالحكومة السعودية .

ورسالة الإسلام ، تشكر لفضيلته غيرته وبالغ حرصه على ما يؤيد دعوة التقريب تأييداً عملياً ، وتقول له : إن أبواب التقاطع بين المسلمين كثيرة ، وإننا نعمل على أن نغلق منها الباب بعد الباب ، ولا يهمنا بأيها نبدأ ما دمنا نغلق ، وقد يكون الكلام الآن فى موضوع ما سبيلا الى اتساع الخرق .

ولا يخفى أن طول العهد بالاختلاف ، وتداول الآراء فى تأييد وجهات النظر المتباينة جيلا بعد جيل ، من شأنه أن يترك أثراً فى أعصاب المختلفين ، وليس من الحكمة أن تقاوم شخصاً متوتر الأعصاب ، فإنك بهذا تزيده توتراً ، وتحمله من حيث لا تقصد على التمسك برأيه عناداً وإصرارا .

ثم إننا قد ننظر إلى شىء واقع فعلا . ونعلم أنه قد وقع فى عهد من العهود نتيجة التفكير السطحى لقوم يحسبون أن ذلك هو حكم الإسلام الذى لا محيص عنه ، فنصبر على هذا الواقع ، وإن وجدنا غضاضة فى الصبر عليه تلافيا لما هو أشد منه لو جعلناه أول قصدنا ، ومبدأ سعينا ، فلتهدأ نفوسنا ، ولنترك للزمن مع ما يبذله المخلصون من السعى الهادىء الحثيث إصلاح ما فسد ، وتعديل ما اعوج وبالله التوفيق .

* * *

معذرة إلى حضرات الكتاب :

ضاق نطاق هذا العدد عن بعض البحوث الجيدة ، فلم نر بداً من تأجيلها الى العدد القادم إن شاء الله ، فلإخواننا الكرام الكاتبين مع هذا الاعتذار أبلغ الشكر ، والله يتولانا جميعاً بتوفيقه وهدايته ؟

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة أو طوائف إسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وأن يعتمد على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وأن لا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ — من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديما فى الشئون الدينية ، واستغلتها فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتا لأقدامهم ، وقد سخّروا - مع الأسف - بعض الكتاب والأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة .

هذا ما نريد أن نلفت إليه أنظار بعض المؤلفين أو المعلّقين على الآثار فى عصرنا هذا ،

ونرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، بل مصلحة الإسلام والمسلمين قبل كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ﺟ ـ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشا مصريا

وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٢



تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الثالثة
العدد الرابع

ذو الحجة ١٣٧٠ هـ
اكتوبر ١٩٥١ م

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

"قرآن كريم"

بسم الله الرحمن الرحيم



تمخضت الحرب العالمية الأخيرة عن « هيئة الأمم المتحدة » وما سموه « مجلس الأمن » كما تمخضت الحرب التي قبلها عن « عصبة الأمم » ، ونادى المنادون : بشراكم أيها الناس فقد تنزلت السماء برحمة منها على الأرض ، وأقسم المنتصرون - شكراً لله على نعمته ، واعترافا بسابغ فضله - لا يبقين في الدنيا مظلوم ولا مهضوم ولا خائف ولا جائع ، وليعيشن الضعفاء بجانب الأقوياء إخوة متصافين ، كلٌّ يعمل على شاكلته ، ويدور في دائرته ، وليُنشرن لواءُ العدل يستظل به القاصي والداني لا فرق بين أسود وأبيض ، ولا بين شرقي وغربي ، وليكونن الشعار منذ اليوم آيةَ الإنجيل : « المجد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام » .

ولم يُخدع الناس عن أنفسهم بهذا النداء ، ولكنهم تخادعوا للمنادين ، فلم يكن أحد يجهل أن ذلك تنظيم للاستلاب ، واصطلاح على الاقتسام بين الدول القوية على حساب الشعوب المستضعفة ، ولا سيما وقد جُعل لكل دولة من الدول الخمس حقُّ الاعتراض - الذي يسمونه « الفيتو » - على أي قرار تراه غير متفق مع سياستها ، فكأنهم بهذا « الفيتو » قد أمن بعضهم مكر بعض ، وضمنوا ألا يصيبهم في أنفسهم مكروه ، وتوافقوا على أن يتبادلوا الصمت والإغضاء كلما عرضت مشكلة لأمة من الأمم الضحايا حتى تسوى على ما يريد صاحب المصلحة منهم مهما علا صراخ الضحية واشتد بها الفزع والجزع .

لم يخدع الناس عن أنفسهم في شأن هذه المنظمة الجديدة ، وهم يعلمون علمها من القياس على أختها السابقة وما ميزت به عنها مما لا يعدو أن يكون تنقيحاً

فى أساليب المكر والدهاء والظلم والسلب ، وإنما تخادعوا لأنهم لم يجدوا أمامهم وسيلة للعيش على أى حال إلا أن يتخادعوا ، فإن الأقوياء لم يجعلوا لهم الخِيَرَة من أمرهم ، بل قرروا وأبرموا ونفذوا ، فرأى العالم نفسه أمام أمر واقع لا يد له فيه ، ولا حِوَل له عنه ، وقديماً قال الشاعر :

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلا ركوبها !

* * *

ومضت الشهور تلو الشهور ، والأعوام تلو الأعوام ، ونظرت هيئة الأمم ومجلس أمنها كثيراً من القضايا فرأينا العجب العجاب : رأينا « ليك سكسس » مقر هذه المنظمة كأنها سوق للمزايدات والمناقصات تباع فيها أصوات الدول وتشترى ! فمن استطاع أن يقدم ثمناً أوفر ، استطاع أن ينال أصواتا أكثر ، وما الأثمان إلا أن تنظر الىَّ اليوم لأنظر إليك غداً ، أو كما يقول المثل المصرى : أن تحمّلنى وأحملك ، ووقفت الدول الكبرى فى هذه السوق الفاجرة تغرى من يقبل الإغراء ، وتخيف من ترى الخوفَ يثنيه عن عزيمته ، وتعِدُ الناس وتمنيهم كما يفعل الشيطان ، واستطاعت بهذا أن تمسك الزمام فلم يفلت منها إلا مرة أو مرتين تَدَخَّل فيهما « الفيتو » فأعاده حيث كان !

وأصبح المجلس الذى لقبوه بمجلس الأمن موطناً من مواطن الخوف فى العالم كأنه مأسدة يغشاها الأقوياء ، ويتحاماها الضعفاء !

* * *

وخلق الانجليز والأمريكان ومن دار فى فلكهم من دول الغرب مشكلة اليهود الذين ظل العالم يتقاذفهم أو يتطارحهم عنه ، فلا يجدون مكاناً يؤويهم ، ولا أمة ترضى بجوارهم ، فنَّام شيطان من أبناء التاميز يدعى « بلفور » بتحقيق حلمهم فى أن يتخذوا من الأرض المقدسة فى فلسطين وطنا ، فاتخذوه وعداً يطالبون به ولا يحيدون عنه ، حتى رأى باذلوه ومؤيدوه أنْ قد آن الأوان للوفاء به فأخرجوا « إسرائيل » دولة مصنوعة لا كيان لها من الطبيعة ، ولا حياة لها

من ذاتها ، ووضعوها وضعاً بين بضع دول إسلامية عربية ، واستعانوا على هذه الدول بقرارات الهيئة التي بشرت بالعدل ، والمجلس الذى احتضن الدفاع عن الأمن ، فإذا الدخيل يأكل الأصيل ، وإذا أهل فلسطين العربية الإسلامية مشردون أخرجوا من ديارهم وأموالهم على أعين من الناس وهم يشهدون ، وإذا العالم يتواطأ على السكوت عن أكبر السرقات وأخسها فى تاريخ اللصوصية الاستعمارية ، فقد كان العهد بالمستعمرين أن يزاحموا أهل الديار فى ديارهم ، أما أن يجلوهم عنها ، ويتركوهم نهباً للأمراض الفتاكة ما بين حسية ومعنوية ، فما كنا نحسب أن ضمير العالم المتمدين يرضى به ، أو يقبل السكوت عليه .

إن اللاجئين من أهل فلسطين الشهيدة يعانون ألوانا من البؤس والشقاء لايكاد يتصورها فكر : إنهم يعيشون مع الفقر فى أبشع صوره ، الفقر الذى يجعل الأم تخطف اللقيمة من فم ابنتها لتقيت بها نفسها ، الفقر الذى يزين للحرة الجائعة أن تأكل بثديها ، الفقر الذى هلهل الثياب ، وشق الجيوب ، وكشف السوآت ، إن المرض يحصدهم حصدا وهم يرحبون به ولا يحبون أن يدفعوه عن أنفسهم لو استطاعوا له دفعا ، لأنه منقذهم الوحيد من الشقاء الذى يعانون ، وقد صار الأمر بهم إلى أن يفرحوا بموت الميت ، ويحزنوا لميلاد المولود ، أما الأخلاق بينهم فمن ذا الذى يتحدث عن الأخلاق ، ومن ذا الذى يحب أن يسمع الحديث عنها والقوم على ما يصف الواصفون من مكابدة أصناف الشقاء ، وألوان البلاء ؟ .

يقع هذا على أهل فلسطين والدنيا تشهده ، وهيئة الأمم ومجلس أمنها لايحركان ساكنا ، ولا يفكران فى إنقاذ هذه الأرواح البشرية ، بينما تتقدم « إسرائيل » بشكواها من مصر إلى مجلس الأمن ، فتقوم الدنيا وتقعد لهذه الشكوى مع أن مصر تمارس حقاً طبيعياً لها فى « تفتيش » السفن المارة بها إلى عدوتها ، وقد كان الحلفاء يفعلون ذلك بسفن أعدائهم ، وكان أعداؤهم يفعلونه بسفنهم ، فهل يحرم علينا ما يحل لغيرنا ؟ .

نعم إن هذه شرعتهم ، فهم ينظرون إلى الشرقيين فى كل شىء بعين غير العين التى ينظرون بها إلى الغربيين ، ومن تتبع سياستهم وأعمالهم آمن بذلك ، فهم يستبيحون أن يحاربوا الشرقيين بالميكروبات ، ولا يستبيحون ذلك فى حرب بعضهم بعضا ، وهم لا يرون أن يستعمر الغربيون شعبا غربيا بينما يستعمرون الشرقيين ، وحينما جربوا القنبلة الذرية جربوها فى اليابان ولم يجربوها فى ألمانيا ولا فى إيطاليا ، وإن معاملهم ومصانعهم لتفرق بين ما تنتجه للشرقيين وما تنتجه للغربيين حتى فيما تخرجه من الدواء ، وهم يرون التمتع بالحرية فى القول والرأى والعمل حقا لهم يغارون عليه ولا يتهاونون فى شأنه ، فإذا رأوا شعبا شرقيا تطلع لمثل ذلك أو لبعض ذلك سخروا منه ونصحوا لأبنائه بالاعتدال .

هذه نظرتهم إلينا ، وهذه معاملتهم إيانا ، ونحن قد أعناهم على هذا البغى حين آمنا بهم ، وكفرنا بأنفسنا ، حين ارتبطنا بأنظمتهم ، ورضينا بأحكامهم ، حين اعتمدنا على مجالسهم ومحاكمهم ، فإذا أردنا أن نخرج بأنفسنا من هذا الضيق ، وأن نتخلص من هذه الآصار التى حَمَلونا عليها ، ثم حمَّلونا آثامها ، فلنجرب الثقة بأنفسنا والاعتماد على قوتنا ، ولندرك أن الظالم ليس من شأنه أن يرد ما اغتصب وإلا لما أقدم على الظلم ، ولنأخذ حقوقنا بقوة إيماننا وصدق عزائمنا ، ولنشعر أعداءنا بأننا قد صممنا ، وبأنه ليس فينا من يضعف أمام وعيدهم أو إغرائهم ، إننا إن فعلنا ذلك حملناهم على احترامنا وإكبارنا ، وأثبتنا لهم أننا أهل للفوز بحقوقنا ، فلا تلبث الخُنْزُوانة التى تلوى عنا رءوسهم أن تزول ، ورحم الله الشاعر الذى يقول :

من أطاق التماس شىء غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا



تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

سورة النساء

— ٢ —

خلاصة ما سبق ـ أحكام المال ـ عناية القرآن باليتامى فى أنفسهم وأموالهم ـ تعدد الزوجات فى الإسلام ـ تكافل الأمة ومسئولية بعضها عن بعض ـ حث الإسلام على تحريك الأموال وتثميرها ـ عناية القرآن بتقوية أخلاق اليتامى وإحسان تربيتهم ـ علاقة الوصى باليتيم ـ أساس قانون المجالس الحسبية ـ حقوق النساء ـ أحكام الإرث فى هذه الآيات ـ أثر القدوة العملية فى الأمة ـ الحكمة فى إبطال التبنى ـ ميراث الأبناء ـ ميراث الوالدين ـ ميراث الزوجين ـ ميراث الإخوة .

خلاصة ما سبق :

قلنا فى العدد الماضى ، إجمالا لما عرضت له سورة النساء من أحكام وإرشاد فى نواحى الجماعة : : إن احتفاظ الأمم بكيانها يرتبط بأمرين عظيمين : الاستقرار الداخلى والاستقرار الخارجى ، وقلنا إن الاستقرار الداخلى أساسه صلاح الأسرة ، وقوة النظم التى تتألف منها وتسير عليها ، وصلاح المال ، وأن يكون هذا وذاك

فى ظل تشريع قوى عادل مبنى على مقتضيات الطبيعة الإنسانية ، مجرد من تحكيم الأهواء والشهوات ، وان الاستقرار الخارجى أساسه احتفاظ الأمة بشخصيتها والاستعداد لمقاومة الشر الذى يطرأ عليها والعدو الذى يطمع فيها ، وقلنا إن سورة النساء قد تكفلت بوضع أسس الأحكام التى تصلح بها هذه النواحى ، وبها يتحقق استقرار الأمة داخلياً وخارجياً . وانها فى سبيل ذلك عرضت إلى الموضوعات الآتية : الأسرة ، المال ، أساس الجماعة الإسلامية ، مصادر التشريع ، تقوية العنصر الروحى فى القلوب ، ألوان التمرد على التشريع ، مكافحة الآراء والشبه الضارة بالعقيدة ، الاستعداد بالقوة المادية لحماية الحق ورد غائلة الطامعين .

وعرضنا لما تضمنته السورة من المبادىء التى أراد الله أن يُحكم بها بناء الأسرة ويشيده عليها ، وتتابع سيرنا فى بيان سائر النواحى التى عرضت لها السورة الكريمة ، والتى أشرنا إليها .

* * *

أحكام المال :

عنيت السورة فى ناحية المال بوضع أحكام من شأنها إذا روعيت وطبقت حق التطبيق استقرت الحياة ، وهدأت النفوس ، واطمأنت القلوب وانصرف كل عامل إلى عمله والقيام بواجبه ، وانتفع كل ذى حق بحقه ، وعنى كل ذى شأن بشأنه .

عناية القرآن باليتامى فى أنفسهم وأموالهم :

بدأت فى هذا الشأن بأموال اليتامى ، وللقرآن الكريم عناية خاصة باليتيم لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه التى تحفظ له حسن الحياة فى المستقبل ، وتق الأمة شر الضرر الذى يحيق بها من عدم تربيته لفقده الأب الذى يكفله ويهذبه ويرعاه .

وقد ظهرت هذه العناية فى القرآن منذ الفترة الأولى حين بدأ الوحى إلى الفترة الأخيرة حين قارب الوحى التمام والكمال : ظهرت فى مكىّ القرآن حينما عاد الوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد انقطاعه مدة طال فيها على الرسول

انتظاره حتى توجّس فى نفسه أن يكون الله قد ودعه وقلاه ، فجاءه الوحى مؤكداً له رعاية الله إياه ، وأنه ما ودعه وما قلاه ، وأخذ يثبت ذلك فى نفسه ، ويذكره بعناية الله به قبل النبوة وهو يتيم أحوج ما يكون إلى العطف والإيواء « ألم يجدك يتيما فآوى » وبذلك أشعر قلبه من أول الأمر بأن اليتم الذى ذاق مرارته ينبغى أن يكون باعثاً له على العطف على اليتيم ، والنظر إليه بعين الرحمة ، والعمل على إيوائه وتكريمه ، ثم يطلب منه شكر الله على نعمته التى أنعم بها عليه حين وجده يتيما فآوى ، وأن يكون ذلك الشكر من نوع هذه النعمة عطفاً على اليتيم كما أنعم الله عليه بالعطف وهو يتيم « فأما اليتيم فلا تقهر » وإن رسالة تؤسس على رعاية مثل هذه الاعتبارات لرسالة الرحمة العامة والخير العميم .

ثم تظهر هذه العناية فى المكى أيضاً فى صور أخرى من شأنها أن تدفع بالقلوب - مهما كانت قاسية - إلى أن تتفجر منها ينابيع الرحمة باليتيم ؛ فمن ذلك قوله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحضّ على طعام المسكين » .

يجعل ازدراء اليتيم وإهمال شأنه ، وعدم الاكتراث بأمره آية واضحة من آيات التكذيب بيوم الدين ، ويصرح بأن دعوى الإيمان مع ذلك دعوى كذب ونفاق ورياء .

ومن ذلك أنه يجعل الوصية به والإحسان إليه إحدى الوصايا العشر التى لم تنسخ فى ملة من الملل ، والتى يبدؤها الله بقوله لرسوله فى سورة الأنعام : « قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا . . . » إلى أن يقول : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » ومن تأمل أسلوب هذه الآية رأى أن الوصية باليتيم قصد فيها إلى النهى عن « قربان » ماله ، وأن تسليط النهى على « القربان » على هذا النحو لم يرد فى شىء غير النهى عن مال اليتيم إلا فى الوصية بالنهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأن ما عداهما كان النهى فيه مسلطاً على نفس الفعل حتى الشرك بالله : لا تشركوا ، ولا تقتلوا

أولادكم، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله ... الخ . وذلك يدل على مقـــدار العناية الإلهيـة باليتيم وشأنه ، ويوحى بأن الاعتداء عليه هو عنـد الله فى مستوى ارتـكاب الفواحش ماظهر منها وما بطن .

وكما ظهرت العناية باليتيم فى المكى هكذا ظهرت فى المدنى فى صور شتى، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خـير وإن تخالطوهم فإخوانـكم ، والله يعـلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتـكم إن الله عزيز حكيم » .

تأثرت نفوس القـوم بالوصايا المكيـة ، وصاروا من أمر اليتيم فى حرج وضيق . ماذا يفعلون ؟ أيتركون القيام عليه فيفسد أمره ويضيع ماله، أم يقومون عليه ويعزلونه عن أبنائهم فى مأكله ومشربه فيشعر بالذلة والمسكنة ، توجهت النفوس إلى طريق ينقذهم من هذه الحيرة ويحفظ لليتيم عزته ، ويقيهم شر الاعتداء عليه ، فقيل لهم : « إصلاح لهم خـير وإن تخالطوهم فإخوانـكم والله يعلم المفسد من المصلح » .

ثم تجىء سورتنا هـذه فتظهر فيهـا العناية باليتيم ظهوراً واضحاً عاماً ، فتأمر بالمحافظة على أموال اليتامى ، وتحذر من دفع أموالهم إليهم ، وتحث على القيام بحقوقهم ، وتأمر بابتلائهم واختبارهم فى المعاملات ، وترشد إلى الوقت أو الحال التى تسلم فيه أموالهم إليهم ، وإلى ما ينبغى أن يتخذ حين ذلك التسليم .

ثم تختم بالتحذير الشـديد من إهمال شأن اليتامى وأكل أموالهم ، وتذكر الوعيد فى ذلك . تقرأ ذلك كله من قوله تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالـكم إنه كان حوباً كبيراً » ... الآية الثانية إلى قوله تعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنمـا يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيراً » الآية العاشرة .

وقد مهدت السورة لهذه الأحكام فى آيتها الأولى ، فطلبت تقوى الله ، وتقوى الرحم ، وأشعرت الناس أنهم جميعاً خلقوا من نفس واحدة ، أى فاليتيم وإن كان

من غير أسرتكم فهو رحمكم وأخوكم فقوموا له بحق الأخوة ، وحق الرحم ، واعلموا أن الله الذى خلقكم من نفس واحدة ، وربط بينكم بهذه الرحم الانسانية العامة رقيب عليكم يحصى عليكم أعمالكم ، ويحيط بما فى نفوسكم ، ويعلم ما تضمرون من خير أو شر فيحاسبكم عليه . وبعد هذا التمهيد الذى من شأنه أن يملأ القلوب رحمة ، وأن يأخذ بالإنسان إلى حصن منيع يقيه غضب الله وسخطه ، ويدفعه إلى العمل بأحكامه وإرشاده ، بعد هذا يأمرهم بحفظ أموال اليتامى حتى يتسلموها كاملة غير ناقصة ، ويحذرهم الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة « ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » أو عن طريق الخلط « ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم » والمبادلة والخلط طريقان يكثر الاحتيال بهما على اغتيال أموال اليتامى تحت ستار الإصلاح بالبيع والشراء باسم أنه منفعة لليتيم ، أو بالخلط والشركة باسم أنه أعز لليتيم وأكرم .

وقد كان بعض أولياء اليتامى ينزع إلى التزوج بمن يلى أمرها من اليتيمات اللائى يحل له زواجهن ، أو إلى تزويجها بعض أبنائه إذا كانت لا تحل له ، ويتخذ هذا أو ذاك ذريعة إلى أكل مالها أو أكل مهرها الذى تستحقه بعقد الزواج ، فلما نزلت الآية السابقة وسمعوا هذا الوعيد الشديد ، وقرع أسماعهم أن الإساءة فى مال اليتيم ، والاحتيال على أكله بهذه الأساليب الخداعة حوب كبير وإثم عظيم انصرفت نفوسهم عن التزوج من اليتيمات متخوفين سوء العاقبة .

وقد أرشدتهم الآيات إلى أنهم إن لم يأمنوا على أنفسهم العدل فى أموال اليتيمات وحسن معاشرتهن وتسليمهن حقوقهن إذا تزوجنهن أو زوجن أبناءهن منهن أرشدتهم إلى ترك التزوج بهن حفظاً لأنفسهم من الوقوع فى هذا الإثم العظيم ، ولفتت أنظارهم إلى باب واسع هو التزوج بغيرهن من الأجنبيات اللاتى تميل إليهن نفوسهم ، فذكرت لهم إباحة التزوج بثنتين وثلاث وأربع ، وذلك فى قوله تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » يريد أنه لم يضيق عليكم فى أمر الزواج حتى تقفوا فيه عند حد اليتيمات

اللاتي تتحرجون من سوء معاشرتهم وخوف أكل أموالهم ، فلكم في الزواج بما طاب لكم من النساء متسع عظيم .

تعدد الزوجات في الإسلام :

وقد كانت هذه الآية مصدراً لتشريع تعدد الزوجات في الإسلام ، وهي مسألة كثر فيها الكلام قديماً وحديثاً واتخذها أعداء الإسلام سبيلا للطعن في التشريع الإسلامي ، مع أنها لم تذكر كما ترى تشريعاً مقصوداً لذاته ، وإنما ذكرت طريقاً للخلاص من تخوّف الوقوع في ظلم اليتيمات حين التزوج بهن ، هذا ولنا بحث مستفيض في هذه المسألة عرضنا فيه لتاريخ تعدد الزوجات ، كما عرضنا فيه لبيان أن الآية هل أباحت التعدد على وجه الرخصة عند حالات طارئة ، أو أنها جعلت إباحة التعدد هي الأصل ، وطلبت الاقتصار على الواحدة عند خوف عدم العدل بين الزوجات ، وفي سبيل ذلك عرضنا الآيات التي جاءت بأحكام الترخيص عن أصل ثابت مقرر وقارنا بينها وبين هذه الآية ، كما أوضحنا في هذا البحث الأسباب الطبيعية التي دفعت إلى ظاهرة تعدد الزوجات ، وإلى موقف المسلمين خاصتهم وعامتهم منذ العصر الأول للتشريع الإسلامي إلى يومنا هذا من تعدد الزوجات ، ونرجو أن تتاح لنا فرصة قريبة لنشر هذا البحث في « رسالة الإسلام » إن شاء الله (١) .

ولنرجع إلى موضوع الآيات ، فنقول :

يأمر الله بالمحافظة على أموال اليتامى ، ثم يحذر الأولياء تسليم أموالهم إليهم ، ولا ريب أن مبنى ذلك وأساسه عدم قدرتهم على ضبط نفوسهم في التصرف ، وضعف عقولهم عن إدراك ما هو خير وصلاح ، ولهذا عبّر عنهم بوصف السفهاء إثارة لعاطفة الرحمة بهم ، وإشارة إلى شمول الحكم لغيرهم ممن يتحقق فيه ذلك

(١) رسالة الإسلام ترحب بهذا البحث أيما ترحيب ، وتشكر لفضيلة الشيخ الجليل عنايته بها معتزة مغتبطة .

الوصف ، كالمجنون والمعتوه والصبى الذى لا يعقل ، وسىء التدبير والتصرف ، وذلك قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » .

تكافل الأمة ومسئولية بعضها عن بعض :

ولنقف عند قوله : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » لنعلم ما يوحى به من تكافل الأمة ومسئولية بعضها عن بعض ، ومن أن المال الذى فى يد بعض الأفراد « قوام للجميع » ينتفعون به فى المشروعات العامة ، ويفرجون به أزماتهم وضائقاتهم الخاصة عن طريق الزكاة ، وعن طريق التعاون وتبادل المنافع ، وهذا هو الوضع المالى فى نظر الشريعة الإسلامية ، فليس لأحد أن يقول : مالى مالى ، هو مالى وحدى ، لاينتفع به سواى ، ليس لأحد أن يقول هذا أو ذاك ، فالمال مال الجميع ، والمال مال الله ، ينتفع به الجميع عن الطريق الذى شرعه الله فى سد الحاجات ودفع الملمات ، وهو ملك لصاحبه يتصرف فيه لا كما يشاء ويهوى ، بل كما رسم الله وبيَّن فى كتابه حتى إذا ما أخلّ بذلك فأسرف وبذّر أو ضنّ وقتّر حجر عليه ، أو أخذ منه ـ قهراً عنه ـ ما يرى الحاكم أخذه من مثله .

حث الإسلام على تحريك الأموال وتثميرها :

ولنقف مرة أخرى عند قوله : « وارزقوهم فيها » لنعلم إيحاء آخر يوجه النفوس إلى أن رءوس الأموال لا يصح أن تبقى جامدة غير متحركة ، ولا واقفة غير مثمرة ، فهو يطلب أن يكون الرزق فيها لا منها ، فهى باقية والرزق من أرباحها المشروعة ، وقد أفصح عن هذا الإيحاء ما صح من قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبة له : « ألا من ولى يتيما له مال فليتجر فيه ولا يتركه حتى تأكله الصدقة » .

عناية القرآن بتقوية أخلاق اليتامى وإحسان تربيتهم :

ولنقف مرة ثالثة عند قوله : « وقولوا لهم قولا معروفا » لنعلم مقدار عناية القرآن بتربية اليتامى تربية تهذب أخلاقهم ، وتكفل لهم حسن المستقبل ، وذلك

يكون بالإرشاد إلى ما هو خير ونافع ، والتحذير مما هو شر وفساد . هذا وتربية اليتامى من الشئون التى يجب على أهل الرأى وأولى الأمر فى الأمة أن يعنوا بها عناية خاصة حتى لا يكونوا عناصر فساد فى الأمة ، أو منبت شقاء لها بسريان عدوى فساد الأخلاق منهم إلى من يخالطون من أبناء الأمة ، فالعناية بهم عناية بتكوين الأمة ، وإهمالهم فتح لباب شر مستطير ينزل بالأمة فى عزتها وكرامتها ، وليس أدل على وجوب العناية بأمر اليتامى فى التربية العملية من قوله تعالى : « وابتلوا اليتامى » يأمر باختبارهم ، وتدريبهم على التصرف والقيام على بعض الشئون لينظر أيحسنون أم يسيئون ؟ فإذا أحسنوا وسّعت لهم دائرة الاختبار ، وإذا أساءوا أرشدوا وعلموا ، تأمر الآية باختبارهم على هذا النحو حتى يصلوا إلى درجة الرشد ، وتعرف قدرتهم على ضبط الأموال وحسن التصرف ، فتسلم أموالهم إليهم ليباشروا شئونها بأنفسهم ، ويدخلوا بها فى معترك الحياة .

علاقة الوصى باليتيم :

ولما كان الوصى لا يخلو حاله من أن يكون غنياً بماله لا يحتاج فى كفافه إلى غيره أو فقيراً لا يملك ما يدفع به حاجته ؛ أرشدهم الله إلى أن الغنى ينبغى له أن يترفع عن تناول شىء هو فى غنى عنه من مال اليتيم ، وأن عليه أن يجاهد نفسه فى التحلى بالعفة ليكون عمله فى صون اليتيم وحفظ ماله عملا إنسانيا فاضلا يبتغى به وجه الله ورضاه ، وأباح للوصى الفقير أن يأخذ من مال اليتيم بقدر ما يسد حاجته التى لا ينكرها عليه أصحاب العقول : تقرأ ذلك كله فى قوله تعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » .

أساس قانون المجالس الحسبية :

وقد كانت هذه الآيات الواردة فى شأن اليتيم والسفهاء أساساً لقانون المجالس الحسبية التى وكل إليها إقامة الأوصياء على اليتامى والسفهاء ، ومحاسبتهم على تصرفاتهم فى الأموال التى أقيموا عليها .

ومع هذه المحاسبة التى يوجبها الله على أولياء الأمر للأوصياء ، فإن الله سبحانه وتعالى يختم هذه الآيات بوعيد من شأنه أن يباعد بين الأوصياء المؤمنين ، وبين التفريط فى شىء من حقوق اليتامى ، وأن يجتث من قلوبهم بذور الطمع فيهم ، وذلك قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديداً ، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » .

حقوق النساء :

وكما عنيت السورة فى هذا المقام بحقوق اليتامى والسفهاء المالية على هذا النحو عنيت أيضا بهذه الحقوق فى جانب النساء ؛ والنساء يشاركن اليتيم فى الضعف وعدم القدرة الطبيعية على المكافحة ومنافسة الرجال ، وفى سبيل ذلك أبطلت ما كان عليه أهل الجاهلية من عدم توريثهن كما أبطلت عدم توريث الأطفال وألغت الأسباب التى كان أهل الجاهلية يعتمدون عليها فى توزيع الميراث ، وبهذه المناسبة عرضت السورة إلى الوارثين والوارثات ، مفصلة فى ذلك أنصباء الجميع . وقد جاء ذلك فى قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كنّ نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً ، فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما ، ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن

ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم » .

وهناك آية ثالثة ختمت بها هذه السورة الكريمة ، وهى قوله تعالى « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد ، وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساءاً فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » ، بهذه الآيات بيّن الله الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث

وقد اتخذها فقهاء الإسلام وأئمته مصدراً لعلم الفرائض الذى أفردوه بالتأليف والتدوين وجعلوه علماً قائماً بذاته : بينوا فيه الحقوق المتعلقة بالتركة وأسباب الإرث وشروطه وموانعه ، كما بينوا أصناف الوارثين والوارثات وما يطرأ على الوارث من حجب كلى أو جزئى إلى آخر ما أوردوا من المسائل المتعلقة بالميراث وتوزيعه .

أحكام الإرث فى هذه الآيات :

وقد كنا فى غنى عن شرح هذه الآيات اكتفاء بالرجوع إلى كتب هذا الفن لولا أن رأينا أن أكثر قراء المجلات الدينية لا يسهل عليهم أخذ تلك الأحكام من الكتب الفقهية :

أولا : لكثرة ما اشتملت عليه من بحوث واستدلالات وفروض .

وثانياً : لأنها مؤلفة بأساليب قد لا تساعدهم على هضمها ثقافتهم الخاصة التى لم تعرف هذه الأساليب ، ولندرك من جهة أخرى حسن البيان مع الدقة فيما تضمنته ودلت عليه هذه الآيات الثلاث فقط ، وكيف أنها تضمنت أصول هذا

العلم بوضوح يكتفى به النابه اليقظ فى معرفة فرائض الله وتشريعه فى أحكام المواريث ، فهو بلا شك بيان تعجز عنه من البشر نهاية القوى والقدر ولا يكون إلا من خالق القوى والقدر فسبحانه من خالق قوى ومشرع حكيم .

بينت هذه الآيات الثلاث الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث بالأوصاف والعناوين التى قررها الله سبباً فى استحقاق الأرث كالبنوة والأبوة والأمومة والزوجية ، والأخوة ، وقد ألغت بالنسبة إلى أصل الاستحقاق الذكورة والأنوثة والصغر والكبر ، وسوّت بين الذكر والأنثى ، كما سوت بين الصغير والكبير ، وجعلت للكل حقاً فى الميراث ، كما اعتبرت للزوجية مكانها وجعلتها سبباً من أسباب استحقاق الأرث ، وبهذا أبطلت ما كان عليه العرب من جعل الإرث بالنسب قاصراً على الرجال دون النساء والأطفال ، وقد كانوا يقولون فى ذلك : « لا يرث إلا من طاعن بالرماح ، وداد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة » فأبطل الله ذلك وجعل الميراث بالنسب عاما للرجال والنساء ، والصغار والكبار . وجاء فى ذلك على وجه العموم : أولا قوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » . ثم جاءت الآيات الثلاث وفيها التفصيل والتصريح بما يعم الرجال والنساء والصغار والكبار .

عدّلت الآيات استحقاق الإرث بالنسب على الوجه المتقدم ، ولم تعرض لسببية التبنى فيه ، وقد كان التبنى ـ وهو أن يتخذ الرجل ابن غيره ابناً له ملحقاً به فتنقطع صلته بأبيه وتلزمه واجباته فى الحياة ويرثه بعد الموت ـ سبباً من أسباب الإرث التى كان العرب بها يورثون ، ولم يقف القرآن فى إبطال التوريث بالتبنى المذكور عند حد إسقاطه من أوصاف الوارثين والوارثات ، بل صرّح ببطلانه وأهدر آثاره ، وأرشد فيه إلى ما يقضى به العقل الصحيح ، والمنطق المستقيم ، وذلك فى قوله تعالى من سورة الأحزاب « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم فى الدين ومواليكم » . وقد تبنى النبى صلى الله عليه

وسلم قبل هـذا التشريع زيد بن حارثة جريا على ما كان معروفا عنـد العرب من اعتبار التبنى واقراره ، فلما جاء القرآن بإبطال التبنى أمر الله نبيه أن ينفذ بنفسه تطبيق ذلك التشريع الجديد حتى يكون عند الأمة باعثاً على الامتثال والمسارعة إلى القبول دون تحرج من ترك ما ألفوا .

أثر القدوة العملية فى الأمة :

ولا ريب أن القيادة العملية أفعل فى النفس - وبخاصة بالنسبة للعادات الموروثة المتأصلة - من مجرد إعلان التشريع الجديد ، وإبطال السابق عليـه ، وهذه طريقة كثيرا ما كان يلجأ اليها النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت تستتبع آثارها من اندفاع الناس وراءه فى العمل والامتثال ، ولو أن ولاة الأمور فى الإسلام اقتفوا هذه السنة المباركة ، وتقدموا الأمة فى عمل ما يطلبون بالتشريع والكف عما يحذرون بالتشريع لكان لنـا شأن غير الشأن ، ومكانة غير المكانة ، ولـكن هكذا قدر ، وابتلى المسلمون بقوم يشرعون ويكون تشريعهم للنـاس فى جانب ، ووضعهم الشخصى فى جانب آخر ومن هنا ضعفت قيمة التشريـع فى نفوس الناس ، ولم توجد لديهم القوة التى تحفزهم على الامتثـال والتنفيذ إلا بقدر ما يتحللون من طائلة العقاب والزج إلى السجون .

أمر الله النبى صلى الله عليه وسلم بتنفيذ التشريع الجديد ، وطلب منه أن يتزوج حليلة مولاه زيد بن حارثة بعد أن طلقها زيد . وجاء ذلك فى قوله تعالى من سورة الأحزاب أيضاً « فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا كها لـكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنَّ وطرا وكان أمر الله مفعولا ، ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

بذلك بطل هذا النوع من التبنى وطويت صفحته الجاهلية ، وصار فى الشريعة الإسلامية مهدراً ومحرما ، لا يصح لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يفعله ، ولعل من واجب قراء « رسـالة الإسلام » علينا أن يعرفوا الحـكمة فى إبطال هذا

النوع من التبنى وتحريمه ليتبين لهم مقدار حدب الشريعة الإسلامية على حفظ الأنساب والحقوق التى لا بد منها فى نظام الحياة .

الحكمة فى إبطال التبنى :

وليس من ريب أن هذا التبنى فيه :

أولا : حرمان الأب الحقيقى من أن يتصل به نسله المنسوب إليه فى الواقع وفيما يعلم الله ، وحرمانه من النصرة والمعونة التى أساسها اتحاد الشعور بالمسئولية ورابطة البنوة الحقة .

وثانياً : تضييع حقوق الورثة الذين تحقق سبب إرثهم الشرعى من الأب الكاذب « المتبنى » وبذلك تقع العداوة والبغضاء بينهم وبين مورثهم ودعيه الذى تبناه وضيّع به حقهم فى التركة .

وثالثا : أن المتبنى « الولد الزور » يدخل على زوجة المتبنى وبناته باسم البنوة والأخوة ، ويعاشرهن على أساس منهما وهو أجنبى عنهن لا يباح له منهن ما يباح للابن أو الأخ الحقيقى لهن ، وبقدر ما تتركز هذه البنوة الكاذبة فى هذه الأسرة المدخولة فإن البنوة الحقة فى الأسرة الحقة تسير إلى الفناء والمحو والزوال حتى ينسى الشعور بها أصلا ، فتنسى الأم التى ولدته ، وتنسى الأخت التى اجتمعت معه فى بطن واحدة ، وقد تدفع ظروف المستقبل أن يتزوج من أخواته ، أو أبنائهن ، وبذلك تضيع الأنساب ، ويختل نظام الأسر ، ويعيش المرء فى حياته الزوجية مع من حرم الله عليه التزوج بها « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت » وفى هذا قال بعض العلماء « لو فتح باب الانتفاء من الأب لأهملت هذه المصالح ولاختلطت الأنساب ولضاعت حكمة الله فى جعل الناس شعوباً وقبائل » .

وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم « أيما امرأة أدخلت على قوم ما ليس منهم فليست من الله فى شىء ولن يدخلها الجنة ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رءوس الخلائق » .

ولنرجع إلى ما تضمنته الآيات من أنواع الإرث فنقول :

عرضت الآيات للارث بالبنوة ، والأبوة ، والزوجية ، والأخوة . وهى على الترتيب الآتى :

ميراث الأبناء :

دل قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف » على أن الولد الذكر صغيراً كان أم كبيراً واحداً أم متعدداً متى وجد مع الأنثى واحدة أو متعددة فله سهمان ولها سهم ، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون معهم صاحب فرض أو لا يكون ، إلا أنه فى الأولى يقتسم الذكور والأناث ما بقى بعد أخذ صاحب الفرض فرضه ، وفى الثانية يقتسمان كل المال .

وعلى أن الأنثى إذا انفردت عن الذكور إن كانت واحدة فلها النصف ، وإن كن ثلاثاً فلهن الثلثان ، ولم تذكر الآية الأنثيين الثنتين ، وجمهور العلماء على أنهما كالثلاث ، لهما الثلثان لأن الذكر مع الواحدة يرث الثلثين ، والله يقول « للذكر مثل حظ الأنثيين » فيكون الثلثان هما حظ الأنثيين . ولما كان يتوهم أن نصيبهما يزيد عن الثلثين عند زيادتهما نفى ذلك فى قوله : « فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك » وبالنص على نصيب الذكر مع الأنثى ، وعلى نصيب الأنثى الواحدة علم أن الذكر إذا انفرد يأخذ التركة كلها ، وإذا كان معه أخ أو أكثر كانت التركة بينهم بالمساواة ، وعلم أن البنات مهما كان عددهن لا يستغرق نصيبهن التركة ، بل يأخذن الثلثين فقط ويكون الباقى للعصبة .

وقد جاء التعبير عن استحقاق الأنثى ـ وقد كان العرب يحرمونها من الميراث ـ بهذا الأسلوب الذى يدل على أصالتها فى الإرث ، وينسب الذكر إليها ، مبالغة فى إبطال ما كانوا عليه من حرمانها ، وكأنَّ إرثها هو الأصل وحمل عليه إرث الذكر ولهذا لم يقل مثلا : « للأنثى نصف حظ الذكر » وقال : « للذكر مثل حظ الأنثيين » .

ويجدر هنا أن نشير إلى أن خصوم الإسلام اتخذوا التفاوت بين نصيبي الذكر والأنثى هكذا مطعنا على الإسلام من جهة أن فيه إهداراً لحق بنوة الأنثى المساوية تماما فى نسبتها إلى المورث لبنوة الذكر، وقالوا إن هذا من فروع هضم الإسلام حق المرأة، وهى إنسان كالرجل، وفاتهم أن الذكر تتعدد مطالبه وتكثر تبعاته فى الحياة، فهو ينفق على نفسه، وعلى زوجه، وعلى أبنائه، ومن أصول الشريعة أنه يدفع المهر لمن يريد أن يتزوجها، أما الأنثى فإنها لا تدفع مهرا ويلزم زوجها بنفقتها فى مأكلها ومشربها ومسكنها وملبسها وخدمها، وذلك فوق تبعاته العائلية التى لايلحق الأنثى مثلها، وهذا باب يتضح منه أن نصيب الأنثى فى الوضع الإسلامى أعظم وأكثر من نصيب الذكر، ولو أنا نظرنا نظرة أخرى وقارنا الوضع الإسلامى لميراث المرأة بالأوضاع الأخرى لوجدنا أن الإسلام قد انتهج فيه الحد الوسط الذى لا إفراط فيه ولا تفريط، فبينما نرى تشريعاً يقضى بحرمان الأنثى بتاتاً يقابله تشريع آخر يقضى بمساواتها للذكر، نرى الإسلام لا يُفْرط فى حقها بمساواتها بأخيها ولا يُفَرط فى حقها بحرمانها، وإنما يمنحها كما يمنح أخاها، ويقدر ظروف كل فيجعل نصيبه على ضعف من نصيبها، وهذا هو شأن الإسلام الذى اتخذه أساساً فى كل أحكامه وشرائعه.

ميراث الوالدين :

انتقلت الآيات، من بيان ميراث الأولاد إلى بيان ميراث الوالدين «ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه، فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين».

ودلت الآية على أنه إذا كان مع الوالدين ولد - والمراد منه ما يشمل ولد الابن ذكرا كان أم أنثى - كان لكل منهما السدس إلا أنه فى صورة وجود البنت الواحدة معهما يكون الباقى بعد فرضها وهو النصف، وفرضهما وهو الثلث للأب

بطريق آخر يقال له التعصيب ، وعلى أنه إذا لم يكن معهما ولد وورثاه هما فقط كان للأم الثلث ، ، وكان الباقى وهو الثلثان للأب .

ودلت على أنه إذا كان معهما إخوة للميت ـ والمراد مطلق العدد ـ من غير اعتبار تثليث ولا صفة ولا جهة ، كان للأم السدس ، وكان للأب الباقى فرضاً وتعصيبا ، ولا شىء للإخوة من السدس الذى حجبوا عنه الأم ، وذلك لأنه تعالى لم يذكرهم بعد أن كان المال كله للأبوين إلا بحجبهما الأم عن السدس فبقى المال على أصله .

ميراث الزوجين :

ثم انتقلت الآية إلى بيان إرث الزوجين : « ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين » وقد دلت على أن الزوج يرث من زوجته نصف ماتركت إذا لم يكن لها فرع وارث ، ويرث الربع إذا كان لها فرع وارث ، وعلى أن الزوجة ترث من زوجها الربع إذا لم يكن له فرع وارث وترث منه الثمن إذا كان له فرع وارث ، ولا فرق فى ميراث الزوجة المذكور بين أن تكون واحدة فتستقل به ، أو أكثر فيقتسمنه بالسوية .

وفى تقرير الإرث بالزوجية تقرير لأساس قوى متين لتبادل التعاون فى تركيز الأسرة والمحافظة على الأموال ، وتربية الأبناء على وجه تدوم به المودة ويقوى به شعور كل من الزوجين بمسئوليته . ومن فروع ذلك أن حق المرأة على الرجل فى النفقة هو الحق الأول . فإذا لم يجد بعد سد رمقه إلا ما يسد رمق إنسان واحد كان ذلك الإنسان هو الزوجة ، ولا يتصل ذلك الوضع بحق الاحترام والإحسان الواجبين للوالدين ، وإنما يتصل بالحالة الاجتماعية التى صار إليها الزوجان وانفردا بها عن الوالدين .

ميراث الإخوة :

بينت الآيات ميراث الأبناء ، والوالدين ، والأزواج وكل منهم يتصل بالمورث دون توسط شخص ثالث ، ثم انتقلت إلى بيان إرث الصنف الرابع وهو صنف الإخوة الذى يتصل بالمورث بواسطة الأب أو الأم « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث » وتدل الآية على أن الميت ذكراً كان أم أنثى إذا لم تكن وراثته من جهة الأبوة ولا البنوة ، وإنما كانت من جهة الأخوة ، والأخوة من الأم ، فالحكم فيها أن للواحد منهم السدس وللأكثر منه الثلث ، يقتسمونه بالسوية لا فرق بين ذكرهم وأنثاهم ، وإنما قيدت الأخوة فى هذه الاية بجهة الأم ، لأن الله تعالى بين حكم الإرث بها إذا كانت من جهة الأب والأم أو الأب فقط فى الآية الثالثة من آيات الميراث التى ختمت بها سورة النساء « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين » .

وبذلك يكون الله قد بين ما يرثه الإخوة للأم فى الآية الأولى وبيَّن بالثانية ما يأخذه إخوة العصب ، وكانت الآيتان فى ميراث الكلالة ، والأصل فى كلمة « كلالة » ذهاب القوة إعياء وضعفا عبِّر بها عن القرابة من غير جهة الوالد والولد وهى قرابة الاخوة .

* * *

هذا شرح وجيز لآيات الميراث ونستطيع أن نستخلص منها المبادىء الآتية :-

أولا : أن مبنى التوريث فى الإسلام أمران : نسبي وهو القرابة بنوعيها : قرابة الولادة وتشمل الاخوة من الجهات الثلاث . وسببى وهو الزوجية ، وتشمل الزوج والزوجة ، وأنه لا اعتبار لما وراء ذلك فى أصل الاستحقاق من أوصاف الذكورة والأنوثة والصغر والكبر .

ثانيا : أنه متى اجتمع فى المستحقين ذكور وإناث أخذ الذكر ضعف الأنثى إلا فى الأخوة لأم فإنهم يستوون فى النصيب .

ثالثاً : أن الأبناء والأبوين والزوجين لا يسقطون فى أصل الاستحقاق بحال وإن كان يؤثر عليهم وجود غيرهم فى كمية المستحق .

رابعا : أنه لا إرث للاخوة والأخوات مع وجود الأبوين ، وإن كانوا يحجبون الأم من الثلث إلى السدس .

خامسا : يجب تقديم حقوق الميت على تقسيم التركة ، وأنه لا ينبغى الإهمال فى تنفيذها ويرشد إلى ذلك تكرير قوله تعالى « من بعد وصية يوصى بها أو دين » فى الآيتين ثلاث مرات ، ويلاحظ أن الوصية وإن قدمت فى الذكر على قضاء الدين ، فإن قضاء الدين مقدم عليها فى التنفيذ وإنما قدمت الوصية بعثا على تنفيذها نظراً إلى أنها من المورث ، يتعلق بها الضن ، وتشح بها الأنفس ، فيخشى التهاون بها ، أما الدين فحق ثابت له مطالب من جهة العباد ، فلا يخشى إهماله .

سادسا : لا ينبغى للمورث أن يسىء إلى ورثته حين مشارفته الموت بالوصية لمن ليس محتاجا إليها ، أو الإقرار بما ليس ثابتا عليه ، وورثته فى حاجة اليه ، يرشد إلى هذا قوله تعالى « غير مضار وصية من الله » أى أن المورث لا يجوز له أن يضر ورثته لا من جانب الوصية ولا من جانب الدين ، وقد حدد النبى صلى الله عليه وسلم الوصية الجائزة بثلث التركة وقال « والثلث كثير » وليعتبر بذلك كثير من الناس الذين يجترحون ؛ وهم على عتبة الوقوف بين يدى مولاهم ؛ تصرفات بها يحرمون بعض ورثتهم من حقوقهم تلبية لشهوة باطلة أو هوى فاسد فيوصون للأجانب ، أو يعترفون لهم بديون كيداً للوارث فى حقه الذى ربما يكون فى حاجة إليه ليقيم به أوده ، ويحفظ به حياته .

وإن التعبير فى أول آيتى الميراث بقوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم » وفى آخرهما « وصية من الله » لجدير أن يهز هذه القلوب القاسية التى تستبيح لنفسها أن تختم حياتها بذلك الوزر العظيم ، فتفرط فى تنفيذ شىء من هذه

الأحكام التي فرضها الله ، فيحرمون بناتهم أو يؤثرون بعض أولادهم على بعض ، أو يمنعون بعض عصبتهم من أخذ حقوقهم في التركة بما يقدمون عليه من تصرفات تحت ستار البيع والشراء ، أو تحت ستار الوصية والاعتراف بالديون ، فإن كل ذلك جرم عظيم ، وذنب كبير لا يقترفه من يؤمن بأن المشرّع هو العليم الحكيم « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالدا فيها وله عذاب مهين » .

* * *

أما بعد :

فهذه جملة صالحة من الفقه والأحكام نسوقها بمناسبة التفسير ، بدافع الرغبة الشديدة في فتح أبواب المعرفة لأحكام الميراث وفرائض الله في اليتامى والسفهاء والنساء ، أمام المؤمنين برسالة الإسلام .

وإلى اللقاء في العدد المقبل إن شاء الله ؟

أيها المسلمون ... ثقوا بأنفسكم

لحضرة صاحب الفضيلة شيخ الإسلام

الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم

من أهم ما يحرص عليه القادة فى الجيوش أن يكون الروح فى جندهم قويا عاليا ، وأن يدرءوا عن أنفسهم وعمن تحت قيادتهم عوامل الوهن النفسية التى من شأنها أن تزلزل القلوب ، وتضعضع القوى ، فإن الغلب لا يرجع إلى القوة الحسية فحسب ، وإنما يرجع قبل ذلك إلى الثبات والقوة المعنوية .

وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى ذلك فى مثل قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » . « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » .

ينهانا الله عز وجل عن أسباب الانهيار والهزيمة الراجعة إلى تسلط الوهن والحزن على قلوبنا ، وامتلائنا بهيبة القوم والخوف منهم ، واستعظام ملاقاتهم ، والتقصير فى تتبعهم وابتغائهم ، والتأثر بما يصيبنا من الآلام والمشاق والصعاب ، وينبئنا جل شأنه أننا أعلى منهم بما فى قلوبنا من الإيمان ، وأن الله معنا ولن يضيع أعمالنا ، وأننا نرجو منه النصر مطمئنين إلى وعده واثقين من حسن العاقبة إذا صبرنا

وأخلصنا ، أما عدونا فإنهم لا يؤمنون كما نؤمن ، ولا يرجون من الله ما نرجو ، وليسوا فى منزلتنا قربا من الله ، وعلوًّا بالحق والإيمان ، وهم مع ذلك يألمون كما نألم ، ويحتملون من مرارة الحرب وصعابها مثل ما نحتمل .

وقد ذكر الله عز وجل هذا الأصل ـ وهو تثبيت قلوب المؤمنين ـ فى آيات أخرى ، منها قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ، إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

يبين الله لنا أنه ماجعل إمداد المؤمنين بالملائكة إلا بشرى لهم بأنهم مؤيدون من الله ، فإن الإمداد لا يكون الا من المولى والنصير ، فالله مولاهم وناصرهم ، ولا شك أن إقرار هذا المعنى فى قلوبهم يملؤهم ايمانا بالنصر ويبعث فيهم من القوة ومضاء العزيمة ما يكون سببا مباشراً فى الفتح والغلب ، ولذلك اتبع الله ماذكره من أن ذلك بشرى لهم ، بأن هذا أيضا تطمين لقلوبهم ، وليعلموا أن النصر فى الحقيقة ليس بمجرد الإعداد والتجهيز ، ولكن بقوة من الله تعالى يهبها أولياءه ويملأ بها قلوبهم ، ويشد بها عزائمهم ، وهى هذه القوة المعنوية التى يشعر معها المجاهد الحق فى سبيل الحق أنه أثبت قدما ، وأقوى قلبا ، وأمضى عزما ، وأنه هو المنتصر مهما أجلب عليه عدوه بخيله ورجله .

ثم تبين لنا الآيات أن من تدبير الله للمؤمنين ولطفه بهم ما أكرمهم به حيث ألقى عليهم النعاس أمنة منه ، فلما رأوا أنهم ناموا ليلهم قريرى العيون مطمئنى القلوب ، زاد ذلك فى شعورهم بالقوة والأمن ، ثم زادوا أمنا وقوة وثباتا بالماء الذى أنزله الله عليهم فكان أمارة على الرضا والتيسير ، وكان وسيلة إلى التطهير

الحسى والمعنوى ، وإلى إذهاب رجز الشيطان ، وإلى الربط على القلوب وتثبيت الأقدام ، وإن جيشا يتوافر له من وسائل التثبيت والتأييد الإلهى ما توافر لهذا الجيش لمزود بأعظم قوة معنوية ، وفى مقابل ذلك يذكر حال عدوهم وإلقائه فى قلوبهم الرعب بما يرون من آثار الرضا الإلهى عن المؤمنين ، وآثار الغضب الإلهى على الكافرين ، وقد ذكر هذا المعنى أيضا فى قوله تعالى « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » وتلك سنة إلهية فى كل مكابر جاحد للحق ، يبدو شديد القوة ، عظيم الجلد ، وقلبه فى الحقيقة واه ضعيف ، لأنه خال مما يتظاهر به غير ممتلىء بوجوب الثبات عليه ، ولذلك يكون خوّاراً متضعضعا يفر من أول وهلة ، ويداخله الرعب والخوف الشديد إذا وجد أمامه مؤمنا ثابتا مصمما على منازلته ، وهذا هو المعنى الذى نصر الله به المؤمنين الأولين ، فقد كانوا يحاربون عن عقيدة وإيمان ، وكانت ظواهرهم فى ذلك وبواطنهم سواء ، أما أعداؤهم فكانوا مشركين بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وكانوا يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم إنما حاربوا فى سبيل السلطان واستبقاء الجاه والمنزلة ، أنفة من أن يتسلط عليهم أصحاب هذا الدين وهم السادة الأقوياء ذووا الأحساب والأنساب ، وشتان بين من يقاتل مخلصا ، يحفزه قلبه ، ويدفعه إيمانه ، ومن يقاتل وهو يعلم أنه مبطل متجن لا يدفعه إلا الشيطان ! وقد كان المشرك لا يجرؤ فى غزوات المؤمنين الأولين على الوقوف فى وجه المؤمن ، إذ كان يخيل إليه أنه يلقى أسدا فاغرا فاه يوشك أن يلتهمه ، وما رأى إلا قوة الإيمان ، وعزمة التصميم .

* * *

تُرى هل حافظ المسلمون على هذه المنزلة ؛ وحرصوا على أن يكونوا فى العالم هم الأمة الواثقة بنفسها ، المعتدة بما عندها ، المطمئنة إلى أن الله مولاها ، وأن وعده الحق ؟

هل حرصوا على أن يُقرّوا فى نفوس أعدائهم أنهم ينظرون إليهم نظرة المحق

إلى المبطل . نظرة الواثق بقوته وعزيمته إلى من يراه ضعيفا نازلا عنه غير أهل لمجاراته ومساماته ؟

يؤسفني أن أقرر أن الأمر صار إلى العكس ، فأصبحنا نرى المسلمين وقد وهنت عزائمهم ، وانحطت قواهم المعنوية ، وصاروا ينظرون إلى أعدائهم والظالمين لهم نظرة ملؤها الإعجاب والإكبار ، وإلى أنفسهم وقادتهم وأعمالهم وسائر أحوالهم نظرة ملؤها الاستخفاف والاستهانة ، أما أعداء المسلمين فقد صاروا هم الأعزة ، وهم أهل الاعتداد بأنفسهم ، والثقة بما عندهم ، والنظر إلى المسلمين كأمة متخلفة ضئيلة محتاجة إليهم فى مادياتها ومعنوياتها ، وأنها لا تصبر على حربهم ، ولا تقدر على أن تقف فى سبيلهم ، وأنهم حين يجودون عليها بشىء من أموالهم أو أفكارهم فإنما يلبون داعى الإنسانية ، ويحرصون على أن يكونوا أهل فضل وبر ، والله يعلم إنهم لطامعون محتالون ، لا يريدون إلا تسخيرنا ، واستلاب ثرواتنا وجهودنا ، وقد عرفوا أنه لابد لهم قبل ذلك من استلاب نفوسنا وقلوبنا ، وأن يخدعونا عن عقولنا وعما لا يحبون أن نعتز به من إيمان ثابت ، وعمل صالح .

إن المسلمين فى حرب زبون مع أعدائهم لن تضع أوزارها ما دام هؤلاء الأعداء قادرين على موالاتها وإمدادها ، ومن الخير للمسلمين أن يتيقظوا ويتنبهوا إلى أن من أهم أسلحة هذه الحرب حرص أعدائهم على أن يقروا فى نفوسهم أنهم أمة ضعيفة ضئيلة ، وأن دينها وشريعتها وأخلاقها ليست صالحة لهذا العصر الذى تبدلت فيه الدنيا ، وتغيرت مثلها ونظمها ، إنهم واثقون بأن ذلك يهدمنا ويقوّض كياننا ويبعث فينا الوهن ، ويجعلنا ندور فى فلكهم ، ونتبع آثارهم ، ونخدم أغراضهم ،

ومن عجب أن بعض رجالنا المثقفين ثقافات غربية قد خدعوا بذلك ، فتراهم مثلا ينادون بإبعاد الدين عن مجال الحكم والتعامل ، وأخذ الأمة بالنظم الحديثة ، والقوانين الوضعية كما يفعل الأوربيون ، ويقولون إن الدين لله ، فلنقصره على المسائل الروحية ، ولننتفع به فى تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق وكفى .

ويرجع السبب فى انخداعهم بهذه الفكرة الخاطئة إلى جهلهم بالشريعة الإسلامية وعدم معرفتهم بما فيها من كفالة للحياة السعيدة على أتم وجه وأكمل حال .

لقد أصلح الله بهذا الدين حال قوم كانوا يعيشون فى ظلمات الجهل والشرك وتتفشى فيهم أقبح العادات ، وأسوأ الأوهام والخرافات ، أنقذهم الله به من هذه الظلمات المتراكمة ، وأخذ بأيديهم إلى مدارك السمو والكمال الإنسانى فى كل ناحية من نواحى الحياة حتى كانوا مَثَلا فى العالمين ، وعجبا فى الأولين والآخرين .

كانوا قادة العالم إلى كل خير ، ودعاته إلى كل صلاح وإصلاح ، كانوا أعزاء بعزة الإيمان ، أقوياء بالتضامن والتكافل على إحقاق الحق ، وإقامة العدل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كانت لهم هيبة تملأ صدور الناس فى الشرق والغرب ، فلم يكن أحد يفكر فى مقاومتهم أو الوقوف فى وجه دعوتهم ، فضلا عن أن يفكر أحد فى غزوهم فى عقر دارهم ، ومحاولة استغلال مرافقهم ، والاستيلاء على مامنحهم الله من ثروات ، ملأوا طباق الأرض علما وحكمة وعدلا وأمنا واستقامة ورشادا ، حتى كانت الشعوب فى كل بلد من بلاد الله تحن إلى حكمهم وعدلهم ، وتتمنى أن تساس بسياستهم ، ولم يعرف فى تاريخ البشر أمة نبغت فى مثل تلك الفترة القصيرة التى نبغوا فيها ، ولم يعهد فى تاريخ الفكر الإنسانى أمة وصلت بعلمها وأفكارها ومُثُلها وقضاياها إلى شغل أفكار العالم على هذا النحو الذى وصلت إليه الأمة الإسلامية .

فإذا أردنا أن نسلك الطريق الواضح المستقيم إلى خلاصنا وصلاحنا وقوتنا وعزتنا فلنؤمن بما آتانا الله من دين وشريعة ، ولننزع من رءوس مثقفينا وبعض قادتنا وزعمائنا هذه الفكرة الباطلة ، فكرة الزعم بأن هذا الدين كغيره من الأديان لا شأن له بالحياة ، ولا خير فى جعله أساسا للنظام والسياسة فى الأمم ، علينا أن ننتزع هذه الفكرة بكل قوة من رءوس معتنقيها فإنها أخطر فكرة على المسلمين ، وأخبث دعوة استطاع أعداء الإسلام أن يدخلوها على مثقفيهم

وزعمائهم ، ولا يكون نزعها إلا بالعلم الصحيح ، وبيان ما فى الإسلام من خير وسمو وجمال ، والرجوع الى المصادر الأولى التى تمتاز بالصفاء واليسر والوضوح ، فنقدمها للعقول غذاء ، وننشىء أمثالها مما يتفق وطبيعة العصر الذى نعيش فيه ، فالناس بحاجة الى أن نقنعهم بأسلوبهم ، وأن نشرح لهم ما عندنا بالقول الواضح والبرهان المستقيم .

وعلى أهل العلم الدينى تقع التبعة اذا فرطوا ، وعلى أهل الحكم وأصحاب السلطان يكون الإثم اذا لم يؤدوا واجبهم فى رعاية هذه الأمانة وتيسير السبيل لأدائها كاملة .

إن كل إصلاح لا يقوم على أساس تقوية الروح الدينى فى الأمة لا بقاء له ولا خير فيه ، وإذا قلت الروح الدينى فإنما أريد الأخذ العملى بالشريعة عن إيمان وثقة ، لا أن نكتفى بما ينص عليه الدستور من أن دين الدولة هو الإسلام ثم نكون فى أكثر أحوالنا وأفعالنا وتشريعاتنا وأخلاقنا على خلاف ما يأمر به الإسلام وينهى عنه الإسلام .

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات ، لعلكم تعقلون » ؟

بين الإسلام والنصرانية :



لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الجامع الأزهر والمعاهد الدينية

— ٢ —

لم يكن « أوربان الثانى » حين دعا إلى المجمعين العظيمين للنظر فى شأن الإسلام وطغيان مبادئه على المبادىء المسيحية ، واكتساحها بقوة خارقة دون جهد يبذله أهله ، لم يكن هذا البابا إلا تَرْجُماناً لما كانت تغلى به صدور المسيحيين فى أوربا منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى من حقد على الإسلام والمسلمين ، وحرص على الحيلولة دون دعوة الحق وما ظفرت به من الانتشار فى سرعة ويسر، بينما رجال الدين المسيحى ينفقون الأموال الطائلة ، والجهود الهائلة ليبثوا تعاليم دينهم فى بلاد الشرق والغرب ، فلا يبوءون إلا بالخسران ، ولا يزدادون إلا النقصان .

ولقد أفلح هذا القسيس الكبير فى استفزاز أهل أوربا وإثارة حماستهم وعصبيتهم على المسلمين ، وجمع كلمتهم على النضال فى سبيل هدم الإسلام وزلزلته عن مكانة العزة والقوة التى اكتسبها بتاريخه الناصع على ما بينا فى حديثنا السابق ، ثم كان ما كان من ترادف الحروب الصليبية قرونا متتابعة على الإسلام ، ثم يأس أهل أوربا من أن ينالوا بالسيف والنار نيْلا ، وتحولهم إلى حروب أخرى

يعرفونها جيداً ، ويتقنون أساليبها وهى حروب الفتن والدسائس وإغراء العداوة بين المسلمين ، وبث الوهن فى قلوبهم بما يروجون من أفكار الإلحاد والشك ، وبما يزينون من خروج على مبادىء الإسلام إلى المبادىء التى ينعتونها بالملاءمة للحضارة ، والموافقة للمدنية والتقدم .

بينت ذلك فى حديثى الماضى . وما أردت بالتعبير بلفظ « الصليبية » أن أنبز المسيحيين جميعاً ، لا أفرق بين متعصبيهم ومساليهم ، فإن فى الشرق الإسلامى لإخوانا لنا فى الوطنية من المسيحيين وجيرانا ، وقد اشتركنا جميعا فى احتمال الآلام ، وبذل الجهود والتضحيات فى سبيل تحرير الأوطان من عدوان الغربيين ، وجشع المستعمرين ، وليس هؤلاء من الصليبيين الذين قلت إنهم كانوا يعلقون الصلبان الحمراء على صدورهم ، ويسيرون بها فى الطرقات لهم عواء كعواء الذئاب يستنفرون على المسلمين .

* * *

ولقد حذر الله المؤمنين من هذه الحروب وبواعثها فى كتابه الكريم إذ يقول جل شأنه عن أهل الكتاب : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شيء قدير » وإذ يقول عن المشركين : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ففى الآية الأولى يذكر الله لنا الأمل الذى تنطوى عليه نفوس كثير من أهل الكتاب ـ وأحب أن يلتفت أقباط مصر ومن فى حكمهم إلى الحكمة فى تعبير القرآن الكريم بقوله « ود كثير من أهل الكتاب » حيث لم يقل أهل الكتاب أو كل أهل الكتاب ـ ذلك الأمل هو أن يردوا المؤمنين كفاراً ، وأن هذا الأمل قد وقر فى نفوسهم وصار حبيبا إلى قلوبهم يودونه ودادا ، ويرغبون فى تحقيقه

ليرضوا به نفوسهم ، وأن مبعث ذلك هو الحسد الذى يأكل قلوبهم ويثير حفائظهم كلما رأوا المؤمنين فى خير وعزة واستقامة وصلاح ، ومن شأن الحاسد ألا يطيق النعمة يرى آثارها على من يحسده فهو يعمل كل ما يستطيع لإفسادها أو إزالتها ، ثم يذكر الله لنا أن هذا الحسد الذى يأكل قلوبهم على المؤمنين ، والذى يجعلهم شديدى الحرص على ارتدادهم إلى الكفر بعد الإيمان إنما هو حسد العالم المدرك الذى لم يغب عنه الحق ، ولم يشتبه عليه الصواب ، والحسد إذا كان ممن يعلم قيمة النعمة ويدرك فضلها وعظمها ، يكون أخطر وأشد من حسد الجاهل الغافل ، لأن الأول يكون عميق الإحساس بفضل المحسود ، خبيراً بما أوتى من خير لحسده يكون قوياً خطيرا ذا آثار عملية ، أما الآخر فإن شعوره بنعمة المحسود ، وتقديره لقيمتها محدودان ، فيكون حسده بمقدار إدراكه ليست له خطورة ، وقد أمر الله المؤمنين بالعفو والصفح حتى يأتى الله بأمره ، فقال بعض المفسرين إن الأمر بهما كان قبل الإذن بالقتال ، وقال بعضهم : إنما أمر بالصفح والعفو عن ذلك لأنه لم يتحدث إلا عن الخطرات القلبية النفسية ، وهى رغبة أهل الكتاب فى ارتداد المؤمنين كفارا ، وليس من المعهود أن يعاقَبَ الناس على ما فى قلوبهم مما لم يبرز فى أفعالهم ، ومهما يكن من شىء فان الأمر بالعفو والصفح عنهم يتضمن الأمر بأن يكون المؤمنون أعزة أقوياء ، قادرين على العقوبة وتأديب من يقف فى سبيل دعوة الحق ، لأن العفو والصفح لا يتصوران إلا من القادر المستطيع ، أما العاجز القاصر فلا يطلب منه العفو والصفح ، ولكن يطلب منه الصبر ، فالآية توحى إلى المؤمنين بأن يكونوا من القوة والعزة والاستعصام بالعلم واليقين بحيث لا يضرهم ما تنطوى عليه نفوس أعدائهم من الرغبة فى زلزلتهم ، والحرص على إخراجهم من دينهم ، فإنهم إذا كانوا كذلك لم يؤثر فيهم أعداؤهم ، ولم يضرهم أن يغضوا عنهم احتقاراً لهم ، واستهانة بهم ، كما يغض القوى الراسخ عن الضعيف العاجز .

والآية الثانية تبين لنا إصرار فريق آخر من أعداء المؤمنين على محاربتهم حربا لا غرض لها إلا ردّهم عن دينهم إن استطاعوا ، ثم تحذر المؤمنين من الضعف أمام

هذه الحرب الدينية ، وتبين لهم أن ارتداد المؤمن عن دينه وخروجه من الدنيا وقد كفر بعد إيمانه ، يحبط عمله فى الأولى والآخرة ، ويحل عليه غضب الله ، وعذاب النار .

* * *

ليس بعد هذا التحذير الشديد الذى جاء به كتاب الله عز وجل مجال لتحذير ، وإنما نحب أن ننبه قومنا إلى أن الحروب الصليبية التى صرنا إليها الآن ، وهى حروب الفتنة والزلزلة ليست بأهون من الحروب الصليبية فى صورتها الأولى ، صورة الإغارة على بلاد المسلمين وتقتيل أبنائهم ، واقتطاع أراضيهم ، وسلب أموالهم كما كانوا يفعلون على عهد صلاح الدين ، وقبل عهد صلاح الدين ، ليست الحروب الحديثة الباردة بأهون من الحروب القديمة الحامية ، بل إنها فى الحقيقة أخطر وأشد بلاء على الإسلام والمسلمين ، فإن العدو الذى يأتى عدوه مجاهراً مكاشفاً يمكن أن يُتَّقَى أو يقاوَم ، وقد جرت عادة الناس أن يهتموا به ، ويدبروا له ويعملوا على الخلاص من شره ، أما العدو المداهن المخاتل الذى يُظهر الود ، ويلبس ثوب الصديق الناصح ، فهذا هو العدو الألد الذى يعمل عمله فى صمت ومثابرة ودهاء ، ومثل هذا العدو لا يراه ولا يحس به العامة من الناس ، وإنما يعرفه ويحس به خاصتهم وقادتهم وهم المسئولون عن درء شره ، بالتنبيه إلى فتنته وخدعته .

وها نحن أولاء ، نرى الغربيين يحتالون فى حربنا ، ويلتمسون الوسائل التى يبدون فيها أمامنا كما يبدو الأصدقاء ، ويسيرون فى هذا على الأسلوب العلمى الذى يعتمد على الدرس والبحث

ونستطيع أن نضرب المثل لذلك بما نرى من شدة اهتمامهم بفرض ثقافتهم وأفكارهم علينا ، وأنهم قد استطاعوا أن يزينوا ذلك لنا حتى اندفعنا إلى تحقيق أغراضهم فيه ، فنحن فى الحقيقة مهبط لوحيهم ، نترك أفكارنا لأفكارهم ، ونميت أنظمتنا لنحيي أنظمتهم ، ونتحمس لما يرد علينا من جانبهم أكثر مما يتحمسون

لأنفسهم ، وما ذلك إلا لأنهم خدعونا عن عقولنا فأفهمونا أن سبب عزهم وغلبتهم وتَفوّقِهم إنما هو تحررهم من الدين ، وسبب فقرنا وضعفنا هو صلتنا بديننا ، وقد كذبوا وافتروا فليس ديننا كذلك ، وليست تعاليمنا القوية الملائمة لكل زمان ومكان كالتعاليم التى وقفت فى وجوه مصلحيهم ، فإذا كان تركهم لهذه التعاليم وإعراضهم عنها سببا فى صلاحهم ، فإن تركنا لتعاليم ديننا قد كان سببا فى فساد أمورنا ، ولذلك نراهم حريصين على أن يشوهوا لنا كل ما يتصل بهذا الدين لنهجره وننفر منه فيخلصوا لنا ونحن عزل من سلاحه سلاح الإيمان والقوة العاملة الناصبة فيغلبونا أبد الدهر ويحولوا بيننا وبين استرداد مجدنا .

وآخر ما كان من الغربيين فى ذلك أنهم لم يقبلوا تركيا عضواً فى هيئة « حلف الاطلانطى » بحجة أنها تؤمن بأفكار وتدين بمثل غير أفكار الغرب ومثله - يريدون الإسلام - مع أن أهم ما ورد فى ميثاق الأمم المتحدة هو الحرية المطلقة فى الاعتقاد ، والمساواة العامة بين الشعوب ، فهل بعد هذا دليل ؟

* * *

هذه بعض أساليب الحروب الصليبية فى شكلها الجديد ، بعد أن فشلت حروب النار والحديد ، فعلى المسلمين أن يستيقظوا من سباتهم ، وأن يتنبهوا إلى ما يراد بهم ، وأن يجمعوا كلمتهم على الخلاص من هذه الشباك التى تحاك لهم ، وأن يلتفتوا التفاتاً قوياً إلى ما لفتهم إليه كتاب الله العزيز :

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » ؟

الابتكار

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك

الابتكار مصدر ابتكر الشيء، إذا اخترعه بعد أن لم يكن، وهو فى الماديات كثير، كاختراع الراديو، واختراع التليفون، و «الثلاجة الكهربائية» ونحو ذلك.

وهو يكون أيضاً فى العلوم، فعلم الطبيعة والكيمياء والرياضيات اليوم غيره بالأمس. وهو غداً غيره اليوم، ويكون أيضاً فى المعانى، فالشاعر الجيد من من ابتكر بخياله معانى جيدة لم يسبق إليها، وقد يوفق فى ذلك إلى عدد محدود، وقد قالوا إن أبا تمام ابتكر نحو عشرين معنى جديدا، وهو بهذا مكثر. فإن أبا الطيب المتنبى ابتكر نحو خمسة معانٍ، وهكذا وهكذا.

ومما يعاب على الشرقيين أنهم أقل ابتكاراً من الغربيين، وأنهم أكثر تقليداً منهم، وذلك فى أكثر فروع العلم والفن، ففى الأدب مثلا لا تزال موضوعاتهم هى المديح ونحوه من موضوعات الأدب الجاهلى، والأوزان لا تزال هى الأوزان التى جمعها الخليل بن أحمد، وحصرها فى ستة عشر وزنا، والفقه قد أقفل أصحابه باب الاجتهاد، والفلسفة هى فلسفة اليونان تقريبا، والآلات والأدوات التى نستعملها فى بيوتنا هى المخترعات الأوربية، وقل أن نجد مخترعا جديداً.

والمصلحون إذا أتوا بجديد نكل بهم أشد تنكيل، وعذبوا أشد عذاب،

وملئت بهم وبأتباعهم السجون ، كما فعل بمدحت باشا ، والسيد جمال الدين ، وخير الدين التونسى ، وغيرهم . فما السر فى ذلك ؟ .

يظهر أن السر فى ذلك يرجع إلى أمور كثيرة . منها : أن الجو الحار الذى يعيشون فيه يبعث على الخمود ، والخمود يبعث على الكسل ، والكسل عدو الابتكار؛ ولذلك لما تغيرت البيئة على المهاجرين إلى أمريكا جددوا فى الأدب مثلا بعض الشىء ، كما فعل جبران خليل جبران ، وايليا أبو ماضى ، وأمثالهما . واعترضوا على هذا بأن الأندلسيين حكموا قرونا وكانت بيئتهم أبرد غالباً ، ومع ذلك كانو عالة على الشرق يقلدونهم ويحتذون حذوهم . فوجب أن يكون هناك سبب غير هذا . وقد يكون السبب أنه غلب على المسلمين منهج المحدّثين من عهد المتوكل على الله إلى اليوم ، ومنهج المحدثين منهج اعتماد على النقل أكثر من الاعتماد على العقل ، فخيّم هذا المنهج على عقول المسلمين فى كل فرع من فروع العلم . حتى كانت حجتهم فى صحة نظرية أنها وردت فى بعض الكتب . ومنها أنه لم يرزق المسلمون بشخصيات جبارة تحتذى ، كما رزق الغرب . أمثال ﭬولتير ولوثر ، ولو رزقوا مثل هؤلاء لقلدوا ، ولكننا نتساءل أيضاً لماذا لم يرزقوا بأمثال هؤلاء الجبابرة ؟ .

والجواب : أنه قد يكون هذا محض مصادفة . وكان فى الإمكان أن لا يكون لوثر ولا يكون ﭬولتير ، وأيضاً قد يصح أن يكون قد وُجد فى تاريخ المسلمين أمثال ﭬولتير ولوثر ، ولكن خنقتهم بيئتهم وخنقهم الأمراء المستبدون ، فلم يتسع لهم المجال ، ولو كانوا لتغير وجه التاريخ ، خصوصاً وأن العادة جرت فى الشرق ألا يشجع المبتكر ولكن يخذّل ويسخر منه ، كما فعل بالأنبياء من قبل ، « فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » . ونحن نرى أن الشىء إذا أتى به غربى شجّع وقلّد وهلّل له ، وإذا أتى به شرقىّ خذل واستهزىء به ورُفض .! فهل آن الأوان للقيام من هذه الكبوة والنهضة بعد هذه العثرة ؟ إن كل الدلائل تدل على ذلك .

فالعصبية القومية قد تجعل الشرقيين يتعصبون لشرقيتهم فيشجعون من نبغ منهم ، والوعى القومى وقد تنبه يجعلهم أحسن تقديراً ، وأكثر اعتدالا . وأقل

جوداً ، وأكثر تقويماً للحقائق ، ووزنا لها بالميزان الصحيح .. ومتى سلكوا هذه السبيل ولو قليلا اندفعوا فيها . وبنى الخَلَف على أعمال السلف . فكان لنا من ذلك أدب جديد ، وفقه جديد ، وعلم جديد ؛ يناسب بيئتنا وعقليتنا .

كم كنت حزيناً يوم قابلنى رجلان ألمانيان مستشرقان ، فسألنى أحدهما : من هو الصوفى المصرى الذى يمكننى أن ألقاه وأفهم منه تصوفه ، وسألنى الآخر: من هو الفيلسوف المصرى الذى ألقاه وأفهم منه فلسفته . فكان الجواب مع الأسف بالنفى ، فهل أعيش ليمكننى أن أجيب على هذين السؤالين بالإيجاب ؟؟

إننا قد بلغنا فى التقليد حداً معيبا ، فمن أتى برأى قيل له : من أين أتيت به ، والعلماء المصريون والأدباء الشرقيون ، منهم من يقلد قدماء الشرق حَذْوَ القشرة بالقشرة ، ومنهم من يقلد الغرب كل التقليد ، حتى إن كل واحد منهم قبل أن يَسنّ قانوناً أو قبل أن ينظم قصيدة أو قبل أن ينحت نحتاً ، يحوك فى نفسه السؤال الآتى : « ماذا فعل مَن قبلى فى هذا الموضوع ، وماذا قال ، وأى جهة اتجه » كأن الله لم يخلق له عقلا ..

إن الشرقيين فى الحقيقة لا يقلون ذكاء ولا خبرة ولا دينا عن الغربيين ، فما الذى أصابهم ؟ وكان مقتضى الذكاء أن يكون بجانبه الابتكار ، ولكن لعل ضغط الكنيسة على الغربيين جعلهم ينفرون فيبتكرون ، وتسامح الإسلام مع المسلمين جعلهم ينامون ، وكثيراً ما قالوا إن الضغط يولد الانفجار ، والكرة من المطاط ، إذا ضربتها فضغطتها ارتفعت بمقدار انضغاطها .

والله على كل شىء قدير ؟

الربا في نظر القانون الإسلامي

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل

الدكتور محمـــد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

اشترك الأزهر الشريف فى مؤتمر القانون الإسلامى المنعقد بباريس فى شهر يوليو سنة ١٩٥١ ، وكان مندوبه فى هذا المؤتمر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز عضو جماعة كبار العلماء ، وقد ألقى فضيلته هذا البحث القيم بالفرنسية .
ويسرنا أن ننشر تعريبه بقلم فضيلته أيضاً لينتفع به قراء رسالة الإسلام وسائر المعنيين بالدراسات الإسلامية .

— ١ —

مقدمة تاريخية

قبل أن أعرض على أنظاركم وجهة نظر الإسلام فى الربا ، إيذن لى يا جناب الرئيس وياحضرات السادة والسيدات ، أن أقول كلمة موجزة عن وضع المسألة فى طائفة من التشريعات السابقة ، مدنية كانت أم دينية . .

مصر فى عهد الفراعنـة :

يلوح أن قدماء المصريين لم يكونوا يحظرون الربا حظراً صارماً ، بل وضعوا له نظما وقواعد تحد من أضراره ؛ ونحن ، وإن لم يصل إلينا نبأ هذه القواعـد فى جملتها ، فقد نعلم بعض الشيء عنها .

هذا « ديودور » المؤرخ الإغريقى يحدثنا مثلا عن القانون الذى وضعه الملك « بوخوريوس » من ملوك الأسرة الرابعة والعشرين ، والذى يقضى بأن الربا مهما تطاولت عليه الآجال لا يجوز أن يصل إلى مقدار رأس المال .

أثينا وروما :

أما فى الدولتين الإغريقية والرومانية فإن الربا — قبل ظهور الإصلاحات التى وضعها « صولون » المشرع الإغريقى ، وقبل الإصلاحات التى وضعها مؤلفو (الألواح الاثنى عشر) فى روما - كان شائعاً بدون قيود ولا حدود ، وكان العرف(١) الجارى فى كلتا المملكتين أن المدين إذا لم يوف دينه أصبح هو نفسه ملكا للدائن . فجاء تشريع (صولون) قاضيا على هذه العادة الشنيعة ، حيث قرر أن تكون مسئولية المدين فى ماله وذمته ، لا فى شخصه ورقبته . كما أنه حدد النهاية القصوى التى يمكن أن تبلغها فوائد الدين (يقال إنه حددها بنسبة ١٢ ٪ من رأس المال) . وكذلك صنع واضعو الألواح الاثنى عشر فى روما ، وبقيت هذه النسبة محفوظة فى التشريع الرومانى حتى جاء (جستينيان) فجعلها تدور بين ١٢ ٪ للتجار وأمثالهم و ٤ ٪ للنبلاء .

هذه التشريعات كلها لم تظهر إلا فى أعقاب اضطرابات وحروب داخلية مستمرة بين الأغنياء والفقراء فى تلك الشعوب ، فكانت هذه الإصلاحات علاجا وقتيا لتلك المشاكل الاجتماعية الخطيرة التى ولدتها هذه الوضعية الربوية .

هكذا مهما نصعد بنظرنا فى تاريخ التشريعات المدنية القديمة . نجد أن مبدأ التعامل بالربا كان سائغا فيها ، وأنه كانت توضع له فى بعض الأحيان نظم تحميه إذا لم يجاوز حداً معلوما .

---

(١) وكذلك جرى العرف فى كلتا الدولتين بأن الفائدة السنوية يؤديها المدين على أقساط شهرية . قارن هذا بعادة العرب فى الجاهلية أيضاً ، كما سيأتيك نبؤه قريبا .

إسبارطة :

غير أن مدينة إسبارطة تبدو لنا فى صورة استثناء من هذه القاعدة العامة ؛ إذ لا يعرف فى تاريخها أنها تعاملت بالربا أو أنها نظمته . وقد يرجع السر فى ذلك إلى أنها ـ من جهة ـ لم تكن ذات طابع تجارى واضح ، حتى إنها لم يكن لها نظام نقدى ، بل كانت عمدتها الرئيسية فى التعامل هى المبادلة والتقايض ، ومن جهة أخرى فإن قانونها لم يكن يخول للغرباء الذين يحملون نقود بلادهم أن يدخروا الذهب والفضة ، ومن عرف عنه أنه يكتنز شيئاً منها كان جزاؤه الإعدام .

اليهودية والنصرانية :

فإذا ما انتقلنا الآن من المنظمات المدنية إلى التشريعات الدينية ، فإننا نشهد ظاهرة جديدة فى تاريخ التشريع فى هـذا الشأن ، فبعد أن كنا نرى التعامل بالربا فى الشرائع غير الدينية أمراً سائغاً فى حدود واسعة أو ضيقة ، نرى التشريعات السماوية تتجه به نحو الحظر والتحريم الكلى .

هكذا نقرأ فى كتاب العهد القديم : « إذا أقرضت مالا لأحد من أبناء شعبى ... فلا تقف منه موقف الدائن : لا تطلب منه ربحاً لمالك » (الآية ٢٥ من الفصل ٢٢ من سفر الخروج) وفى موضع آخر : « إذا افتقر أخوك فاحمله ... لا تطلب منه ربحاً ولا منفعة » (الآية ٣٥ من الفصل ٢٥ من سفر اللاويين) .

وكذلك نقرأ فى كتاب العهد الجديد : « إذا أقرضتم لمن تنتظرون منهم المكافأة فأى فضل يعرف لكم ؟ ... ولكن ... افعلوا الخيرات وأقرضوا غير منتظرين عائدتها . وإذاً يكون ثوابكم جزيلا » (الآيتان ٣٤ و ٣٥ من الفصل ٦ من انجيل لوقا) ولقد أجمع رجال الكنيسة ورؤساؤها ، كما اتفقت مجامعها على أن هذا التعليم الصادر من السيد المسيح عليه السلام يعد تحريماً قاطعاً للتعامل بالربا . حتى إن الآباء اليسوعيين الذين يتهمون غالبا بالميل إلى الترخص والتسامح فى مطالب الحياة وردت عنهم فى شأن الربا عبارات صارمة ، منها قول سكوبار : « إن

من يقول إن الربا ليس معصية يعد ملحداً خارجا عن الدين ، وقول الأب بونى : « إن المرابين يفقدون شرفهم فى الحياة الدنيا ، وليسوا أهلا للتكفين بعدموتهم (١) » .

أوربا المسيحية :

هذه النظرة الدينية أقرها القانون المدنى الأوربى فى سنة ٧٨٩ (مرسوم إيكس لاشابيل) وبقيت هى المذهب الوحيد فى أوربا طوال القرون الوسطى ، ولكنها بدأت تفقد مناعتها شيئاً فشيئا منذ عصر النهضة ، على أثر الاعتراضات المتكررة التى وجهت إليها بين القرنين السادس عشر والثامن عشر من (كالفان) إلى (مونتيسكيو) . وكان لهذا الضعف مظهران : مظهر عملى ، ومظهر تشريعى . فأما المظهر العملى فهو أن بعض الملوك والرؤساء الدينيين أنفسهم أخذوا يجترئون على انتهاك هذا التحريم علنا . من ذلك أن (لويس الرابع عشر) اقترض بالربا ليسدد ثمن دانكرك فى سنة ١٦٦٢ وأن البابا (بى التاسع) تعامل بالربا فى سنة ١٨٦٠ . وأما المظهر التشريعى فهو أنه منذ آخر القرن السادس عشر (١٥٩٣) وضع استثناء لهذا الحظر فى أموال القاصرين (٢) فصار يباح تثميرها بالربا باذن من القاضى .

أما الضربة القاضية التى وجهت إلى هذه النظرة الدينية فقد حملتها إليها الثورة الفرنسية حيث احتضنت المذهب المعارض وجعلته مبدأ رسمياً منذ قررت الجمعية العمومية فى الأمر الصادر بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٧٨٩ أنه يجوز لكل أحد أن يتعامل بالربا فى حدود خاصة يعينها القانون .

بلاد العرب قبل الإسلام :

لم يكن قد بقى لعرب الجزيرة فى الجاهلية من التراث الدينى الذى تركه جدهم ، أبو الأنبياء ، إبراهيم عليه السلام ، إلا آثار قليلة لا تخلو من التحريف . ولذلك

---

(١) انظر بانكال فى مراسلاته الاقليمية ، الخطاب الثامن Pascai Les Provinciales

(٢) قارن هذا بالرخصة التى أخذت بها المحاكم فى عهد الدولة العثمانية ، اعتماداً على الفتوى الواردة فى كتب الحنفية .

لم يفتئوا يتبعون أهواءهم ونزعاتهم المادية فى أكثر عباداتهم ومعاملاتهم . وكان من ذلك تعاملهم بالربا بدون قيد من عرف ولا تشريع . ولعل مرد هذا (أولا) إلى نزعة الاستكثار وحب الكسب التى تنمو عادة فى البيئات التى تزدهر فيها التجارة كما كان هو الحال فى مكة (وثانيا) إلى علاقتهم المستمرة باليهود ، الذين هم جيرانهم وأبناء عمومتهم .

ولعلكم تعجبون أن تكون مجاورتهم لشعب ذى شريعة سماوية تحرم الربا سببا فى تشجيعهم على التعامل به ، ولكن الذى يزيل هذا العجب أن نعرف أن هذه الديانة نفسها ـ حسبما ورد فى كتب أهلها ـ تبيح الربا كما تحرمه . نعم لقد سقنا آنفا شواهد التحريم من نصوص للتوراة ، ولكننا وا أسفاه نجد فيها نصاً آخر يقيد هذا التحريم ويجعله خاصاً بالشعب العبرانى . بحيث يسوغ لليهودى أن يأخذ الربا من غير اليهودى (١) » (الاية ٢٠ من الفصل ٢٣ من سفر التثنية) . ولما لم يكن فى هذا النص تحديد قانونى لقدر الربا المأذون فيه كان ذلك فتحا لباب الاستغلال المالى على مصراعيه بحيث يدخله أشد أنواع الربا فداحة وإفراطا .

هكذا كان هذا النص المنسوب للقانون الموسوى سببا فيما نرى ـ أو جزءاً كبيراً من السبب ـ لا فى بقاء التعامل بالربا فى العالم إلى اليوم فحسب ، بل فى تهوين أمره على كثير من النفوس واتخاذهم إياه أمراً مشروعا فى بعض الأحوال .

ومهما يكن من أمر فقد اعتاد العرب فى عصور الوثنية أن يقترضوا بالربا من اليهود وأن يتقارضوا به فيما بينهم ، دون أن يجدوا فيه حرجا ولا غضاضة .

وقد عرفت لهم فى ذلك أنواع مختلفة من العقود الربوية . وأكثرها انتشاراً فيما بينهم كانت تبدأ المحاسبة فيه ـ على ما يظهر ـ من السنة الثانية ؛ بمعنى أن الدائن لا يطلب من مدينه شيئا وراء رأس المال إذا وفاه دينه فى أجله المعلوم . فإن

---

(١) معروف رد القرآن (فى الأيتين ٧٥ و ٧٦ من السورة الثالثة) على هذه الدعوى التى لاتدع لقانون الفضيلة إلا مجالا محدودا للتطبيق ؛ مع أن مبادى الأخلاق يجب أن تكون عالمية لا حدود لها من جنس ولا لون ولا عقيدة ولا إقليم .

لم يستطع أداءه فى ذلك الأجل اتفقا على تأجيله سنة ثانية فى مقابل زيادة يختلف مقدارها على حسب التراضى بينهم ، ونضرب مثلا : مديناً كان عليه أن يسلم للدائن فى أجل كذا حيوانا سنه ثلاث سنوات . فإذا لم يدفعه إليه فى ذلك الموعد أجله إلى السنة القابلة ، لكن الحيوان يجب أن يكون سنه إذ ذاك أربع سنوات ، ولقد كانت تصل الزيادة فى بعض الأحيان إلى قدر رأس المال فى آخر السنة الثانية فتصبح المائة مائتين ؛ فإن لم يؤد تضاعف رأس المال والفائدة معا فيصيران أربعمائة فى آخر السنة الثالثة وهكذا .

وضرب آخر من هذه العقود أن يدفع الدائن لمدينه قدراً من المال لسنة ، على أن يأخذ منه فائدة معينة كل شهر ؛ فإذا جاء آخر السنة ولم يرد رأس المال اتفقا على فوائد أخرى للتأخير .

البلاد الإسلامية فى العصر الحاضر :

لقد جاهد الإسلام والمسيحية قرونا متطاولة لا لمنع قانونية الربا فحسب ، بل لمنع التعامل به إطلاقا .

بيد أننا رأينا آنفا كيف انتهى الأمر بالثورة الفرنسية فى آخر القرن الثامن عشر أن قضت على هذه المقاومة فى أوربا ، وأقرت النظام الذى بقى فيها منبوذاً طوال ألف عام كاملة .

وكان طبيعياً أن تؤدى العلاقات المستمرة بين أجزاء العالم القديم إلى انتشار هذه الفكرة المادية رويداً رويداً وانتقالها إلى خارج أوربا . وهكذا لم ينتصف القرن التاسع عشر إلا وقد سرت عدواها إلى البلاد الإسلامية ، فبدأ بعض المسلمين يتعاملون بالربا لا إقراضا ، بل اقتراضا ؛ ثم اتسع الأمر وشاع عمليا ، مع بقائه محظوراً قانونياً ؛ ثم دخل الإذن به فى دائرة التشريع تحت ضغط السلطات الأوربية المحتلة الأقطار الإسلامية ؛ وبقيت الشعوب الإسلامية نفسها مدة طويلة متمردة على فكرة تأسيس مصارف وطنية تكون مهمتها التصرف فى جميع المعاملات المالية التى منها القرض بفائدة .

ونذكر فيما يتعلق بمصر على الخصوص أن هـــذه المقاومة الشعبية بدأت تضمحل فى أول هذا القرن العشرين ، بسبب حادث تاريخى خاص أثار فيها أزمة مالية وأزمة نفسية فى وقت واحد . نعم لقد حدث إذ ذاك أن امتنعت المصارف الأجنبيـة المؤسسة فى مصر عن مد يدها بالقرض إلى الشعب المصرى ، فأصبح الشعب وقد وجد نفسه أمام محظورين لا مخرج له منهما : إما أن يلجأ إلى المرابين الذين ليس فى قلوبهم رحمة يقترض منهم بأفدح الربا وأخطره ، وأما أن ينشىء شركة مالية برءوس أموال وطنية خالصة ، يقترض منهـا المحتاجون بشروط غير مجحفة .

ومالت بعض النفوس إلى اختيار الشق الثانى غير أنه وقفت أمامها اعتبارات دينية قوية . إذ كيف تقوم فى بلد إسلامى مؤسسة مالية مخالفة لقواعد القرآن ؟

هنالك فتح باب المناقشة فى الصحف وفى الأندية المختلفة ، وألقيت سلسـلة من المحاضرات (١) عرضت فيها مختلف الاراء فى الموضوع من حيث تحقيق المبدأ الإسلامى ؛ فالتقت آراء أكثر المحاضرين على رفض المشروع من الوجهة الدينية . غير أن فريقاً (منهم الكاتب المشهور المرحوم حفنى ناصف ، والزعيم السياسى الوطنى المرحوم عبد العزيز جاويش) أيدوا الفكرة معتمـدين على نص قرآنى فى دعوى أن الربا المحظور فى الإسلام بالنص والإجماع إنمـا هو الربا الذى يصل إلى مثل رأس المـال أو يزيد عليه ، وأن كل ربح ينقص عن مقدار رأس المـال فهو محل بحث واختلاف فى نظرهم .

— ٢ —

حقيقة حكم الربا فى الإسلام

أخذاً من المصادر الأولى للتشريع

هكذا نصل من طريق هذه النظرة التاريخية إلى صميم الموضوع القانونى .

ما حقيقة الأمر فى نظر الشريعة الإسلامية ؟ هل الإسلام يبيح الربا اليسير ؟

(١) كان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٦ هـ (سنة ١٩١٣ م) .

سأسرد على مسامعكم ، أيها السادة والسيدات ، نصوص الشريعة الإسلامية من منابعها الأولى ، تاركاً لكم أن تستخلصوا منها الجواب بأنفسكم .

(أ) القرآن :

ولقد يكون من المفيد فى صدر هذا البحث أن نذكر أنفسنا بطبيعة المنهج التعليمى فى القرآن ، حينما يكون بصدد محاربة بعض الرذائل التى تأصلت فى العرف العام ، والتى توارثتها الأجيال خلفا عن سلف ، فى أحقاب متطاولة .

ذلك أن القرآن فى معالجته لهذه الأمراض المزمنة لا يأخذها بالعنف والمفاجأة ، بل يتلطف فى السير بها إلى الصلاح على مراحل متريثة ، متصاعدة ، حتى يصل بها إلى الغاية .

كلنا نعرف ما كان منه فى شأن الخمر . وأنه لم يبطله بجرة قلم ، بل لم يحرمه تحريما كليا إلا فى المرحلة الرابعة من الوحى . أما المرحلة الأولى (التى نزلت فى مكة) فإنها رسمت الوجهة التى سيسير فيها التشريع . وأما المراحل الثلاث (التى نزلت بالمدينة) فكانت أشبه بسُلم : أولى درجاته بيانٌ مجرد لآثار الخمر ، وأن إثمه أكبر من نفعه ، والدرجة الثانية تحريم جزئى له ، والثالثة تحريمه التحريم الكلى القاطع .

فهل يطيب لكم أن تدرسوا معى المنهج التدريجى الذى سلكه القرآن فى مسألة الربا ؟ .

إنه لمن جليل الفائدة أن نتابع هذا السير لنرى انطباقه التام على مسلكه فى شأن الخمر ، لا فى عدد مراحله فحسب ، بل حتى فى أماكن نزول الوحى ، وفى الطابع الذى تتسم به كل مرحلة منها .

نعم ، فقد تناول القرآن حديث الربا فى أربعة مواضع أيضا ، وكان أول موضع منها وحياً مكياً والثلاثة الباقية مدنية ، وكان كل واحد من هذه التشريعات الأربعة متشابهاً تمام المشابهة لمقابله فى حديث الخمر .

فنى الآية المكية يقول الله جلت حكمته : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » (سورة ٣٠ — آية ٣٩) هذه كما ترون موعظة سلبية : إن الربا لا ثواب له عند الله . نعم ، ولكنه لم يقل إن الله ادخر لآكله عقابا . وهذا بالضبط نظير صنيعه فى آية الخمر المكية (١٦ / ٦٧) حيث أومأ برفق إلى أن ما يتخذ سَكَراً ليس من الرزق الحسن ، دون أن يقول إنه رجس واجب الاجتناب ، ومع ذلك فإن هذا التفريق فى الأسلوب كان كافيا وحده فى إيقاظ النفوس الحية . وتنبيهها إلى الجهة التى سيقع عليها اختيار المشرع الحكيم .

أما الموضع الثانى فكان درسا وعبرة قصَّها علينا القرآن من سيرة اليهود الذين حرم عليهم الربا فأكلوه وعاقبهم الله بمعصيتهم ، وواضح أن هذه العبرة لا تقع موقعها إلا إذا كان من ورائها ضرب من تحريم الربا على المسلمين ، ولكنه حتى الان تحريم بالتلويح والتعريض لا بالنص الصريح . ومهما يكن من أمر فإن هذا الأسلوب كان من شأنه أن يدع المسلمين فى موقف ترقب وانتظار لنهى يوجه إليهم قصداً فى هذا الشأن ؛ نظير ماوقع بعد المرحلة الثانية فى الخمر (٢/٢١٩) حيث استشرفت النفوس إذ ذاك إلى ورود نهى صريح فيه ؛ وقد جاء هذا النهى بالفعل فى المرحلة الثالثة ولكنه لم يكن إلا نهيا جزئيا : فى أوقات الصلوات (٤/٤٣).

وكذلك لم يجىء النهى الصريح عن الربا إلا فى المرتبة الثالثة ، وكذلك لم يكن إلا نهيا جزئيا ، عن الربا الفاحش : الربا الذى يتزايد حتى يصير « أضعافا مضاعفة » (١) (٣ / ١٣٠) .

وأخيراً وردت الحلقة الرابعة التى ختم بها التشريع فى الربا (بل ختم بها التشريع القرآنى كله على ما صح عن ابن عباس) وفيها النهى الحاسم عن كل ما يزيد عن رأس مال الدَّين حيث يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا

---

(١) هذا هو النص الذى اعتمد عليه أصحاب نظرية الرخصة فى الربا اليسير ، وسنرى تفسيره قريبا .

ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون . واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (٢ / ٢٧٨ — ٢٨١) .

هذه أيها السادة والسيدات نصوص التشريع القرآنى فى الربا مرتبة على حسب تسلسلها التاريخى .

وإنكم لترون الآن أن الفئة التى تزعم أن الإسلام يفرق بين الربا الفاحش وغيره (وهى فئة من المتعلمين الذين ليس لهم رسوخ قدم فى علوم القرآن) لم تكتف بأنها خالفت إجماع علماء المسلمين فى كل العصور ، ولا بأنها عكست الوضع المنطقى المعقول حيث جعلت التشريع الإسلامى بعد أن تقدم إلى نهاية الطريق فى إتمام مكارم الأخلاق يرجع على أعقابه ويتدلى إلى وضع غير كريم ؛ بل إنها قلبت الوضع التاريخى ، إذ اعتبرت النص الثالث مرحلة نهائية ، بينما هو لم يكن إلا خطوة انتقالية فى التشريع : لم يختلف فى ذلك محدث ولا مفسر ولا فقيه .

على أننا لو فرضنا المحال ووقفنا معهم عند هذا النص الثالث فهل نجد فيه ربحا لقضيتهم فى التفرقة بين الربا الذى يقل عن رأس المال ، والربا الذى يزيد عليه أو يساويه . ؟

كلا ، فإنه قبل كل شىء لا دليل فى الآية على أن كلمة الأضعاف شرط لابد منه فى التحريم ، إذ من الجائز أن يكون ذلك عناية بذم نوع من الربا الفاحش الذى بلغ مبلغا فاضحاً فى الشذوذ عن المعاملات الإنسانية ، من غير قصد إلى تسويغ الأحوال المسكوت عنها التى تقل عنه فى هذا الشذوذ . ومن جهة أخرى فإن قواعد العربية تجعل كلمة « أضعافا » فى الآية وصفا للربا لا لرأس المال كما قد يفهم من تفسير هؤلاء الباحثين . ولو كان الأمر كما زعموا لكان القرآن لا يحرم من

الربا إلا ما بلغ ٦٠٠ ٪ (١) من رأس المال . بينما لو طبقنا القاعدة العربية على وجهها لتغير المعنى تغيراً تاما ، بحيث لو افترضنا ربحا قدره واحد فى الألف أو المليون لصار بذلك عملا محظورا غير مشروع بمقتضى النص الذى يتمسكون به .

أما القول بأن العرب قبل الإسلام لم يكونوا يعرفون إلا الربا الفاحش الذى يساوى رأس المال أو يزيد عليه فإنه لا يصح إلا إذا أغمضنا أعيننا عما لا يحصى من الشواهد التى نقلها أقدم المفسرين وأجدرهم بالثقة . ولقد كان الشعب العبرانى - الذى يعيش والشعب العربى فى صلة دائمة منذ القدم - يفهم من كلمة الربا كل زيادة على رأس المال . قلت أو كثرت . وهذا هو المعنى الحقيق والاشتقاق للكلمة ، أما تخصيصها بالربا الفاحش فهو اصطلاح أوربى حادث ، يعرف ذلك كل مطلع على تاريخ التشريع .

وبعد فإننا لا نستطيع أن نطيل الوقوف عند هذا النص الانتقالى ، لأن الذى يعنى رجل القانون فى تطبيق الشرائع إنما هو دورها الأخير . وقد بينا أن الدور الأخير فى موضوعنا إنما تمثله الآيات التى تلوناها آنفاً من سورة البقرة . كما رأينا أن الشريعة القرآنية تتجه كلها منذ البداية إلى استنكار كل تعويض يطلب من المقترض . أفلا يكون من التناقض أن هذه الشريعة التى تضع الإحسان إلى الفقير فى أبرز موضع من قانونها والتى تحث على إنظار المعسر ، أو على ترك الدّين له ، تعود فتأخذ منه بالشمال ما منعته باليمين ، إذ تأذن للغنى بأن يطالبه ببعض الزيادة على الدين ؟

---

(١) ذلك لأن الربا الذى يكون أضعاف رأس المال [بصيغة الجمع] لا بد أن يصل إلى ثلاثة أمثال رأس المال ، فإذا ضوعفت هذه الأضعاف الثلاثة كان ستة أمثاله ، وذلك مالم نره فى معاملة أجشع المرابين ، ولم نسمع به فى تشريع سابق ولا لاحق ، فيكون القرآن على رأيهم متخلفا عن جميع القوانين فى هذا الشأن .

(ب) السنة :

إلى جانب هذه النصوص القرآنية . نجد فى بيان السنة النبوية ما هو أكثر تفصيلا وأشد صرامة ، فإن الرسول صلوات الله عليه لم يكتف بتحريم الربا على آكله كما ورد فى القرآن الكريم ، ولم يكتف بجعل المعطى والآخذ والكاتب والشاهد سواء فى اللعن والإجرام ، بل إنه أحاط هذه الجريمة بنطاق من الذرائع والملابسات جعلها حمى محرما تحريم الوسائل الممهدة إلى الحرمة الأصلية .

والطريف فى أمر هذه الإضافة أنه جعل التحريم فيها على مراتب متفاوتة فى تدرج حكيم يتنقل من الحظر الكلى إلى الإباحة التامة رويداً رويدا ماراً بكل المراتب المتوسطة بينهما .

هذه القاعدة الجديدة ليس موضوعها القروض ، ولا الديون المتقررة ، بل عقود البيع أو بالأحرى المقايضات ، فبعض هذه المقايضات حظر الرسول الحكيم أن تكون مؤجلة ، ولو بدون ربح ؛ وأن يؤخذ فيها ربح (١) ولو كانت يداً بيد . وبعضها منع التأجيل فيها دون التفاضل ؛ وبعضها لم يمنع فيها واحداً منهما .

وإليكم نص التشريع المذكور فى شأن المقايضات .

يقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى ومسلم وغيرهما : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، (٢) والقمح بالقمح ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، يداً بيد ، سواء بسواء . فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » .

---

(١) هذا المحظور [الذى يسميه جمهور الفقهاء ربا الفضل ، ويسميه ابن القيم الربا الخفى] كان موضع اختلاف بين الصحابة وكان جمهورهم على القول بحرمته . أما بعض الباحثين العصريين الذين ظنوا أن هذا الاختلاف كان فى شأن الربا القليل فقد انتقل نظرهم والتبس عليهم الأمر التباساً يؤسف له .

(٢) وفى رواية أخرى : « الدرهم بالدرهم والدينار بالدينار الخ » ويلوح أن هذه الرواية هى التى اعتمد عليها معاوية فى فتواه ، أنظر الحاشية الآتية قريبا .

وقف أهل الظاهر بهذا الحظر عند الأنواع الواردة فى الحديث . وذهبت سائر المدارس الفقهية إلى اعتبار هذه الأنواع أمثلة من قاعدة عامة تنطبق على سائر المواد التى تقوم عليها الحياة والتى مردها ـ فى الرأى الراجح عند الفقهاء ـ إلى نوعين : الأثمان والمطعومات .

ومهما يكن من أمر فى شأن هذا الاختلاف الفرعى، فإن هذه القاعدة تقضى بتقسيم الأشياء التى يراد تبادلها إلى ثلاثة أضرب : « الضرب الأول » أن يكون البدلان من نوع واحد ، كالذهب بالذهب ؛ فها هنا يخضع التبادل لشرطين اثنين : التساوى فى الكم ، والفورية فى التبادل ، أعنى عدم تأجيل شىء من البدلين . « الضرب الثانى » أن يكونا من نوعين مختلفين من جنس واحد ، كالذهب بالفضة وكالقمح بالشعير ؛ فهنا يشترط شرط واحد ، وهو الفورية ، فلا يضر اختلاف الكم . « الضرب الثالث » أن يكونا من جنسين مختلفين كالفضة والطعام ، فلا يشترط فى هذا شىء من القيدين المذكورين . بل يكون التقابض فيهما حراً .

هكذا كلما كان البدلان من طبيعتين مختلفتين تمام الاختلاف ، بحيث لا توجد شبهة القصد إلى القرض بفائدة ، فإن الشريعة لا تضع أمام حرية التبادل حداً من الحدود ، اللهم إلا المبدأ العام فى المعاملة ، وهو تحرى الصدق والأمانة . فإذا ما أخذت طبيعة البدلين تتقارب ، بدون أن تتحد ، نرى عند المشرّع شيئاً من الحذر المعقول ، المبنى على احتمال أن يكون المتعاملان يقصدان إلى معاملة ربوية ؛ ولذلك نجده مع ترخيصه لهما بتفاوت البدلين فى الكم يحظر عليهما تأجيل أحد العوضين ، سدّاً للطريق أمام فكرة القرض المحرم تحت ستار البيع . أما إذ اتحدت طبيعة البدلين (مع التفاوت فى الأوصاف والقيم طبعاً ، وإلا لما كان هناك معنى للتبادل) فإنه من السهل أن نفهم الحكمة التى من أجلها منع تأجيل البدل ، وذلك أن من شأن هذا التأجيل أن يحمل فى طيه فكرة محظورة ، وأن يكون القصد هو القرض باسم البيع .

ولكن الذى يصعب فهمه هنا هو إلزام المتبادلين فى حال الدفع على الفور

بأن تتساوى الكميتان المتبادلتان بينهما . فهل معنى ذلك أن الشريعة تتجاهل إلى هذا الحد فروق الكيفيات التى فى كل من العوضين ؟ .

إن الجواب على هذا السؤال نجد مفتاحه فى الحديث الذى رواه مسلم فى جامعه الصحيح . يروى لنا هذا الإمام أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء من التمر . فقال له النبى : « ما هذا من تمرنا » فقال الرجل : يا رسول الله بعنا تمرنا : صاعين بصاع . فقال صلى الله عليه وسلم : « ذلك الربا . رُدُّوه ، ثم بيعوا تمرنا . ثم اشتروا لنا من هذا » .

ها هنا نلمح الهدف الذى ترمى إليه القاعدة ، ونطمئن إلى أنه ليس من شأنها أن تفرض على المتبادلين ـ اعتباطا أو تعنتا ـ تساوى الكمية بين صنفين مختلفين من نوع واحد ، بل أنها على العكس من ذلك فتحت لهما باب الاختيار بين أمرين يمتنع معهما كل قهر وإلزام ؛ حيث خيرتهما بين أن يتغاضيا عن الفروق الطفيفة التى بين الصنفين ، أو أن يلجآ فى تقدير تلك الفروق إلى حكم القيمة النقدية .

ونحن إذا تأملنا فى هذا الوضع نجده ينطوى على حكمة عميقة ويقوم على مبدأ سليم من مبادىء التشريعين المدنى والاقتصادى . ذلك أنه حيث يكون هناك كميتان متساويتان من نوع واحد ولكن إحداهما تمتاز بجودة أوصافها ، لا يكون هناك مجال للتردد : أى المتبايعين أوفر حظا ؟ فالذى يقبل الصنف الأقل جودة يقبله بملء حريته عن سماحة نفس وكرم طبع ، وهو عالم بما يفعل . وليس الأمر كذلك فى الحال التى تكون فيها الجودة من ناحية يقابلها وفرة فى الكم من الناحية الأخرى ؛ إذ نرى ها هنا تقابلا بين أمرين ليس بين طبيعتيهما مقياس مشترك ثابت صالح لتقويم كل منهما بالنسبة إلى هذا الحد المشترك ، ثم بالنسبة إلى الطرف القابل والواقع أنه فى هذا النوع من التبادل يلجأ كل من المتعاملين فى نفسه إلى فكرة غامضة ، وهى إرادة التضحية بما هو أدنى فى سبيل ما هو خير منه . وهكذا يصبح قبولهما الظاهرى للصفقة قبولا زائفا ، وقد ينكشف عن خيبة أمل ، ولا مخرج من هذا اللبس إلا بالرجوع الى القيمة الثمنية لكل بضاعة على حدة ، ثم الى

المقارنة بينهما على ضوء هـــذا المقياس الثابت . وهذا (الرجوع الى المقياس الثابت) هو المعنى الذى قصد التشريع الإسلامى إبرازه حتى يكون كل من طرفى العقد على بينة فى معاملته المالية ، وحتى يجتنبا التدليس ويتطهرا من السحت المأخوذ بالحيلة والمكر .

فإذا صح ما ذهبنا إليه فى تفهم مقاصد الشريعة من هذا الحكم لم يبق هنـاك حرج قط ـ كما أوضحه ابن القيم (١) فى أعلام الموقعين ج ٢ ص ٢٧٣ ـ فى أن تباع المصوغات الذهبية بأكثر من وزنها ذهبا ، أو المصوغات الفضية بأكثر من وزنها فضة ، ذلك لأن قيمة الصنعة قد قدرت هنا بمعيارها الواضح المحدد ، الذى لا يدع مجالا لتزييف تراضى المتبايعين .

على أن هذه الرخصة فى المبادلة بين الصياغة والنقـد لا ينبغى أن تسرى على التبادل بين نقدين من نوع واحد مع اختلافهما فى الأوصاف ؛ بل الاعتماد فى النقدين على تساوى العوضين وزنا (بدون اعتبـــار لجمال الضرب أو جدته أو عدد قطعه أو غير ذلك) هو الحل العادل ، أو هو أعدل الحلول ؛ إذ لو اعتبرت هذه الصفات ونحوها فى النقود مبررة لزيادة قيمتها فى المبـادلة ، إذاً لأصبحت النقود نفسها بضاعة ، وصارت معرضاً للمضاربة وتقلب الأسواق ، وعادت محتاجة إلى معيار آخر لتقدير قيمتها ، بدل أن تكون هى المعيار لغيرها .

ولـكى نلخص فكرتنا عن القواعد التى وضعها التشريع النبوى فى باب التبادل والتقايض ، نقول : إن هذه القواعد تهدف إلى غرض مزدوج :

فهى من إحدى الجهتين تريد أن تحمى النقود والأطعمة ، وهما أهم حاجات

---

(١) سلفه فى هذه الفتوى معاوية بن أبى سفيان ، ويخالفه فيها عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وأبو الدرداء ، راجع الموطأ فى كتاب البيوع ، باب بيع الذهب والفضة ، ويرى ابن القيم أن هذا الاختلاف إنما هو فى الصياغة المحرمة كصياغة الآنية ، وعلى هذا تـكون الصياغة المباحة محل اتفاق على جواز الفضل فيها نقداً .

الجماعة وأعظم مقومات حياتها ، وذلك بمنع وسائل احتكارها أو إخفائهما من الأسواق ، أو تعريضهما للتقلبات الثمينة المفاجئة .

وهى من الجهة الأخرى تحرص على حماية الفقراء والأغرار من طرق الغبن والاستغلال التى يتبعها بعض التجار الجشعين .

وواضح أن تسمية الربح المجتلب من طريق هذا التبادل الذى تنقصه الصراحة والأمانة باسم « الربا » إنما هى تسمية مجازية قصد منها إلى إبراز ما فيه من مخالفة لقانون الأخلاق ، ومجافاة لقواعد الرحمة الإنسانية . وذلك بتشبيهه بالربا الحقيق الذى هو مثل فى السحت وأكل المال بالباطل .

— ٤ —

وجاهة التشريع القرآنى

من النواحى الثلاث : الأخلاقية ، والاجتماعية ، والاقتصادية

ونعود الآن إلى موضوعنا الأصلى ، وهو الربا الحقيق ، لنعالج فيه الجواب عن سؤالين مهمين :

« أحدهما » : ما هى الأسباب المعقولة لهذا التحريم الصارم للمعاملة الربوية ؟

« الثانى » : هل الحياة الاقتصادية فى حالتها الحاضرة تعد ظرفا استثنائيا يترخص فيه بمخالفة هذا القانون ؟

أما مسألة معقولية النهى أو عدم معقوليته ، فإنها قد أثيرت فى عهد النبوة على لسان العرب أنفسهم فقد استنكروا هذه التفرقة بين البيع والربا قائلين : إذا أنتم منعتم ربح القرض ، فامنعوا كذلك كل ربح يجتلب من طريق البيع ، إذ هما سواء .
وكان رد القرآن على ذلك بتلك الكلمة الحاسمة ، التى لا تقبل مراء ولا جدالا : كلا ، ليس البيع مثل الربا ؛ فقد « أحل الله البيع وحرم الربا » (٢/٢٧٥) على أنه لا يمكن أن يفهم من هذا الأسلوب أن أمر التشريع هنا يصدر عن إرادة جبروتيه تقضى أحكامها تحكماً وتعنتا ؛ فقد علمنا القرآن فى غير موضع أن الأوامر

الإلهية أنزه شيء عن هذا الحرج والعنت : « قل إنما حرم ربى الفواحش » . (٧/٣٣)
« قل أحل لكم الطيبات » (٥/٤) « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (٥ / ٦) .

يجب إذن أن تكون لهذا النهى دعائم قوية وأسباب معقولة تجعله فى محزه من الصواب والحكمة . فما تلك الدعائم ؟

١ — الدعامة الأخلاقية :

أول ما يكشفه الباحث من أسرار التشريع فى هذا الباب هو بواعثه الأدبية الخلقية .
إن الضمير الإنسانى ليدرك بنوع من الحدس المباشر مدى الفرق بين الربح من طريق المعاملة (البيع) والربح من طريق المجاملة (القرض) . إنه ليدرك ذلك ويحسّه حتى فى الوقت الذى لا يستطيع فيه التعبير عن هذا الفرق . فإن لم ندركه فى آن ما فإنما هى غشاوة الهوى وحب الأثرة ، أو الغفلة وعدم التدبر ، هى التى تخفيه عن أعيننا ، على أن الأمر يبلغ من الوضوح حداً تحسه كل الضمائر والوجدانات فى عملية « الإعارة » (للأشياء التى تُرَدّ بأنفسها إلى معيرها) .
أليس كل واحد منا يستنكف حقيقة من أن يطالب بتعويض مالى عن ماعون يعيره لمن يحتاج اليه ، أو عن مساعدة أدبية كائنة ما كانت يقدمها لغيره ، عملا بقواعد حسن الجوار وأدب الاجتماع ؟ فلماذا يختلف النظر فى الأمر حينما تكون المعاونة على وجه « القرض » (للأشياء التى يمكن أن ترد بمثلها) ؟ مع أن الشأن فى الحالين واحد ، وهو أنهما يختلفان عن البيع اختلافا جوهريا ؛ ذلك أن الأمر البيع يتعلق بمالين مختلفين لكل منهما قيمته التى قد تزيد أو تنقص عن قيمة الآخر إما بسبب اختلاف الرغبات ، وإما بحسب قانون العرض والطلب ، بينما المقصود فى القرض كما فى الإعارة هو استرداد الشىء نفسه ، إما بعينه أو بشىء مماثل له تماما من جنسه فليس ها هنا أدنى قصد للمبادلة بين مالين ؛ ولذلك ليس للمقرض أن يرفض قبول شيئه نفسه إذا أعاده له المقترض عند الأجل بحالته التى تسلمه عليها .

سيقول قائل : سلمنا بوجود هذا الفرق الجوهرى بين الوضعين ، ولكن أليس كل صنيعٍ جميلٍ له حق ، فى المكافأة ؟ .

نقول : بلى ! ولكن لا ينبغى أن يلتبس علينا الأمر بين سلطان « الحق » وسلطان « الواجب » إن سلطان الواجب أعلى : وإن له لحقا فى معارضة حقوقنا الطبيعية وفى تحديد مداها . وأى شىء أدخل فى باب الحقوق الطبيعية من حقنا فى المحافظة على حياتنا ؟ ومع ذلك فإن الواجب قد يفرض علينا أن نتنازل عن هذا الحق وأن نضحى بأنفسنا تضحية تامة فى سبيل قضية نبيلة : أدبية أو وطنية أو دينية أو غيرها.

سيمضى السائل فى اعتراضه قائلا : إن هذه كلها اعتبارات أخلاقية ، وقضيتنا قضية حق وقانون .

أما أنا فأجيب بأن كل مشرّع له الحق كل الحق فى أن يجعل من القانون الأخلاقى قانونا مدنيا ، بل قانونا جنائيا إن شاء . وهذا بالضبط هو ما صنعه القرآن حين أعان حربا حقيقية على آكلى الربا .

٢ — الدعامة الاجتماعية :

ولو أننا نظرنا الى القضية من ناحيتها الاجتماعية لظهرت لنا حكمة هذا التشريع وسداده فى أجلى مظاهرهما .

لا أقول فقط إن حياة المجتمع تصبح حياة لا تطاق لو أن كل فرد تمسك بحقه فى أدق حدوده ، ولم يجعل على نفسه سلطانا لفكرة البر والتعاون والتضامن والتراحم ؛ بل أقول إن مجرد تقرير ربح مضمون لرب المال ، بدون أن يكون فى مقابل ذلك ضمان ربح للمقترض — أقول إن هذا الوضع وحده فيه ما فيه من محاباة للمال ، وإيثار له على العمل ؛ وإن الضرر الذى ينجم عن ذلك ليس من نوع الأضرار الأدبية أو الأغلاط النظرية فحسب . (وأعنى بها قلب موازين الأشياء بوضع القيم الإنسانية موضعا نازلا وتفضيل القيم المادية عليها) ؛ بل إنه يمس بناء الجماعة مسا عنيفا عميقا ، ذلك أننا بهذه الوسيلة نزيد فى توسيع المسافة وتعميق الهوة بين طبقات الشعب بتحويل مجرى الثروة وتوجيهها إلى جهة واحدة معينة ، بدلا من أن نشجع المساواة فى الفرص بين الجميع ، وأن نقارب بين مستوى الأمة حتى يكون أميل الى التجانس وأقرب إلى الوحدة .

إن اللمحة البارزة فى التشريع القرآنى ، وكذلك فى كل تشريع اجتماعى جدير بهذا الإسم ، هى الحيلولة دون هذه المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح والسعى لتحقيق نوع من التجانس والمساواة بين أفراد الأمة .

إنها لكلمات قصيرة ولكنها ذات مدى بعيد ، تلك التى يرسم فيها القرآن دستور هذه السياسة ، حيث يقول : « . . . كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

٣ — الدعامة الاقتصادية :

وأخيراً هلم بنا لننظر الى القضية من وجهة العدالة الاقتصادية البحتة .

يقول لنا أنصار مشروعية الربا — ولهم بعض الحق فيما يقولون — : إن الربح الذى يحصل عليه المقترض من عمله فى المال الذى اقترضه انما ينشأ وايداً من التزاوج بين العمل ورأس المال ؛ فكيف تخولون للعمل حقا فى الربح ولا تخولون للمال حقه فيه ، مع أنه زوجه وشريكه فى هذا النتاج ؟ .

ها هو ذا — فيما أرى — جواب هذه الشبهة :

أما أن الربح ليس ثمرة عنصر واحد بل ثمرة عنصرين متزاوجين فذلك حق لا شبهة فيه ، وليس لنا أن نتلكأ فى قبوله . غير أن المعارضين قد فاتهم شىء جوهرى ، وهو أنه بمجرد عقد القرض أصبح العمل ورأس المال فى يد شخص واحد ، ولم يبق للمقرض علاقة ما بذلك المال ، بل صار المقترض هو الذى يتولى تدبيره تحت مسئوليته التامة ، لربحه أو لخسره . حتى إن المال إذا هلك أو تلف فإنما يهلك أو يتلف على ملكه . فإذا أصررنا على إشراك المقرض فى الربح الناشىء وجب علينا فى الوقت نفسه أن نشركه فى الخسارة النازلة ؛ إذ كل حق يقابله واجب أو كما تقول الحكمة النبوية : « الخراج بالضمان » . أما أن نجعل الميزان يتحرك من جانب واحد فذلك معاندة للطبيعة . . . ومتى قبلنا إشتراك رب المال فى الربح والخسر معا انتقلت المسألة من موضوع القرض إلى صورة معاملة أخرى ، وهى الشركة التضامنية الحقيقية بين رأس المال والعمل . وهذه الشركة لم يغفلها القانون الإسلامى . بل أساغها ونظمها تحت عنوان « المضاربة » أو « القراض » . غير أنه لكى يقبل رب المال الخضوع لهذا النوع من التعامل يجب أن يكون لديه من الشجاعة الأدبية ما يواجه به

المستقبل فى كل احتمالاته . وهذه فضيلة لا يملكها المرابون ؛ لأنهم يريدون ربحاً بغير مخاطرة ؛ وذلك هو ما يسمى تحريف قواعد الحياة ومحاولة تبديل نظمها .

هكذا إذا سرنا وفقاً للأصول والمبادىء الاقتصادية فى أدق حدودها كانت لنا الخيرة بين نظامين اثنين لاثالث لهما : فإما نظام يتضامن فيه رب المال والعامل فى الربح والخسر ؛ وإما نظام لا يشترك فيه معه فى ربح ولا خسر . ولا ثالث لهما إلا أن يكون تلفيقاً من الجور والمحاباة .

هذه - فيما أرى - هى الأسس الأدبية والاجتماعية والاقتصادية التى قامت عليها وجهة نظر الإسلام فى قضية الربا .

وأما المسألة الثانية وهى حكم الربا فى وقتنا هذا فإنها ليست قضية « مبدأ » وإنما هى قضية « تطبيق » وإنى أخشى أن أطيل فيها فأعتدى على موضوع زميلى وصديق الدكتور الدواليبى رئيس مجلس النواب السورى ، وهى فوق ذلك ليست فيما أرى من الشئون التى يقضى فيها فرد أو بضعة أفراد ، بل ينبغى أن يتداعى لها طوائف من الخبراء فى القانون والسياسة والاقتصاد من كل جانب ، وأن يدرسوها دراسة دقيقة مستفيضة من جميع نواحيها الحاضرة والمستقبلة .

وكل ما أريد أن أقوله الآن يتلخص فى جملتين صغيرتين ، أرجو أن يتخذا أساساً للبحث فى التفاصيل .

« الأولى » هى أن الإسلام قد وضع الى جانب كل قانون ، بل فوق كل قانون قانوناً أعلى يقوم على الضرورة التى تبيح كل محظور « وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم إليه » (١١٩/٦) .

« الثانية » هى أنه لأجل أن يكون تطبيق قانون الضرورة على مسألة ما تطبيقا مشروعا لا يكفى أن يكون المرء عالما بقواعد الشريعة ، بل يجب أن يكون له من الورع والتقوى ، ما يحجزه عن التوسع أو عن التسرع فى تطبيق الرخصة على غير موضعها ، كما يجب أن يبدأ باستنفاد كل الحلول الممكنة المشروعة فى الإسلام ؛ فإنه ان فعل ذلك عسى ألا يجد حاجة للترخص ولا للاستثناء ، كما هى سنة الله فى أهل العزائم من المؤمنين . « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » (٦٥ / ٢ — ٣) ؟

الاحتراف بالقيم

لحضرة الدكتور محمد البهى
أستاذ الفلسفة بكلية اللغة العربية

قيم الحياة هى المعانى الخالدة التى تقدر لذاتها فى هذا الوجود الإنسانى ، هى الحقائق التى لا تتغير بنظرة الإنسان الفرد أو بنظرة جملة من الأفراد إليها ، قوّمها العقل الإنسانى العام ، وجعلها نهايات أو أهدافاً تُطلب ، ولم يرها وسائل لنهايات أو أهداف أخرى : فالمعرفة ، والدين ، والوطنية ، والسياسة أو فن الحكم ... مثلا من قيم هذه الحياة ، والوضع الصحيح إزاءها وإزاء بقية القيم أن لا تستخدم لغايات شخصية ، وأن يكون سعى الإنسان إليها سعياً مباشراً ينتهى عندها ويتركز فيها .

القيم أشبه بالمُثُل : من عرفها كما هى تصرّف فى سلوكه الشخصى بما يبعده عن أن يكون شخصاً تتحكم فيه ميوله و « إنّيته » الخاصة ، وبدا كأنه الإنسان « العام » الذى لا تحده الفروق الفردية . بدا كأنه رسالة للإنسانية كلها . وهو عندئذ فى واقع أمره هذه الرسالة على حقيقتها ، لأنه عرف القيم العامة فى حياة الإنسان ، ثم حَمَلها ، فيُصدر عنها فى أفعاله . والقيم ليست أهواءً تتجدد وتتغير ، وليست مقدمات يُسلم بعضها للتالى بعده وتتعاقب الواحدة إثر الأخرى فى سبيل لأمر ما . هى - كما سبق - النهايات والأهداف الأخيرة فى وجود الإنسان . ولذا هى باقية ثابتة ، ولذا كانت تمثل الأمر « العام » الذى تلتقى فيه مصالح الأفراد والأجيال والشعوب ، وبالتالى يلتقى فيها اعتبار هذه الأفراد والأجيال والشعوب .

١ — ولهذا ليس الفيلسوف هو صاحب المعرفة والناطق بالحكمة ؛ بل هو الذى يعشق المعرفة ، ويرى متعته الدائمة فى الحكمة ، فعشقه المعرفة يدفعه لأن يعيش من أجلها وفى سبيلها ، وإذا عاش من أجلها وفى سبيلها تحرى الحقيقة وكشف عنها ، وبعبارة أخرى قصد بمعرفته السعى إلى قيم الوجود . وسيصل إليها لأنه حينئذ فى منأى عن عوامل الانحراف فى إدراكها ، وهذه العوامل لا تتجاوز ربط العقل الإنسانى فى عملية التوجه الفكرى بالغايات القريبة فى محيط الفرد ، وهى الغايات الشخصية أو الفردية ، أو هى التى تسمى بالأهواء والشهوات .

والفيلسوف أو العاشق للمعرفة . لايتحرى فى معرفته حقيقة الوجود أو قيمه فحسب بل يمثل مع ذلك الإنسان « العادل » أو الإنسان « العام » فى السلوك والتصرفات . والإنسان العادل هو الذى يزن ويقدر ويعدل فى وزنه وتقديره ، وذلك أيضاً شأن الإنسان العام وهو الذى يرعى فى أحكامه الاعتبارات العامة ، دون أن يتأثر بالجانب الشخصى فى الحكم والتقدير .

وهو لهذا كما ينعت بمحب الحكمة يوصف أيضاً بأنه صاحب سلوك أخلاقى . ولأنه فى سعيه ، وفهمه ، وسلوكه على هذا النحو طُلب فى فترة من الزمن لتكوين « مدينة فاضلة » أن يكون على رأسها فيلسوف .

٢ — ورجل الدين كذلك ليس هو الذى يحافظ على شعائر العبادة ، وليس هو أيضاً صاحب الفتوى فى أمور العقيدة ؛ إنما هو المؤمن بما ارتضاه لنفسه دينا ؛ إذ عندئذ يكون قد وصل إلى الدين كإحدى قيم هذا الوجود الإنسانى ، وأدرك أنه فى نفسه غاية ، وينبىء عن إيمانه يسر التضحية فى سبيل ما آمن به من دين وعقيدة ، سواء أكان بنفسه أم بماله وولده ، فالتضحية على هذا النحو ضرب من ضروب السلوك الخارجى للإنسان ، الذى يدل دلالة واضحة على أن هذا الإنسان لم يجعل ذاته ولا دنياه هدفا أخيرا فى حياته ؛ بل على العكس جعل الدين هو الغاية النهائية ، وذلك هو نفسه الاعتراف بأن الدين قيمة من قيم هذا الوجود يُطلب لذاته ، ولا يكون وسيلة أو مقدمة لشىء آخر بعده .

والإيثار فى دائرة المشاركة للغير نوع من أنواع التضحية التى هى أمارة تقويم الدين لذاته ، إذ كلما أبعد المتدين فى تصرفاته منافعه الفردية ، وغاياته الخاصة وضحت صلته بالدين على أنه مؤمن به وبالتالى على أنه معتبر لهذا الدين كفاية فى نفسه يطلب ويتمتع به ، والمثل الأعلى للمؤمن حينئذ هو من يعبد ربه لا لرجاء نفع شخصى عاجل أو آجل منه ، ولا لدفع ضر عاجل أو آجل اعتقد إمكان صدوره عنه .

وصاحب الرسالة الدينية - من وجهة النظر الإنسانى - أدرك من غير شك قيمة الدين الذاتية ، وآمن بأن الدين فى نفسه هدف وغاية عليا ليس بعدها غاية أخرى ، ولأنه مؤمن بدينه على هذا النحو ينعكس إيمانه به من جديد على تصرفاته : فهو يلغى اعتبار المتع الشخصية ، وعلائق القربى فى الأسرة ، وتراث الماضى مما لم تزل تحرص على بقائه الجماعة ، ويتحمل مرارة الخصومة ، ويستعذب الآلام النفسية والجسدية ، كل ذلك فى سبيل التبشير بالدعوة إلى دينه ، وصبره على دعوته إلى ما آمن به مظهر القوة فى إيمانه . وكلما طال صبره كلما اتضحت قوة إيمانه ، واتضح معها تقويمه للدين كهدف لا وسيلة .

٣ — والوطنى هو ذلك الذى اعتبر الوطنية غاية فى ذاتها : يسعى إليها ليحصلها ويرى سعادته فى تحصيلها ، لا ينظر إليها كوسيلة لغاية ؛ بل يجعل ما عداها - حتى ذاته - وسيلة لها ، والوطنية كالعقيدة ، والوطنى شبيه بالمعتقد ، كلاهما مؤمن : هذا بعقيدته وذاك بوطنه ، مظهر إيمان كل منهما التضحية ، والزعيم فى الوطنية يشبه صاحب الرسالة الدينية ، تخف فى نفسه - أو تلغى - اعتبارات الحياة بالقياس إلى اعتبار الوطنية ، لذته العليا الفناء فى وطنه ، على نحو ما يراه المتدين الكامل فى « التجرد » .

٤ — والسياسى ليس هو من يفهم أصول الحكم ، ويلم بقواعد السياسة النظرية ؛ بل الذى يرى تدبير شئون الأفراد هدفا ذا قيمة ذاتية ، لا وسيلة لغاية قريبة ، هو الذى يدرك متعته فى أن يرعى أمور الناس بالعدل ، ويحقق لهم حياة مطمئنة ، ودليل تقويمه السياسة وفن الحكم تقويماً ذاتياً أن تسيطر عليه روح الجماعة ، وتهون عليه بالتالى مظاهره الفردية وصلاته الشخصية .

والحكومة الصالحة إذن هى التى تكون وليدة الشعور بالقيمة لفن الحكم . وأمارتها كذلك أن يكون نفعها للكل ، لا لطائفة معينة ، ولا لأفراد معينين ، تُصدر عن عقلٍ جماعى ، وتتوخى فى حكمها الصالح العام .

... وهكذا بقية قيم الحياة : هى أمور أو معانٍ تقصد ، وليست وسائل تستخدم لأهداف أخرى قريبة ، والهدف القريب ما كان بعده هدف آخر ، فهو ليس غاية أخيرة ، ولذا لاينتهى إليه سعى الإنسان ، وإذا لم ينته إليه سعى الإنسان فهو وسيلة ، قيمته فى أن يتوسل به إلى ما بعده ، أما المطلوب الذى يقوم لذاته ، فهو آخر مطلوب فى الوجود ، ولذا لا يكون أبداً وسيلة لغيره . هو ما نعبر عنه بـ « القيم » . ولأن القيم آخر مطلوب فى الوجود كانت بعيدة عن أهواء النفس الفردية وشهواتها ، وبالتالى كانت منطوية على معنى الخلود فى الحياة الإنسانية .

هناك اذن قيم فى الحياة ، وهناك إذن مدركون لهذه القيم وممثلون لها ، لكن هناك أيضاً فى جانب آخر محترفون بهذه القيم : هناك من ينتسب إلى العلم والمعرفة وهو محترف بها ، وهناك من ينتسب إلى الدين وهو محترف به ، وهناك من ينتسب إلى الوطنية أو السياسة وهو محترف بالوطنية أو السياسة ، وهلم جرا ...

ومن يحترف بقيمةٍ ما لايجعلها طبعاً مطلباً لذاته ، ولا يرى لذته فى أن يعيش من أجلها وفى سبيلها ، بل يتخذها لأهدافه القريبة ، يتخذها طريقا لتحقيق مطالب « الذات » وهى مطالب الجسد والنفس الأمارة بالسوء ، أما مطالب العقل أو الحكمة فى الفرد الإنسانى فلا تعد من مطالب « ذات » الفرد ، لأن مطلوب العقل مطلوب « عام » فهو أقرب إلى مطلوب النفس « المطمئنة » أو هو نفس مطلوبها .

ومن يحترف بقيمة من هذه القيم يسخر فى واقع الأمر غاية سامية فى سبيل غرض قريب (دنىء) ويسعى باسم المعانى الكريمة الخالدة لتحصيل شهوات رخيصة ، عاجلة ، غير دائمة ، ويخدع جماعته ، وينافق الكثير من الناس ـ وربما لفترة طويلة ـ لإشباع نفسه بما تهوى وما ترغب فيه ، وما تهواه نفسه ليس إلا مظاهر الدنيا وزخرفها .

ثم المقابلة هنا فى عملية الاحتراف بالقيم ليست بين باق وزائل ، ورفيع ودنىء ، وإنما أيضاً بين قلة وكثرة : قلة تَخدع وكثرة تُخدع ، وقلة تنتفع وكثرة تضار ، وقلة تنظر إلى الفجيعة والاضطراب دون اكتراث ـ وهى الساعية إلى الفجيعة والاضطراب ـ وكثرة تفجع وتضطرب .

رجل ينتسب إلى المعرفة فيتجر بها لا هو باحث عن الحقيقة فى سعيه إلى المعرفة ، ولا هو متصرف طبق الحقيقة لأنه لم يدركها ، فعرفته ظن أو وهم ، وسلوكه مصدره هذا الوهم أو ذاك الظن ، معرفته أشبه بجهل ، وسلوكه أقرب إلى الانحراف عن الجادة ، ولكن خطره ليس فى جهله وسلوكه الفردى ؛ بل فى أن جهله لدى الناس علم ، وسلوكه عندهم عنوان على الاستقامة ، يتبعون جهله باسم العلم ويقلدونه فى السلوك باسم الأخلاق ، وهو فى جال تبعيتهم له وتقليدهم إياه رائد يصير بهم إلى حيث يهوى ويرغب ، ثم الذى يرغب فيه هو باعث علمه أو جهله على حد سواء .

إنسان يتصل بالدين فيحترف به لا هو صاحب هداية ، ولا حامل دعوة ، لأنه يصَرِّف ما لله ولرسوله فى سبيل الشيطان ، يحرف الكلم عن مواضعه ، وتحريف الكلم عن مواضعه تبديل فى فطرة الله ، وخطر المحترف بالدين ليس فى التحريف والتبديل ، بل فى أن من يسمعون لقوله باعتباره رجلا ينتسب للدين يعتقدون أنه بقوله رسم طريق الله ، وقلما تزايلهم هذه العقيدة ، فإن هم عملوا طبق ما اعتقدوا فعملهم فى الواقع ليس فى سبيل الله ، وإذا لم يكن فى سبيل الله فليس فى صالحهم ، لأن ما أراده الله لا بد أن يكون لصالح الناس ، إذ مفروض فى تصور « الله » أنه منزه عن الغرض الخاص .

وبقدر ما يبتعد المحترف بالدين فى تقويمه الدين لذاته ، بقدر ما يسىء إلى أتباعه ، وهو عندئذ يسىء إليهم من جهتين : من جهة إبعادهم عن الهداية والحق فى ذاته ، ومن جهة بقائهم فى تعصب على هذا الانحراف بدافع أنهم ذو عقيدة .

قوم يعتقدون باطلا على أنه الحق ثم يدافعون عن هذا الباطل ، وإنسان

يلوك بلسانه ما لم يؤمن به قلبه ، ويشترى بالرفيع الخالد فى الوجود ظلا زائلا فى دنياه ، ذلك هو حال رجل الدين الذى يحترف بدينه مع شيعته ومريديه .

وإنسان يتحدث عن الوطنية دون أن يكون وطنيا هو مستغل كذلك لهذه القيمة الرفيعة ، ومتوسل بها إلى تحقيق غايات خاصة وأمانى فردية ، يُفسر خطوات حياته على أنها مقدمات إيمانه بالوطنية ، والذى يعشق الوطنية أو الذى يجعلها هدفا لا وسيلة ، لا يتخذ مقدمات لها ، وإنما يأتى بنتائجها ، وهى تشبه نتائج الإيمان بالعقيدة : من التضحية ، والشعور بالمتعة حينما يضحى .

وأثر الاحتراف بالوطنية يتعدى دائرة الشخص المحترف إلى مجتمعه الذى يعيش فيه ـ وكذلك شأن كل احتراف بقيمة من القيم الرفيعة ـ ، ويتجاوز معنى التغرير والخداع الى التشكيك فى القيم ذاتها وإفساد تصورها لدى من يغررون ويخدعون اليوم إذا هم استيقظوا غدا على إثر اصطدامهم بالواقع .

والذى يتخذ من السياسة وفن الحكم أداة لغاية مستترة ، ويمارسها على نحو ما يمارس أية حرفة أخرى يتوسل بها ولا يهدف اليها نفسها ـ هو بلا ريب محترف بقيمة رفيعة ، وضرر احترافه يتناول أيضاً أمته وشعبه ، وأقل أضراره تفريق الأمة الى أحزاب وطوائف تتنابز وتتخاصم ، لأنه لا تكون السياسة والحكم حرفة إلا عندما يرفع رجلها مقياس العدالة ، وإلا عند مايسود تحكيم الأهواء والرغبات الخاصة فى تدبير أمور الناس ومعالجة أحوالهم .

* * *

والاحتراف بالقيم ينعدم فى الجماعات البدائية ، لأنها لم تصل بعد الى إدراك هذه القيم ، فتصورها قاصر على المحس والمشاهد ، وأهدافها محصورة لذلك على ما يحس ويشاهد ، شأنها فى ذلك شأن الطفل الذى لا يتجاوز إدراكه حد « ذاته » وبيئته القريبة .

ويقل فى الشعوب المتحضرة ، وهى الشعوب الرشيدة التى تكوّن فيها رأى عام ناضج ، إذ عن طريق نضوج الرأى العام لا يختلط على الشعب من هو صاحب القيمة الرفيعة المؤمن بها العاشق لها ومن هو المحترف بها .

أما الجماعات والأمم التى هى فى دور الانتقال من مرحلة البدائية والطفولة إلى مرحلة الرشد فإدراكها للأمور غير متميز وغير واضح . أشبه بحال المراهق الذى لم ينفصل تماما من الطفولة ولم يجتز بقدميه مرحلة الرشد ، بل له قدم فى الأولى وقدم أخرى فى الثانية .

ولهذا يغلب الاحتراف بالقيم فى هذه الجماعات ويكثر فيها المنتسبون إلى هذه القيم وهم ليسوا من أربابها ، بل من المتوسلين بها .

وكما يكثر فيها الأدعياء والمحترفون بالقيم الرفيعة يكثر فيها الاضطراب والتردد كنتيجة لهذا الاحتراف : تنقاد هذه الجماعات فترة لهذا المحترف ، وتنصرف عنه لغيره فترة أخرى ، وربما تعود للأول أو تنصرف عن كليهما إلى ثالث وهكذا . . . وهى لم تستقر بعد إلى جانب القيم نفسها فتجعلها موازين للزعماء والأئمة ، بدل أن تتخذ من هؤلاء الزعماء والأئمة عناوين القيم .

الزعيم والقيمة مختلطان فى تصور الشعوب التى فى دور الانتقال ، وشخص الزعيم أولى بالدلالة على القيمة فى هذا التصور ، ولذا كان الزعيم هو مقياس القيمة ، وليست مظاهر القيمة هى الدالة على قرب الزعيم أو بعده من القيمة نفسها .

فى الشعوب البدائية توجد افراد ، ولا توجد « قيم » .

وفى الشعوب الراقية توجد أفراد ، وتوجد « قيم » ، ويوجد أصحاب لهذه القيم .

وفى الشعوب نصف المتحضرة ، توجد أفراد ، ثم يوجد خلط من القيم ، والمنتسبين اليها ، ولكن يرجح فى القياس والعنونة والدلالة فى هذا الخلط « الشخص » دون « القيمة » : « الوطنية » هى المنادى بالوطنية ، و « الدين » هو المتحدث به ، و « السياسة » هى المشتغل بها . . . وهكذا .

لهذا تختلف هذه الشعوب حول « الأشخاص » ، وليس حول « القيم » أو المبادىء ، وتتعصب للأشخاص دون المعانى العامة .

والمنتسبون إلى هذه القيم فى هذه الشعوب أكثرجاها ، وإن كانوا محترفين ، من أصحاب هذه القيم فى الشعوب المتحضرة ؟

منهاج عملي للتقريب :

إلى إخواننا المسلمين

لحضرة صاحب الفضيلة العلامة الجليل

الشيخ محمد صالح الحائرى المازندرانى

من كبار علماء « سمنان » بإيران

كنت أسرح النظر فيما لدى من أعداد مجلة ﴿ رسالة الإسلام ﴾ التى تصدر عن « دار التقريب بين المذاهب الإسلامية » والحق — والحق أقول — إن جملة ما فيها لهو منتقى الجمان ، من مشتهى العلم والأدب ؛ وملتقى اللؤلؤ والمرجان ، من منتهى الفضل بلسان العرب .

ولقد راقنى فى العدد الأول من السنة الثالثة بيان حضرة صاحب الفضيلة العلامة الأكبر شيخ الاسلام الشيخ عبد المجيد سليم فى تقريب مذاهب هذه الأمة الواحدة ، وتأليف علومها وثقافاتها ، وإقامة صرح الإيمان بينها ليكون المسلمون جميعاً صفاً كأنهم بنيان مرصوص يتعارفون ما عند كل قوم من العلم مستمعين القول من كل جماعة متبعين أحسنه ، فأحببت :

أولا أن أذكِّر فضيلة شيخ الإسلام ، فيسمعه جميع المسلمين ، بما عسى أن أكون بعد ما ذرَّفت على اثنين وسبعين عاما صالحاً للتذكير به فى هذا العصر الخطير ، وهو أن الله عز اسمه إنما حمّلك هذا الجاه العريض الطويل ، وعرض عليك هذه الأمانة التى تنوء بكل قوىّ جليل بما علم من انشراح صدرك وسلامته فسوّمك بسيماء الإيمان وتوجك بتاج كرامته .

وكأنى أسمع هتاف السلف الصالح بك قائلا : فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين واستقم كما أمرت وأيقظ الغافلين ويقول لك إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسألك بأمر الله سبحانه أجر رسالته المحصور فى دائرة المودة فى القربى ، وليست هى اليوم إلا البر بهم أهل البيت وبشيعتهم فى جميع شئونهم العلمية والعملية على حذوِ برّ سائر المسلمين بأنفسهم فى ذلك حتى يكونا كفوين كريمين فى بلادهم يتكافآن تكافؤ المتضايفين قوة وفعلا ، فلا ينظر أحدهما إلى صاحبه فى تعاليم مذهبه نظر التارك القالى الزاهد المعرض المعترض ، بل تتلاحظ قلوبهما بالمودة والرغبة الكاملة فى متاعهما فلا يبخسان منه شيئا كأمتعة بيت واحد مَلَـك صديقان مفاتحه ، فيأكلان منها هنيئا ، وذلك أن العناية بمتاع أهل البيت المحفوظ عند أتباعهم هى أجر الرسالة زيادة على العناية بأمتعة سائر بيوت الأمة التى هى وظيفة إسلامية مشتركة بين جميع المذاهب غير العناية الخاصة التى تمثل أجر الرسالة ، كل ذلك من غير تحول مذهب إلى مذهب ، فإن الله تعالى قد وكل بكل شرعة ومنهاج قوما ، وهذا هو الذى ينبغى أن يطمح إليه نظر التقريب الذى نرجو تمثيله فى جميع أقطار الإسلام يتواصون فيه بالثقة والمكرمة والحرمة والمرحمة بلا منافرة ولا مكاثرة ولا مشاجرة ، وإلا فمتاع كل قوم رائج فى سوقهم ، وإنما المطلوب رواج متاع كل من الجانبين فى سوق صاحبه كأنه متاع نفسه النفيس فى سوقه المختص به .

وثانياً أن أزيد لفضيلتك على هذه الذكرى ذكرى لتكون لجميع المسلمين ولك ولقومك ذكراً ، وهى أن أعز ما بينته للمسلمين من الأمرين ـ فى هدايتهم إلى الوحدة التى بنى عليها الإسلام ، وبها رضى الله سبحانه لهم الإسلام دينا ، وبها أتم عليهم النعمة ـ بثالث هو النمرقة الوسطى ، وسواءُ كلمة أخرى يُشفع بها سواء الكلمة الأولى التى بها يكون المسلم مسلما ، ليكون للتقريب صورة عملية حقيقية ولو تدريجاً من غير أن يتنزل السنى عن تسننه ، ولا الشيعى عن تشيعه .

أصول الإسلام وبيان قيّم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

أما سواء الكلمة الأولى ، فهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله المختومين بسيدهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وباليوم الآخر ، ومن أطيب مايؤثر عن نبينا صلوات الله عليه فيها : ماجرى بينه وبين شيخ بني عامر من الحديث الطويل المعدود في أفراد محمد بن يعلى ، قال الشيخ العامري بعد مابيّن له الرسول ما سأله عنه من حقيقة أمره وبدو نشأته : أشهد بالله الذي لا إله غيره ، أنّ أمرك حق ، فأنبئني عن أشياء أسألك عنها ، كلمه بلغة عامر ، قال : يابن عبد المطلب ، فما يزيد في العلم ؟ قال التعلم ، قال : فما الذي يزيد في الشر ؟ قال التمادي ، قال : هل ينفع البر بعد الفجور ؟ قال نعم : التوبة تغسل الحوبة ، والحسنات يذهبن السيئات ، وإذا ذكر العبد ربه في الرخاء ، أجابه عند البلاء ، قال : يابن عبد المطلب وكيف ذاك ، قال : لأن الله عز وجل يقول : « وعزتي وجلالي لاأجمع أبداً لعبدي أمنين ولا أجمع عليه أبداً خوفين : إن هو أمنني في الدنيا خافني يوم أجمع عبادي لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفه ، وإن هو خافني في الدنيا أمنني يوم أجمع عبادي في حظيرة القدس فيدوم له أمنه ولا أمحقه فيمن أمحق » قال : يا بن عبد المطلب ، فإلى ماتدعو ؟ قال : أدعو إلى عبادة الله عز وجل وحده لاشريك له ، وأن تخلع الأنداد ، وتكفر باللات والعزّى ، وتقر بما جاء به الله عز وجل من كتاب أو رسول وتصلي الصلوات الخمس بحقائقهن ، وتؤدي زكاة مالك يطهرك الله عز وجل ويطهر لك مالك ، وتصوم شهراً من السنة وتحج للبيت إذا وجدت اليه سبيلا وتغتسل من الجنابة ، وتؤمن بالموت وبالبعث وبالجنة والنار ، قال : يابن عبد المطلب فإذا فعلت ذلك فما لي ؟ قال : جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى ، قال : يابن عبد المطلب ، فهل مع هذا شيء في الدنيا ؟ فانه يعجبني الوطأة في العيش ، قال : نعم ، النصر والتمكين في البلاد ، فأجاب وأناب . انتهى .

وأما سواء الكلمة الأخرى ، والنمرقة الوسطى ، وهى الأمر الثالث المعزز للأمرين ، فهى إعادة المسلمين إلى عقائد السلف الصالح ، والصدر الأول ، وإلى فقههم وشريعتهم ، أما فى العقائد فبإلغاء المقالات المحدثة ، إلا ما وافق منها محكمات الكتاب التى كان عليها وحدها - دون المتشابهات ، وما يلحق بها - بناء الصحابة والسلف وأهل البيت وسادات التابعين ، فلم يكن فى عقائدهم جبر ولا تفويض ولا خلق الأعمال من المعاصى والطاعات ، ولا عزل العقل السليم القاطع عن الحكومة ، ولا تجسيم ولا تشبيه ولا تركيب فى ذاته أوصفاته ، أوبين ذاته وصفاته سبحانه ، ولا أن يجعل له من عباده جزءا ، ويجعل هوجزءاً من شيء ، ولا كلماً ينافى وحدته الصرفة ، واحديته المحضة ، أو ينافى تجرده أو تنزيهه أو تفرده بالقدم ، أوإفراده بالعبادة إلى غير ذلك ، مما لم يكن فى معارف الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام الذين أوتوا الكتاب والحكمة ، وأهلِ بيت الرسالة ، ولم يكن فيهم من يتّبع ماتشابه من الكتاب والسنة ، ولم يكونوا يقفُون ماليس لهم به علم ، بل كانوا يقِفون عند الشبهات ، ويحصرون العلم فى دائرة المحكمات التى كفتهم مؤنة الجدال والتعمقات السفسطية بنور علم الكتاب الذى شاء الله سبحانه أن يقذفه فى قلوبهم ، مضافا إلى ما سمعوه أو فهموه من عقائد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وما على المسلم بعد هذه الكلمة القيمة ، سواء أكان سنياً أم شيعيا من مقالات معتزلى أو أشعرى أو حشوى أو كرامى ، أو جامد على كل لفظ ولو غير معقول يمجّه سمع العلم والعالم السليم ، أو على كل مشكوك مريب ، أو على ظاهر لم يجمع عليه علماء الأمة فضلا عن أن يؤثر فيه أو يملك دينه ، أو يَسحر ذهنه ، أو يسخر فكره ، ويستخدم علمه وعمله أهواءُ الملوك وأغراض الرؤساء وعشاق الجاه وإجبار السلاطين ، وآراء القضاة : كإجبارِ الدولة الصلاحيّة عامة المسلمين فى ممالكهم على عقائد حدثت فى البصرة فى القرن الرابع على لسان عالمها أبى الحسن الأشعرى كائنة ما كانت وفيها الغث والسمين ، والباطل والحق ، وإلا قُتل أو كفّر ،

أو إحراق على بن يوسف بن تاشفين؛ بحكم جماعة؛ كتبَ الغزالى حتى إحياء العلوم باسم تحريم المنطق والحكمة واهواء أخر، وقتل أتباعه وقارئيها، وغير ذلك من الحوادث التى سجلها التاريخ.

وأما فى الفقه، فقد أجمع المسلمون على وجوب العمل بالكتاب والسنة، فلابد لهم من الطرق الموصلة إلى السنة الواقعية، وإلى تفاصيل أحكام الكتاب وشئون التنزيل، والذى بأيدى الجامعة الإسلامية منها دليلان يوصلانهم إليها، ويؤتيانهم رشدهم وحجتهم: أحدهما طرق الصحابة، والآخر طرق أهل البيت، وهما الحافظان لفقه السلف الصالح الذى لاريب فيه، ولمعظم العقائد السائدة على نفوس الصدر الأول، تلك النفوس الصافية الخائفة مقام ربها، والناهية لها عن الهوى، المقتبسة أنوار الرسالة.

وجوب الرجوع إلى الجوامع الأربعة عشر فى الاجتهاد:

فيجب على المجتهدين الجمع بين طرق الصحابة المدون معظمها فى الصحاح الستة لأهل السنة، وبين طرق أهل البيت المدون أكثرها فى الجوامع الثمانية للإمامية (١) مع النقد والتحقيق فى معرفة رجال السند والاستنباط الدقيق فى الدلالة واستفراغ الوسع فيهما، وفى أقسام العلاج بين المتعارضين، وتبصرة الفكر، وتمرين القوة بالإحاطة على فتاوى أصحاب المذاهب الخمسة.

وبذلك يكمل الاجتهاد المبنى على الفحص البالغ فى النقليات، وعلى تشخيص

(١) أما الشيعة فقد كان فقههم من أول يوم إلى الآن على نسق واحد، لأن مرجعهم فيه آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأما سائر المسلمين فقد تشتتوا أشتاتا لا تكاد تنضبط، فرجع أهل كل بلد إلى صحابى بلدهم أو سنة تلدهم، وكانوا فى دولة الرشيدين يقلدون القاضى أبا يوسف ويحيى بن أكثم وأمثالها، ولم يكن فى دولة الأيوبية كثير ذكر لغير الشافعى ومالك، وكانوا يقلدون قبل الرشدين أمثال الزهرى والثورى ومعمر بن راشد ومن قبلهم يقلدون فقهاء الأمصار كابن جريج المكى والأوزاعى الشامى ساكن بيروت، وأمثالها، والكلام طويل، واليوم يوم الجمع لا يوم التفريق، إن شاء الله تعالى.

مادان به الأولون السابقون المقربون فى العقليات والفطريات ، ولا يجوز الاكتفاء بأحد الطريقين عن الآخر ، حتى أن المتقدمين كانوا يكتبون عن كل محدث بل كانوا يرحلون إلى شقة نازحة لطلب حديث واحد كيلا يشذ عنهم شىء من علم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فإذا فعلوا ذلك وسلكوا السبيلين وتلقوا علم الله تعالى من كلتى يديه المبسوطتين زالت الوحشة عما بين المعشرين ، وحصل التقريب والتعارف بين القبيلتين أصولا وفروعا ، كل ذلك من غير أن يتشيع سنى أو يتسنن شيعى .

طريق التصالح بين السنة والشيعة فى الإمامة والخلافة :

فإن ملاك التسنن الخالص عن الزوائد التعصبية إنما هو صحة الخلافة المسّلية لا إنكار الإمامة السماوية المنصوصة ، ولا الإعراض عن علوم أهل بيت الرسالة ورواياتهم وفتاواهم ، كما أن ملاك التشيع الكامل اعتقاد الإمامة المنصوصة لعلى والأئمة الأحد عشر من ولده وافتراض طاعتهم فى العلوم الدينية لا إبطال خلافة من قام بمصالح الأمة مع العدل والزهد والأمانة على بيت المال لإمكان رضا الإمام المنصوص بها ، ولو لصلاح الوقت وخشية الفتنة ، وقد كان الأمر فى الصدر الأول على هذا المنوال ، فلم يكونوا يشترطون فى صحة الخلافة الجمهورية إنكار الإمامة المنصوصة الخاصة الإلهية لأهلها ، ولا فى الإمامة بهذا المعنى المتقوم بالنص والعصمة والمعجز إنكار صحة الخلافة للقائم بها دون الإمام برضا الأمة أو برضا الإمام ، سيما إذا عهد النبى صلوات الله وسلامه عليه أن لا يقوم الإمام المنصوص بها ، ولا ينهض لها حتى يبايعوه ويأتوه طائعين ، فإن مبحث الإمامة ومبحث الخلافة مبحثان مستقلان لا يجب التناكر والتكاذب بينهما ، وإنما ألقى البأس والخلاف بينهما بعد ذلك ، فما روعى طريق التسالم بينهما فكانت عاقبته أمر المفرقين بينهما فى الأمة خسرا .

لكن مع ذلك ظهر فى كل عصر جماعة من السنة والشيعة حفظوا السلم والوحدة بين المنصبين من غير أن يكذب أحدهما الآخر لعدم الاصطكاك والاحتكاك بينهما

ذاتاً إلا بالعرض والغرض ، وإلا لجواز الجمع بينهما فى شخصين وعدم امتناعه بديهى كما أن وجوبه مع رضا الإمام وتسليمه الخلافة لغيره ظاهر سيما فى مثل هذا العصر الذى يحرم فيه إلقاء الخصومة بين المنزلتين ، ونقض الوحدة بين أمة لا إمامهم حاضر ولا أحد الخلفاء من الصحابة حى .

هذا مجمل الفكرة فى بيان الأمر الثالث المعزز للأمرين الذى هو النمرقة الوسطى ، وسواء الكلمة العملية الأخرى بعد سواء الكلمة العلمية الأولى ، وتمام هذا الأمر وكماله وضياؤه ومصباحه نصب كرسى لتدريس فقه أهل البيت فى مصر ، وآخر لتدريس عقائدهم الكلامية ، فإنهما مرآتان تامتان مطابقتان لعقائد الخلفاء الراشدين والصحابة المنتجبين وفقههم وسيرتهم وهداهم وبيناتهم وعدلهم وزهدهم وأماناتهم وعباداتهم ومراوحتهم بين جباههم وركبهم ورسوخهم فى العلم وغوصهم فى أنوار الرسالة فمن أراد أن ينظر إليهم فلينظر فى هاتين المرآتين ، وليوقد هذين المصباحين ، وليقم هذين العمودين ، وليشيد أركانهما بعلوم سائر الأعلام الأفذاذ المخلصين من أئمة المذاهب الأربعة وخلص أتباعهم .

فيأيها المسلمون لئن كفاكم مجمل القول المذكور فنعما هى ، وإن شئتم بعض البسط فأعيرونى أسماعكم ، أشرح لكم أولا الأمرين اللذين بنى العلامة الأكبر شيخ الإسلام عليهما الوحدة الإسلامية وهدف التقريب ، وثانيا أبسط لكم الأمر الثالث الذى عززتهما به ، ونرى احتياج ظهور التقريب الحقيق العملى ، وتوحيد الثقافة ، ووحدة سنخ الفكر إليه .

أما الأمران ، فأولها : أن المسلم إذا عرف ـ كما عرف المسلمون الأولون ـ أنه لا اعتزازله إلا بدين الإسلام الذى هو كلمة سواء بين المسلمين لاتختلف ولا تتخلف عن أى قوم منهم وأى مذهب ، وعَلم أنه لن يصلح فى آخرته وأولاه إلا به رسخ فى نفسه حب دينه ، وحب كل مسلم بما أنه أسلم لدينه شيعياً كان أوسنيا لاشتراك الجميع فى الأساس الأصلى ، وعدم تأثير تنوع الأفكار العلمية فى ضعفه فضلا عنه فى هدمه ، وعلى هذا فلا يجمتع بغضهم ومعاداتهم ، وترك الاعتزاز بهم وبما عندهم

من العلم مع حب الإسلام والاعتزاز به ، كيف والمطلوب من المسلم أن يؤثر حب الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله على كل محبوب من متاع الحياة الدنيا ! ، ولا أقل من أن يوطن نفسه عليه ويروضها ، ويمرنها به .

الثانى : التعاون والتعارف فى كل شأن ، وفى العلوم والآثار ، مع نسيان كل حقد وضغينة ، ومع ترك الجدال وسوء القول، فلا يكترث المسلم ولا يبالى باختلاف المشرب ، ويتلقاه كأن لم يكن ، أو يفرضه كأنه لم يزل مشربا لنفسه ، ويعد ذلك كاختلاف الناس فى المطاعم والمشارب واللغات ونحوها ، فقد خُلقوا أطواراً وكلٌ ميسر لما خلق له ، وكلٌ يعمل على شاكلته ، وقد ورد : لو علم الناس كيف خلقوا لم يلم أحدٌ أحداً ، وليس فى ذلك ضرر ولا ضرار بين أمة واحدة ، فقد جمعهم دين واحد ، ثم فرقتهم الدنيا لا الدين ، فذاقوا وبال أمرهم ، وفقدوا بالتفرق كل مجد وسلطان ، وكل حرية ، وكل قوة ، وكل صحة ، وكل أمان . واليوم يوم أن يجمعهم الدين كأول يوم ، فقد رفرف عليهم النصر وهو يهتف فيهم بموافاة وقت الاتحاد والائتلاف إليهم ، وفاحت فى أقطارهم نفحة الظفر التى بشرهم بها نبيهم صلوات الله وسلامه عليه بقوله : إن لله فى أيام دهركم نفحات ، فتعرضوا لها ، فإذا تعاونوا وائتلفوا متحابين فى كل ما يصلحهم ويعيد مجدهم ، وفى علومهم وثقافاتهم وآثارهم زالت الوحشة عما بينهم ، وارتفع توهم الاختصاص والاستقلال المثير للبغضاء والضعف والتخاذل والجهر بالسوء والتنابز والاستهزاء والتجهيل ، فضلا عن التكفير والتضليل وكىٌ كل جبهة موحدة لله تعالى بالشرك .

وهذا الوجه أخص من الأول لابتنائه على التعارف بين جميع الشعوب والقبائل فى جميع العلوم الإسلامية التى فيها علوم الصحابة وعلوم أهل بيت الرسالة وسادات التابعين ، ثم شأنهم والاختيار من غير أن يتسنن شيعى أو يتشيع سنى ، فإن الإحاطة بالعلوم والثقافات من أشرف الغايات ، وفيها تثقيف للأفكار ، وتشحيذ للأذهان ، وتسهيل لمعرفة الحق لمن أحب ، فلا ينبغى أن تغتر قبيلة بعلمها ، ففوق كل ذى علم عليم ، وعند كل قبيلة مسلمة علم تراه مصيبا لصريح الحق ، وربما يحصل

بذلك التوفيق بين كل شعبين ، فانظروا أيها المسلمون إلى الإمام مالك المدنى ، كيف راعى علوم كل قوم من الأمة وصوب الرجوع إليها ، ولم يحصر الأمة فى دائرة علمه .

ألم تسمعوا أن الرشيدين هرون ، والمأمون ، كلٌّ فى عهده طلب منه أن يأذن فى تعليق كتابه الموطأ بالكعبة ، وأن يحمل الناس جميعاً على ما فيه فأبى وقال : إن عند كل قوم علما ، وكل عند نفسه مصيب ، واستشاره هرون أيضا فى تغيير منبر النبي صلوات الله عليه بمنبر مرصع بالدر والجوهر فأبى إبقاءً على أثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وايم الله إن علوم أهل بيت الرسالة وعلوم سائر الصحابة من أعظم آثار الرسول التى يجب إبقاؤها وحفظها ، فإن كلا منها منبر عام عليه إمام ناصح ، وزناد قادح ، ونجم لائح ، فلا يجوز أن يعرض عنها المسلمون ، ويأخذوا بعضا ويتركوا بعضاً ، وكلها مما آتاهم الرسول « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وهذان الوجهان ما لم ينضم إليهما الأمر الثالث المبنى على إعادة المسلمين إلى هُدى السلف فى العقائد والفقه بالطرق الهادية إليها من طرق الصحابة وطرق أهل البيت ، وعلى تدريس الفقه الجعفرى وسائر علوم آل محمد العترة الطاهرة فى ممالك السنة فقهاً وأصولا وكلاما وتفسيرا ، لم تكن للتقريب والوحدة المطلوبة صورة عملية تزيل الوحشة والنفور وتؤنس الأبصار والأسماع بأحكام كل قوم وأعمالهم ونسكهم ومناهجهم وربما تجمعهم على شاكلة واحدة وثقافة متحدة ينتابها ويرتادها السنى فى تسننه والشيعى فى تشيعه ، وقد كان فى مَدْرس الإمام جعفر بن محمد ، من أئمة السنة جم غفير يروون عنه ويتتلمذون عليه ويعملون بفتاواه ، وهم على تسننهم إلى أن قضوا نحبهم غفر الله لهم ولنا جميعاً ، ولولا إجراء هذا الأمر الثالث كان الأمران المذكوران أشبه بالتعليم الأخلاقى والنصح العام منهما بدستور عملى مقدس يعمل به ـ ولو تدريجاً فى الملأ والمجامع من غير خوف وتقية وهزء وأذية ، ويقرأ ويدرس فى المدارس بلا إضمار غل ، ولا سوء طوْية ، وقد كان قدماء الشيعة

ومتأخروهم إلى عهد الشهيدين يدرسون المذاهب الخمسة لطلاب القبيلين ، وكتبهم مشحونة بأقوالها وأدلتها ورواياتها ، لكن كان ذلك من جانب واحد ، وأما من الجانب الآخر فلا ، حتى انتهى ذلك إلى القنوط ، فجردوا من القرن العاشر كتبهم من غير طرقهم وطريقتهم ، ومع ذلك لم يتركوا العلم والمطالعة والحفظ لعلوم الجمهور ، بل وتدريسها لأهل السنة ، كما كان السيد مهدى بحر العلوم يدرس المذاهب الأربعة فى الحجاز ، إذ مكث هناك سنة وأكثر ، وكذا غيره ، حتى قالوا : لو كان الأمر كما تقوله الشيعة فى شأن المهدى المنتظر فهو هذا المهدى .

وبالجملة فلا بد فى هذا العصر من إجراء هذا الأمر الثالث كى لا يطيش سهم التقريب عن إصابة الهدف المطلوب ، سيما بين عوام القبيلين الذين جُبلوا على ما يخصهم من مسائل الكلام والأحكام والشعائر والمراسم ، فإن هذه الخصائص هى التى أوهمت بعض الأعلام استحالة التقريب غفلة عن وقوعه - فيما مضى - بين كثير من علماء السنة والشيعة الذين لم يملك قواهم تفريقات الأهواء ، ولم يُطوق رقابهم أغلال التعصبات والآراء ، من غير أن ينقلب السُّنى منهم شيعياً ، والشيعى سنيا ، وكيف يوصم التقريب بوصمة الامتناع ، ولا أقل من تأثيره فى تقليل الخلاف واختيار التى هى أهدى وأقوم ، أو فى الرضا باستماع القولين والتسالم والتصافى على نشر العلمين واحترام الثقافتين فى التعاليم العامة والمؤتمرات الخاصة ، أو فى خرق الأوهام والخرافات والمفتريات وشواذ الآراء .

وأوهمَتْ أعلاما آخرين ، أن هدف التقريب رفع العداء فقط ، وإبقاء الخلافات على ما كانت ، بزعم أن الخلاف طبيعى ، فلا يزالون مختلفين ، ولذلك خلقهم الله كما فى الآية الكريمة غفلة عن أن ذلك إنما هو بين الأمم لا بين أمة واحدة ، على أن الآية تذم المختلفين ابتداءاً واستمرارا ، ولذا استثنى الله منهم مَن رحمه وهم الذين لا يختلفون ولو رغماً على جبلتهم الكارهة لما أنزل الله ، وطباعهم المتأبية عن قبول الحق ، كالذين أسلموا من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم فالآية تذم الاختلاف على أى حال ، سواء كان بين الأمم ببقائهم على الدين المنسوخ ،

أو بين أمة واحدة بإحداث الأباطيل المفرقة لها شيعاً ، والممزقة لوحدتها وقوله سبحانه : ولذلك خلقهم، إشارة إلى ما سبق له عز اسمه من العلم فيهم بسوء اختيارهم مع تمام الحجة عليهم وليس معناه أن الله خلقهم ليختلفوا ، فإن لام الغاية تارة تكون لتعليل فعل الخالق بفعل آخر من أفعاله كقوله سبحانه : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حباً ونباتا » ، « هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور » ومثله كثير ، وأخرى لتعليل فعله بفعل المخلوق ، كقوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » « لتسلكوا منها سبلا فجاجا » « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله » « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا » ومثله كثير ، ومن هذا القبيل تعليل فعله عز اسمه بسيئات عباده الاختيارية لسابق علمه فيهم بأنهم لايهتدون بسوء اختيارهم بلا جبر ولا تفويض كقوله « إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » وقوله « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون » ، والصغو والصغى الميل إلى الباطل والإثم ، فتصغى أفئدتهم إلى إيحاء زخرف القول ، فيرضونه لخبث نفوسهم واتباعهم الهوى بسوء اختيارهم ، وقوله « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

أحسن وجوه تصالح السنة والشيعة والزيدية :

وأوهمت أعلاماً آخرين أن الشيعة والسنة متقابلتان تقابل طرفى الخط فى الإمامة والخلافة ، غافلين عن الفرق بين الإمامة المنصوصة التى يعتقدها الإمامية والخلافة الملية التى يعتقدها أهل السنة ، ولا منافاة بينهما ولا تنازع بل هما متسالمان متصالحان من أول الأمر إلى غايته إلا أن يفسد المفسدون بين المتسالمين ، وقد فعلوها وخسروا ، واليوم لا داعى للأمة أن يجددوا فعلها ، حتى لا يبقى منهم على وجه الأرض حر ولا ماجد وذلك لأن الإمامة عند الإمامية متقومة

بالعصمة والنص والمعجز ، وهذه المنزلة السماوية لم يدّعها أحد من الخلفاء الراشدين ولا ادعاها لهم أحد من أتباعهم ، ولم يقع بحث منهم فى ذلك ، ولا إنكار لها ، ولا احتاجوا فى أمرهم ابتداءً واستدامة إلى إنكارها ، ولا هى منزلة تستحيل عقلا حتى تنكر لأجل استحالتها وحتى يجب التأويل فى أدلتها ، ولا التسالم بين المنزلتين ، والتراضى عليهما أمر غير معقول ولا معهود فى بيوت الأنبياء والمرسلين حتى يجادل فيهما ويخاصم عليهما ويُثْبتَ أحدُهما ويُنفى الآخر كالضدين اللذين لا يمكن اجتماعهما ، وليس من شرط الإمامة عند الإمامية تلبس الإمام المنصوص المعصوم فعلا بالخلافة ، نعم يجب عند الإمامية أن يكون صالحاً وأهلا لها ، بل لاخلاف فى ذلك عند الكل ، ثم استحقاقه لها وأولويته بها ، فهو عند الإمامية بل وعند جميع العقلاء معنى لا يجب فيه عقلا وعادة وشرعا أن يكون قيام غيره بها - مع العدل والزهد والأمانة وحسن التدبير سيما مع طاعة الأمة له - غصبا وعدوانا لإمكان رضا الإمام فيها بغيره ولو لعدم اجتماع الأسباب له ، وخشية الفتنة فى قيامه والمفروض وقوع جميع ذلك ولو فى ظاهر الحال .

وخلافة الخلفاء الراشدين إنما هى منزلة مقدسة أخرى غير الإمامة الخاصة ورياسة عامة مليئة مع الصفات المزبورة التى لم يختلف فيها اثنان ولو فى الجملة ، ولم ينكرها ولا أبطلها الإمام المنصوص المعصوم طيلة خمسة وعشرين عاما حتى أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها لجاءته الأمة طائعين من غير طلب ، وهو مع ذلك كاره لها ، راض بأن يولوا عليهم غيره ، فظهر أن معنى الإمامة المصطلحة عند الإمامية غير مضاد ولا معارض لمعنى الخلافة ، فأى حاجة فى تثبيت الخلافة إلى إنكار منزلة الإمامة التى نودى بها على رءوس الأشهاد ، وأى جناية اجتماعية أعظم من أن يكون الأمر بين الإمام المنصوص والخليفة العادل المرضى على التراضى والتسالم والمصلحة والناسُ مع هذا يجادلون فيهما ، ويفرقون الملة بإسمها على خلاف رضا الإمام والخليفة ، والذين تولّوا كبر هذه الجناية الكبرى هم الألى أنكروا الإمامة والنص ، وعادَوْا القائلين بها حتى اضطروهم إلى وصف

الخلافة بمالا ينبغى ، وقد أجمع أهل البيت والمخلصون من أتباعهم على إبطال كلا القولين : إنكار الإمامة المنصوصة والطعن فى الخلافة ووصفها بما لا ينبغى .

ولئن وقع فى هذه القضية يومئذ شيء من تبادل الآراء والأقوال والمعاتبات ففى غير أساس هاتين المنزلتين كما لا يخفى على من أنعم النظر فى تاريخ الإسلام وأخذ بالقول الفصل ، وسكت عن فضول الهزل .

وقد ألم بالاشارة إلى هذه المسألة فضيلة الأستاذ العلامة عالم الشيعة الإمامية بالقاهرة الشيخ محمد تقى القمى ، أمين السر العام المؤيد لدار التقريب فى جولته المباركة بين الآراء حول التقريب حيث قال : بيد أنهم ـ أى السلف الصالح والزعماء بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ـ حصروا الخلاف فى دائرته المعقولة ، ولم يجعلوا له أثراً يضر بالوحدة الإسلامية ولا أعطوا به فرصة لأعداء الإسلام ، كان خلافا فى الرأى لا تشاجراً ، انتهى .

أقول بل إنى لا أرضى أن يسمى ذلك خلافا ، فضلا عن المشاجرة إذ لم يكن يومئذ انكار لمنزلة الإمام ولا للنص عليه ولا لأهليته للخلافة ، ولا لشيء من ملكاته الفاضلة ، ولا لشيء من سوابقه ولا لعدل الصديق وزهده وصلاحيته للزعامة ، وإنما كان عتابا على المبادرة اليها قبل الحضور والمشورة بل اعترف الإمام أن المسبب للبدار اليها سعد بن عبادة فى الأنصار الخزرجيين والأوسيين وكان فى العباب أيضاً تذكرة لنصوص المنزلة لئلا تنسى أو تمحى بعد ذلك ، وهذا لا يسمى خلافا فى الرأى ، إذ لم تكن المقاولات يومئذ نظير مقاولات الكيسانية والجارودية والفطحية وأشباهها مع الامامية الاثنى عشرية مثلا ، حتى تكون بحثاً فى الإمامة بمعناها الخاص أو فى صحة الخلافة بمعناها العام ، فان الإمامية لم يشترطوا فى الإمام المنصوص المعصوم وجوب قيامه بخلافة الملك وان كان هو عندهم أولى بها لتوقفها على أسباب ظاهرية ، وأبى الله أن يجرى الأمور إلا بأسبابها ، ولا يجمعها كملاً إلا المهدى الأمة المنتظر ، ولا ينفع التأسف للإمام على عدم اجتماع الأسباب له فضلا عن المخاصمة عليه ، ولو كان ذلك خلافا أساسياً لأقيم فى جزيرة العرب على ذلك نظير الحروب الصليبية والنهب والغارة

والقتل الذريع ، ولم يقع شيء من ذلك بحسن تدبير على عليه السلام ، والخلفاء رضى الله عنهم .

وأما الاحتجاجات حول الإمامة والخلافه ، فإنما كانت لحفظ منزلة روحانية الرسالة فى العترة الصفوة كى لا يكون أول سلسلتها مشوباً بالرغبة فى الملك والحكومة فيرتاب المبطلون بعد ذلك فى تلك المنزلة السماوية ، فيتوهموا أن ذلك سياسة ملكية لا منزلة دينية سماوية مستحفظة على علوم الكتاب والسنة وعلوم الأنبياء وعلى قوة المبارزة لجميع علماء الملل وإجابة اقتراحاتهم المعجزة ، ودفع كل مُتَنَبّ أو مشعبذ أو ساحر أو مغالط ، وعلى حفظ صحف الأنبياء ، وحل كل مشكلة دينية وغيرذلك ، واين هذا من المعارضة لخلافة القوامين بالقسط المحافظين على الوحدة الإسلامية وإعلاء كلمة الإسلام ، فالإمام المنصوص لا يجب قيامه بالخلافة فى شئون الملك ، فإنها أمر آخر لا يشترط فى الإمامة الخاصة المذكورة ، فربما يستنيب غيره لها ، وربما لا يجوز له القيام بها لعدم الأسباب وخشية الفتن أو لسبق العهد بتركه حتى يأتوه طائعين ، وبمباشرة تجهيز النبي صلوات الله وسلامه عليه وبجمع القرآن قبل كل عمل ، أو لحصول الغرض الأصلى بقيام من يوثق بعدله بها فيسلم له الأمر والإمرة من غير نقص فى منزلته الالهية ، فإن خلافة الملك قد تتخلف عن الرسول المبعوث على كافة الناس مع استحقاقه وصلوحه لها .

ألا ترى أن محمداً صلى الله عليه وآله لم يكن ملكاً مطاعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، حتى كان يصالح بعض الأمم ويترك آخرين إلى حين ، وقد نزل: « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » وإنما قدر الله سبحانه الفتوحات بعده ، بل المسلمون مجمعون على أن رسالته على كافة الخلق كانت من يوم بعث لا من يوم قوى أمره واستفحل شأنه ، فلو لم يتفق له ما قدره الله سبحانه له من القوة والنصرة فَقُتِل أو مات قبل الهجرة أو بعد الدعوة العامة بمكة ، ولم ينزل من القرآن عليه إلا المكيّات ، لم تنقص منزلته من الرسالة العامة بحيث ينتظر بها أن تكمل بعد ذلك بالفتح ، وكثرة أهل الدين ، فكذا الإمام لا ينقص شيء من منزلته

أن لم تستخلفه الأمة رأساً أو أخروا البيعة له ، كما أن الخلافة لا يجب أن تكون ممنوعة سيما إذا سلم الإمام الأمر لغيره واقتدى به وأخلص الود والنصيحة له سراً وجهاراً .

فلينظر المسلمون إلى رضا على عليه السلام وسلمه حتى بعد مقتل الفاروق رضى الله عنه ، فقد روى سلام بن أبى مطيع عن أيوب السختيانى عن جعفر ابن محمد عن أبيه قال : لما طعن عمر رضى الله عنه بعث إلى حلقة من أهل بدر كانوا يجلسون بين القبر والمنبر ، فقال : يقول لكم عمر أنشدكم الله أكان ذلك عن رضا منكم ؟ فتلكأ القوم ، فقام على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال لا ، ووددنا أنا زدنا فى عمره من أعمارنا ، انتهى .

فانظر إلى سيرة الإمام وسيرة الأئمة من ولده كيف يعلمون الناس السلم وأدب التقريب بين الإمامة والخلافة وينشرون ذلك بين الأمة .

ثم انظروا أيها المسلمون إلى كلام الإمام على بن الحسين عليه السلام لنفر من متشيعة العراق كيف يثنى على الخلفاء بما يدل على الرضا بخلافتهم مع كونه الإمام المعصوم المنصوص عند الإمامية ، وأول التسعة المعصومين من ولد الحسين عليه السلام ، لعدم التنافى بينها وبين إمامته ، فقد روى أبو نعيم الحافظ بسنده عن محمد ابن حاطب عن على بن الحسين قال : أتانى نفر من أهل العراق فقالوا فى أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، فلما فرغوا قال لهم على بن الحسين : ألا تخبرونى ، أنتم المهاجرون الأولون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ؟ قالوا : لا ، قال : فأنتم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ؟ قالوا : لا ، قال : أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين ، ثم قال : أشهد أنكم لستم من الذين ، قال الله عز وجل فيهم : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين

سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم »
اخرجوا ، فعل الله بكم . انتهى .

فليتعلم معشر الشيعة وإخوانهم السنة طرز الجمع والتوفيق بين المنزلتين ، فهل ترى الإمام السجاد يَنتقص بهذه الشهادات منزلةَ نفسه من الإمامة ، أم هل يمكن أن ينظر إلى خلافتهم التى كان عمدة نظر أولئك النفر العراقيين القدح فيها مع هذه الحجج إلا بنظر الصحة والرضا ، فما بالنا نتعارك فى ذلك ، هذا بانكار النص ، وذاك بانكار صحة الخلافة ، إذا لم يتوقف صحة الإمامة على بطلان الخلافة ، أو صحة الخلافة على بطلان الإمامة وأمكن الإقرار بصحتهما والاعتزاز بهما معا لكلا المعشرين ، لأن الشيعة يمكنهم القول بصحة الخلافة بما أشرنا إليه من الاقتداء والتسليم ، ومن الوفاء بعهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه إليه بالصبر والإمساك والاكتفاء بمنزلة الإمامة والمحافظة على ما يعجز عنه غيره من إقامة الحجج والمعجزات على حقانية الرسالة الختمية ودين الإسلام على الملل وتنجيز عدات النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وغير ذلك مما لا يجرى إلا على يد نبى أو وصى نبى مضافا إلى حفظ اتصال سلسلة الأوصياء فى الصفوة من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم من لدن شيث إلى المهدى الموعود .

كما أن أهل السنة يمكنهم القول بالإمامة المنصوصة لعلى والأئمة من ولده ، وبأن الصحابة لم يخالفوا النص ، وإنما جوزوا تأخير العمل بالنص لصلاح الوقت ومراعاة ضعف أحوال الناس ، ولم يبطلوه ولا كذبوه ، ولا تركوا العمل به رأسا فتلقوا باجتهادهم النص واجباً مؤقتاً بوقته المأمون عن الفتنة ونفوذ أعداء الاسلام فى أمر الأمة فى أول المصيبة العظمى ، وقبل اتساع دائرة الفتح والنصر فى البلاد ، وعلو كلمة الله فى المشارق والمغارب ، ولم يتلقوا النص واجبا مطلقا منجزا مقارنا لوفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كيف وقد أخبر علياً بما سيكون بعده ، وأوصاه بترك القيام والخلاف حتى تجتمع عليه الأمة بطباعهم ، وأنهم سيجمعون عليه وسينصره بالعراق

مائة ألف سيف ، وبهذا القول ترضى الشيعة ولا يكون على إخوانهم السنة فيه ضرر ، ولا فى تركه والجدال فيه أقل فائدة ، كما أن القول بصحة الخلافة من الشيعة وعدم كونهما عدوانا ترضى أهل السنة ، ولا يكون على إخوانهم الشيعة ضرر ولو مثقال ذرة ، فقد علموا أن الأئمة عليهم السلام نهوهم عن انتقاص الخلفاء رضى الله عنهم ، وأمروا بوجوب تعظيم شأنهم ومؤازرتهم على إعزاز الإسلام وتوحيد الكلمة .

وأما اختلاف الرأى فى ابتداء الأمر فى تعيين الأمير والخليفة ، أو فى وحدته وتعدده ، أو أنه فى أى قبيلة ، فلم يكن خلافاً منهم فى الإمامة ولا تكذيباً لها ، ولم يخطر ببالهم يومئذ أن تعيين القائم بالأمر مضادة لأقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومشاقة لله سبحانه وله .

وحسبك فى ذلك أن علياً لما واجه الصديق يوم البيعة العامة فى المسجد بعد بيعة السقيفة ، وقال له : أفسدت علينا أمورنا ولم تشاورنا ولم ترع لنا حقاً ، قال : بلى ، ولكن خشيت الفتنة ، فانظر كيف صدق الصديق رضى الله عنه أمورهم ، واعترف بحقهم ، وعلل البيعة بخوف الفتنة ، ثم انظر أن علياً عليه السلام كيف لم يبطل قيامه بالأمر من أصله ، وإنما عاتبه على ترك المشاورة ، ولولا التسالم على المنزلتين لم يستقم هذا الأسلوب من كلامهما ، وكذا كلام الصديق على باب المسجد قبل واقعة السقيفة ، قائلا : من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حى لا يموت ، ولا بد من أحد يقوم بهذا الأمر ، فهاتوا آراءكم أو كما قال ، يدل على أن هذا الإعلام كان عادياً عملياً ، لم يتوهم أحد منه خلافا على نص النبى ومنزلة الوصى ، وكان فى الناس من حملة تلك النصوص والمحتجين بها ، ومن حوارى على ومن بنى هاشم كثير ، ولولا أن إدارة أمر الأمة سياسة صحيحة لا تخالف منزلة الإمامة ولا تنقص من شأن أهل البيت قيد شعرة لماج الناس فى تلك الساعة فى الجدال ، ولذلك أمر على عليه السلام الكارهين من بنى هاشم وخواص أصحابه وحوارييه العارفين بمنزلته السماوية بالبيعة والطاعة

لهم ، وتولى الأعمال عنهم ، فأين الخلاف بين الإمامة والخلافة مع حفظ ودهما لولا زيادة المفرقين على الخلافة ما ليس منها ، ونقصهم من الإمامة ما هو منها ، واقامة الحرب بين يمينى الله ورسوله المتصالحتين وقوتيهما المتراوحتين ، فالخليفة أمين خزائن الأرض ، والإمام أمين خزانة علوم الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

التصالح بين الإمامية والزيدية :

وقد كادت هذه الخلافة الملية التى لا تزاحم الإمامة ولا تكذب النص ، تشبه الإمامة التى أسسها الزيدية ، المنبية على الخروج بالسيف لإقامة العدل وإدارة الملك واصلاح المجتمع ونحو ذلك ، ويكفى فى هذا النحو من الإمامة ماقررناه فى تصحيح الخلافة من كونها أمراً سائغاً عقلا مباحا غير محظور ولا ممنوع من نبى أو وصى نبى ، أو نائبه الخاص ، إذ لا مانع من القيام برياسة عامة عادلة لإعلاء كلمة الله ، لئلا تكون للأعداء والمتآمرين فرصة يبادرون فيها إلى تملك معاقلهم ، واستعمال بلادهم ، ويطمعون فى تفتيت أعضادهم ، وتشتيت جامعتهم ، ولو أن الزيدية قعدوا بعد زيد عن ذلك ، لم يكن اليوم وما قبله لهم دولة ولا سلطان ، فكم من دولة إسلامية تشكلت لهم بهذه الإمامة التى أسسوها واستفادوها من قعود الأئمة المنصوصين المعصومين عنها فضلا عنها بعدهم حتى انهم وفقوا لتشكيل دولة عظمى فى بلاد طبرستان كدولة أبى محمد الحسن بن على الأطروش وأقرانه ، وهو مع أنه كان شيعياً اثنى عشريا له كتاب يثبت فيه امامة الأئمة الإثنى عشر بالنصوص المتواترة تولى إمامة الزيدية وروح أمرهم وطريقتهم لاحقاق حق أهل البيت بأى اسم ورسم ومن هذا القبيل دولة الملوك الفاطميين باسم المهدوية والإمامة فى مبانيها المرموزة العجيبة ، وكم لذلك من نظير يحمده العقلاء ويرضى به المسلمون ، فما ظنك بخلافة الخلفاء الراشدين الذين اتعبوا من بعدهم فلم يكن ولا يكون لها كفو ، وقد سلم لها الامام المنصوص ، ومن المعلوم أن كل مرتبة من هذه الرياسات الإسلامية العادلة المعبر عنها بالإمامة أو الخلافة أو الرضا لآل محمد أو الآمر بالمعروف والنهى

عن المنكر ، لها قيمتها وقدرها ، وليست مكذبة للإمامة الخاصة المنصوصة المشروطة بشروط مخصوصة ، وصفات ربانية لن توجد إلا فيمن نص الله عليه على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأجل عدم التكاذب بين الإمامتين أجمع علماء الامامية على جلالة زيد وعلمه وعبادته وخشيته وصلاحيته للسلطان الإسلامى وعلى موافقته للإمامة المنصوصة فى حق أخيه محمد الباقر وابنه جعفر الصادق ، وله أشعار صريحة فى ذلك ، وكان يدعو الناس إلى رضا آل محمد والأمر بالمعروف وجُل الأخبار صريح فى فضله والرضا بدعوته وما يخالفها مطروح أو مؤول عند الامامية ، ومنعُه عن القيام إنما كان اشفاقاً عليه لا تحريماً ، فهو عليه السلام وإن قصرت مدته - إذ خرج فى الأربعاء وقتل يوم الجمعة - لكنّ قدره الرفيع طويل ، وأمر الحسين بن على صاحب فخ أيضاً كذلك ، فقد أبلى بلاء حسنا وجاهد فى الله حق جهاده صلوات الله عليه وعلى أصحابه وأنصاره والمستشهدين بين يديه ، ولقد أجاد الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان المطلع المتبحر الخبير فى كتابه « الفصول » وهو فصول من أماليه ومجالسه جمعها تلميذه العظيم علم الهدى السيد المرتضى الموسوى ، وهذا الكتاب مخطوط عندنا منه نسخة قديمة ، فقد جمع بين الإمامتين ، وصالح بينهما على نحو ما أدت إليه فكرتنا بين الإمامة والخلافة قبل النظر إليه .

قال السيد المرتضى فيه ما نصه : « حضر الشيخ ، أيده الله ، بمسجد الكوفة ، فاجتمع إليه من أهلها وغيرهم أكثر من خمسمائة إنسان ، فانتدب رجل من الزيدية أراد الفتنة والفساد ، فقال : بأى شىء استجزت انكار إمامة زيد بن على ؟ فقال له الشيخ : قد ظننت علىّ ظناً باطلا ، وقولى فى زيد لا يخالفنى عليه أحد من الزيدية فلا يتصور مذهبى فى ذلك بخلاف لهم ، فقال الرجل : ما مذهبك فى إمامة زيد ابن على ؟ فقال له الشيخ : أنا أثبت من إمامة زيد ما يثبته الزيدية ، وأنفى من ذلك ما تنفيه فأقول : إن زيداً كان إماما فى العلم والزهد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنفى عنه الإمامة الموجبة لصاحبها العصمة والنص والمعجز ، وهذا

ما لايخالفنى عليه أحد من الزيدية ، فلم يتمالك جميع من حضر من الزيدية أن شكروه ودعوا له وبطلت حيلة الرجل فيما أراد من التشنيع والفتنة » انتهى .

أقول هذا هو ملاك التصالح القطعى بين الإمامة لعلىّ والأئمة المنصوصين من ولده ، وخلافة الخلفاء الراشدين نثبت لهم ما أثبته الشيخ لزيد من الإمامة فى العلم والزهد مضافا إلى بيعة المسلمين لهم ، واقتداء الامام المنصوص بهم ، وننفى عنهم الإمامة الموجبة للعصمة والنص والمعجز ، وهذا مما لا يخالف عليه السلفَ واحدٌ من أهل السنة ، ولا ادعاها الخلفاء الراشدون بإجماع الأمه ، فما معنى الخلاف ومحاربة الإمامة التى لا تحاربهم ، وانكار منزلتها التى لا تنكر منزلة الخلافة للسابقين الأولين القائمين بها ، فسلوا السيوف المغمدة التى لا تقصدهم على وجوههم بلا موجب ، ثم قالوا : ماسل سيف على شىء كما سل فى الإسلام على الإمامة والخلافة وكان الحق أن يقال ما أغمد سيف عن الرياسة فى أمة كما أغمد فى صدر الاسلام بين الإمام والخليفة ، حتى إذا نزلت بهم قضية ولم يكن عندهم أثر رجعوا إلى العلم المذخور من معدن النبوة عند الوصى والإمام المنصوص ، فيقول له قائلهم العظيم تارة غص ياغواص وأخرى لولا على لهلكت ، وثالثة لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، ورابعة لو وليهم هذا لحملهم على المحجة البيضاء .

ومن طريف ما يدل على أن علياً عليه السلام كان مسالماً لعقد الخلافة لهم ، واثقا بعدلهم فى شئونها وبحصول الغرض المطلوب بهم ، وعدم منافاتها لمنزلته الإلهية ، ولا للنص عليها ، ولا لأولويته بها إن أتوه جميعاً طائعين : ما رواه غير واحد ، منهم الإمام الأعظم الخبير الشيخ المفيد فى فصول أماليه التى جمعها علم الهدى الموسوى وهو مانصه : « حضر الشيخ أيده الله « بسُرّ من رأى » ، واجتمع إليه من العباسيين وغيرهم جماعة كثيرة ، فقال له بعض مشايخ العباسيين : أخبرنى من كان الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : كان الإمام من دعاه العباس إلى أن يمد يده لبيعته على حرب من حارب ، وسلم من سالم ، فقال العباسى : ومن هذا الذى دعاه العباس الى ذلك ؟ فقال له الشيخ : هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب

حيث قال له العباس في اليوم الذي قبض فيه رسول الله ، عليه وآله الصلاة والسلام بما اتفق عليه النقل : ابسط يدك يابن أخي أبايعك ، فيقول الناس عمّ رسول الله بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان ، فقال شيخ من فقهاء البلد ، فما كان الجواب من علي ؟ فقال له كان الجواب أن قال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد إليّ أن لا أدعو أحداً حتى يأتوني ، ولا أجرد سيفا حتى يبايعوني ، ومع هذا فلي برسول الله شغل ، فقال العباسي فقد كان العباس أيضا على خطأ في دعائه له إلى البيعة ؟ فقال له الشيخ : لم يخطيء العباس فيما قصد لأنه عمل على الظاهر ، وكان عمل أمير المؤمنين على الباطن ، فكلاهما أصاب الحق ولم يخطيء ، والحمد لله . انتهى موضع الشاهد .

أقول ليت شعري إذا كان الأمر على هذا المنوال من المسامحة والمسالمة والعهد المعهود مع ما قدمنا من عدم التنازع بين الإمامة والخلافة ، وعدم كون الشيعة والسنة أولا وبالذات على طرفي الخط في هذين المقامين ، فأي معنى للنزاع بينهما سيما في هذا اليوم ؟! أم أي مصلحة في إبقائه وتأييده بعد توجه الأذهان إلى التقريب وتأسيس دار عظمى له في مركز الفضل والأدب ؟! أم أي جدوى في هذا العصر لتجديد إيقاد النار التي أوراها الغافلون أو المفرقون من قبل بين الإمامة والخلافة وبين أحد الثقلين أهل بيت النبوة ، وبين عظماء المهاجرين من قريش ؟! وهل يجوز بعد اللتيا والتي تشمير الساعد وشد الحيزوم لحفظ وميضها تحت الرماد كحفظ الزرادشتية نارها المعبودة في حفر بيوتها ، رغما على البرد والسلام الذي كان بين المنصبين وبين ذويهما في أول الأمر .

وإنما حدثت الأبحاث حول الإمامة والخلافة بعد ذلك تعصبا ، وإلا فربُّ الإمامة ورِبّيها وربُّ الخلافة ورَبانيها كانا متسالمين عليهما لم يسمع ولم ير من أحدهما هدم أساس منزلة صاحبه بمنزلة نفسه ، بل اجتمعا على نقطة سواء ، وتوازرا على هدف واحد بمنزلتين أحدهما إلهية والأخرى خَلقية .

ولو فرض على خلاف الواقع أن الأمر لم يكن على وجه السلم والوحدة ،

وجب على زعماء العلم والملك ستره عن الأغيار ، وأن يقولوا لا خلاف بين الأمة فى منزلة العترة ومنزلة الخلفاء ، وكلٌّ عندنا على كرامته المنصوصة أو المليـة .

لكن المؤسف ـ وأنَّى ينجع الأسف ـ أنهم شرعوا أسنة كل خلاف مفترى فى صدر الإسلام فى صدور أهله المنشرحة بالسلم والسلام والاعتراف بالحق وحسن التدبير فى الجمع بين الحقين ، والخطب الأفظع أنهم فى ظلال تلك الأسنة ، وخلال تلك السيوف جانبوا أهـل البيت وهضموا جانبهم الذى هو جنب الله القوى وصراطه السوى ، فى علومهم الموروثة فيهم عن معدنها وصاحب سكينتها والمبثوثة لديهم من باب مـدينتها حتى فى تفاصيل العقائد فضلا عن مسائل الفقـه ، فمن له العناية بعلوم السلف والصدر الأول فهم عليهم السلام طرقها ومناهجها ، فكيف يسوغ تركها ومجانبتها ويكتفى بعلوم غيرهم وحدها .

أو لم يتفكروا فى أن أهـل البيت لا يعتقدون فى دينهم بخلاف ما يعتقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يفتون إلا بمـا يوافق علمه ، أما عنـد الإمامية فلعصمتهم ومصونيتهم عن كل خطأ وجهل ، فضلا عن التعصب وغيره من الأهواء ، وأما على فرض أن لا يكون أئمة منصوصين معصومين فليس علمهم بالكتاب والسنة وحقائقهما ، ولا رواياتهم ولا فتاواهم من المناكير حتى يعدل عنهم إلى غيرهم ، إذ المسلمون مجمعون على أن ما يعلمه أهل بيت الرسالة فى دينهم أصلا وفرعا وهم يدينون به بينهم وبين ربهم لا يخطىء علوم جـدهم المرسل ، ولا ما يدين به السلف الصالح الحفاظ من الصحابة المخلصين المنجبين ، وليس اليوم يوم مجانبة علومهم ولا مجانبة عـلوم الصحابة ، وقد كان كثير من علمـاء الشيعة والسنة يجمع بينها فى اجتهادهم لا يتركون علما لا من هؤلاء ولا من هؤلاء تشهد بذلك كتب الشيعة كالمبسوط والخلاف للشيخ الطوسى ، والتذكرة للعلامة الحلى وليس فى ذلك تشيع للسنى ولا تسنن للشيعى ، لأن التسنن لا يدور مدار مجانبة معـارف آل محمد الطاهرين . فليس كل متبع لجعفر بن محمـد الصادق فى الـكلام

والفقه شيعياً ، ولا كل من يتبع فيهما طرق الصحابة وفتاوى الأئمة الأربعة ومن قبلهم من رواة السنة والمتكلمين منهم من قبل ومن بعد سنياً .

فكم عالم أوعامى ، يتبع تعاليم أهل البيت فى أصولهم وفروعهم ، واثقاً بعلومهم العقلية والنقلية ، مؤثراً لهم على من سواهم ، لوثوقه بأن علومهم أقرب إلى علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسنته ، لكن لا يعتقد إمامتهم المنصوصة ، وولايتهم المعصومة ، ولا كونهم حجج الله تعالى على جميع العالمين يجب طاعتهم على حد طاعة جدهم ، بل يعتقد صحة خلافة الخلفاء على تلك الأصول المشهورة بين أهل السنة ، فهو سُنيُّ المبانى ، جعفرى الطريقة .

وكم ممن يتبع الطرق التى حفظها أو دونها أهل السنة فى صدورهم أو صحاحهم الستة ، أو مجاميعهم السابقة على الصحاح كمجموع ابن شهاب الزهرى ، وعبد الملك بن جريح وغيرهما ، ثقة منه بها ، جامدا عليها ، أو مجتهداً فيها نقاداً لها . ولكن لا يتتبع ما نقل عن أهل البيت محفوظاً أو مدوناً فى الأصول الأربعمائة ، أو الكتب الأربعة المشهورة للإمامية ، ثم الأربعة الأخرى بعدها ، أو ما كان مدوناً قبلها فى أربعة آلاف كتاب من كتب رواة جعفر الصادق وتلامذته ، وذلك لمزونته على روايات أهل السنة فى المحيط المناسب لذلك ، فاستغنى بها فى إصابة السنه سيما مع عدم معرفته لثقات أهله البيت ، أو عدم اطلاعه على كتبهم وجوامعهم ومعاجمهم أو زعمه بهذه المرونة والأُنس ، وكثرة أصحاب طريقته وأنصارها ، أن ما بيده يغنى عن الفحص عن علوم أهل بيت نبيه صلوات الله عليه أو ظنه التوافق بينهما ولو فى خصوص المسائل التى هى عامة البلوى ، أو ظنه أن له الخيرة فى اختيار ايهما شاء ، وأنه لا يجب عليه النقد والتحقيق والجمع والتوفيق بين الطريقين ، أو أحس العجز من نفسه ، إذ قضى أكثر عمره فى معرفة تلك الطريقة المتسننة والعمل بها فيشق عليه الورود فى دائرة علمية وسيعة أخرى ، يكون فيها كالطفل الأبجدى مثلا فيقول فى نفسه : متى أتعلمها ، ومتى أعمل بها ، وأنى لى قوة الاجتهاد ؟ فيها فيثبط نفسه عنها بهذه الأعذار وأشباهها ، وبمثل ذلك يرجع فى العقائد الكلامية إلى

ما أَلِفَهُ وبنى عليه وسخره من دلائل مشايخه التابعين لأصحاب المقالات الحادثة ، فلم يلتفت إلى ما حققه أهل البيت فى المسائل الكلامية ولا نظر فيها ولا بحث عنها ، ومع ذلك كله تراه معتقداً بإمامتهم المنصوصة على الوجه الذى تعتقده الإمامية حتى انه لو كان فى عصر واحد منهم فاتفق لقائه وسؤاله عما لا يعلم أو علم من غيرهم ، اتبع قوله ودان به ، ومثل هذا الصنف كثير فى العلماء القدماء، حتى انه كان فيهم من يعمل بالقياس ، وكذا فى العوام ، فهذا الصنف جعفرى المبانى فى الإمامة ، وسنى الطريقة فى الكلام والفقه وأصول الفقه ، وقد اتفق ذلك لكثير من علماء السنة بالمعنى المعروف ، أى الذين لا يقولون بالإمامة المنصوصة ، ويتبعون فى الفقه طرق غير أهل البيت ، وفى العقائد أيضاً طريقة غيرهم ، ثم إذا لقوا أحداً منهم عليهم السلام ، وعرفهم بغير ما كانوا يعرفونه من غيرهم تركوه واتبعوا قول أهل البيت ، مع بقائه على تسننه فى الامامة والخلافة ، حتى إنا وجدنا كثيراً من فرق المرجئة حتى المرجئة الشكاك الحشوية من مرجئة العراق واصحاب الحديث إذا وقفوا على كلام أهل البيت أوساءلوهم اتبعوهم فيه ، وهم يرون الإمامة والخلافة لكل من أقيم بعد الرسول صلوات الله وسلامه عليه مقامه فى لم الشعث وجمع الكلمة ، والسعى فى أمور الملك ، والرعية ، وإقامة الهدنة ، وتأمير الأمراء ، وتجنيد الجنود والدفع عن بيضة الإسلام ، وردع المعاند ، وتعليم الجاهل ، وإنصاف المظلوم ، وربما كان فيهم من يعرف الإمامة المنصوصة لأهل البيت ، ويخص الخلافة بالخلفاء بهذه الشئون فى هذه الجمل المتعاطفة المأخوذة من نص كلامهم . لكن الجم الغفير وقعوا فى الغلط فى ملاك التسنن والتشيع فى الفقه والعقائد ، وفى الخلط بين الإمامة والخلافة ، وفى توهم المعارضة بينهما كما شرحناه .

وأما اليوم ، فيجب تعارف العلوم والثقافات بين القبيلتين ، والتسالم على الخلافة للخلفاء الراشدين ، والإمامة المنصوصة للأئمة الصفوة العترة ، من غير حاجة إلى تنزل السنى عن تسننه ، ولا الشيعى عن تشيعه ، ثم يجب تحصيل الفرقة الوسطى فى العقائد وفى الفقه ، وهو الأمر الثالث المعزّز لما شرحه العلامة الكبير شيخ

الإسلام من الأمرين، ليكون للتقريب صورة عملية، وهى البناء على عقائد السلف المطابقة لمحكمات الكتاب والسنة، والجمع فى الاجتهاد بين الصحاح والجوامع الأربعة عشر، ستة منها لأهل السنة، وثمانية للإمامية، وتدريس الفقه الجعفرى فى ممالك السنة، وتدريس عقائد السلف التى حفظتها كتب الإمامية لتتعارف العلوم، وتتآلف العقائد، وتتوانس المسلمون مع التعظيم والحرمة لكل مذهب.

وهل هذا الرجاء إلا من دار التقريب، فالمرجو من جماعة التقريب الكرام عموما، ومن فضيلة شيخ الإسلام خصوصاً: نصب كرسى فى القاهرة لتدريس علوم الإمامية والترغيب لسائر ممالك السنة فى ذلك ليتصل المسلمون بعضهم ببعض ولا يضيق ذرعا أهل كل مذهب من استماع علوم إخوانه سواء اختاروها أم لا، وسواء أدى اجتهادهم بعد استفراغ وسعهم فيها إلى موافقتها أم لا، فإن اختلاف أنظار الفقهاء بعد تحقيق أدلة الأحكام لا ينبغى أن يسمى خلافا يعتد به فى تفريقهم شيعا وأحزابا، فإن كلا منهم يستفرغ وسعه فى إطاعة مولاه الذى هو مولى الكل وفى امتثال أمره، فمثل الفقيهين المختلفين، مثل مملوكين لمولى واحد ينادى أحدهما بعينه أو كليهما بسقيه الماء، فظن أحدهما بعينه أمره بإيتائه الغداء والآخر بسقيه الماء، فبادر كل إلى الامتثال بإتيان ما ظنه إطاعة لأمره، فكلاهما ممتثل مطيع له معذور مثاب، نعم قد يتفق نادراً ترتب مفسدة على عمل المخطىء لكنها تنجبر غالبا بمصلحة الطاعة والانقياد، على أن الخطأ غالبا ينشأ عن القصور أو المسامحة فى الفحص.

وبالجملة فإذا حصلت العناية بدراسة مذهب أهل البيت وسائر المذاهب فى الممالك الإسلامية حصل التقريب الحقيق بين المسلمين، وقد كان فى الإمامية فيما سبق جماعة يدرسون المذاهب الخمسة على أتم وجه، لكن لا يحضرنى من علماء السنة من جازاهم بهذه الحسنة، وبدراسة المذهب الجعفرى بعد رسمية المذاهب الأربعة من عهد القادر بالله العباسى الحاكم بها فى العراق، وتلاه الظاهر بيبرس فى مصر

وقبله المعز بن باديس (١) فى إفريقيـة ، وغيرهم فى غيرها فى قصص طويلة سجلها التاريخ .

ولنا الرجاء الأكيد ، والأمل الوطيد من فضيلة شيخ الإسلام ومن جماعة التقريب الكرام أن يكونوا هم القدوة فى تأسيس هذه الحسنة ، كما أنهم هم القدوة فى تأسيس دار التقريب .

وعلينا أن نسرد ذكر الصحاح الستة لأهل السنة ، والصحاح الثمانية للإمامية تذكرة لمن تذكر والأمر لله تعالى من قبل ومن بعد .

أما الصحاح الستة :

فأولها صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخارى المولود سنة ١٩٤هـ ، والمتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، وقد حكى عنه محمد بن يوسف الفربرى ، وهو آخر من بقى ممن سمع صحيحه أنه قال : صنفت كتابى الصحيح لست عشرة سنة ، خرجته من ستمائة ألف حديث ، وجعلته حجة فيما بينى وبين الله ، وما وضعت فى كتابى الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، قال الفربرى : سمعَ صحيحَ البخارى تسعون ألف رجل (سبعون ألف رجل) فما بقى أحد يرْوِى عنه غيرى ، وروى عنه أبو عيسى الترمذى كذا فى الوفيات ، أقول عـدةُ أحاديث صحيح البخارى على ما ذكره الشهيد الأول فى الذكرى ، وشهد به ابن حجر مع المكرر ، سوى المعلقات والمتابعات: سبعة آلاف وثلثمائة وسبع وتسعون حديثا ، والخالص بلا تكرير ألفان وستمائة وحديثان ، وفيه من المتون المعلقة المرفوعة مائة وخمسون حديثا .

الثانى : صحيح مسلم بن الحجاج النيسابورى المتوفى سنة ٢٦١هـ ، وعدة أحاديثه بلا تكرار أربعة آلاف حديث ، ومع المكرر ٧٢٧٥ ، كذا عن كشف الظنون .

---

(١) المعز بن باديس هو الحميرى الصنهاجى صاحب إفريقة وما والاها ، ولقبه الحاكم صاحب مصر شرف الدولة فى سبع وأربعمائة ، وكان مـذهب أبى حنيفة أظهر المذاهب فى إفريقية ، فحمل المعز جميع أهـل المغرب على مذهب مالك ، وحسم مادة الخلاف فى المذاهب واستمر الحال على ذلك قرونا منه .

الثالث : صحيح أبي داود السجستانى سليمان بن أشعث المولود سنة ٢٠٢ هـ ، والمتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، وكان ابنه عبد الله من أكابر حفاظ بغداد ، وله كتاب المصابيح ، وتوفى سنة ٣٦١ هـ ، وهذا الصحيح مشهور بالسنن ، وعدة أحاديث سننه على ما قاله نفسه أربعة آلاف وثمانية أحاديث من الصحيح ، وشبهه ومقاربه وعدد البقية غير معلوم ، ونقل عنه ابن خلكان أنه قال : كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ستمائة ألف حديث انتخبت منها كتاب السنن .

الرابع : صحيح محمد بن عيسى بن سورة الترمذى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، قال ابن خلكان : صنف كتاب الجامع والعلل تصنيف رجل متقن ، وبه يضرب المثل ، وهو تلميذ البخارى ، وشاركه فى بعض شيوخه ، مثل قتيبة بن سعيد ، وعلى ابن حجر ، وابن بشار وغيرهم .

الخامس : صحيح أحمد النسائى المتوفى سنة ٢٣٣ هـ .

السادس : صحيح محمد بن يزيد بن ماجه الربعى القزوينى المولود سنة ٢٠٩ هـ ، والمتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، قال ابن خلكان : كان ابن ماجه إماماً فى الحديث عارفاً بعلومه ، ارتحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر والرى لكتب الحـــديث ، له تفسير القرآن الكريم ، وتاريخ مليح ، والسنن أحد الصحاح الست .

أقول ، لإخواننا أهل السنة صحاحٌ أخر كصحيح عبد الله الدارمى السمرقندى المتوفى فى القرن الثالث ، وموطأ مالك ، وهو الذى جعله رزين العبدرى فى كتابه : الجمع بين الصحاح الستة سادسها بدل صحيح ابن ماجه . وكجامع الأصول فى الجمع بين الستة أيضا ، لمبارك بن الأثير الجزرى . وكالجمع بين الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم لمحمد بن أبى نصر الحميدى . وكالمصابيح المشابه لكتاب من لا يحضره الفقيه فى حذف الإسناد ، للسيد حسين بن مسعود بن الفراء البغوى نقل فيه الأحاديث الصحاح والحسان النبوية أصولا وفروعا ومراداً ، وجعل من

الصحاح مخرجات البخارى ومسلم ، ومن الحسان روايات الترمذى والسجستانى ، توفى بمرو فى سنة ٥٠٥ ﻫ ، وبغ وبغشور بلدة بين مرو وهرات ، ومن الشروح ، عارضة الأحوذى فى شرح صحيح الترمذى ، لأبى بكر محمد المغافرى المتوفى سنة ٥٤٣ ﻫ ، وكان معاصراً للفخر الرازى وكتاب الفتح البارى بالسيح الجارى فى شرح صحيح البخارى لأحمد بن حجر العسقلانى وغير ذلك .

وأما صحاح الإمامية فهى ثمانية للمحدثين السبعة ، أربعة منها للمحمدين الثلاثة الأوائل ، وثلاثة بعدها للمحمدين الثلاثة الأواخر ، وثامنها لمحمد الحسين المرحوم المعاصر النورى ، صاحب المؤلفات الكثيرة المطبوعة .

أولها : الكافى فى الأصول والفروع والأخلاق وأحوال الأنبياء والأئمة والسماء والعالم ، وكل ما يتعلق بذلك على أتقن وجه وأحسنه للشيخ أبى جعفر المجدد بشهادة الفريقين محمد بن يعقوب الكلينى المتوفى ٣٢٩ ﻫ ، وقد شهد جماعة منهم الشيخ البهائى فى الوجيزة بأنه ألف الكافى فى عشرين سنة ، وذكر غير واحد منهم السيد رضى الدين على بن طاوس فى كشف المحجة ، أن الكلينى كان معاصراً لوكلاء مولانا المهدى وسفرائه الأربعة ، وقال صاحب الوسائل ما حاصله أن الأصول والكتب التى كانت منابع اطلاعات الكلينى قطيعة الاعتبار ، لأن باب العلم واستعلام حال تلك الكتب بوسيلة سفراء القائم كان مفتوحا عليه لكونه معهم فى بلد واحد بغداد . انتهى ملخصاً .

وكتاب الكافى خلاصة الأصول الأربعمائة من أربعمائة مصنف ، كما عنى الشهيد الثانى فى شرح الدراية ، وكانت تلك الأصول بأجمعها موجودة فى عصر الكلينى ، كما صرح به شيخنا العلامة النورى فى مستدرك الوسائل .

أقول قد علم كل حاضر وباد أن العلوم التى انتشرت من الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وملأت أقطار العالم مما لم ينقل مثلها عن أحد ، وذلك أن

أصحاب الحديث ضبطوا أسامى ثقات رواته وهم أربعة آلاف رجل ، صرح بذلك المطلع الخبير الشيخ المفيد فى الإرشاد ، والمحقق الحلى فى المعتبر ، وابن شهرا شوب فى المناقب ، وزاد فى المناقب أن ابن عقدة ذكر الأربعة آلاف فى كتابه ، وقال الطبرى فى اعلام الورى : أن الأربعة آلاف رجل كانوا من مشاهير أهل العلم ، وقد جمعوا من أجوبة مسائل الصادق عليه السلام أربعمائة كتاب ، تسمى بالأصول ، وقد رواها أصحابه وأصحاب ابنه . انتهى .

أقول إن ابن عقدة هذا هو أحمد بن محمد بن سعيد الكوفى المتوفى سنة ٣٣٣ ه بالكوفة ، وأمره فى الوثاقة والجلالة والحفظ مشهور ، اعتنى بذكره عظماء الفريقين وعن الدارقطنى ، أن أهل الكوفة أجمعوا على أنه لم ير من زمن ابن مسعود الصحابى إلى زمن ابن عقدة أحفظ من ابن عقدة ، وكلّ ما كان عند الناس من العلم فهو يعلمه ولا عكس ، وعن ابن كثير والذهبى واليافعى ، أنه لا كلام لأحد فى صدقه وأمانته وكتابه المسمى (أسماء الرجال) هو المشتمل على أسامى الأربعة آلاف رجل من ثقات رواة الصادق عليه السلام مع ذكر حديث كل واحد منهم ، وقد أجمع أصحابنا أن لكل منهم كتابا من جملتها الأصول الأربعمائة ، وفى الوسائل أن الكتب ستة آلاف كتاب ، وبالجملة فالكتب والأصول كانت عند الكليني ، فجاء كتابه الكافى أتقن كتاب فى الحديث أصولا وفروعا ، وكونه المجدد لمذهب الإمامية فى المائة الثالثة عند الطائفتين مشهور مسطور ، فمن أهل السنة ممن اعترف بذلك ابن الأثير فى الجامع والطيبى فى شرح المشكاة فى آخرين .

قال الشهيد فى الذكرى : إن أحاديث كتاب الكافى بانفراده أكثر من مجموع الصحاح الستة للجمهور ، قلت قد تقدم ذكر عدد أحاديث كل منهما ، وأما عدة أحاديث الكافى فهى ستة عشر ألف ومائة وتسعون حديثاً وزاد بعضهم على ذلك تسعة أحاديث ، وكلها صحيح باصطلاح القدماء ، أى حجة معتبرة ، وأما على اصطلاح المتأخرين فى تنويع الأحاديث المنسوب أحداثه إلى ابن طاوس والعلامة الحلى ،

فالصحيح الاصطلاحى أى كل من كان فى رجال السند عدل أمامى فهوسنة ٥٠٧٢ والموثقات ١١١٨ ، والقوى ٣٠٢ ، والمعتبر أى الصحيح القدمائى ٩٤٨٥ .

الثانى : كتاب (من لا يحضره الفقيه) للشيخ المشهور بالصدوق محمد بن على ابن الحسين بن موسى بن بابويه القمى المولود بدعاء القائم المتوفى سنة ٣٨١ هـ ، صاحب الكتب القيمة الشهيرة تبلغ ثلثمائة مصنف .

الثالث والرابع : التهذيب والاستبصار لمؤلفهما شيخ الطائفة أبى جعفر محمد ابن الحسن بن على الطوسى المولود فى شهر رمضان سنة ٣٨٥ هـ ، والمتوفى بالنجف فى المحرم سنة ٤٦٠ هـ ، وهو البحر الذى لا يساجل فى جميع العلوم الدينية ، وقد أجمع أهل الخبرة على ثقته وصدقه وحفظه وتبحره ، ومصنفاته كثيرة شهيرة .

الخامس : الوافى ، فى الجمع بين هذه الكتب الأربعة فى أحسن ترتيب مع البيان والتحقيق لمحمد بن المرتضى المدعو (بمحسن الكاشانى) المتوفى سنة ١٠٩١ هـ ، وله المصنفات المنقحة الرائعة فى العلوم العقلية والنقلية ، وهى مشتهرة منتشرة .

السادس : بحار الأنوار ، فى خمسة وعشرين مجلداً مطبوعا ، للعلامة الأفضل الأورع المولى محمد باقر المجلسى المتوفى سنة ١١١٠ هـ ، وقيل سنة ١١١١ هـ .

السابع : الوسائل ، فى أحسن ترتيب ، للمحدث الأعظم محمد بن الحسن الحر العاملى صاحب المؤلفات الكثيرة الرائقة ، هاجر إلى مشهد الرضا ، وبقى بعد المجلسى المذكور سنين ، وكان شيخ الإسلام بمشهد الرضا ، وله ضريح يزار فى الصحن العتيق الرضوى .

الثامن : مستدركات الوسائل فى ثلاثة مجلدات كبار مطبوعة ، لشيخنا المحدث العلامة محمد الحسين النورى صاحب المؤلفات الكثيرة المطبوعة .

ثم إن من مفاخر أهل السنة التى غفلوا عنها ، وأنا أول من يذكرهم بهذه المنقبة الفخمة التى دخلت بيوتهم مع العلم الراسخ والمجد الشامخ وسلطان النبوة

الباذخ، وهم عنها ذاهلون ، وعن الانتساب إليها والإقبال بكلهم عليها إلى غيرها عادلون ، أن الإمام جعفر بن محمد الصادق وولده المعصومين من ولد إمامهم الأعظم أبي بكر الصديق رضى الله عنه من قبل أمه ، فإن أمه أم فروة بنت القاسم الفقيه ابن محمد بن أبي بكر وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، وهى بنت عم القاسم المذكور ، فالإمام محمد بن على الباقر صهر الصديق على ابنة حفيده القاسم ، وكان يقول جعفر بن محمد ولدنى أبو بكر مرتين ، يعنى بهما محمداً والقاسم ، فالصديق رضى الله عنه جد الصادق ، والكاظم والرضا والتقى الجواد والنقى الهادى والحسن الزكى العسكرى ومهدى الأمة ، فانظر ما ذا صنع المفرقون بين الأمة ، كيف أخرجوا أئمة أهل بيت الرسالة من ولد الصديق وعلومهم عن بيوتهم وتعلقوا بأذيال علوم قوم آخرون ، وحالوا بين الصديق وأعلام شرفه وفخاره ، وأطفئوا من أهل بيت الصديق مصابيح أنواره ، فاليوم يوم التعلق بذيل الصديق فى أهل بيته الصفوة ، والاستغفار من كل غفلة وهفوة ، وأول علائم التقريب العملى بين السنة والشيعة نصب كرسى تدريس الفقه الجعفرى فى الأزهر الشريف ، والعناية الكاملة بجوامعه ومعاجمه ، فيقتفوا أثره سائر الممالك الإسلامية ، وبذلك تقر عين الصديق وعيون الخلفاء الراشدين ، ثم السنى على تسننه ، والشيعى على تشيعه ، والمجتهدون على اجتهادهم بعد الجمع والتوفيق بين صحاح الإمامية الثمانية التى طلعت شمسها من بيوت ولد الصديق والصحاح الستة التى ظهرت من بيوت قوم آخرين، غفر الله لهم ولنا ولجميع إخواننا المسلمين والحمد لله رب العالمين ؟

على بن أبى طالب
والتقريب بين المذاهب

لفضيلة الأستاذ الجليل

الشيخ عبد المتعال الصعيـــدى

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية

هذا فضل كبير لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه ، أن يكون هو أول واضع لأساس التقريب بين المذاهب ، حتى لا يكون الاختلاف فى الرأى مما يدعو إلى تفريق كلمة الأمة ، وإثارة العداوة بين طوائفها المختلفة ، بل تبقى لها وحدتها مع الاختلاف فى الرأى ، ويعيش فيها المختلفون فى الرأى أخوانا متحابين ، يترك كل واحد منهم أخاه ورأيه ، لأنه أما مصيب مأجور ، وإما مخطىء معذور ، أو يجادله بالتى هى أحسن ، فلا يكون فى جدالها تعصب للرأى ، وإنما يكون القصد منه الوصول إلى الحق ، لا المغالبة والانتصار .

وإنه لفضل أى فضل لابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا يقل عن فضله فى شرف نسبه وقربه من صاحب الرسالة ، ولا عن فضله فى سبقه غيره إلى الإيمان به وهو غلام صغير ، فكان به أهدى من كل صغير وكبير ، ولا عن فضله فى جمعه بين الجهاد بالرأى ، والجهاد بالمال ، والجهاد بالسيف .

* * *

كان الخلاف على خلافة النبى صلى الله عليه وسلم أول خلاف وقع بين المسلمين ، فإنه لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عُبادة سيد

الخزرج ، ، وأرادوا أن يبايعوه بالخلافة ، فذهب إليهم أبو بكر الصديق فی نفر من المهاجرين ، ودار بين الفريقين جدال فی هذا الأمر ، وكان جدالا عنيفاً كاد يصل إلى إثارة حرب بينهما ، حتى إنهم لما قاموا ببيعة أبی بكر قام الحُباب ابن المنذر إلى سيفه فأخذه ، فبادروا إليه فأخذوا سيفه منه ، فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتى فرغوا من البيعة ، فقال : فعلتموها يا معشر الأنصار ! أمّا والله لكأنی بأبنائكم على أبواب أبنائهم ، قد وقفوا يسألونهم بأكُفّهم ، ولا يسقون الماء ، فقال أبو بكر : أمنا تخاف يا حباب ؟ قال : ليس منك أخاف ، ولكن ممن يجیء بعدك . فقال أبو بكر : فإذا كان ذلك كذلك فالأمر إليك وإلى أصحابك ، ليس لنا عليكم طاعة . فقال الحباب : هيهات يأبا بكر ، إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم .

وأبى سعد بن عبادة أن يبايع أبا بكر ، فأرسل إليه أن أقْبِلْ فبايع ، فقد بايع الناس وبايع قومك ، فقال : أمّا والله حتى أرميكم بكل سهم فی كنانتی ، وأخضب منكم سنانی ورمحی ، وأضربكم بسيفی ما ملكته يدی ، وأقاتلكم بمن معی من أهلی وعشيرتی ، ولا والله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربی ، وأعلم حسابی . فتركوه حقناً لدماء المسلمين ، حتى مات فی خلافة عمر ولم يبايع له ولا لأبی بكر .

وقد تخلف جماعة من بنی هاشم عن بيعة أبی بكر ، وانضم إليهم الزبير بن العوام وخالد بن سعيد بن العاص ، والمقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسی ، وأبو ذَرٍّ الغفاری ، وعمار بن ياسر ، والبراء بن عازب ، وأُبَیُّ كعب ، ومالوا مع علی ابن طالب ، وقال عتبة بن بن أبی لهب :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف ... عن هاشم ثم منهم عن أبی حسنِ
عن أول الناس إيماناً وسابقةً ... وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وآخر الناس عهداً بالنبی ومن ... جبريلُ عونٌ له فی الغسل والكفن

فبعث أبو بكر عمر بن الخطاب إلى علیّ ومن معه ، فخرج علیٌ حتى أتى

أبا بكر فبايعه ، وقيل إنه لم يبايعه حتى ماتت فاطمة ، وذلك بعد ستة أشهر لموت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل على إلى أبي بكر فأتاه فى منزله فبايعه ، وقال له : ما نفسنا عليك ما ساقه الله إليك من فضل وخير ، ولكنا نرى أن لنا فى هذا الأمر شيئا ، فاستبددت به دوننا ، وما ننكر فضلك .

وهذا صريح فى أن علياً حين بايع أبا بكر كان لايزال على رأيه فى أنه أحق بهذا الأمر منه ، ولكنه رأى أن يجمع الكلمة بمبايعته له ، وألا يجعل رأيه سبباً فى الفرقة بين المسلمين ، ليضرب بهذا أعلى مثل لهم فى التسامح عند الخلاف فى الرأى ، وفى إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، إن صح أن نذهب إلى أنه كان له فى رأيه مصلحة تعود عليه وحده ، والحق أنه كان يرى هذا لأنه كان يرى أنه هو وآله أقدر على مصلحة الناس من غيرهم ، لقرب صلتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه يقوم بها وازع نفسى يجعلهم أقرب إلى إيثار العدل ، وأميل إلى إنصاف الناس .

وما إن بايع علىٌّ أبا بكر حتى حبس رأيه فى أنه أحق منه بالخلافة فى نفسه ، فأخلص له فى سره وجهره ، ولم يضمر حقداً عليه ولا ضغنا ، ولم يحاول أن يكيد له أو يأتمر به ، بل وقف منه فى حرب الردة موقفاً يدل على كمال الإخلاص ، ويعلن عن تمام الود ، فإن أبا بكر حينما خالفه المسلمون فى حرب المرتدين ، ومانعى الزكاة ، خرج وحده شاهراً سيفه إلى ذى القَصة ، فلحقه علىٌّ فأخذ بزمام راحلته ، وقال له : إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ لا تفجعنا فى نفسك ، فوالله لو أصبنا بك لا يكون للإسلام نظام ، فرجع أبو بكر ومكث بالمدينة وسمع هذه النصيحة الخالصة من علىّ ، هذه النصيحة التى تدل على حرصه على حياته ، مع أنه يرى أنه قد اغتصب منه الخلافة ، ولو أنه تركه يخرج وحده لكان فى خروجه ما يقربه من أمله فيها ، ولكن نفس عَلىّ كانت أكبر من أن يخالجها هذا الأمل ، لأنه بايع وحبس رأيه فى نفسه ، فليخلص فى بيعته كما يخلص كل من بايع قبله ، وليخلص فى نصيحته ، وإن كان فى خلافها مصلحة له .

وكذلك كان شأنه مع عمر بن الخطاب حين عهد إليه أبو بكر بالخلافة بعده ، فقد حبس معه أيضاً رأيه فى نفسه ، وعامله كما كان يعامل أبا بكر ، ولم يظهر فى سبيل رأيه فرقة ولا انقساما ، بل طلب عمر منه أن يزوجه بنته أم كلثوم ، وكانت قد وُلدت قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر له علىّ صغرها معتذراً به ، فقيل لعمر ، إنه ردك عنها فعاوده ، فقال له علىّ : أبعث بها إليك ، فإن رضيت ، فهى امرأتك ، فأسل بها إليه فرضيها ، فتزوجها فولدت له ولديه زيداً ورقية .

وكذلك كان شأنه مع عثمان بن عفان حين آلت إليه الخلافة بعد عمر فى قصة الشورى المعروفة ، وكان علىّ يرى أنه تُخُطى فيها عن مؤامرة ، ولكنه حبس رأيه فى نفسه مع عثمان أيضاً ، ولم يحاول أن يُحدث فرقة أو انقساماً معه ، ولما خرج عليه الخوارج فى آخر خلافته لم ينتهز فرصة خروجهم عليه ، ولم يحاول أن يستغله لمصلحة نفسه ، بل كان يبدى فيه الرأى الصحيح ويحاول أن يهدىء تلك الفتنة لمصلحة عثمان ومصلحة المسلمين ، ولما وصلت إلى الحد الذى يخشى منه على عثمان ، أرسل ابنيه الحسن والحسين ليدافعا عنه ، مع أنه كان يخالف رأيه فى تهدئتها ، ومع أنه كان من مقتضى رأيه أنه أحق بالخلافة منه : أن يتركه للخارجين عليه ، ولكنه أبى إلا أن يمضى إلى النهاية فيما ضربه للمسلمين من المثل الأعلى فى الخلاف فى الرأى .

ولما أراد الناس أن يبايعوه بعد عثمان ، لم يسرع إلى قبول بيعتهم ، ولم ير أن الفرصة قد سنحت له لتحقيق رأيه ، لأنه لم يكن يراه لمصلحة نفسه ، بل كان يراه لمصلحة المسلمين ، فامتنع ممن عرض عليه البيعة ، ولم يجبهم إلا بعد أن ألحوا عليه ، ورأى أنه لا بد أن يقبل ليجمع ما تفرق من كلمة المسلمين ، وقد دعا الزبيرَ ابن العوام وطلحةَ بن عبيد الله ، وقال لهما : إن أحببتما بايعتمانى ، وإن أحببتما بايعت أحدكما ، فقالا : بل نبايعك . ثم جىء إليه بسعد بن أبى وقاص ليبايع ، فقال له : لا أبايع حتى يبايع الناس ، والله ما عليك منى بأس . فقال لهم : خلوا سبيله ، ثم جىء إليه بعبد الله بن عمر ليبايع ، فقال : لا أبايع حتى يبايع الناس . فقال له علىّ : ائتنى بحميل «كفيل» فقال : لا أرى حميلا فقال : الأشتر : خَلِّ عنى أضرب عنقه .

فقال علي: دعوه، أنا حميله، فلم يحاول في كل هذا أن يفرض ما آل إليه من الخلافة على الناس، بل أراد أن يبايعه من يبايعه عن طواعية واختيار، ومن أبى أن يبايع تركه حراً، حتى لا يحدث انقساما بين المسلمين، فأما أخذه معاوية بما أخذه به فلأنه أبى أن يقبل ما أمر به من عزله عن ولاية الشام، وهو حق من حقوق الخليفة، على معاوية وغيره أن يطيعوه فيه، فإذا لم يطيعوه خرج أمرهم عن حد الخلاف في الرأى إلى حد العصيان، وحكم العصيان غير حكم الخلاف في الرأى، لأن العصيان فرقة بين المسلمين، فيجب أن يؤخذ بما يجمع الكلمة، ولو أدى هذا إلى استعمال الشدة.

وقد كان هذا شأنه أيضاً مع من خالفه من أصحابه في مسالة التحكيم بينه وبين معاوية، وقد اعتزلوه وحكموا بما حكموا به عليه لقبوله ذلك التحكيم، مع أنه لا شيء في قبوله من جهة الدين، ولكنهم كانوا قوماً متنطعين متشددين في دينهم، فلم يحكم عليٌّ عليهم بما حكموا به عليه، بل قال لهم: إن لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدءونا.

وليس بعد هذا تسامح في الرأى، بل هو المثل الأعلى في التسامح. ولكنه كان مع قوم متنطعين في دينهم، لا يعرفون فضل التسامح عند الخلاف في الرأى، بل يأبون إلا أن يجعلوه وسيلة تقاطع وتدابر، فأصروا على تدابرهم وتقاطعهم، وأبوا إلا التمادى في غيهم، فسلطوا عليه عبد الرحمن بن ملجم فطعنه غيلة، وقد جمع عليٌّ أولاده قبل أن تفيض روحه، فأمرهم أن يطيِّبوا طعام قاتله، ويليِّنوا فراشه، فإن يعش فهو ولى دمه، عفو أو قصاص، وإن يمت ألحقوه به ليخاصمه عند ربه، ثم نهاهم أن يعتدوا عليه أو يمثلوا به، وإنه ليمضى في ذلك الإنصاف لمن يخالفه مع طعنه له هذه الطعنة القاتلة، فيوصى بتطييب طعامه، ويوصى بإلانة فراشه، ويوصى بعدم التمثيل به عند قتله به، ليكون لنا في حياته ومماته أعلى مثل في الجمع بين الاستمساك بالرأى وإنصاف المخالف، فرحمه الله من إمام للمنصفين في الخلاف، وقدوة للمتسامحين في الدين؟

الأصول الدينية للفنين الإسلامي والفارسي

لحضرة الاستاذ أحمد محمـــد عيسى

أمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

— ٢ —

[عرض الكاتب فى القسم الأول من هذا المقال إلى التعريفات المختلفة للفن الإسلامى ، وناقش كل واحد من تلك التعريفات ، وبين أوجه الخطأ والصواب فى كل منها . ثم تكلم فى اختصار عن حياة العرب قبل الإسلام وبعده ، وعن عناصر القوة فى تلك الحضارة وسر سيادتها وبقائها ، وعن الروح الحربى الذى اتصف به العـرب إبان فتوحهم ، ومدى فهمهم للحضارات القائمة من حولهم فى بلاد فارس وبلاد الروم ، وسعة صدورهم فى اقتباس ما لا يتنافى منها ودين الإسلام] .

[المترجم]

علينا هنـا أن نوضح الأسباب التى أدت إلى خلق فن إسلامى رائع ، فى وقت لم يسد الغربَ فيه سوى فن دينى ساذج . ولا أحب أن أُتهم بالدفاع عن العرب أو التحيز للإسلام ، بل أنصح من يشعر بذلك منى أن يقرأ ـ ولو قليـلا ـ فى تاريخ الحروب الصليبية ، فإنه سوف يمتلىء دهشة حين يتضح له أن الصليبيين أرادوا من وراء ادعائهم تحرير الأراضى المقدسة ، تحطيم حرية المسلمين أنفسهم ، وإجبارهم بحد السيف ـ لا بأساليب الإقناع المسيحية ـ على التحول عن الإسلام ، الذى نعموا فى ظلاله بالحرية المطلقه إلى دين آخر يقدس امتيازات الأقلية ويستعبد عامة الشعب استعباداً عقليا ، واقتصادياً قاسيا .

والأكثر من هذا ، أن الصليبيين ختموا كثيراً من انتصاراتهم بمذابح لارحمة فيها ولا هوادة . ولم يكفهم ما أنزلوه بأسرى الحرب من تقتيل ، بل تعدوا ذلك إلى الشيوخ والنساء والأطفال ، حتى زادت ضحايا يوم واحد عن الألف عداً ، وحدث على عهد الملك جفرى سنة ١٠٩٨ : أن شهدت شوارع بيت المقدس استشهاد عشرة آلاف نفس فى يوم واحد ، فضلا عن إحراق اليهود أحياء فى معابدهم . وكل ما عمله الصليبيون للتكفير عن آثامهم ، هو ذهابهم إلى الكنيسة لترتيل أناشيد الحمد والثناء على ذلك النصر المبين .

فلا عجب اذن ، أن اختفت أسباب الجمال من الحياة الأوروبية على حين دفعت مُثل الإسلام العليا إلى الاهتمام بالفنون ورعايتها ، حتى بدت الفنون الإسلامية فى غير حاجة إلى تحسين بعد قرون من نشأتها .

ولعل أسطورة انتشار الإسلام بحد السيف مصدرها عبارة « سيف الإسلام » التى لقب بها خالد بن الوليد قائد الحملات الإسلامية الأولى ، وهو الفاتح العظيم الذى اتصف بالتسامح والكرم والعقل .

والحق أن الإسلام دين تسامح وحرية ، لأنه لا يعترف بنظام الطبقات ، ولا يقر امتيازات المولد ، وليست له منظمات إكليروسية ، ولا سلطان اكليروسى . وتبدو تعاليم هذا الدين سهلة معقولة للمبتدئين فيه ، إذا قورنت بتعدد الآلهة الوثنية أو تعقد المذاهب المسيحية ، كما ينظر المسلمون إلى من عداهم نظرة استهانة ولكنهم على أية حال لا يفكرون مطلقاً فى اضطهاد من يقيم بينهم ، من أجل عقيدته ، ثم إنهم يرحبون بمن يدخل من هؤلاء فى الإسلام الذى لا يقر ألوهية المسيح ولا يعترف بضرورة التضحية بالنفس من أجل خلاص البشر .

وإنه من اليسير على ذوى المشاعر الرقيقة تقبل دين الإسلام والتسليم بشروط الايمان ، وأداء أركانه الخمسة ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأداء الصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، وإخراج الزكاة ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

ولا شك أن هذه المباديء السهلة ، هي السبب فى سرعة اعتناق العرب للإسلام وهي السبب فى انتشاره دون مقاومة كبيرة فى كثير من البلاد ، فعمرت القلوب بالإيمان وقوى الإحساس بالوحدة الدينية ، وسادت المعتقدات الطيبة بين أجناس متباينة ، وهو ما لم يحدث له مثيل من قبل . فلو أن الإسلام انتشر بحد السيف ـ كما يدعى البعض ـ لجاز أن يكون فى حكم العدم ، مانسميه اليوم « فناً إسلامياً » .

ولعل العرب هم المثل الوحيد الذى ترك أثرا قوياً فى الأقاليم التى سيطروا عليها من العالم ، ولا يزال أهل تلك الأقاليم متأثرين بما أخذوه عن العرب ، سواء فى مظاهر حياتهم وعاداتهم ، أم فى دينهم ولغتهم وحروف الكتابة عندهم .

نشأ الفن الإسلامى فى رعاية أهل الصحراء ، الذين لم يكن لهم من ألوان الفنون سوى نظم الشعر وحبك قوافيه ، بل لعلهم عجزوا ـ فى البداية ـ عن إدراك أى تعبير فنى آخر ، غير أنهم تأثروا كثيراً بما شهدوا من فنون الأمم الأخرى خلال عصر الفتوحات التى قاموا بها ، وبدا غريباً من هؤلاء الذين ظلوا أجيالا لا يتأثرون بما حولهم من حضارات زاهرة . أن يقبلوا إقبالهم الشديد على اقتباس كل ما يتفق وتعاليم الإسلام ، ومن هذا يتضح أن بلاد العرب ليست النبع الذى انبثق منه الفن الإسلامى ، وإنما تكوّن ذلك الفن من مختلف العناصر التى لم يسبق لها أن امتزجت مثل هذا الامتزاج القوى ، ولا أن انسجمت فى نغمة ذات تقاليد فنية ثابتة ، فالزخارف النباتية ـ وهى حركة أساسية فى الفن الإسلامى ـ اقتباس من الفن الفارسى ، والعقد والقبة معروفان فى العمارة من قديم الزمان ، والمحراب المجوف مأخوذ عن « الشرقية » المعروفة فى الكنائس القبطية ، والأمثلة كثيرة على ماهو مستمد من الفن البيزنطى وغيره من الفنون .

وفيما عدا ما أخذ العرب عن الفن البيزنطى ـ عن طريق الفنانين والصناع البيزنطيين ـ لم تستطع أوروبا أن تقدم للعرب شيئا يمكن اقتباسه أو المساهمة به فى فن جديد خاضع لأصول دينية معينة ، وإحساسات شرقية خاصة . وعلى الرغم مما تنبهت إليه أذهان العرب من مشاهد بلاد الغرب ، فإن معايير الجمال الأوروبى لم تجتذبهم إليها بل ظلوا ـ منذ عصر الفتوحات ـ يضعون الصين فى المرتبة الفنية الأولى بين أمم العالم .

والواقع أن تطور الفن الإسلامى وانتشاره فى بلاد تمتد أكثر من ستة آلاف ميل وفى زمن يقل عن قرن من الزمان ، ليس مرده إلى سلطان العرب الحربى وقوتهم العسكرية ، بل إلى الأفكار المثالية التى دلت دائما على أنها أبلغ أثراً من سلطان الجيوش ، ونعود فنقول إنه لو كان إنتشار الإسلام بحد السيف ، لما قدر لتأثيره وفنونه أن يستمرا أكثر من جيل أو جيلين، ولما وجدنا مادة خصبة لموضوع هذا الحديث

وقد اقتصرت الأعمال الفنية فى بداية الأمر على ما أنشأه المسلمون من مساجد ، إذ اشتدت حاجة الناس - أول عهدهم بالإسلام - إلى دور للعبادة فى كافة بلاد الامبراطورية العربية المترامية ، ويمكن القول إن الناس أتموا ما احتاجوا اليه من تلك المساجد فى سرعة فائقة ، ثم ان العرب حولوا - بطريقة تتفق ومطالب الإسلام - عدداً من الكنائس الى مساجد ، ونذكر أن عددا من الكنائس كان قبلا معابد وثنية ، ثم زادت حركة التعمير والبناء وأخذ الفنانون والصناع والعمال ينتقلون من مكان الى مكان ، وينفضون أيديهم من عمل تم الى مشروع يراد إتمامه حاملين معهم أصولا فنية مقررة ، صارت طرازا واضح المعالم على مر العصور ، ثم أخذ كثير من العرب الفاتحين - الذين عاشوا رحلا فى بلادهم - يتنقلون فى أرجاء امبراطوريتهم ، إثر تخلصهم من الضغط الاقتصادى الذى استحكم فى شبه الجزيرة ، واقتبس هؤلاء فيما اقتبسوه صورا ورسوما كلامية وفنية ، أعانت على نشر الفن الإسلامى ، وأدت فى النهاية الى وحدته .

ويعتبر حب العرب للجمال ، القوة الأولى الدافعة للفن الاسلامى ، ثم أخذ هذا الفن عن الفرس روعة الشكل ، وبهجة اللون ، وبفضلهما بلغ ما بلغ من تنوع داخل نطاقه العام ، وهذا التنوع ذاته أحد الخصائص القوية التى يمتاز بها الفن الإسلامى.

ولأول مرة - عقب فتح فارس سنة ٦٣٦ - ٦٤١ هـ اتصل العرب اتصالا وثيقا مباشرا بشعب على جانب كبير من الحضارة ، ويعد دخولهم المدائن - وهى العاصمة الكبرى لملوك ساسان - حادثاً هاماً بالنسبة لهم وبالنسبة للعالم كله ، ورأى العرب النعمة وفيرة وحياة الناس يسيرة ، على غير عهدهم ببلادهم ، فالطعام كثير ،

والدعة شاملة ، والثقافة يانعة والرفاهية لا عهد لهم بها ، إلا فيما سمعوه عن الترف البيزنطى .

ولا غرابة أن تغدو هذه المرحلة بداية تحول خطير فى تاريخ العرب . على أنه إذا كان من المحتمل أن يجنح العرب إلى تحطيم ما لم يستطيعوا حمله من مغانم البلاد المفتوحة ـ كما يفعل الغزاة عادة ـ فإنهم لم يلجئوا فعلا إلى تلك الوسيلة ، وإن ظل ما استولوا عليه ، مما خف حمله وعظم شأنه ، غير معروف لدينا تماما .

وعلى الرغم من إعجاب العرب الواضح بالحضارة الفارسية ، فإن طموحهم المعروف دفعهم إلى أن يخلقوا لأنفسهم حضارة خاصة بهم ، وإن كان إحساسهم بالعجز عن مواجهة مشكلة حكم شعوب تفوقهم ثقافة وتنظيما ، جعلهم يجتهدون فى مسالمة تلك الشعوب ، بأن أدخلوا فى خدمتهم رجالها من الشعراء والفنانين والصناع ، فسنحت بذلك فرصة جديدة لازدهار الآداب والفنون الفارسية ، حتى أضحت نفسها جزءا من الفن الإسلامى .

على أنه ليس معروفا على وجه التحديد ، الدور الذى لعبه الفرس فى بلاط الأمويين بدمشق ، وإن كان من المعروف جيداً أنهم شغلوا معظم المناصب الإدارية والثقافية الخطيرة مدة قرنين أو ثلاثة من حكم العباسيين فى بغداد ، أى إن نفوذهم بقى إلى أن استولى عليها هولاكو حفيد جنكيزخان ، ولا شك أنهم كانوا عاملا رئيسياً فى نمو مدرسة فنيه جديدة يطلق عليها « فن ما بعد الساسانى » ، وهو الفن الذى نشأ بعد زوال الساسانيين وأوائل عهد المسلمين ، والذى لم يبق لنا منه ـ لسوء الحظ ـ إلا القليل .

[للبحث بقية]

أنباء وآراء

شيخ الإسلام :

قبيل مطلع العام الهجرى الماضى (سنة ١٣٧٠) أسندت مشيخة الأزهر الجليلة إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، وقبيل مطلع العام الهجرى الحاضر (سنة ١٣٧١) عُزِل فضيلته من هذا المنصب ، فكانت مدته فيه قرابة أحد عشر شهرا .

ولقد استبشر الناس خيراً حين أسند إلى فضيلته هذا المنصب ، واستبشروا خيراً حين عزل منه ، ولعل هذا الكلام يبدو عجيباً ، ولكنه الحقيقة الواقعة التى لا تهويل فيها ولا تخييل .

استبشروا خيراً بإسناد منصب المشيخة إليه لأنهم يعرفونه مؤمنا حق الإيمان غيوراً على الدين والعلم غيرة تشبه غيرة السلف الصالح من المؤمنين الأولين ، داعياً إلى الله بقوله وفعله ، واسع الأفق لا يحده من القيود إلا ما قيد الله به المؤمنين من اتباع كتابه ، وأن يحذروا المخالفة عن أمر رسوله ، يعيش لأفكاره ومُثُله وخدمة دينه وأمته ، لا للمال ولا للجاه ولا للمناصب ، فلا عجب أن يستبشروا بمقدمه شيخاً للأزهر ، وأن يرُجوا على يديه الدين والعلم وهذا الجامع العتيق خيرا وصلاحا واستقامة على سنن الرشاد والهدى ، وأن يقولوا : رجلٌ آمن بالإصلاح على أساس الدين والعلم والخلق قد أتيح له ـ مع الزعامة الفكرية ـ أن يتولى مكان القيادة العملية ، فالخير به أقرب ، والنجح إليه أسرع .

ولذلك كان يرد إلى « دار التقريب » و « رسالة الإسلام » كثير من الكتب والرسائل والصحف المنشورة من مختلف شعوب الأمة الإسلامية ، تفيض ترحيباً بفضيلته ، وإعراباً عن الثقة به ، والأمل فيه ، وتطلعاً إلى عهده على أنه إيذان بانقشاع ظلمات الجهالة والتعصب وإيثار الأهواء ، وإشراق نور العلم والفضيلة والتعاون على البر والتقوى ، ليعود إلى الإسلام مجده ، وتكون كلمة الله هى العليا .

واستبشروا خيراً حين عُزل ، لأن فضيلته أثبت فى وضوح وجلاء أنه لم يَبطَر بهذا المنصب ، ولم يؤخذ به عن دينه وخلقه ، فظلت له صفاته التى عهدها الناس فيه ، وزاد عليها أنه ضرب لأهل العلم مثلا عملياً رائعا فى الثبات على الحق والتضحية فى سبيله بالمنصب والجاه والنفوذ والمال الكثير الرتيب .

لقد كان فضيلته يستطيع أن يعيش فى جاه منصبه وسلطان مشيخته بقية عمره ، ولكن ذلك كان يكلفه ماضيه الشريف وإيمانه الذى لم يزلزله شىء منذ عرف الله ربا ، ومحمداً صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا ، والقرآن هادياً وإماما . كان يكلفه عزته وكرامته ويحيله على كرسيه جسداً لا يُؤْبه له ، ولا يُرْجى الخير منه ، بل كان يكلفه « عبد المجيد سليم » وما « عبد المجيد سليم » فى تاريخ الأزهر والإسلام إلا اسم من الأسماء الخالدة بالإيمان والعلم والخلق الكريم ، فهل كانت مشيخة الأزهر تساوى هذا كله حتى يُضَحَّى فى سبيلها بهذا كله ؟ لا ورب البيت !

لهذا فرح المؤمنون بانتصار رجل الإيمان والعلم والخلق حين أخرج من منصبه الفانى بعد أن تعذر إخراجه من صفاته الخالدة ، وإن هذا لهو الفوز العظيم .

وإن « رسالة الإسلام » لتتوجه إلى فضيلته بكلمة تعتقد أنها تعبر عما تكنه قلوب المؤمنين جميعاً :

هنيئاً لك ـ يا صاحب الفضيلة ـ أنك كتبت فى تايخ التضحية فى سبيل الله صفحة جديدة خالدة ، وهنيأ لك أنك جددت فى الأزهر صرحاً كان وقد عفَّ عليه القدم حتى درست آثاره وامَّحت معالمه هو صرح الكرامة والعزة الذى يجب

أن يتحصن به رجل الدين ، وإذا كنت الآن لم تعُد « شيخ الأزهر » فإنك مازلت وستبقى إن شاء الله ما حييت « إمام العلماء » و « شيخ الإسلام » ، « وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

كبير علماء الشيعة بإيران :

عرف القراء مما نشرناه فى باب الأنباء والآراء فى العدد الماضى ، أن حضرة صاحب الفضيلة العلامة الأكبر الحاج أقا حسين بروجردى كبير علماء الشيعة بإيران قد ألم بصحته الغالية طارىء من المرض شغل بال المسلمين ورجال العلم والدين ، وجعلهم يتوجهون إلى الله جلت قدرته أن يعجل له بالشفاء ، ويحفظه ذخراً للأمة .

ويسرنا أن نعلن أن فضيلته قد شفى من مرضه والحمد لله ، وأنه استطاع أن يقيم دروسه العلمية الاجتهادية بمدينة قم ، وأن يستأنف نشاطه فى القيام بشئون مركزه الدينى العلمى الكبير .

أدام الله لفضيلته نعمة الصحة والعافية ، وجزاه عما يقدم لدينه وأمته خير الجزاء .

منهاج عملى للتقريب :

نشرنا فى هذا العدد بحثاً قوياً مستفيضاً لحضرة صاحب الفضيلة العلامة الجليل الشيخ محمد صالح الحائرى المازندرانى .

وقد تفضل فضيلته بإرسال هذا البحث إلى ﴿ رسالة الإسلام ﴾ قبل صدور العدد الثالث ، وكان من الممكن أن نبدأ بنشره مقسطاً على عدة أعداد ، ولكننا آثرنا أن ننتظر به هذا العدد لننشره مرة واحدة ، فقد وجدنا فيه علماً غزيراً ، وآراء جديرة بالتقدير ، وتحرراً من التعصب المذهبى إلى حد بعيد ، وقد رغب إلينا فضيلته فى نشره كاملا بحروفه ، وأن نفسح له المجال ولو أدى ذلك إلى تأجيل بعض ما لدينا من المواد .

ونحن نعتذر لفضيلته عن تأخير نشر هذا البحث القيم فى العدد الماضى ، ونعتذر لكتابنا الكرام عن تأخير نشر ما كتبوه إلى العدد المقبل ، واثقين من أنهم جميعاً لا يشكون فى شرف غايتنا ، وحسن نيتنا ، وبالله التوفيق .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

جـ ـ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشاً مصرياً

وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ١ ليرة إنجليزية

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٢